

إنسان بعمر ٢٥٠ سنة



أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة

 www.islamiccoa.com/lms

 +989217854824



أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة

 www.islamiccoa.com/lms

 +989217854824

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمام الخامنئي دام ظله

إنسان بعمر ٢٥٠ سنة

نصوص الإمام السيد علي الخامنئي دام ظله

في الحياة السياسية والجهادية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام



الكتاب:	إنسان بعمر ٢٥٠ سنة
نشر:	جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد الإلكتروني:	شبكة المعارف الإسلامية_www.almaaref.org
الطبعة الثانية:	٢٠١٥م - ١٤٣٧هـ
جميع حقوق الطبع محفوظة ©	

الفهرس

٩	المقدمة
١٣	مدخل
٢٧	الفصل الأول: النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم
٢٩	تمهيد
٣١	بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم وإرساء قواعد النظام
٤٩	حماية النظام الإسلامي
٦٥	تثبيت النظام الإسلامي
٧٥	الفصل الثاني: الإمامة
٧٧	الإمامة في الفكر الشيعي
٨٥	المراحل الأربع لمسيرة الإمامة
٩١	الفصل الثالث: الإمام علي عليه السلام
٩٣	مدرسة الإمام علي عليه السلام
١٠١	مرحلة السكوت والتعاون
١٠٧	مرحلة الخلافة
١٢١	القدرة والمظلومية والنصر
١٣٥	الفصل الرابع: السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام
١٣٧	المكانة المعنوية للزهراء عليها السلام
١٤٧	حياتها عليها السلام الجهادية والسياسية
١٥١	حياتها عليها السلام العلمية والعبادية

١٥٥	الفصل الخامس: الإمام الحسن المجتبي عليه السلام
١٥٧	أعظم هدنة في التاريخ
١٧٥	صراع الحق والباطل
١٩٣	الفصل السادس: الإمام الحسين عليه السلام
١٩٥	مخاطر المرحلة ووسائل المواجهة
٢٠١	أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام
٢٠٩	منطلقات الثورة وثمارها
٢٢١	الفصل السابع: حركة السيدة زينب الكبرى عليها السلام وأحداث ما بعد كربلاء
٢٢٣	ملحمة زينب الكبرى عليها السلام
٢٣٥	حركة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر
٢٤١	الشيعة بعد حادثة كربلاء
٢٥٣	الفصل الثامن: الإمام السجّاد عليه السلام
٢٥٥	الظروف الاجتماعية والسياسية
٢٦٧	أهداف حركة الإمام السجّاد عليه السلام
٢٧٣	الإمام السجّاد عليه السلام وتحليلات المواجهة السياسية
٢٨١	تحذير الخواص من الدنيا والرفاهية
٢٨٩	تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمة عليهم السلام
٢٩٧	مواجهة الإمام عليه السلام مع علماء البلاط
٣٠٩	الفصل التاسع: الإمام الباقر عليه السلام
٣١١	مرحلة البناء الفكري والتنظيمي
٣٢٧	إحضار الإمام الباقر عليه السلام إلى الشام

٣٤٣	الفصل العاشر: الإمام الصادق عليه السلام
٣٤٥	الغموض الذي لفَّ حياة الإمام الصادق عليه السلام
٣٥٧	دعوة الإمام الصادق عليه السلام للإمامة
٣٦٥	المواجهة السياسيّة عند الإمام الصّادق عليه السلام
٣٧٣	التشكيلات السريّة الأيديولوجية والسياسيّة
٣٨٥	الفصل الحادي عشر: الإمام الكاظم عليه السلام
٣٨٧	ظروف تولّي الإمام الكاظم عليه السلام للإمامة
٣٩٣	السّعي دون كللٍ واعتماد أسلوب التقيّة
٣٩٩	جهاد الإمام عليه السلام ومعارضته لحكم هارون
٤١١	الفصل الثاني عشر: الإمام الرضا عليه السلام
٤١٣	الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد
٤٢١	خطة الإمام الرضا عليه السلام لمواجهة المأمون
٤٢٩	شهادة الإمام الرضا عليه السلام
٤٣٣	الفصل الثالث عشر: الإمام الجواد عليه السلام – الإمام الهادي عليه السلام – الإمام العسكريّ عليه السلام
٤٣٥	الإمام الجواد عليه السلام وبيان الحرية
٤٣٧	مواجهة الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام للسلطة
٤٥١	الفصل الرابع عشر: الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
٤٥٣	غاية حركة إنسان بعمر ٢٥٠ سنة
٤٦١	خصائص المجتمع المهدي
٤٦٩	مسؤوليتنا في عصر غيبة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين وبعد
هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المحاضرات والخطب والكتابات التي ألّفها ودوّنها الإمام الخامني دام ظله في سيرة
وتاريخ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام، تمّ جمعها وتنسيقها وتبويبها بحيث تحقّق الهدف
والغرض من طرح فكرة هذا الكتاب الجديدة والإبداعية، فقد كان أوّل طرح لهذا المفهوم الكبير والمتقدّم بعنوان "إنسان
بعمر ٢٥٠ سنة" من قبل الإمام الخامني دام ظلّه في المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام عام ١٩٨٦ م.

والكتاب الحاضر، قبل أن يكون كتابًا تاريخيًا صرفًا، هو متنٌ تحليليٌّ تاريخيٌّ، يتضمّن بالإضافة إلى السرد والشرح
التاريخي لوقائع من حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام، طرح وبيان رؤية تحليليّة كليّة
لحياة كلّ معصوم بالنظر إلى المسار التاريخي لمرحلة إمامته، وفي إطار رؤية متكاملة ومترابطة مع باقي الأئمة الأطهار
عليهم السلام، بحيث غدت سيرتهم



الجهادية بمثابة عرض منسجم ومترابط لحركة واحدة متّصلة ومتواصلة نحو مقصدٍ واحدٍ وغرضٍ مشخص.

وهو يهدف بشكلٍ أساسٍ إلى تكوين رؤية واضحة عن الحياة السياسيّة للأئمة الأطهار عليهم السلام، وإلى تسليط الضوء والبحث عن عنصر الجهاد والمواجهة السياسيّة التي اتّسمت بها حياتهم المباركة، والمقصد الحقيقي الذي كانوا يرومون الوصول إليه.

والفكرة المركزيّة التي تبني عليها هذه الرؤية هي النظر إلى الأئمة عليهم السلام على أنّهم شخصٌ واحدٌ يحيا بأهداف واضحة ومحدّدة على المستوى المرحليّ والاستراتيجيّ، يسعى دون كللٍ أو مللٍ للوصول إلى هذه الأهداف، والتي هي نفسها أهداف هذا الدّين الحنيف والرّسالة المحمّديّة الأصيلّة. وقد امتدّت حياة هذا الإنسان على طول حياة الأئمة عليهم السلام، أي من سنة ١١ للهجرة حتّى عام ٢٦٠ للهجرة، ليكون إنساناً بعمر ٢٥٠ سنة، ومن هنا اقتبس عنوان هذا الكتاب، من كلمات القائد نفسه.

في الختام لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حجم الكلام الذي صدر عن الإمام الخامنّي في الأبعاد المختلفة لحياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام وخاصّة حياة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام أمير المؤمنين والإمام الحسين عليه السلام وكذلك في دائرة السيرة الشخصيّة لكلّ واحدٍ من المعصومين عليهم السلام أكثر بكثير من المقدار الوارد في هذا الكتاب. وعليه يمكن اعتبار هذا الكتاب مقدّمة أساس ودياجة مفيدة للدّخول إلى المعارف الأساس والأصيلّة في حياة المعصومين عليهم السلام والواردة في كلمات الإمام الخامنّي دام ظله وخطاباته.



ولا يسعنا في التّهاية إلا أن نتقدّم بجزيل الشكر والامتنان إلى جميع الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل وترجمته إلى اللغة العربيّة.

ولا بد من الإشارة في مقدّمة هذه الطبعة (الثانية) إلى أنّنا قد أجرينا الكثير من التصحيحات المضمونية، نتيجة التدقيق في ترجمة العديد من الموارد والنصوص، وإعادة تحرير وصياغة موارد أخرى، ما يعني رفع الخلل الذي ورد في بعض الموارد في الطبعة الأولى.

الحمد لله رب العالمين
مركز نون للتأليف والترجمة

مدخل

إنَّ غربة الأئمة عليهم السلام لم تقتصر على الفترة الزمنية التي عاشوها في حياتهم، بل استمرّت لعصورٍ متتالية من بعدهم. والسبب في ذلك يرجع إلى إهمال الجوانب المهمة بل والأساس من حياتهم. ومن المؤكّد أنّ هناك كتبًا ومؤلفاتٍ كثيرة قد حظيت بمكانة رفيعة لا نظير لها، وذلك لما حملته في طياتها من روايات تصف حال الأئمة عليهم السلام، ولما نقلته للأجيال المتعاقبة من أخبار تصف سيرتهم، ولكنّ عنصر المواجهة السياسيّة الحادّة، والتي تُمثّل الخطّ الممتد لحياة أئمة الهدى عليهم السلام طيلة ٢٥٠ سنة، قد ضاع في طيّات الروايات والأحاديث، وذكر الأحوال النّازرة إلى الجوانب العلميّة والمعنويّة.

يجب علينا أن ننظر إلى حياة الأئمة عليهم السلام كدرسٍ وأسوة، لا كمجرد ذكريات قيّمة وعظيمة حدثت في التاريخ. وهذا لا يتحقّق إلّا بالاهتمام والتركيز على المنهج والأسلوب السّياسيّ من سيرة هؤلاء العظماء عليهم السلام. أنا شخصيّاً عندي رغبة شديدة في الاطّلاع على هذا الجانب المهمّ من



حياتهم. وأول مرة شعرت بأهمية هذه المسألة كان عام ١٣٥٠هـ.ش (١٩٧١م) أي في مراحل المحنة التي سبقت الثورة. ومع أنني قبل تلك الفترة كنتُ أنظر إلى الأئمة عليهم السلام بعنوان أنهم شخصيات مجاهدة ومكافحة لإعلاء كلمة التوحيد وإقامة الحكومة الإلهية، إلا أن النقطة المهمة التي وصلتُ إليها في تلك الفترة هي أنه على الرغم من الاختلاف الظاهري بين سيرهم عليهم السلام (حتى أن بعض الناس ليشعر بالاختلاف الشاسع والتناقض فيها)، إلا أنها عبارة عن مسيرة واحدة استمرت ٢٥٠ سنة ابتداءً من سنة ١١هـ.ق. إلى ٢٦٠هـ.ق. أي انتهت ببداية الغيبة الصغرى للإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

هؤلاء العظماء كانوا شخصاً واحداً. ولا ينبغي الشك بأن هدفهم هو واحد. ولذلك فإننا وبدل أن ندرس حياة كلٍّ من الإمام الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام والسجاد عليه السلام بصورة منفصلة عن الأخرى، حتى لا نقع في فخ هذا الخطأ الخطر من وجود التناقض والتعارض بين سيرة هؤلاء الأئمة الثلاثة بسبب وجود هذا الاختلاف الظاهري، يجب أن نفرض وجود إنسان عمّر ٢٥٠ سنة، وفي سنة ١١ للهجرة وضع أول قدم له على الطريق، حتى قطعه عام ٢٦٠ للهجرة.

عندها سوف تُصبح كل حركات هذا الإنسان، العظيم والمعصوم، قابلةً للفهم والتفسير وفق هذا المنظار. فإن أي إنسان يملك شيئاً من العقل والحكمة، ولا نقول يملك شيئاً من العصمة، تكون له تكتيكات ومواقف موضوعية خاصة خلال حركته البعيدة المدى. وقد يجد هذا الإنسان أنه من الضروري أن يُسرّع في حركته تارةً، وأن يُبطئ تارةً أخرى، أو حتى



أن يتراجع تراجعًا حكيماً في مواضع أخرى. والإنسان العاقل والحكيم والعارف سيرى في هذا التراجع، بالنظر لهدف هذا الإنسان، حركة وتقدماً نحو الأمام.

من هذا المنظار تُعتبر حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، والإمام المجتبي عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، والأئمة الثمانية المعصومين عليهم السلام من ولدهم، حركة واحدة ومستمرة حتى سنة ٢٦٠ للهجرة. وقد التفتُّ في تلك السنة (١٩٧١م) إلى هذا الأمر، ودخلتُ في دراسة حياتهم، من هذا المنظار، وعادْتُ النَّظْرَ مرَّةً أخرى وكلَّما توغلَّت وحدث أنَّ هذه الفكرة صائبة. إنَّ الالتفات إلى الحياة المستديرة لهؤلاء المعصومين والعظماء من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالتَّلازم مع التوجُّه السياسي، يستحقُّ أن يُفرد له فصلٌ خاصٌّ مستقلٌّ، وقد قرَّرتُ القيام بهذا الأمر. وإن شاء الله أرغب بالحديث عن هذه الجملة بشيءٍ من الشَّرح والتفصيل.

أولاً: ماذا نقصد عندما ننسب المواجهة السياسيَّة أو التَّضال السياسيَّ الحادَّ للأئمة عليهم السلام؟ إنَّ المقصود من هذا الكلام هو أنَّ جهاد الأئمة المعصومين عليهم السلام لم يكن منحصرًا بالجهاد العلميَّ والعقائديَّ والكلاميَّ، من قبيل التَّزاعات الكلاميَّة التي تُشاهدونها عبر كلِّ تلك الفترة من تاريخ الإسلام، مثل التَّزاع بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلم يكن هدف الأئمة عليهم السلام، من اجتماعاتهم العلميَّة وحلقات دروسهم والأحاديث ونقل المعارف الإسلاميَّة وبيان الأحكام، أن يُثبتوا مدرستهم الكلاميَّة أو الفقهيَّة



ويفحّموا خصومهم فحسب، بل كان هدفهم أبعد من ذلك. كما لم تكن مواجهتهم مواجهة مسلّحة، كما كان الحال في عهد زيد والذين جاؤوا من بعده، أو في عهد بني الحسن وبعض آل جعفر وغيرهم من الذين مرّوا في حياة الأئمّة عليهم السلام. بالطبع، إنّ الأئمّة عليهم السلام لم يخطّئوا هذه التحركات بصورة مطلقة، وحكمهم على بعض منها بالخطأ لم يكن بداعي كونها حركات مسلّحة وإنّما لأسبابٍ أخرى مختلفة. لذا نجد أنّ مواقف الأئمّة عليهم السلام كانت مؤيّدة لهذه الحركات في بعض الأحيان، بل واشتركوا في بعضها، بصورة غير مباشرة، عن طريق المساعدات التي كانوا يُقدّمونها للثورة. ومن الجدير الالتفات إلى حديث الإمام الصادق عليه السلام الذي يقول: "لوددت أنّ الخارجي يخرج من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ نفقة عياله"^١: كالتفقات المائيّة وتقديم العون المعنويّ، والدّعم في تقديم الملاحيّ والمخابي وأمثالها. إلّا أنّ الأئمّة عليهم السلام أنفسهم، تلك السّلالة التي نعرفها، لم يخوضوا في مثل هذه المواجهات المسلّحة أو يشتركوا فيها بشكلٍ مباشر. إنّ الجهاد السياسيّ، لا ذاك الأوّل ولا الثّاني، عبارة عن مواجهة ذات هدفٍ سياسيّ. فما هو ذاك الهدف السياسيّ؟ هو عبارة عن تشكيل "حكومة إسلاميّة" وبحسب تعبيرنا "حكومة علويّة".

فكان سعي الأئمّة عليهم السلام ومنذ وفاة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وحتى عام ٢٦٠ هـ.ق. هو إيجاد وتأسيس حكومة إلهيّة في المجتمع الإسلاميّ، وهذا هو الأصل المدّعى. ولا نستطيع القول أنّ كلّ إمام كان بصدد تأسيس حكومة في

^١ العلامة المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثّانية، ١٤٠٣ هـ، ج ٤٦، ص ١٧٢.

زمانه وعصره، ولكن كان كلّ إمام يهدف إلى تأسيس حكومة إسلاميّة مستقبلية، كان ذلك في المستقبل البعيد أو القريب. لقد كان هدف الإمام المجتبي عليه السلام، مثلاً، تأسيس حكومة إسلاميّة في المستقبل القريب، فقله عليه السلام: "قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾"^٢، في جوابه للمسيّب بن نجبة وآخرين، عندما سألوه عن سبب سكوته، هو خير دليل وإشارة إلى هذا المستقبل، وأمّا الإمام السجّاد عليه السلام، وبحسب اعتقادي، فقد كان يهدف إلى تأسيس حكومة إسلاميّة في المستقبل المتوسط، ولدينا شواهد في هذا المجال نذكرها فيما بعد، ويوجد احتمال كبير أنّ الإمام الباقر عليه السلام قد سعى لتأسيس حكومة في المستقبل القريب، وأغلب الظنّ أنّ الأمر، بعد شهادة الإمام الثامن عليه السلام، بات متوجّهًا إلى المدى البعيد. إذًا، إنّ هدف تأسيس الحكومة كان دومًا نُصب أعين الأئمة عليهم السلام، لكنّ الزمن المنشود لتأسيسها وقيامها كان يختلف من إمام إلى آخر. وهذا هو معنى النضال السياسيّ.

فكلّ الأعمال التي كان يقوم بها الأئمة عليهم السلام، غير تلك الأعمال المعنويّة والروحانيّة التي كان لها علاقة بتكامل الإنسان وقربه من الله، بينه وبينه ربّه، من دراسة وعلم وحديث وكلام، ومناظرات ضدّ الخصوم العلميّين والخصوم السياسيّين، والنفي، وحماية جماعة والوقوف في وجه أخرى، كلّها تصبّ في هذا الخطّ، ألا وهو تأسيس الحكومة الإسلاميّة. هذا هو المدعى.

(١٩٨٦/٠٧/١٩)

^٢ سورة الأنبياء، الآية ١١١.
^٣ بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٣٥٤.



فهل كان للأئمة عليهم السلام حياة سياسية أصلاً أم لا؟ هل كانت حياتهم عبارة عن جمع مجموعة من التلامذة والمريدين والمحبين حولهم من أجل أن يُبينوا لهم أحكام الصلاة والزكاة والحج والأخلاق الإسلامية والمعارف والأصول الدينية والعرفان وأمثالها فحسب؟

لقد كان هناك أشياء أخرى غير التي ذكرت، وهناك إطار آخر في قلب وروح ما ذكر في حياة الأئمة، وهو عبارة عن تلك الحياة السياسية، فهذا أمر مهم جداً، ومطلب ينبغي أن يتضح. بالطبع، لا مجال للبحث الاستدلالي والمفصل في الفرص القصيرة. فأنا العبد، أعرض لرؤوس المطالب، على أمل أن يقوم أولئك الذين يمتلكون الرغبة بمتابعة هذه القضية.

نحتاج في هذا الإطار إلى أن ننظر في الروايات مرة أخرى ونتأمل في كتب التاريخ، وعندما سنعلم ما هي حقيقة حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أو أئمتنا الآخرين عليهم السلام، التي ما زالت إلى يومنا هذا غامضة وغير مذكورة أو معروفة.

بعد أن لوحظ في محيط الإمامة ومحيط أهل البيت أن هدف النبي لم يتحقق أي ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وبعد أن رأى الأئمة عليهم السلام، بعد عصر صدر الإسلام، أن تشكيل نظام إسلامي وتحقيق عالم إسلامي كما أراده الأنبياء قد تم نسيانه بالكامل، وأن الملكية قد حلت مكان النبوة والإمامة، وأن الكسريين والقيصرية والطواغيت الإسكندرانيين (نسبة للإسكندر) وغيرهم، من المعروفين بالظلم والطغيان

٤ سورة آل عمران، الآية ١٦٤.



عبر التاريخ، قد سيطروا ولبسوا لباس الخلافة باسم سلالة بني أمية وبني العباس، وأنّ القرآن أضحى يُفسّر كما يريد أصحاب الملك والقدرة، وأنّ أذهان الناس قد وقعت تحت تأثير العمل الخيائيّ لأولئك العلماء الذين جلسوا على معلف المطامع والتعلّقات الماديّة للحكّام والملوك، فبعد أن رأى الأئمة عليهم السلام كلّ ذلك، ظهرت خطّة عامّة في حياتهم.

ونحن عندما نقول الأئمة نقصد بذلك جميع الأئمة، من أمير المؤمنين وحسبي الإمام العسكريّ عليهم السلام. وكُنْتُ، أنا العبد، قد ذكرتُ مرارًا أنّه علينا التّظر إلى حياة الأئمة عليهم السلام، والتي استمرّت لمُدّة ٢٥٠ سنة، كحياة إنسانٍ واحدٍ، إنسانٍ عاش لـ ٢٥٠ سنة، فلا ينفصلون عن بعضهم بعضًا، كلّهم نورٌ واحدٌ. فأَيّ واحدٍ منهم يتفوّه بكلمة، تكون هذه الكلمة في الحقيقة قد جرت على لسان غيره من الأئمة، وأيّ واحدٍ منهم يقوم بعملٍ ما، فإنّ هذا العمل يكون في الحقيقة صادرًا عن غيره من الأئمة، وكأنّ هناك إنسانًا عاش ٢٥٠ سنة. فجميع أعمال الأئمة، وطيلة الـ ٢٥٠ سنة، هي عمل إنسانٍ له هدفٌ واحدٌ ونيّةٌ واحدة وتكتيكات مختلفة.

عندما شعر الأئمة عليهم السلام أنّ الإسلام صار غريبًا وأنّ المجتمع الإسلاميّ لم يتشكّل، وضعوا عدّة أهدافٍ أساس لهم، إحداها: تبين الإسلام بالصّورة الصّحيحة. فالإسلام بنظر أولئك، الذين كانوا على رأس السّلطة طيلة هذه السّنّوات المتمادية، هو أمرٌ يُعارض (مطامعهم). فإسلام النبيّ وإسلام القرآن وإسلام معركة بدر وحنين والإسلام

° بحر الأنوار، ج ٢٦، ص ١٦، وراجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام، ترجمة غفاري، ج ٢، ص ٤١٧.

الَّذِي يُعَارِضُ الارستقراطية والتمييز الطبقيّ والإسلام الَّذِي ينصر المستضعفين ويقمع المستكبرين، لا يُمكن أن يكون في مصلحة أولئك الَّذِينَ يريدون أن يرتدوا اللباس الموسويّ بالحقيقة الفرعونية واللباس الإبراهيميّ بالحقيقة النمرودية، فكانوا مضطرينّ لتحريف الإسلام. ولما لم يكن بالإمكان إبعاد الإسلام دفعةً واحدة عن قلوب النَّاس وأذهانهم، لأنَّ النَّاس كانوا مؤمنين به، اضطروا إلى أن يُبدِّلوا الإسلام من حيث الرُّوح والماهيّة وأن يُفرِّغوه من محتواه.

ففي العصر البائد، لم يكن هناك مخالفة للمظاهر الإسلاميّة، ولكنَّ الأمر لم يكن كذلك فيما يتعلّق بمضمون الإسلام وروحه وجهاد الإسلام والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الإسلاميين وبيان الحقائق الإسلاميّة، فهم لم يُعارضوا المظاهر الإسلاميّة الّتي لا تضرّ مصالحهم. ومثل هذه الحالة كانت حاصلة في زمن الخلافة الأمويّة والعباسيّة، لهذا ومن أجل أن يُفرِّغوا الإسلام من روحه وحقيقته، استأجروا مجموعة من المرتزقة من أصحاب القلم واللسان ليختلقوا الأحاديث وكانوا يغدقون عليهم الأموال من أجل أن يخترعوا لهم منقبة، أو يكتبوا لهم كتابًا. يُقال إنّه عندما هلك سليمان بن عبد الملك، قد شوهدت كُتُب فلان العالم الكبير، وقد وُضعت على ظهور الإبل والحيوانات وأُخرجت من خزانة سليمان بن عبد الملك. أي أنّ هذا الكاتب والمحدّث الكبير وهذا العالم المشهور، الَّذِي يُذكر اسمه في كلّ هذه الكتب الإسلاميّة، كان يؤلّف لسليمان بن عبد الملك. فهل تتوقَّعون من كتابٍ يؤلّف لسليمان بن عبد الملك أن يُذكر فيه ما لا يُرضي سليمان بن عبد الملك؟ فسليمان بن عبد الملك الَّذِي يظلم ويشرب الخمر

ويُصالح الكفار ويقمع المسلمين ويُميّز بين الناس ويُضيق على الفقراء وينهب أموال الناس، أيّ إسلامٍ سيُعجبه؟ لقد كان هذا هو المرض الكبير للمجتمع الإسلاميّ طيلة القرون الأولى. وقد شاهد الأئمة عليهم السلام هذه الأمور وشعروا أنّ تراث النبيّ العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، أيّ الأحكام الإسلامية التي ينبغي أن تبقى على مَرّ التاريخ وتهدّي البشرية في كلّ عصوره، أضحت عرضةً للتّحريف. وكان من أهداف الأئمة الأساس التبيين الصّحيح للإسلام والتفسير الحقيقيّ للقرآن، وكشف تلك التّحريفات والمخرّفين.

انظروا في كلمات الأئمة عليهم السلام، سترون أنّ ما ذُكر في العديد من الموارد ناظرٌ إلى تلك الأمور التي ذُكرت باسم الإسلام من قِبَل العلماء والفقهاء والمحدّثين التابعين للأجهزة الحاكمة والمعاملة لدى بلاط السلاطين من أجل ردّها وبيان حقائقها. لقد كان هذا من الأهداف الأساس والكبرى للأئمة، وهو عبارة عن تبيين الأحكام الإسلامية.

إنّ نفس هذا العمل له بعدٌ سياسيّ، أي إنّنا عندما نعلم أنّ التّحريف يحصل من قِبَل أجهزة السّلطة والخلافة، وأنّ أصحاب القلم المأجورين والذين يظهرون بصورة العلماء يُحرّفون الأمور من أجل السلاطين والحكّام، فمن الطبعيّ، أنّ كلّ من ينهض بوجه هذه التّحريفات يكون في الواقع قد قام بعملٍ يُعارض سياسة أولئك الحكّام والسلاطين. وفي يومنا هذا، نجد، في بعض الدول الإسلامية، أصحاب القلم والكتاب والعلماء المستأجرين من قِبَل تلك الأجهزة يؤلّفون كتبًا من أجل بثّ الفرقة بين المسلمين، أو من أجل تشويه صورة إخوانهم المسلمين، فلو ظهر في تلك البلاد كاتبٌ حرٌّ وألّف كتابًا حول الوحدة الإسلامية والأخوة بين الجماعات



الإسلاميّة، فإنّ مثل هذا العمل سيكون في الواقع عملاً سياسيّاً ومخالفًا للأجهزة الحاكمة. لقد كان بيان تلك الأحكام الإسلاميّة من جملة الأعمال والأنشطة الأساس للأئمّة، ولا يعني هذا أنّ الأحكام الإسلاميّة لم تكن تُعلن في تلك الأيّام ودخل المجتمع الإسلاميّ، كيف يكون ذلك وقد كان في كلّ زاوية من العالم الإسلامي من يقرأ القرآن وينقل الأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فكان هناك بعض المحدثين الذين حفظوا آلاف الأحاديث، ولم يكن الأمر مختصّاً بمكّة والمدينة والكوفة وبغداد وأمّثالها، بل كان شائعاً في جميع أقطار العالم الإسلاميّ. انظروا إلى التاريخ، فإنّكم تجدون في خراسان ذاك العالم الشابّ الذي يدوّن عدّة آلاف من الأحاديث في خراسان، وفي طبرستان، ذاك العالم الكبير الذي ينقل عدّة آلاف من الأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعن الصحابة. لقد كان الحديث موجوداً وكانت الأحكام الإسلاميّة تُبيّن، ولكن ما لم يكن يُبيّن هو التفسير والتبيين الصحيح للإسلام في جميع المجالات، وفي كلّ ما يتعلّق بأمور المجتمع الإسلاميّ، وهذا ما أراد الأئمّة عليهم السلام أن ينهضوا به. لقد كان هذا العمل من الأعمال المهمّة للأئمّة عليهم السلام.

العمل الآخر الذي كان له أهميّة هو تبين قضيّة الإمامة. فالإمامة هي حاكميّة المجتمع الإسلاميّ والقضيّة الأساس التي لم تكن واضحةً بالنسبة لمسلمي ذلك الزمان والتي قد تمّ تحريفها من الناحية العمليّة والنظريّة. فلمن تكون إمامة المجتمع الإسلاميّ؟ لقد وصل الأمر بحيث إنّ الذين لا يتقيّدون بالأحكام الإسلاميّة في الأغلب، ويرتكبون أكثر المحرّمات علانيةً، يدعون خلافة النبيّ ويجلسون على مسنده، ولا يخجلون. فلم يكن



الأمر بحيث يخفى على الناس، بل كانوا يرون أنّ شخصاً اسمه الخليفة يأتي ليُصلّي الجمعة مخموراً سكراناً ويصبح إماماً يأتّم به الناس. كان الناس يعلمون أنّ يزيد بن معاوية مصابٌ بالأمراض الأخلاقية الكبرى ويرتكب الذنوب الكبيرة، وفي نفس الوقت، عندما كان يُقال لهم قوموا على يزيد، كانوا يقولون إنّنا بايعنا يزيد ولا يجوز القيام عليه. فقضية الإمامة لم تكن واضحة للناس. كان الناس يتصورون أنّ إمام المسلمين وحاكم المجتمع الإسلاميّ يمكن أن يكون متلوّثاً بهذه المعاصي والمفاسد والمظالم وهذه الأعمال التي تُخالف صريح القرآن والإسلام، فلم تكن القضية من هذه الناحية مهمّة بالنسبة للناس. لقد شكّل هذا الأمر مشكلةً كبيرةً. فبالالتفات إلى أهمية قضية الحكومة في أيّ مجتمع، وتأثير الحاكم على توجيهاته، فإنّ ذلك كان يُعدّ أخطر شيءٍ على عالم الإسلام. لهذا وجد الأئمة عليهم السلام ضرورة تبيين أمرين للناس:

أحدهما: الشروط والخصائص التي ينبغي أن يتمتع بها الحاكم الإسلاميّ والإمام. كالعصمة والتقوى والعلم والمعنويات والسلوك مع الناس والعمل تجاه الرّب...، التي تشكّل خصائص الإمام أي الحاكم الإسلاميّ.

الثاني: تشخيص من يتحلّى بهذه الخصائص في يومهم. وهذا ما قاموا به بأنفسهم. وقد كان عملاً كبيراً من قبل الأئمة. وأنتم ترون أنّه كان من أهمّ الأعمال السياسية والإعلامية والمفاهيم السياسية.

لو لم يكن للأئمة عليهم السلام سوى هذين العاملين اللذين ذكرتهما، لكانا كافيين لتكون حياة الأئمة من بدايتها وحتى نهايتها حياةً سياسية. وعندما



كانوا يُفسّرون القرآن ويُبيّنون المعارف الإسلامية أيضًا فإنّهم كانوا في الواقع يقومون بعملٍ سياسيٍّ. وعندما كانوا يتحدّثون عن خصائص الإمام فإنّهم كانوا أيضًا يزاولون عملاً سياسياً. أي لو تمّ اختصار بيانات الأئمة بذكر هاتين الخاصيتين وهذين الموضوعين المذكورين، لكانت حياتهم حياةً سياسية، لكنّهم لم يكتفوا بذلك. فبالإضافة إلى كلّ هذه الأمور، بدأ الأئمة عليهم السلام من عصر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام وإلى ما بعد ذلك، حركةً سرّية لها أبعاد سياسية وثورية من جميع الجهات، من أجل الإمساك بالحكومة. ولا يبقى هناك أيّ شكّ لكلّ باحثٍ في حياة الأئمة، أنّ الأئمة عليهم السلام كانوا أصحاب هذه الحركة. وما ذكرته هنا مجهولٌ. والمشكلة وللأسف، هي أنّ الكتب التي ألّفت حول حياة الأئمة، حول حياة الإمام الصادق عليه السلام وحياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وبشأن حياة أكثر الأئمة الآخرين لم تُبيّن هذه القضية.

فإنّ وجود حركةٍ سياسية عند الأئمة، ورغم كلّ هذه الشواهد الموجودة وتلك التشكيلات الواسعة والمنتشرة التي بنوها، قد بقيت مخفيةً ولم تُذكر وكان هذا الأمر يُعدّ المشكلة الأساس في فهم حياة الأئمة عليهم السلام. فحقيقة الأمر أنّ الأئمة قد بدؤوا هذا العمل. وبالتأكيد، توجد شواهد كثيرة على ذلك.

.. على جميع الإخوة والأخوات أن يعلموا هذا الأمر، وبصورة مختصرة، أنّ جميع الأئمة عليهم السلام كانوا بمجرّد أن يُلقى عليهم حمل أمانة الإمامة، فإنّ من الأعمال التي كانوا يبدؤون بها هي تلك المواجهة السياسية والمسعّي السياسي من أجل الإمساك بزمام الحكومة. إنّ هذا السعي السياسي كان



يشبه جميع المساعي التي يقوم بها من يريد أن يُشكّل نظامًا. وهو ما قام به الأئمة عليهم السلام.

(١٩٨٥/٠٤/١٢)

إنّ كلّ هذا النزاع الذي تُشاهدونه عبر مسير حياة الأئمة عليهم السلام فيما بينهم وبين أجهزة الظلم والجور، إنّما كان حول هذه القضية. فالذين خالفوا أئمتنا وقتلوهم بالسّم وسجنوهم وحاصروهم وضيّقوا عليهم، إنّما كان ذلك بسبب مطالبة الأئمة عليهم السلام بالحكومة. فحتّى لو كان الأئمة عليهم السلام يمتلكون علوم الأولين والآخرين، ولكنّهم لم يكونوا طّلاب حكومة، ولم تكن القضية لتمسّ السلطة السياسيّة والمطالبة بهذه السلطة، لما كانوا تعرّضوا لهم بأيّ شكلٍ من الأشكال، أو على الأقلّ لما كانوا تعاملوا معهم بهذه الشدّة والعنف. فالقضية من الأساس هي هذه. لهذا، تلاحظون وجود حساسية فائقة حول كلمة "الإمامة" في دعوات وكلمات الأئمة عليهم السلام، أي إنّ الإمام الصادق عليه السلام عندما يريد المطالبة بالحاكميّة الإسلاميّة والسلطة السياسيّة فإنّه يقول: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ الْإِمَامَ"، وذلك في اجتماع الحجاج في عرفات، فإنّ إمام المجتمع وحاكمه وقائده هو رسول الله، "ثُمَّ كَانَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ الْحَسَنُ، ثُمَّ الْحُسَيْنُ"^٦، إلى أن يصل إلى نفسه. أي إنّ كلّ بحث الأئمة مع مخالفيهم، وبحث أصحاب الأئمة في جهادهم إنّما كان حول قضية الحكومة والحاكمية والولاية المطلقة والعامة على المسلمين وكذلك حول

^٦ الشيخ الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ، ج٤، ص٤٦٦.

السّـلطة السّـياسيّة، ولم يكن النّـزاع حول المقامات المعنويّة للأئمّة.

غالبًا ما كان يحدث أن نجد أشخاصًا في المجتمع، في زمن الخلفاء، من أهل الزّهد والعلم المعروفين بالتّفسير والعلم ومثل هذه الأمور، ولم يكن الخلفاء يُعارضونهم فحسب، بل كانوا مخلصين لهم ويظهرون لهم المحبّة ويختلفون إليهم ويطلبون نصائحتهم؛ لأنّ مثل هؤلاء لم يكونوا طلاب زعامة سياسيّة في مقابل الخلفاء، من أمثال حسن البصري وابن شبرمة وعمرو بن عبيد، هؤلاء الذين كانوا من كبار العلماء وكانوا مورد عناية وقبول الخلفاء ويدّعون العلم والزهد والمعنويّات والتفسير وعلوم النّبـي وكلّ هذه الادّعاءات، لكنّ الخلفاء لم يظهروا أيّة معارضة أو تعرّض لهم بأيّ شكلٍ من الأشكال. لأنّه لم يكن هناك أيّ ادّعاء للقدرة السّياسيّة وطلب للسّـلطة السّـياسيّة. أمّا نزاع الأئمّة مع خلفاء بني أميّة وبني العبّاس فقد كان حول قضية الإمامة والولاية هذه، وهو ذلك المعنى الذي نستخدمه اليوم بشأن الإمامة.

(١٩٨٨/٠١/٢٢)

الإمام السيد علي الخامنئي دام ظله

الفصل الأول: النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم

- بعثة الخاتم, بداية الصحوة.
- حماية النظام الإسلامي.
- تثبيت النظام الإسلامي.

تمهيد

إنَّ العمل المهمَّ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الدَّعوة إلى الحقِّ والحقيقة والجهاد في سبيل هذه الدَّعوة. ولم يُبتَلِ النبيُّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأيِّ تشويشٍ أو تردّد أمام الدنيا الظَّلمانيّة في زمانه. سواءً في تلك الأيّام الّتي كان فيها في مكّة وحيداً، أم في ذلك الجمع الصّغير من المسلمين الّذين أحاطوا به وفي مواجهة زعماء العرب المتكبرين من صناديد قُريش وطواغيتهم، بجلافتهم وبكلِّ اقتدارهم، أمام عامّة النّاس الّذين يغطّون في سُبُبات الجهل والجاهليّة. فلم يستوحش. وقال كلمة الحقِّ وأعادها وبَيَّنّها وأوضّحها وتحمّل الإهانات واشترى كلّ تلك الصعاب والآلام بالتّمسك حتّى تمكّن من أسلمة عددٍ كبير منهم، أم في ذلك الوقت الّذي تشكّلت فيه الحكومة الإسلاميّة، وكان هو نفسه في موقع رئاسة الحكومة، وكانت السّلطة بيده. في تلك الأيّام أيضاً، كان هناك أعداءٌ ومخالفون متنوّعون يواجهون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، سواء تلك المجموعات العربيّة المسلّحة - البدو المتفرّقون في صحاري الحجاز واليمامة^٧، والّتي كانت دعوة الإسلام

^٧ في الجزيرة العربيّة - بين نجد والبحرين - التي تحتوي على الكثير من القرى والقلاع والعيون وبساتين النخيل.

تريد إصلاحهم وهم يقاومون - أم ملوك العالم وسلاطينه - القوّتان العظيمان في ذلك الزّمان - أي إيران والإمبراطورية الرومانيّة، الذين كتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجادلهم وتوجّه إليهم وجيّد الجيش نحوهم، وعانى الصّعاب ووقع في الحصار الاقتصاديّ، حتّى وصل الأمر إلى حدّ أنّه كانت تمرّ على أهل المدينة عدّة أيّام أحياناً، لا يجدون فيها خبز يومهم. لقد كانت التهديدات الكثيرة تُحيط بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من كلّ حدبٍ وصوب. كان بعض النّاس يقلقون، وبعضهم يتزلزلون، وبعضهم يتدمّرون، وبعضهم يلوم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويحثّه على التنازل، إلّا أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يتردّد أو يضعف في ميدان الجهاد هذا، وتقدّم بالمجتمع الإسلاميّ بكلّ اقتدار حتّى أوصله إلى أوج العزّة والقدرة. هذا هو النّظام والمجتمع، الذي استطاع ببركة صمود النبيّ في ميادين الجهاد والدعوة، أن يصبح القوّة الأولى في العالم في السنوات التالية.

(١٩٩١/٠٩/٢٧)



بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم وإرساء قواعد النظام

بداية الصّحوة

كما رُوي عنه صلى الله عليه وآله وسلم، في حديث مشهور ومتواتر، أنّه قال: "إنّما بُعثت لأتّمم مكارم الأخلاق"^٨، فإنّ البعثة قد وُجدت في هذا العالم لأجل هذا الهدف، من أجل تعميم المكارم الأخلاقية، والفضائل الروحية وتكميلها عند النّاس.

وطالما أنّ المرء لم يتحلّ بأفضل المكارم الأخلاقية، فإنّ الله تعالى لن يوكل إليه هذا المهمّة العظيمة والخطيرة، ولهذا فإنّ الله سبحانه يُخاطب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أوائل البعثة قائلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^٩، أي أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان على درجة من الاستعداد تجعله قادراً على تلقّي الوحي الإلهي، وهذا الأمر يعود إلى ما قبل البعثة. ولهذا فقد ورد أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان يشتغل بالتجارة في شبابه، وقد كسب من ذلك أرباحاً طائلة، ما لبث أن أنفقها جميعاً على المساكين قريةً إلى الله تعالى.

^٨ بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٨٢.
^٩ سورة القلم، الآية ٤.



وفي هذه المرحلة التي كانت نهاية تكامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبل نزول الوحي . ولم يكن قد بُنِيَ بعد . كان النبي يعتزل في غار حراء ويجول بفكره في الآيات الإلهية من سماءٍ ونجومٍ وأرض، ويتأمل في هذه الخلائق والموجودات التي تعيش على وجه البسيطة بما لها من مشاعر مختلفة وطبائع شتى. لقد كان يشاهد كافة هذه الآيات الإلهية فيزداد خضوعه يوماً بعد آخر أمام عظمة الحق ويتضاعف خشوع قلبه أمام الأمر والتّهيّ الإلهيين والإرادة الربّانية وتتفتح في وجدانه، مع مرور الأيام، براعم الأخلاق النبيلة. ولهذا فقد ورد أنّه صلى الله عليه وآله وسلم: "كان أعقل الناس وأكرمهم"^{١٠}، حيث كان يزداد تكاملاً قبل البعثة بمشاهدة الآيات الإلهية حتّى بلغ الأربعين، "فلما استكمل أربعين سنة ونظر الله عزّ وجل إلى قلبه فوجده أفضل القلوب وأجلّها وأطوعها وأخشعها وأخضعها أذن لأبواب السماء ففتحت، ومحمّد ينظر إليها، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمّد ينظر إليهم"^{١١}، حتّى نزل عليه جبرائيل الأمين وقال: ﴿اقْرَأْ﴾^{١٢} فكانت بداية البعثة.

إنّ هذا المخلوق الإلهي الذي لا نظير له، وهذا الإنسان الكامل الذي كان قد بلغ تلك الدرجة من الكمال في هذه المرحلة قبل نزول الوحي، قد شرع منذ اللحظة الأولى من البعثة في دخول مرحلة من الجهاد الشامل والبالغ المشقّة والمكابدة، استغرقت ثلاثاً وعشرين سنة، وكل هذا كان نموذجاً للكفاح والمجاهدة والعمل الدؤوب. لقد كان جهاده صلى الله عليه وآله وسلم جهاداً

^{١٠} بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ص ٢٦٠، وأصل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أفضل الناس أعقل الناس" وفسره ابن عباس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

^{١١} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٧، ص ٣٠٩.

^{١٢} سورة العلق، الآية ١.



مع نفسه، ومع أناس لا يُدركون من الحقيقة شيئاً، ومع ذلك المحيط الذي كان يعمّه ظلامٌ حالك ومطبق. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في وصف ذلك: "فِي فِتْنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطَّنَتْهُمْ بِأَظْلَافِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا"^{١٣}. لقد كانت الفتن تُهاجم الناس من كلِّ جانب: حبّ الدنيا واتباع الشهوات والظلم والجور والرزائل الأخلاقية، التي تقبع في عمق وجود البشرية، وأيدي الطغاة الجائرة، التي كانت تمتدّ على الضعفاء بلا أدنى مانع أو رادع. ولم يكن هذا التعسّف مقتصرًا على مكّة أو الجزيرة العربية، بل كان يسود أعظم الحضارات في العالم آنذاك، أي الإمبراطورية الرومانية العظيمة والإمبراطورية الشاهنشاهية في إيران. فإذا ما تأملتم في التاريخ، لوجدتم صفحة تاريخية مظلمة كانت تضرب بأطنابها كافّة نواحي الحياة الإنسانيّة.

لقد بدأ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جهاده منذ اللحظة الأولى للبعثة متسلّحًا بقوة خارقة وسعيّ متواصل يستعصي على التصدّر. لقد تحمّل الوحي، ذلك الوحي الإلهي الذي كان ينزل على قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما ينزل الغيث العذب ويهطل على الأرض الخصبة فيمنحه الطاقة ويمدّه بالقوّة، وانبرى موظّفًا كلّ طاقته ليأخذ بيد العالم إلى زمنٍ من التحوّل العظيم، ولقد حالفه التوفيق.

إنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بنى الخلايا الأولى لجسد الأُمّة الإسلاميّة بيده المقتدرة، في تلك الأيام العصيبة من تاريخ مكّة. لقد بنى قواعد الأُمّة

^{١٣} السيد الرضي، محمد بن حسين، نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح صبحي الصالح، دار الهجرة - قم، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، ص ٤٧.

الإسلامية ورفع عمادها، فكان المؤمنون الأوائل وأول من اعتنق الإسلام وأول من كانت لديهم تلك المعرفة والشجاعة والنورانية التي مكنتهم من الوقوف على حقيقة الرسالة النبوية والإيمان بها، ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^{١٤}. لقد كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي لامس بأنامله الرقيقة شعاع تلك القلوب الوالهة، وفتح بيده القويّة أبواب الأفتدة على عالمٍ رحبٍ من المعارف والأحكام الإلهية، فتفتحت الأذهان والقرائح وازدادت الإرادات صلابةً ودخلت تلك الثلة المؤمنة - التي كان يزداد عددها يومًا بعد يوم - في صراعٍ مريرٍ لا يمكن تصوّره بالنسبة لنا في المرحلة المكّية. لقد تفتّحت هذه البراعم في بيئة لم تكن تعرف سوى القيم الجاهليّة، فكان يسودها العصبية الخاطئة، ويعمّها الحقد العميق، وتتصارع بين جنباتها قوى القسوة والشرّ والظلم والشهوة التي تضغط بشدّة على حياة البشر وتحيط بها من كلّ جانب، فنبتت تلك الغرسات وأينعت من بين كلّ هذه الأحجار والأشواك الجامدة والملتفة، وهذا هو معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: "وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عوداً، (والروائع الخضره أرقّ جلوداً، والنباتات العذية) أَقْوَى وَقُوداً"^{١٥}. ولذلك فإنّ كافّة العواصف والأنواء لم تستطع النيل من هذه النباتات والبراعم والأشجار التي نمت وترعرعت وانبثقت أعوادها من بين الصخور الصمّاء، وانقضى ثلاثة عشر عامًا، ثمّ ما لبث صرح المجتمع الإسلاميّ - المجتمع المدنيّ والنبويّ - أن قام على أساس هذه القواعد القويّة.

^{١٤} سورة الأنعام، الآية ١٢٥.
^{١٥} نهج البلاغة، ص ٤١٨.



العمل السياسي

لم تكن السياسة هي العنصر الوحيد في بناء هذه الأمة، بل كانت تُمثّل قسماً من هذه العملية. والقسم الأساس الآخر فيها كان يتركز على بناء الأفراد، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{١٦}، ومعنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يعمل على تربية وتزكية القلوب قلباً قلباً، كما كان يُغذّي العقول عقلاً عقلاً، وذهناً ذهنًا، بالحكمة والعلم والمعرفة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، والحكمة أعلى درجة ومكانة. فلم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يُعلّمهم القوانين والأحكام فحسب، بل كان يُعلّمهم الحكمة أيضاً، وكان يفتح عيونهم على حقائق الوجود.

وهكذا سار النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيهم لمدة عشر سنوات. فمن ناحية كان اهتمامه منصباً على السياسة وإدارة الحكومة والدفاع عن كيان المجتمع الإسلامي ونشر الإسلام وفتح المجال أمام تلك الجماعات التي كانت تعيش خارج المدينة أن يدخلوا الساحة النورية للإسلام وللمعارف الإسلامية، ومن ناحية أخرى كان يعمل على تربية أفراد المجتمع. وهذان الأمران لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

لقد اعتبر بعض الناس أن الإسلام مسألة فردية، وفصلوه عن السياسة، في حين أن نبي الإسلام المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الهجرة، ومن اللحظة الأولى التي تمكّن فيها من النجاة بنفسه من مصاعب مكة، فإن أول ما قام به هو السياسة. فإن إقامة المجتمع الإسلامي وتشكيل الحكومة والنظام

^{١٦} سورة الجمعة، الآية ٢.



والجيش الإسلامي وإرسال الرسائل إلى حكام العالم الكبار والدخول في معترك السياسة العظيم آنذاك، تُعدّ كلّها من شؤون السياسة. فكيف يُمكن فصل الدين عن السياسة؟! وكيف يُمكن إعطاء السياسة معنىً ومضموناً وشكلاً بيد غير يد الهداية الإسلامية؟! ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^{١٧}، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾^{١٨}. إنهم يؤمنون بالقرآن، لكنهم لا يؤمنون بسياسته! ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^{١٩}. فما معنى القسط؟ إنَّ القسط يعني إقرار العدالة الاجتماعية في المجتمع. فمن الذي يستطيع تحمّل هذا العبء؟ إنَّ إقامة مجتمع يعمّه العدل والقسط هو عملٌ سياسيّ يقوم به مدراء البلاد، وهذا هو هدف الأنبياء جميعاً. فليس الأمر مقتصرًا على نبيّنا فقط، بل إنَّ عيسى وموسى وإبراهيم وجميع الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام قد بُعثوا من أجل العمل السياسيّ وإقامة النظام الإسلاميّ.

(٢٠٠٦/٠٨/٢٢)

النظام النموذجي للحكم

إنَّ سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في مرحلة السنوات العشر لحاكميّة الإسلام في المدينة، تُعدّ من ألمع عهود الحكم طيلة التاريخ البشريّ، ولا نقول ذلك جزافاً، وإنّما يجب التعرّف إلى هذا العهد القصير والمليء

^{١٧} سورة الحجر، الآية ٩١.

^{١٨} سورة البقرة، الآية ٨٥.

^{١٩} سورة الحديد، الآية ٢٥.



بالنشاط والذي له تأثيرٌ حارقٌ على تاريخ البشرية. إنّ المرحلة المدتية هي الفصل الثاني من عصر رسالة النبي، الذي امتدّ لـ ٢٣ سنة. الفصل الأوّل، الذي كان مقدّمةً للفصل الثاني، كان عبارة عن ١٣ سنة في مكّة. أمّا السنوات العشر التي قضاها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة فهي تُمثّل سنيّ إرساء قواعد النّظام الإسلاميّ وبناء أنموذج الحكم الإسلاميّ لجميع أبناء البشرية على مرّ التاريخ الإنسانيّ في مختلف الأعصار والأمصار. وهذا الأنموذج الكامل، لا نجد له نظيرًا في أيّ حقبة أخرى. ومقدورنا من خلال إلقاء نظرة على هذا الأنموذج الكامل تحديد المعالم التي بها ينبغي للبشر والمسلمين الحكم على الأنظمة وعلى الناس.

لقد كانت غاية النبي صلى الله عليه وآله وسلم من هجرته إلى المدينة هي مقارعة الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي بظلمه وطاغوتيته وفساده الذي كان مهيمًا على الدنيا آنذاك، ولم يكن الهدف مكافحة كفّار مكّة فحسب، بل كانت القضية ذات بعد عالمي أيضًا. كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يتعقّب هذا الهدف، فكان يغرس بذور الفكر والعقيدة أينما وجد الأرضية المساعدة لذلك، على أمل أن تنبت تلك البذور في الوقت المناسب. وكانت غايته من ذلك إيصال رسالة الحرية والنهوض وسعادة الإنسان إلى كافّة القلوب. وذلك يتعدّى إلّا عن طريق إقامة النّظام النموذجي القدوة. لذلك فقد جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة لإقامة مثل هذا النّظام النموذجي، لكن إلى أيّ مدى تسعى الأجيال اللاحقة لمواصلة ذلك والاقتراب من هذا التّموذج، فذلك منوطٌ بهممها ومساعدتها.



فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بيني التّموذج ويُقدّمه للبشريّة والتّاريخ. والتّظام الّذي شيّده النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان له الكثير من المعالم، أبرزها وأهمّها سبعة:

المعلّم الأوّل: الإيمان: الدّافع الحقيقيّ للتّظام النّبويّ إلى الأمام هو الإيمان المنبثق من قلوب النّاس وعقولهم والّذي يأخذ بأيديهم وكلّ كيّانهم نحو طريق الصّواب. إذًا، المعلّم الأوّل يتمثّل في نفخ روح الإيمان وتقويته وترسيخه وتغذية أبناء الأمتة بالمعتقد والفكر السليمين، وهذا ما باشره النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة ورفع رايته في المدينة بكلّ اقتدار.

المعلّم الثّاني: العدل والقسط: فمنطلق العمل كان يقوم على أساس العدل والقسط وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه من دون أدنى مدهانة.

المعلّم الثّالث: العلم والمعرفة: فأساس كلّ شيء في التّظام النّبويّ هو العلم والمعرفة والوعي واليقظة، فهو لا يُحرّك أحدًا في اتّجاهٍ معيّن حركةً عمياء، بل يحوّل الأمتة عن طريق الوعي والمعرفة والقدرة على التشخيص إلى قوّة فعّالة لا منفعة.

المعلّم الرّابع: الصّفاء والأخوّة: فالتّظام النّبويّ ينبذ الصّراعات الّتي تُغذيها الدّوافع الخرافيّة والشّخصيّة والمصلحيّة والتّفعية وتجربها. فالأجواء هي أجواء تتسم بالصدّق والأخوّة والتّآلف والحميميّة.

المعلّم الخامس: الصّلاح الأخلاقيّ والسلوكيّ: فهو يُزكّي النّاس ويُطهّره من رذائل الأخلاق وأدرانها، ويصنع إنسانًا خلوقًا ومزكّيًا ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^{٢٠}، فالتزكية هي

^{٢٠} سورة آل عمران، الآية ١٦٤.



أحد المرتكزات الأساس. أي إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يعمل على أبناء الأمة فردًا فردًا على أساس التربية وبناء الإنسان.

المعلّم السادس: الاقتدار والعزة: فالمجتمع والنظام النبويّ لا يتّسمان بالمذلة والتسوّل ومدّ يد الحاجة إلى هذا وذاك، بل يتميّزان بعزّتهما واقتدارهما وعزمهما، فهما متى ما شخّصا موطن صلاحهما سعيًا إليه وشقًا طريقهما إلى الأمام.

المعلّم السابع: العمل والنشاط والتّقدّم المطّرد: فلا مجال للتّوقّف في النّظام النبويّ، بل الحركة والعمل والتّقدّم بنحوٍ منظم. ولا يحدث أن يقول أبناؤه إنّ كلّ شيء قد تمّ، فلنركن إلى الدّعة والراحة! وهذا العمل - بطبيعة الحال - مبعث لدّة وسرور وليس مدعاة للكسل والملل والإرهاق، بل هو عمل يمنح الإنسان النّشاط والطّاقة والاندفاع.

دعائم النّظام النموذجي

قديم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ليقيم هذا النّظام ويعمل على تكامله ويجعله أنموذجًا إلى أبد الدّهر، وليقتدي به اللاحقون على امتداد التاريخ، ممّن تتوفّر لديهم القدرة على إقامة نظامٍ مماثل له، ومن أجل أن يزرعوا الاندفاع في القلوب كي يحثّ بنو البشر الخطى نحو إيجاد مثل هذا المجتمع. وبالطّبع، فإنّ إيجاد مثل هذا النّظام يحتاج إلى دعائم عقائدية وإنسانية.

فلا بدّ أوّلًا من وجود معتقدات وأفكار سليمة كي يُقام هذا النّظام على أساسها. وقد بيّن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذه الأفكار والرؤى في إطار كلمة التّوحيد والعزة الإنسانية وسائر المعارف الإسلاميّة خلال فترة السّنوات الثلاث



عشرة التي أمضاها في مكة، ثم علّمها وفهّمها الآخرين بنحوٍ متواصلٍ وعلى مدى لحظات حياته حتّى وافاه الأجل في المدينة، وكان على الدوام بصدد تعليم وتفهم الجميع مثل هذه الأفكار والمعارف السامية التي شكّلت أسس هذا النظام.

وثانيًا من الضروريّ وجود القواعد والدّعائم الإنسانيّة كي يستقيم هذا البناء عليها، لأنّ النظام الإسلاميّ لا يقوم على فردٍ واحد. وقد باشر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بإعداد هذه الركائز في مكة وحققها. كان البعض منهم من كبار الصحابة . على اختلاف مراتبهم . لقد كانوا ثمرة الجهود المضنية والجهاد المرير خلال فترة السنوات الثلاث عشرة في مكة، فيما كان البعض الآخر من الذين تمّ بناؤهم في يثرب من خلال رسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أمثال سعد بن معاذ وأبي أيوب وآخرين، وذلك قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وعندما حلّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، فقد باشر عملية بناء الإنسان من لحظة دخوله إليها. ومع مرور الأيام أخذت ترد إلى المدينة شخصيّات تتسم بمجدارتها الإدارية وجلالة القدر والشجاعة والتضحية والإيمان والافتقار والمعرفة حتّى أصبحت أعمدة صلبة لهذا الصّرح الشامخ الرفيع.

لقد كانت هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة . التي كانت تُسمّى قبل حلوله فيها بـ "يثرب" ومن ثمّ سُمّيت بـ "مدينة النبيّ" بعد دخوله إليها . بمثابة نسائم ربيع عمّت أجواء المدينة فشعر أهلها كأنّ انفراجًا حلّ فيهم جذب القلوب وأيقظها. وعندما سمع أهل المدينة بوصول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبا . وهي على مقربة من المدينة وقد مكث فيها خمسة عشر يومًا . كان الشوق لرؤيته يغلي في قلوبهم يومًا بعد يوم، وكان بعض الناس يذهبون إلى قبا



ويزورون النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويرجعون، فيما بقي الآخرون ينتظرونه في المدينة. وعندما دخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم المدينة تبدل ذلك الشوق وذلك التّسليم إلى عاصفة ألهمت قلوب النّاس فغيّرتها. وسرعان ما نما لديهم الشّعور بأنّ جميع ما لديهم من عقائد وعواطف وروابط قبليّة وعصبيّات قد ذابت بطلوع محيّا هذا الرجل وسلوكه ومنطقه، وأشرفوا على نافذة جديدة تطلّ بهم على حقائق عالم الخلق والمعارف الأخلاقيّة. فكان أن أحدثت هذه العاصفة ثورةً في القلوب بادئ الأمر، ثمّ امتدّت إلى تخوم المدينة، لتخرج فيما بعد إلى قلاع مكّة وتسيطر عليها، وتنطلق في خاتمة المطاف لتشقّ طريقها إلى ما هو أبعد، فتتقدّم إلى أعماق امبراطوريّتي ذلك الزمان العظيمين، وحيثما توجّهت كانت تمزّ القلوب وتحدث ثورةً في باطن البشر. ففي صدر الإسلام فتّح المسلمون بقوة إيمانهم بلاد إيران والروم، وأيّما قوم طاهم هجوم المسلمين كان الإيمان يُداعب قلوبهم بمجرّد رؤيتهم للمسلمين. كانت الغاية من السيف إزالة العراقيل عن الطريق، والقضاء على المتسلّطين والمترفين. أمّا السواد الأعظم من النّاس فقد استقبل هذه العاصفة في جميع الأمكنة، فكان أن نفذ النّظام والدولة الإسلاميّة إلى أعماق امبراطوريّتي ذلك الزمان. أي إيران والروم. فأصبحتا جزءًا من النّظام والدولة الإسلاميّة. وكلّ ذلك حصل في ظرف أربعين سنة، عشرٌ منها في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وثلاثون منها بعد رحيله.

لقد باشر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عمله بمجرد أن حلّ في المدينة. ومن العجائب التي حفلت بها حياته صلى الله عليه وآله وسلم هي أنّه، وطوال تلك السنوات العشر، لم يهدر لحظة واحدة، فلم يُر صلى الله عليه وآله وسلم غافلاً عن إنارة مشعل الهداية والإيمان والتعليم



والتربية ولو للحظة واحدة، فلقد كانت يقظته ونومه ومسجده وداره ودخوله ساحة الحرب ومسيره في الطرقات والأسواق ومعاشرته لأسرته وكلّ وجوده أينما حلّ، درسًا. يا لها من بركة زخر بها هذا العمر! فالشخص الذي شغل التاريخ برمته وترك بصماته عليه. ولقد قلت مرارًا إنّ الكثير من المفاهيم التي اكتسبت وشاح القدسيّة على مدى القرون التالية، من قبيل المساواة والأخوة والعدالة والسيادة الشعبيّة، كلّها كانت تحت تأثير تعاليمه صلى الله عليه وآله وسلم. ولم يكن لمثل هذه الأمور من وجود في تعاليم سائر الأديان، أو لا أقلّه فإنّها لم تر النور، مع أنّ نشاطه الحكومي والسياسي والاجتماعي قد دام عشر سنين فقط لا غير! فيا له من عمرٍ مبارك!

السُّلُوكُ الاجتماعيّ للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

لقد حدّد صلى الله عليه وآله وسلم موقفه منذ اللحظة الأولى لدخوله المدينة، فعندما دخلت النّاقة، التي كان يركبها النبيّ، يثرب أحاط بها النّاس. وكانت يثرب يومها مقسّمة إلى أحياء تضمّ بيوتًا وأزقة ومتاجر، يعود كلّ منها إلى واحدة من القبائل التابعة إمّا للأوس أو للخزرج... كانت النّاقة تمرّ من أمام قلاع هذه القبائل فيخرج كبارها ويأخذون بركاب النّاقة منادين: إيلينا يا رسول الله، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: "دعوا النّاقة فإنّها مأمورة"^{٢١}. لكنّ كبار القوم وأشرافهم وشيوخهم وشبابهم اعترضوا ناقة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قائلين: انزل هنا يا رسول الله، فالدار دارك، وكلّ ما لدينا في خدمتك، لكنّه صلى الله عليه وآله وسلم، كان يقول لهم: "دعوا النّاقة فإنّها مأمورة". وهكذا طوت النّاقة

^{٢١} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١١٠.

الطريق حيًّا بعد حيٍّ، حتَّى وصلت إلى حيِّ بني النّجار، الّذين تنتمي إليهم أمّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وباعتبارهم أحوال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جاؤوه وقالوا: يا رسول الله! إنّ لنا بك لقرابة فانزل عندنا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "دعوا النّاقة فإنّها مأمورة"، فانطلقت النّاقة حتَّى حطّت رحالها في أكثر أحياء المدينة فقراً، فمدّ النّاس أعناقهم ليعرفوا مَنْ صاحب الدار الّتي حطّت عندها النّاقة، فإذا به أبو أيّوب الأنصاريّ، أفقر أهل المدينة أو أحد أفقرهم. عمد أبو أيّوب الأنصاريّ وعياله الفقراء المعوزون إلى أثاث النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فنقلوه إلى دارهم، وحلّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ضيفاً عليهم^{٢٢}، فيما رُدّ الأعيان والأشراف وأصحاب النفوذ وذوو الأنساب وأمّثالهم، أي أنّه حدّد موقعه الاجتماعيّ، فأتّضح من خلال ذلك عدم تعلّق هذا الرجل بالثّروة والنسب القبليّ والزعامات القبليّة والانتماء الأسريّ والعائليّ وعدم ارتباطه بالمتحايلين الوقحين ولن يكون كذلك. فهو صلى الله عليه وآله وسلم حدّد طبيعة سلوكه الاجتماعيّ منذ اللحظة الأولى، وأيّاً من الفئات يُساند، ولأيّ من الطبقات ينحاز، ومَنْ هم الّذين سينالون القسط الأوفر من فائدة وجوده. فالجميع كانوا ينتفعون من وجود النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وتعاليمه، بيد أنّ الأكثر حرماناً كان أكثر انتفاعاً منه، دافعهم في ذلك هو التعويض عن حرمانهم.

كانت قبال دارة أبي أيّوب الأنصاريّ قطعة أرض متروكة فسأل صلى الله عليه وآله وسلم عن صاحبها، فقيل إنّها لبيّتين، فدفع لهما ثمنها واشتراها ثمّ أمر ببناء مسجد عليها، كان بمثابة مركز سياسيّ عباديّ اجتماعيّ وحكوميّ ومركز



يتجمّع فيه النَّاسُ، حيث اقتضت الضرورة بناء مركز يُمثّل المحورية، ومن هنا تمّت المباشرة ببناء المسجد. ولم يطلب صلى الله عليه وآله وسلم قطعة أرض من أحد أو يستوهبها، بل اشتراها بأمواله، ورغم عدم وجود محامٍ عن هذين اليتيمين فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم راعى الدقّة في أداء حقوقهما كاملة تامةً كالأب والمدافع عنهما. وعندما باشروا ببناء المسجد، كان النبيّ نفسه صلى الله عليه وآله وسلم من أوائل الأشخاص بل أوّل شخص جاء وحمل بالمعول وباشر بحفر أرض المسجد. ولم يكن عمله هذا استعراضياً، بل بالفعل باشر بالعمل وكان يتصبّب عرقاً. كان عمله بحيث أنّ بعض الأشخاص الذين جلسوا جانباً، قالوا: أنجلس والرسول يعمل هكذا؟! فلنذهب ونعمل، فجاؤوا وانهمكوا في العمل حتّى شيّدوا المسجد خلال برهة وجيزة. وبذلك أثبت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك القائد العظيم والمقتدر - أنّه لا يرى أيّ حقّ لشخصه، فإذا ما كان هنالك عمل فلا بدّ أن تكون له مساهمة فيه. بعد ذلك، وضع صلى الله عليه وآله وسلم، الأطر الإدارية والسياسيّة لذلك النّظام. ولو أنّ المرء ألقى نظرة على التطوّر الذي خطاه بذكاء وفطنة، لأدرك أيّ عقل وفكر ودقّة وحنكة تقف وراء تلك العزيمة القاطعة والإرادة الصلبة التي لا يمكن تحقّقها ظاهراً إلّا برفدٍ من الوحي الإلهي. وحتّى يومنا هذا، إنّ الذين يحاولون تتبّع وقائع تلك السنوات العشر خطوةً خطوة يعجزون عن استيعاب أيّ شيء. وإذا ما حاول المرء دراسة كلّ واقعة على حدة فإنّه لا يدرك منها شيئاً، بل عليه أن يُدقّق النّظر ويلحظ تسلسل الأعمال وكيفية إنجاز كلّ تلك المهامّ بتدبيرٍ ووعيٍ وحساباتٍ دقيقة.



تمثلت الخطوة الأولى في إرساء الوحدة. لم يكن جميع أهل المدينة مسلمين، لقد كان أكثرهم كذلك، إلا أنه بقيت فيما بقيت قلة قليلة منهم غير مسلمة. علاوة على ذلك، كانت ثلاث من القبائل المهمة لليهود . بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . تقطن المدينة، أي في القلاع الخاصة بهم المحاذية للمدينة. كانت هذه القبائل قد جاءت إلى المدينة قبل قرن أو قرنين من ذلك التاريخ، وقصة مجيئهم إلى المدينة هي قصة طويلة لها تفاصيلها. وعند دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة كان هؤلاء اليهود ثلاث مزايا:

أولها: سيطرتهم على الثروات الأساس في المدينة، وعلى أهم مزارعها وتجارها ومنافعها، وعلى أهم صناعاتها التي تدرّ الأرباح وهي صناعة الذهب وغيرها. وكان أغلب أهل المدينة يرجعون إليهم لسدّ حوائجهم والاستقراض منهم وتسديد الربا إليهم، أي أنهم كانوا يقبضون على كل شيء من الناحية المالية.

والثانية: تفوّقهم على أهل المدينة من الناحية الثقافية، فهم كانوا أصحاب كتاب وعلى اطلاع على مختلف المعارف والعلوم الدينيّة والمسائل التي تجهلها عقول أهل المدينة ذات الطّبيعة شبه البدائيّة. من هنا كانت لهم الهيمنة الفكرية. وإذا ما أردنا وصفهم وفقاً للمصطلحات المعاصرة فيمكننا القول بأنهم كانوا يُشكّلون طبقة مثقّفة، لذلك كانوا يستحقّون أهل المدينة ويسخرون منهم ويُحقّروهم. بالطبع، كانوا يتصاغرون في المواطن التي كانوا يدركون فيها الخطر أو عند الضرورة، غير أنّ التفوّق كان لهم في الحالات الطبيعية.



الثالثة: اتّصلهم بالمناطق النائية عن المدينة، فلم يتفوقوا داخل حدود المدينة. لقد كانوا يُثّلون واقعًا قائمًا في المدينة، لذا كان على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يضعهم في الحسبان، فأوجد صلى الله عليه وآله وسلم ميثاقًا جماعيًا عالمًا. ولدى ورود النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المدينة اتّضح أنّ قيادة مجتمعها منحصرةً به صلى الله عليه وآله وسلم من دون أن يرم عقدًا أو يطلب شيئًا من الناس أو أن يدخل في مباحثات مع أحد، أي إنّ الشّخصيّة والعظمة النبويّة أخضعت الجميع لها بشكلٍ طبيعيّ. لقد تجلّت قيادته وجعلت الجميع يتحرّكون ويُبادرون حول محوريتها.

لقد كتب النبيّ ميثاقًا، وصار موضع قبول من قبل الجميع. كان الميثاق شاملًا للتفاعل الاجتماعيّ والمعاملات والنزاعات والديّات وعلاقة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بمعارضيه وموقفه من اليهود ومن غير المسلمين، كلّ ذلك كان مدوّنًا ومفصّلًا ولعلّه قد احتلّ صفتين أو ثلاث صفحات كبيرة من كتب التاريخ القديمة الكبرى.

الخطوة الثانية كانت في غاية الأهميّة وهي إشاعة روح الأخوة. لقد كانت الأرستقراطيّة والعصبيّات الحُرّافية والتكبر القبليّ وانفصال الشّرائح المختلفة للناس عن بعضها البعض، أبرز البلاءات التي كانت تُعاني منها المجتمعات الجاهليّة العربيّة المتعصّبة يومذاك. وبإشاعته للأخوة، سحق النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذه النعرات تحت قدميه. فقد آخى بين رئيس القبيلة وبين من هو في مستوى دانيّ أو متوسّط. وهؤلاء بدورهم ارتضوا هذه الأخوة طائعين. ووضع السّادة والأشراف إلى جانب العبيد من المسلمين والعتقاء، وبذلك قضى على العوائق في طريق الوحدة الاجتماعيّة. وعندما أراد صلى الله عليه وآله وسلم اتّخاذ مؤدّن لمسجده، كان ذوو الحناجر الجهوريّة والهندام



الجميل والشخصيات المشهورة، من الكثرة بمكان، لكنّه اختار من دونهم بلالاً الحبشيّ الذي كان يفتقد إلى الجمال والصوت الحسن والشرف العائليّ والنّسبيّ. فالمناطق كان الإسلام والإيمان والجهاد والتّضحية في سبيل الله لا غير. لاحظوا كيف أنّه صلى الله عليه وآله وسلم حدّد القيم على صعيد العمل، فقبل أن يترك كلامه بصماته على القلوب، كانت أعماله وسيرته وهديه يؤثرون في القلوب.

حماية النظام الإسلامي

بغية إنجاز هذه المهمة كان هناك ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: إرساء قواعد النظام من خلال إنجاز هذه الأعمال.

المرحلة الثانية: صيانة هذا النظام، فمن الطبيعي أن يكون هناك من يُعادي هذا الكيان المتنامي والمتعاظم الذي لو أحسَّ به أصحاب السلطة لشعروا بالخطر إزاءه. وإذا لم يتمكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حفظ هذا الوليد الطبيعي الميمون بحنكة في مقابل الأعداء، فسيزول هذا النظام وتذهب جهوده سدى، فلا بدَّ له من صونه.

المرحلة الثالثة: إكمال البناء وإعمارهِ، إذ لا تكفي عملية الإرساء وإنما هي الخطوة الأولى.

وهذه المراحل الثلاث تسير إلى جانب بعضها بعضاً عرضياً. إنَّ عملية إرساء القواعد تأتي بالدرجة الأولى، بيد أنَّه يتعيَّن الحذر من العدو أثناءها، وهكذا تأتي مرحلة الصيانة، حيث يتمّ خلالها الاهتمام ببناء الأشخاص والكيانات الاجتماعية ومن ثمَّ تتواصل في المراحل اللاحقة.



أعداء النظام الإسلامي

كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرى خمسة أصناف من الأعداء يترصّون بهذا المجتمع الفتي: **العدو الأول:** وهو عدو ضئيل الأهلية ومحدود، ولكن ينبغي عدم التغافل عنه في الوقت نفسه، فلربما يتسبب في بروز خطرٍ داهم. فمن هو هذا العدو؟ إنَّ القبائل شبه الهمجية التي تُحيط بالمدينة، فعلى بُعد عشرة أو خمسة عشر أو عشرين فرسخًا من المدينة تعيش قبائل شبه بدائية، جلّ حياتها عبارة عن الاقتتال وإراقة الدماء والإغارة والنهب والسلب. وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصبو إلى إقامة مجتمعٍ سليمٍ آمنٍ وواحدٍ في المدينة، فما عليه إلا أن يحسب لهؤلاء حسابهم، وهكذا فعل صلى الله عليه وآله وسلم، حيث تعاهد مع مَنْ تتوفّر فيه أمارات الصّلاح والهداية، ولم يُبادرهم بالدعوة للإسلام بادئ الرأي، بل عاهدهم مع بقائهم على كفرهم وشركهم بغية تجنّب انتهاكاتهم. لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ملتزمًا أشدّ الالتزام بتعهداته ومواريثه، وهذا ما سأتطرّق إليه أيضًا، لكنّه لاحقًا الأشرار ومَنْ لا عهد لهم وعالج مشكلتهم. وما يُذكر من بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم للسرايا، حيث كان يرسل الخمسين أو العشرين من المسلمين في سرايا، لملاحقة هؤلاء الذين تأبى طبيعتهم الوثام والهداية والصّلاح ولا يستقرّ لهم حال إلا بإراقة الدماء والتوسّل بالقوّة، فكان أن لاحقهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقمعهم وأخذ نازهم.

العدو الثاني: هو مكّة التي كان لها مركزية (بعض زعامات مكّة). وبالرغم من عدم وجود حكومة فيها بالمعنى المتعارف عليه، بيد أنّه كان هناك مجموعة من الأشراف المتكبرين العتاة أصحاب النفوذ يحكمون



مكة، وهم على اختلافهم، كانوا متحدين بوجه هذا المولود اليافع الجديد. وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم على علم بأن الخطر الجسيم إنما ينطلق منهم، وهذا ما حدث عملياً. أحسن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لو قعد حتى يأتوا بحثاً عنه فإنهم يقيناً لن يتوانوا عن ذلك وسوف يقتنصون الفرصة، لذلك ذهب في أثرهم، لكنه لم يقصد مكة. كان طريق قافلتهم يمر بقرب المدينة، فبادرهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالهجوم، وكانت معركة بدر أهم هذه الهجمات وفي طليعة الأعمال. لقد بادرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالهجوم، وهم أيضاً جاؤوا لمحاربة حضرته بدافع العصبية والغلظة والعناد.

(٢٠٠١/٠٥/١٨)

بحسب الوعد الإلهي، أخبر المسلمون أنهم سينتصرون على جماعة من الكافرين. وقد كان ذلك في السنة الثانية للهجرة. كانت القافلة، المحملة بأمتعة وبضائع قريش، قادمة من الشام إلى المدينة، لتعبر أطراف المدينة نحو مكة. وبمجرد أن اتضح لكفار قريش تهديد أبطال ومجاهدي العرب والمسلمين، حتى أرسلت قوات مسلحة إلى المدينة للدفاع عن متاعها وبضائعها. كان المسلمون يميلون أكثر لإيقاف القافلة المحملة بالثروة والمتاع، والتي لم يكن لديها أي دفاع يُذكر. أما حكم الله فقد قضى بأن يذهبوا لمواجهة القوات المسلحة لكفار قريش، ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَه تَكُونُ لَكُمْ﴾^{٢٣}. كان المسلمون يعلمون أنهم سينتصرون في هذه

^{٢٣} سورة الأنفال، الآية ٧.



المواجهة ولكنهم لم يكونوا يعلمون بأن ذلك سيكون على قوّات قريش المسلّحة، بل كانوا يظنّون أنّ انتصارهم سيكون على هذه القافلة التجارية العائدة من الشام. ولكنّ النبيّ بدّل طريقهم وأخذهم نحو المواجهة العسكريّة، فعبرت القافلة، لكنّ المسلمين التقوا بالكفّار في محلّة تُدعى بدرًا. فماذا كانت العلة من تبديل الله تعالى طريق المسلمين من مواجهة مع القافلة إلى مواجهة مع القوّات المسلّحة؟ السبب هو أنّ المسلمين كانوا يرون ما هو قريب وكانت إرادة الله ومشيتته تريد هدفًا بعيدًا، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾^{٢٤}. فإنّ الله تعالى أراد أن يعمّ الحقّ هذا العالم ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^{٢٥} وأراد أن يزهق الباطل، الذي هو بطبيعته زاهق. ألم يكن من المقرّر أن يقوم الإسلام بالقضاء على جميع القوى والسلطنات الشيطانية والطاغوتية؟ ألم يكن من المقرّر أن تصبح الأمة الإسلاميّة ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^{٢٦}؟ ألم يكن من المقرّر أن ترتفع راية الإسلام حقّاقةً على قمم الإنسانيّة والبشريّة؟ فمتى يكون ذلك؟ وكيف؟ وعن أيّ طريق؟

لقد كان المسلمون في ذلك الوقت يُفكّرون في أنفسهم أنّهم لو صادروا هذه القافلة الثرية، وحصلوا على بعض المال فإنّ الإسلام الفتيّ سوف يقوى. كانوا يُفكّرون بشكلٍ صحيح، لكن كان الفكر الأرقى والأكثر قيمةً في محلّ آخر. الفكر الأرقى هو أنّنا نحن المسلمون الذين نخطط بالنبيّ اليوم، قد

^{٢٤} سورة الأنفال، الآية ٧.

^{٢٥} سورة الأنفال، الآية ٨.

^{٢٦} سورة البقرة، الآية ١٤٣.



وصلنا إلى حدٍّ يُمكننا أن نُرسخ فكرنا وطريقنا في المجتمعات المستضعفة المحرومة وفي وسط عوالم الظلام والظلمانية، ففي هذا الخوض من المياه ما يُمكّنه من التدقّق لإرواء كلّ هذه الغرسات والأشجار والأراضي الميّتة واليابسة. هذه هي الفكرة الأرقى. فإذا كان من المقرّر أن يصل الإسلام إلى النصر الواقعيّ، وإذا كان من المقرّر أن تتحرّك هذه النواة الجليّة للإسلام نحو المناطق المستضعفة، وإذا كان من المقرّر أن تتساقط قصور الظلم والجور واحداً بعد الآخر، فينبغي أن يبدأ ذلك من مكانٍ ما. لم يكن المسلم المخلص المحبّ في صدر الإسلام يعلم من أين يبدأ، فعلمه الله تعالى ذلك وهيئاً له، أخرجته الله تعالى من أجل مصادرة بضائع قريش ليجرّه إلى معركةٍ لم يردها، فيتحقّق بذلك، مع قلة العتاد ولكن مع الإيمان الراسخ، تراجع العدوّ القهقريّ وفتح الطريق أمام سيّلان وجريان وتقدّم ونفوذ قوّة الحقّ وثبات طريقه، فلكي يفهم العدوّ أنّ الإسلام موجودٌ يجب أن يأخذه على محمل الجدّ. ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾^{٢٧}، لقد جعلناكم أيّها المسلمون في مواجهة الجيش الجرار للعدوّ من دون أن تريدوا ذلك، وذلك من أجل أن توجّهوا قبضتكم نحوه، فتظهر قدرة الله أمام ناظريه.

(١٩٨٠/١٠/٠٣)

بعد أن كان التّصير الإلهيّ في معركة بدر، بفضل الله ورحمته وبهمة المسلمين، من نصيب مجاهدي الإسلام، فإنّه لم يكن متوقّعا من العدوّ أن يُقلع عن عداوته بهذه السرعة، ولذلك بدأ بالتخطيط لمعركة أُحد.

وفي معركة أحد كان الأمر في البداية لصالح المسلمين بسبب اتحادهم وتوافقهم، واستطاعوا في البداية أن يهزموا المشركين، ولكن بعد أن حصلوا على النصر بسرعة، فإن أولئك الـ ٥٠ رجلاً الذين أمروا بحفظ منفذ الجبل من أيدي العدو، ومن أجل أن لا يتخلّفوا عن جمع الغنائم، تركوا مهمّتهم ولحقوا بالمسلمين الذين كانوا بدورهم مشغولين بجمع الغنائم. بقي عشرة أشخاص فقط من المسلمين عند ذلك الجبل وأدّوا ما عليهم، لكنّ العدو اغتنم هذه الفرصة والتفّ عليهم من خلف الجبل، وهجم على المسلمين من الشقّ والمنفذ الذي لم يكن عليه ما يكفي من الحرس. وقد دفع المسلمون ثمناً باهظاً بسبب هذا الهجوم، لم يُهزم الإسلام، ولكنّ انتصاره تأخّر بالإضافة إلى خسارة أبطالٍ جشعان وأعزّاء في هذا الطريق، كحمزة سيّد الشهداء. والله تعالى يدعو المسلمين إلى الاعتبار والتأمّل فيقول لهم إنّنا صدقنا وعدنا وقلنا إنكم ستنتصرون على العدو وقد انتصرتُم، ولكن بعد أن ظهرت فيكم تلك الحالات وتلك الخصال الثّلاث، تلقّيتُم الضربة، وتلك الخصال الثّلاث هي عبارة عن:

أولاً: ﴿فَشِلْتُمْ﴾، أي ضعفتُم وفقدتُم حماسكم وجهوزيتكم وثباتكم وإقدامكم.

ثانياً: ﴿وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، فشققتم وحدة الكلمة والصفّ.

ثالثاً: ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾^{٢٨}، فتحلّفتُم عن أوامر الرسول والقائد وأولئك الذين كانوا مسؤولين عن إدارة أموركم.

^{٢٨} سورة آل عمران، الآية ١٥٢.



فهذه الصفات الثلاث التي ظهرت فيكم أعطت العدو الفرصة ليلتفت عليكم ويوجه لكم ضربة وليسقط أعزّ أبناء الإسلام مضرجين بدمائهم، بالغين بذلك مقام الشهادة والمفاخر، وليخسر العالم الإسلامي بسبب هذا الأمر أمثال هذه الشخصية.

(١٩٨٠/٠٥/٠٩)

كانت معركة الخندق آخر المعارك التي شنت ضد النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وهي واحدة من أهمها - حيث استجمع كفار مكة كل قواهم واستعانوا بالآخرين أيضاً وقالوا فلنذهب ونقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبضع مئات من أنصاره المقربين ونهيب المدينة ونرجع مطمئنين، ولن يبقى بعدها عين ولا أثر للنبي ومن معه. وقبل أن يصلوا إلى المدينة كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد علم بالأمر فبادر إلى حفر خندق عرضه أربعون متراً تقريباً من الجهة التي يسهل اختراقها. كان ذلك في شهر رمضان والمناخ قارس البرودة، كما تنقل الروايات، ولم يهطل المطر ذاك العام، من هنا فقد عمّ الجذب وعانى الناس من المصاعب. كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر الناس عملاً في حفر الخندق، فحيثما وقعت عيناه على من أعياه العمل وأصابه الإرهاق ولم يعد قادراً على مواصلة العمل، كان صلى الله عليه وآله وسلم يتناول معوله ويمارس العمل المقرّر إنجازه عنه. فلم يسجل حضوره بإصدار الإيعازات فقط، بل كان يحضر بشخصه وسط جموع الناس. جاء الكفار مقابل الخندق، ولما أدركوا عجزهم أصيبوا بالإحباط والهزيمة وافتضح أمرهم فأجبروا على التراجع. عندها نادى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن الأمر قد انتهى، وهذه كانت آخر المعارك التي شنتها كفار مكة ضد المسلمين، وقد جاء دور المسلمين للتوجه نحو مكة وملاحقة الكفار.



بعد عام من تلك الواقعة أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم التوجه إلى مكة لأداء العمرة - وأثناء ذلك وقع صلح الحديبية الغني بالمعاني والأهداف - وكان مسير النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة في شهر محرم الحرام - حيث كانوا يُحْرَمُونَ فيه القتال - فأصبحوا في حيرة من أمرهم ما عساهم صانعين، أيسمحون له بالتقدم في مسيره؟ وماذا سيفعلون إزاء نجاحه هذا؟ وكيف يواجهونه؟ أيقاتلونهم وهم في شهر محرم؟ وكيف يقاتلونهم؟ وأخيراً قرروا عدم السماح له بالهجرة إلى مكة، وإبادته هو وأصحابه إن وجدوا لذلك مبرراً. تميّز تصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأسمى درجات التدبير، حيث قام بما دفعهم لأن يُبرموا معه صلحاً يقضي بأن يعود إلى المدينة على أن يأتي في العام القادم لأداء العمرة. وتوفرت الظروف جميعها أمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم من أجل التبليغ في كل أرجاء المنطقة وفتحت أمامه الأبواب. كان ذلك صلحاً، بيد أن الباري تعالى يُصرّح في كتابه بالقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^{٢٩}. ومن يُراجع مصادر التاريخ الصحيحة والموثقة يدهشه كثيراً ما جرى في واقعة صلح الحديبية. وفي العام التالي توجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأداء العمرة ورغم أنوفهم أخذت شوكته تزداد قوة يوماً بعد يوم. ولما نقض الكفار العهد في العام اللاحق - أي العام الثامن للهجرة - تقدّم نحوهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفتح مكة، فكان فتحاً عظيماً يُنبئ عن اقتدار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتمكّنه. وتأسيساً على ذلك فقد اتّسم تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع هذا العدو بالتدبير والاقتدار والتأني والصبر بعيداً عن الارتباك، ولم يتراجع أمامه ولو خطوة واحدة، بل كان

^{٢٩} سورة الفتح، الآية ١.



يتقدّم نحوه يومًا بعد يوم وآثًا بعد آن.

العدوّ الثالث: كانوا اليهود، أي الدّخلاء الذين لا يوثق بهم والذين أسرعوا بالتّعبر عن استعدادهم لمعايشة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة، لكنّهم لم يُقلعوا عن أعمال الإيذاء والتّحريب والخيانة. بالتدقيق جيّدًا، نجد أنّ قسمًا مهمًّا في سورة البقرة وبعض السور الأخرى من القرآن الكريم، ترتبط بطريقة تعامل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وصراعه الثقافيّ مع اليهود الذين كانوا على قدرٍ من العلم والوعي والثقافة، وكانوا يؤثّرون على أفكار ضعاف الإيمان من النّاس، ويحكون الدّسائس ويزرعون اليأس في قلوبهم ويثيرون الفتن بينهم، فكانوا يُمثّلون عدوًّا منظّمًا. وكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يسلك معهم سبيل المداواة ما أمكنه، لكنّه لما لمس منهم عدم استجابتهم لهذه المداواة بادر إلى معاقبتهم. ولم تأتِ مباغته النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لهم من دون سبب أو مقدّمات، بل إنّ كلًّا من هذه القبائل الثلاث ارتكبت أفعالاً فعاقبهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بما يوازي فعلتهم.

الأولى: "قبيلة بنو قينقاع": الذين خانوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فتوجّه نحوه وأمرهم بالجلّاء وأخرجهم من ديارهم تاركين ثرواتهم للمسلمين.

الثانية: "بنو النضير": الذين خانوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيضًا - وقصّة خيانتهم مهمّة - فأمرهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بحمل بعض أمتعتهم والرحيل، فاضطّروا لذلك وارتحلوا.

الثالثة: "بنو قريظة": الذين منحهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الأمان وسمح لهم بالبقاء في المدينة ولم يُخرجهم منها، وأبرم معهم عقدًا على ألاّ يسمحوا للعدوّ بالتسلّل من أحيائهم في معركة الخندق، لكنّهم غدروا وتعاقدوا



مع العدو على الوقوف إلى جانبه لمقاتلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي إنهم لم يكتفوا بتنصّلهم من عهدهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل في الوقت الذي بادر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حفر الخندق في الجهة التي يسهل اختراقها وسلّمهم الجهة، التي تقع عليها أحيائهم، ليمنعوا العدو من التسلّل عبرها، ذهبوا للتفاوض والتباحث مع العدو ليدخلوا معًا من تلك الجهة ويطعنوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الخلف.

وفي تلك الأثناء علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذه المؤامرة، وكان قد مضى ما يُقارب الشّهر على حصار المدينة، وقد وقعت خيانة هؤلاء في منتصف هذا الشهر، فلجأ صلى الله عليه وآله وسلم إلى عملٍ في غاية الذكاء، حيث أوقع الفتنة بينهم وبين قريش، ففضى على الثّقة التي تربطهم بقريش، وقد تجلّت بذلك واحدة من الخطط السّياسيّة العسكريّة الرائعة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم باغتهم حتى لا يتمكّنوا من توجيه أيّ ضربة للمسلمين. وبعد أن انهزمت فيه قريش وحلفاؤها وابتعدوا عن الخندق وعادوا إلى مكّة، رجع النبي إلى المدينة. وفي اليوم عينه الذي رجع فيه، صلّى صلى الله عليه وآله وسلم وسلّم الظهر، ثمّ دعا إلى صلاة العصر قبالة قلاع بني قريظة، فتوجّه نحوهم، أي أنّه لم يُمهّلهم ولو لليلة واحدة، فحاصرهم لمدة خمسة وعشرين يومًا تواصلت خلالها المناوشات بين الطّرفين. ثمّ إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قتل مقاتليهم لفداحة خيانتهم وعدم إمكانيّة إصلاحهم.

هكذا تميّز تعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع هؤلاء، أي إنّّه أزال عداوة اليهود من على طريق المسلمين - بشكل أساس في قضية بني قريظة، وقبلها مع بني النضير، وبعدها مع يهود خيبر - بكلّ تدبير وقوّة وإصرار مقترن بالأخلاق



الإنسانية العالية. وفي كل هذه المواطن لم ينتقض النبي صلى الله عليه وآله وسلم عهدًا أبدًا، وهذا ما يُدْعَن له حتى أعداء الإسلام، بل أولئك هم الذين نقضوا العهود.

العدو الرابع: كانوا المنافقون. كان المنافقون يعيشون بين الناس. وكانوا من الذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم. كانوا أشخاصًا منحطين ومعاندين وضيقي الأفق ومستعدين للتعاون مع العدو، لكنهم كانوا يفتقدون للتنظيم، وهذا ما كان يُبَيِّزهم عن اليهود. لقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتعامل مع العدو المنظم المتوثب لمهاجمة المسلمين كتعامله مع اليهود ولم يُعْطِهِم الأمان أبدًا، لكنه كان يتحمل العدو غير المنظم، ممن تلوّث أفراده بالعناد والعداوات والخبائث الفردية وعدم الإيمان، فلقد كان عبد الله بن أبيّ من ألد أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد عاصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى آخر سنة من عمره تقريبًا، إلا أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يتعامل معه تعاملًا سيئًا، مع علم الجميع بنفاقه، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُداريه ويُعامله كباقي المسلمين من حيث عطاؤه من بيت المال وصيانة أمنه وحرمة. كان ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم بالرغم من خبث هذه الفئة وإساءتها، وفي سورة البقرة آيات تختصّ بهؤلاء المنافقين.

ولما اتَّخَذَ تَجَمُّع بعض المنافقين طابع التنظيم قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم بملاحقتهم. ففي قضية مسجد ضرار، حيث اتَّخَذُوا منه مركزًا، كما أقاموا اتصالات مع عناصر من خارج النظام الإسلامي، من قبيل الراهب أبي عامر من بلاد الروم، وأعدّوا مقدمات تحشيد الجيوش لمحاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يستعينوا بجيش الروم ضد النبي. من هنا بادر إليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهدم المسجد الذي بنوه وأحرقه، معلنًا أنه ليس بمسجد بل هو بؤرة للتآمر على المسجد وعلى اسم الله وعلى الناس. أو تلك الحفنة



من المنافقين الذين أعلنوا كفرهم وخرجوا من المدينة وحشدوا قواهم فقاتلهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: لئن دنوا من المدينة لأخرجن لقتالهم. رغم أنه كان يوجد منافقون داخل المدينة، لكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتعرض لهم أبداً. وهكذا فقد واجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم الفئة الثالثة مواجهة منظمة صارمة، لكنه سلك طريق المداراة مع الفئة الرابعة لافتقادهم للتنظيم، ولأن الخطر الصادر عنهم يمثل خطراً فردياً. كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان غالباً ما يُجلبهم بسلوكه.

أما العدو الخامس: فكان عبارة عن العدو الكامن في باطن كل مسلم ومؤمن وهو الأخطر من بين جميع الأعداء. وهذا العدو معشش فينا أيضاً، إنه الأهواء النفسية والأنانية والجروح نحو الانحراف والضلال والانزلاق الذي يهيئ الإنسان بنفسه أرضيته. وقد خاض النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع هذا العدو صراعاً مريئاً. غاية الأمر أن آلة الصراع مع هذا العدو لا تتمثل بالسيف، بل بالتربية والتزكية والتعليم والتحذير. لهذا، عندما عاد المسلمون من الحرب مع كل ذلك التعب، قال لهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: "مرحباً بكم قضاة الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر". فتعجب المسلمون من قوله وسأله: ما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟! لقد خضنا غمار هذا الجهاد المريع، فهل من جهاد أكبر منه؟! قال: "جهاد النفس"^{٣٠}. فإذا ما صرح القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾^{٣١} فذلك لا يعني أنهم منافقون، بل بعض المنافقين في عداد الذين في قلوبهم مرض. ولكن ليس كل "الذين في

^{٣٠} الكافي، ج ٥، ص ١٢.
^{٣١} سورة التوبة، الآية ١٢٥.



قلوبهم مرض" هم من المنافقين، فربما يكون المرء مؤمناً لكن في قلبه مرض. فماذا يعني هذا المرض؟ إنه يعني ضعف الأخلاق والشخصية والشهوانية والجنوح نحو مختلف الأهواء التي إن لم يُبادر المرء للحد منها ومقارعتها فإنها ستسلب منه الإيمان ويقسو باطنه. وإذا ما سلب الإيمان من المرء، وأصبح قلبه بلا إيمان وظاهره مؤمناً، عندئذ يُسمى منافقاً.

فلو حلت قلوبنا، لا سمح الله، من الإيمان وبقي ظاهراً متلبساً بالإيمان، وقطعنا أواصر الإيمان وعلاقته، بيد أن ألسنتنا ظلت تلهج بالتعابير الإيمانية، فهذا هو التفاف وهو من الخطورة بمكان. والقرآن الكريم يُصرّح: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسَاءُوا السُّوَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾^{٣٢}، وذلك هو السوء المبين، ألا وهو التكذيب بآيات الله. ويقول في موضع آخر: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^{٣٣}. وهذا هو الخطر الكبير الذي يتهدّد المجتمع الإسلامي، وحيثما شاهدتم في التاريخ انحرافاً في المجتمع الإسلامي فمن هنا كانت بدايته. ربما يشنّ العدو الخارجي هجومه ويدمر ويحرب لكنه لا قدرة له على الإفناء. ففي النهاية سيبقى الإيمان، وينبعث في مكان ما ويؤتي أكله. غير أن جيوش العدو الداخلي إن هجمت على الإنسان وأفرغت باطنه إذ ذاك سيغال الانحراف سبيله، وأينما وجد الانحراف فإن منشأه يكون هو ذاك. ولقد تصدّى النبي صلى الله عليه وآله وسلم لهذا العدو أيضاً.

^{٣٢} سورة الروم، الآية ١٠.
^{٣٣} سورة التوبة، الآية ٧٧.

امتاز سلوك النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالتدبير والسرعة في العمل فلم يدع الفرصة تفوته في أي قضية. كان صلى الله عليه وآله وسلم طاهرًا قانعًا لا وجود لأي نقطة ضعف في وجوده المبارك. كان معصومًا نقيًا، وهذا بحد ذاته يمثل أهم عوامل التأثير. إن التأثير بالعمل هو أوسع وأعمق بدرجات من التأثير باللسان. لقد كان قاطعًا وصريحًا. ولم يتحدث النبي يومًا بلسانين. بالطبع، عندما كان يواجه العدو كان يستخدم معه أسلوبًا سياسيًا يوقعه في الخطأ، فلقد كان يُباغت العدو في الكثير من الحالات، سواء في المواقف العسكرية أم السياسية، لكنه كان صريحًا وشفافًا مع المؤمنين ومع قومه على الدوام، نقيًا واضحًا في كلامه بعيدًا عن الألاعيب السياسية، يُبدي المرونة في المواطن الضرورية - كما في قضية عبد الله بن أبي - ذات الأحداث المفصلة، ولم ينكث عهدًا مع قومه أو مع الفئات التي عاهدها وإن كانوا أعداء له، وخاصة مع كفار مكة، الذين نقضوا عهودهم فردّ عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ردًا قاطعًا، ولم ينقض صلى الله عليه وآله وسلم موثقا أبرمه مع أحد قط، لذلك كان الجميع على ثقة بالعهد الذي يُبرمه معهم.

ومن ناحية أخرى، لم يفقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم تضرّعه إلى الله سبحانه، وكان مواظبًا على توطيد أواصر علاقته بالباري جلّ وعلا يومًا بعد يوم. فلقد كان يرفع يد الضراعة إلى بارئه في تلك الأثناء التي ينظم عساكره ويحتّم ويحضّمهم على القتال، وفي ساحة الوغى، عندما كان يُمسك بسيفه ويقود جيشه بحزم أو يُعلّمهم ما يصنعون، كان يجثو على ركبتيه رافعًا يديه باكيًا مناجيًا ربّه سائلًا إياه العون والإسناد ودفع الأعداء. لم يؤدّ به الدّعاء إلى تعطيل قواه، ولا أن استثماره لقواه أغفله عن التوسّل والتضرّع



والارتباط بالله سبحانه، بل كان حريصاً على كلي الجانبين، لم يعتوره التردد أو الخوف وهو يواجه عدوًّا عنيداً، ولقد قال أمير المؤمنين عليه السلام - وهو مظهر الشجاعة - "كُنَّا كُلَّمَا اشْتَدَّ الْوُطَيْسُ لَدُنَّا بِرَسُولِ اللَّهِ"^{٣٤}، وكان يلوذ به كلٌّ من شعر بالضعف. استمرَّ حكمه عشر سنوات، لكن لو أردنا إيكال العمل، الَّذِي قد أنجزه خلال العشر سنوات هذه، إلى مجموعة مليئة بالنشاط لتقوم بإنجازه، فإنَّها لن تستطيع إنجاز كلِّ تلك الأعمال والخدمات والمساعي ولو على مدى مئة عام. فلو قارنَّا أعمالنا بما قام به النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، عندها سنُدرِك ما الَّذِي قام به. فإدارة الحكم وبناء ذلك المجتمع وصياغة ذلك النموذج بحدِّ ذاته هي أحد معجزات الرسول.

فعلى مدى عشر سنوات، عاشه النَّاسُ ليلاً ونهاراً، وتردَّدوا إلى داره وتردَّد هو إلى دورهم، وكانوا معه في المسجد وفي الطُّرقات وفي حلَّه وترحاله، وتحَمَّلوا الجوع معاً، وتذوَّقوا طعم السُّرور معاً، فقد كان الوسط الَّذِي يعيش فيه النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم مفعماً بالمسرة، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يُلاطف الآخرين ويُقيم السِّباقات ويشترك فيها. وعلى امتداد تلك السَّنوات العشر تعمَّقت محبة أولئك الَّذين عاشروه له وازداد إيمانهم به عمقاً ورسوخاً في قلوبهم. وعندما فتح صلى الله عليه وآله وسلم مكَّة، جاء أبو سفيان متخيِّفاً يلوذ بالعباس - عمِّ النَّبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم - إلى معسكر النَّبيِّ يطلب الأمان. ولما حلَّ الفجر، رأى النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يتوضَّأ وقد أحاط به القوم ليحظى كلٌّ منهم بقطرات الماء الَّتِي تتناثر من وجهه ويديه، فقال أبو سفيان: لقد رأيت كسرى وقيصر. وهما

^{٣٤} نهج البلاغة، ص ٣٦٨، وقول الإمام عليه السلام هو: "كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ اتَّقَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مَنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ".



من ملوك الدنيا المعروفين بجبروتهم وسطوتهم. لكنني لم أر عليهما مثل هذه العزة! أجل، فالعزة المعنوية هي العزة الحقيقية ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^{٣٥}، فالعزة من نصيب المؤمنين أيضاً، إن هم سلكوا ذات الطريق.

(٢٠٠١/٠٥/١٨)

^{٣٥} سورة المنافقون، الآية ٨.



تثبيت النظام الإسلامي

إنّ واقعة غدير خم هي واقعة مصيرية ومهمّة جدًّا في تاريخ الإسلام. ويمكن النّظر إليها من حيثيتين أو بعدين: الأوّل يختصّ بالشّيعه، والثاني يرتبط بجميع الفرق الإسلاميّة. وبالنظر إلى البعد الثاني لهذه الواقعة، يجب إيجاد هذه الرّوحية وهذا الشّعور عند جميع مسلمي العالم وهو أنّ عيد الغدير الذي يُذكر بهذه الواقعة الكبرى ليس مختصًّا بالشّيعه.

البعد الأوّل لهذه الواقعة، وكما ذكرنا، يختصّ بالشّيعه، لأنّ أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الواقعة قد نُصّب للخلافة من قِبَل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وفي ذلك اليوم وفي تلك الواقعة سئل رسول الله: يا رسول الله هل إنّ إعلانك هذا هو من نفسك أو من الله؟ فقال: "من الله ورسوله"^{٣٦}، أي إنّ أمر إلهي وكذلك هو مَنّي. فالشّيعه تُعظّم هذه الواقعة من هذه الجهة، لأنّ اعتقادهم بأنّ الخلافة المباشرة هي لأمر المؤمنين عليه السلام ترتبط بهذه الواقعة أكثر من سائر الدلائل. بالطّبع، إنّ البحث في مجال الاستنباط

^{٣٦} الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج على أهل اللجاج، تحقيق وتصحيح محمد باقر الخراسان، نشر المرتضى، مشهد، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، ج ١، ص ٨٢.



والاستدلال على هذه الواقعة في الكتب الكثيرة والمتنوعة على مرّ تاريخ الإسلام، قد استمرّ من اليوم الأوّل وإلى يومنا هذا. ولا أنوي هنا أن أضيف شيئاً على ما كتبته وذكرته آلاف الألسنة والأقلام بشأن هذا المطلب.

وأما البعد الثاني لهذه الواقعة والذي لا يقلّ أهميّة عن البعد الأوّل، فهو أمرٌ مشتركٌ بين الشيعة والسنة. وسوف أفصّل فيه قليلاً.

ما جرى هو أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي السنة العاشرة للهجرة، توجه إلى الحجّ مع جمعٍ من مسلمي المدينة وسائر مناطق الجزيرة العربية التي أسلمت. وفي هذا السفر، استفاد النبيّ الأكرم من حجّ بيت الله في بيان المفاهيم الإسلامية سواء على المستوى السياسيّ أم العسكريّ أم الأخلاقيّ أم العقائديّ، استفادةً كاملةً وحديثة بالذّكر، وقد نُقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطبتان إحداهما، على الظاهر، في اليوم العاشر (من ذي الحجة) أو قريباً منه، والأخرى في نهاية أيّام التشريق^{٣٧}. وعلى ما يبدو أنّهما كانتا خطبتين لا خطبةً واحدة. في هاتين الخطبتين، بيّن رسول الله جميع المسائل الأساسيّة التي ينبغي أن يلتفت إليها المسلمون بعمق وهي في الأساس قضايا سياسيّة. ويُدرّك الإنسان جيّداً كم أنّ أولئك الذين يفصلون بين الحجّ والقضايا السياسيّة في العالم الإسلاميّ اليوم، ويتصوّنون أنّ الحجّ ينبغي أن يكون عبادةً فقط، بالمعنى الرائج والعاديّ، وأنّ كلّ عملٍ سياسيّ هو عملٌ خارج عن نطاق الحجّ، كم أنّهم غرباء وبعيدون عن تاريخ الإسلام وعن سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

^{٣٧} يُطلق هذا الاسم على الأيام من ١١ إلى ١٣ من شهر ذي الحجة. ويطلق عليها في القرآن (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ذُكِّرُوا بِهَا الْيَوْمَ بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ، الآية ٢٠٣).

ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هاتين الخطبتين من مسائل، وقد ذكرت في بعض كتب الشيعة والسنة بالإجمال، هي هذه. لقد تحدّث أولاً عن الجهاد، وطرح قضية الجهاد ضدّ المشركين والكفار، وأعلن أنّ الجهاد سيستمرّ حتّى تنتشر كلمة لا إله إلا الله في كلّ العالم. وبشأن الوحدة الإسلامية بيّن رسول الله في هذه الخطب عدّة مطالب، وصرّح أنّ على المسلمين أن لا يقتتلوا فيما بينهم، وأكّد على وحدة المسلمين وانسجامهم. وفيما يتعلّق بالقيم الجاهليّة صرّح بكلام واضح، أنّ هذه القيم بنظر الإسلام هي لا شيء ولا قيمة لها "ألا إنّ كلّ مالٍ ومأثرةٍ ودمٍ يُدعى تحت قَدَمَيّ هاتين"^{٣٨}، فقد تبرّأ من القيم الجاهليّة بالكامل. وكلّ الخلافات الماليّة الّتي كانت بين المسلمين من أيّام الجاهليّة، كأن يكون أحدهم قد أقرض أخاه وله عليه ربا، فإنّه أصبح منسوخاً، "ألا وكلّ ربا كان في الجاهليّة فهو موضوع وأول موضوع منه ربا عمّي العباس"^{٣٩}، الّذي كان قد أقرض في الجاهليّة كثيرين وله عليهم ربا، فقد أعلن النّبّي أنّه رفعه ونسخه. وقد أكّد على قيمة التقوى كأعلى قيمة إسلامية، وصرّح أنّه لا فضل لأحدٍ على أحدٍ إلا بالتقوى. وبيّن ضرورة النصيحة لأئمّة المسلمين، أي التدخّل في القضايا السياسيّة وإبداء الرأي للحكّام والأئمّة وجعل ذلك كفريضة، حيث يجب على جميع المسلمين أن يُسندوا للحكّام الإسلاميّين نصيحتهم وآراءهم النافعة.

^{٣٨} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢١، ص ١٠٥.
^{٣٩} م.ن، ج ٣٧، ص ١١٣.



ضمانة النّظام الإسلامي

لقد بيّن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هاتين الخطبتين المسائل السياسيّة والاجتماعيّة الأساس للعالم الإسلاميّ. وفي هاتين الخطبتين ذكر حديث الثقلين أيضاً، وهو حديث قال فيه: "إنّي قد تركتُ فيكم أمرين (نفيسين) لن تضلّوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير قد عهد إليّ أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، كهاتين (السابتين) وجمع بين مسبّحتيه، ولا أقول كهاتين وجمع بين المسبّحة والوسطى، فتسبق إحداهما الأخرى فتمسّكوا بهما...".^{٤٠}

وقد عرض قضية العترة. وبعد إنهاء أعمال الحجّ توجّه مباشرةً إلى المدينة. وأثناء الطريق، وعلى مفترق ثلاثة طرق، حيث كان ينبغي أن تفترق القوافل اليمينيّة عن قوافل المدينة، وقف صلى الله عليه وآله وسلم في محلّة يُقال لها "غدير خم"، وكما نقل الشاهد والحاضر، أنّ الحرارة كانت شديدة إلى درجة أنّه لو وضعوا قطعة لحمٍ على الأرض لشوّيت، ففي مثل هذه الحال وقف صلى الله عليه وآله وسلم على مرتفعٍ ونادى في النّاس، وعندما رأى الجميع أعلن قضية الولاية، "من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه"^{٤١} وأخذ بيد أمير المؤمنين عليه السلام ورفعها حتّى يراها الجميع. وفي رواياتٍ عديدة نُقل أنّه شوهد بياض إبّطي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، عندما رفع يده من أجل أن يظهر الأمر للنّاس جميعاً، هذه هي الواقعة في الإجمال.

^{٤٠} الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤١٥.

^{٤١} م.ن، ج ١، ص ٤٢٠.



إنَّ البُعدَ الَّذي هو مورد نظري . البعد التَّوَلَّى الإسلاميَّ والمتعلِّق بالفرق الإسلاميَّة الَّتِي لا تنحصر بالشيعة . هو أنَّه لو فرضنا أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الإعلان، الَّذي حصل حتمًا وقد صدر عنه هذا الكلام، لو فرضنا أنَّه لم يُرد أن يُبيِّن أنَّ خليفته المباشر هو أمير المؤمنين عليه السلام، فإنَّه بالحدِّ الأدنى أراد أن يُثبَّت الولاء والرابطة العميقة للمسلمين مع أمير المؤمنين عليه السلام وعترته. والسبب في أنَّ النَّبيَّ قرن عترته بالقرآن سواء في خطبة منى أم في حديث الثقلين . وعلى ما يبدو أنَّ هذا الحديث قد صدر عن النَّبيِّ عدَّة مرَّات . وأيضًا في حديث الغدير وفي هذه الواقعة . الَّتِي يُركِّز فيها على أمير المؤمنين عليه السلام وشخصه . أنَّه أراد أن يُثبَّت هذه الرابطة من أجل أن يُظهر للنَّاس وعلى مرَّ الزمان نماذج كاملة للإنسان الَّذي يريده الإسلام ويكون ذلك لجميع الأجيال الآتية. فيجعل النموذج الكامل للإنسان بصورة مجسَّمة وعينية بحالاته الواضحة الَّتِي لا شكَّ فيها أمام أعين جميع البشر، وليقول إنَّ التربية الإسلاميَّة ينبغي أن تكون في هذا الاتجاه، وإنَّ شخصيَّة الإنسان المسلم هي تلك الشَّخصيَّة الَّتِي تجعل غايتها ونموذجها هذا الإنسان الكامل.

هؤلاء الَّذين كانت طهارتهم وعلومهم وتقواهم وصلاتهم وعبوديتهم لله، واطَّلاعهم على القضايا الإسلاميَّة، وتضحيتهم وشجاعتهم من أجل تحقُّق الأهداف والقيم الإسلاميَّة، وإيثارهم واضحٌ بيِّنٌ للجميع. لقد تمَّ تعريف أمير المؤمنين عليه السلام كنموذج يمكن للنَّاس أن يرتبطوا به سواء كان في ذلك الزَّمان أم في الأزمان الآتية. وهنا، وإن لم تتحقَّق الخلافة المباشرة عمليًّا إلَّا بعد مرور ٢٥ سنة، فإنَّه في النَّهاية صار خليفة النَّبيِّ،



وثبت مقام إمامته، وقبل به جميع المسلمين، كفرّد، إمامًا للمجتمع. هذه الخصوصية، وهذه الرّابطة الموجودة عند جميع المسلمين مع هذه الشّخصيّة، التي يقبل الجميع أنّها خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. كلّ ما هنالك أنّ بعض النّاس يقول إنّ الخليفة المباشر وبعض يعتقد بخلاف ذلك، وإنه خليفة بعد ٢٥ سنة. هذه الشّخصيّة التي يقبل جميع المسلمين بها على أنّها خليفة يجب أن تكون لجميع المسلمين أنموذجًا خالّدًا وقُدوةً كاملة للإنسان الإسلاميّ. ويجب أن تبقى هذه الرابطة بينه وبين جميع المسلمين وإلى الأبد كرابطة فكريّة واعتقاديّة وعاطفيّة وعملية.

فمن هذه النّاحية، لا يختصّ أمير المؤمنين عليه السلام بالشيعة، بل هو لجميع المسلمين. كما أنّ هذا الكلام لا يختصّ بأمر المؤمنين عليه السلام بل يشمل العترة الشّريفة وأئمّة الشيعة الذين هم من أولاده، الذين هم أيضًا من العترة، والذين يجب أن يبقوا دائمًا كنماذج كاملة للإنسان الإسلاميّ في أعين المسلمين. هذه قضية.

وبجعل العترة إلى جانب القرآن وبالإعلان عن ضرورة الارتباط بين المسلمين والعترة، بيّن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في الحقيقة الموقف تجاه كلّ أنواع التحريف الذي سيتعرّض له القرآن والانحراف عن المفاهيم القرآنيّة الأساس. فحينما تقوم الأجهزة الجائرة بتحريف المفاهيم الإسلاميّة من أجل منافعها وتُسيء إلى معاني القرآن وتُفسّر القرآن بصورة خاطئة وتُضللّ المسلمين وتحرمهم من فهم الدّين الإسلاميّ، فإنّ ذاك المرجع والخور والقطب، الذي ينبغي أن يوعّي النّاس حول الحقيقة والمفاهيم والمعارف الصحيحة ويُنحي النّاس من الضلالة وعليهم أن



يستمعوا إليه، هو العترة الطاهرة.

وهذا هو الأمر الذي يُعدّ اليوم بالنسبة للعالم الإسلامي ضرورة ومطلباً لازماً. يحتاج جميع المسلمين اليوم أن ينهلوا المعارف الإسلامية عن طريق أهل بيت النبي، دون فرق بين أن يكونوا معتقدين بأن الإمامة المباشرة هي لأمر المؤمنين ولأولاده أو لا. وبالطبع، فإن الشيعة يعتبرون بأن العقيدة الحقّة والاستفادة القطعية من هذا الحديث هي الخلافة المباشرة، فهم يعتقدون بذلك ويتمسكون به. والذين لا يعتقدون بذلك ولا يتمسكون به - أي الإخوان من أهل السنّة - لا ينبغي أن يقطعوا رابطتهم الفكرية والعقلانية والاعتقادية والعاطفية بالعترة وبأمر المؤمنين عليه السلام. لهذا فإن قضية الغدير من هذا البعد الثاني، الذي هو بعد إيجاد الرابطة بين عليّ بن أبي طالب وعترة النبي من جهة وجميع المسلمين من جهة ثانية، هي قضية لجميع المسلمين.

(١٩٨٧/٠٨/١٤)

مستقبل النظام الإسلامي

إنّ قضية الغدير ليست قضية تاريخية بحتة، بل إنّها علامة على جامعية الإسلام. وإذا ما افترضنا أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم يترك للأمة منهاجاً لبناء مستقبلها، بعد عشر سنوات أمضاها في تحويل ذلك المجتمع البدائي، الملوّث بالعصبيات والخرافات، إلى مجتمع إسلامي راقٍ، بفضل سعيه الدؤوب وما بذله أصحابه الأوفياء من جهود، لظلت كلّ تلك الإنجازات مبتورة وبلا جدوى.



لقد كانت تراكمات العصبية الجاهلية على قدرٍ عظيم من العمق، بحيث إنها كانت بحاجة إلى سنوات طويلة للتغلب عليها والتخلص منها. لقد كان كل شيء على ما يرام كما يظهر، وكان إيمان الناس جيّدًا، حتّى ولو لم يكونوا على مستوى واحد من العقيدة. فبعضهم كان قد اعتنق الإسلام قبل وفاة الرسول الأكرم بعامٍ واحد أو ستّة أشهر أو عامين، وذلك بفضل هيمنة البنية العسكرية التي أسسها النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع ما رافقها من حلاوة الإسلام وجاذبيته. لم يكونوا جميعًا من طراز المسلمين الأوائل من حيث العمق، ولهذا فقد كان من الضروريّ اتّخاذ ما يلزم من التدابير بغية إزالة تلك التراكمات الجاهلية من أعماق المجتمع الجديد، والحفاظ على خطّ الهداية الإسلامية سليمًا ومستقيمًا بعد عشر سنوات من زمن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك لأنّ جهوده الجبّارة خلال تلك السنوات العشر ستبقى بلا ثمار فيما لم يتمّ اتّخاذ تلك التدابير. وهذا ما صرّحت به الآية المباركة من سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^{٤٢} فهذه إشارة إلى أنّ هذه النعمة هي نعمة الإسلام ونعمة الهداية ونعمة إرشاد العالمين جميعاً إلى الصراط المستقيم. وهذا ما لا يمكن أن يتمّ بلا خارطة للطريق بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا أمرٌ طبيعيّ. وهذا عين ما فعله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الغدير، حيث نصّب للولاية خليفةً ممتازاً لا نظير له وهو أمير المؤمنين عليه السلام، لما كان يتمتّع به من شخصيّة إيمانيّة

^{٤٢} سورة المائدة، الآية ٣.



فريدة، وأخلاق سامية حميدة، وروح ثورية وعسكرية متميزة، وسلوكٍ راقٍ مع جميع الناس، وأمر الناس باتباعه.

ولم يكن هذا من عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بل كان هداية ربانية وأمرًا إلهيًا وتنصيصًا من الله تعالى، كما هو شأن كافة أقوال وأفعال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم التي كانت وحيا إلهيا، وهو الذي لا ينطق عن الهوى. لقد كان هذا أمرا إلهيا صريحا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقام بتنفيذه وإطاعته. وهذه هي قضية الغدير، أي بيان جامعية الإسلام وشموليته، والتطلع إلى المستقبل، وذلك الأمر الذي لا تتم هداية الأمة الإسلامية وزعامتها إلا به. فما هو ذلك الأمر؟ إنها تلك الأمور التي تجسدها شخصية أمير المؤمنين، أي التقوى والتدين والإيمان الراسخ وعدم التوكل إلا على الله، وعدم السير إلا في سبيله، والجِد والاجتهاد في طريق الحق، والاتصاف بالعلم، والتميز بالعقل والتدبير، والتمتع بقدرة العزم والإرادة. إنه عملٌ واقعيٌ ونموذجيٌ في نفس الوقت. لقد نُصّب أمير المؤمنين عليه السلام لآتصافه بتلك الخصوصيات، التي باتت لازمة في كل زعيم للأمة الإسلامية، أيّا كان، مدى الدهر، أي إنّ هذا هو النموذج الأمثل للقائد الإسلامي على مدى حياة الإسلام، وهو ما تجسّد في الاصطفاء الإلهي لأمير المؤمنين عليه السلام. والغدير هو هذه الحقيقة.

(٢٠٠٧/٠١/٠٨)

الفصل الثاني: الإمامة

- الإمامة في الفكر الشيعي.
- المراحل الأربع لمسيرة الإمامة.

الإمامة في الفكر الشيعي

الإمامة في الإسلام

الإمامة هي تلك القمة للمعنى المنشود من إدارة المجتمع، قبال ضروب وأصناف الإدارة المنبثقة من مكان من الضعف والشهوة والحمية في الإنسان ومطامعه. والإسلام يطرح أمام البشرية نهج الإمامة ووصفتها، أي ذلك الإنسان الطافح قلبه بفيض الهداية الإلهية، العارف بعلوم الدين المتميز بفهمه. أي الذي يجيد تشخيص الطريق الصحيح. ذو القوة في عمله ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾^{٤٣}، ولا وزن لديه لنفسه ورغباته الشخصية، في حين أن أرواح الناس وحياتهم وسعادتهم تمثل كل ما لديه. وهذا ما عبّر عنه أمير المؤمنين عليه السلام عملياً أثناء حكمه الذي استمر أقل من خمس سنوات. تلك الفترة التي كانت أقل من خمس سنوات، تمثل أنموذجاً يُحتذى لن تنساه البشرية أبداً، وسيبقى خالداً وضياءً لقرونٍ متتالية. وهذه هي ثمرة واقعة الغدير، والدّرس والمغزى والتفسير المستقى منها.

(٢٠٠٢/٠٣/٠٣)

^{٤٣} سورة مريم، الآية ١٢.



إنّ كلمة "الإمامة" الّتي تعني في الأصل القيادة بمعناها المطلق، غالبًا ما تُطلق في الفكر الإسلاميّ على مصداقها الخاصّ، وهو القيادة في الشّؤون الاجتماعيّة والفكريّة والسياسيّة. وأينما وردت في القرآن مشتقّات لكلمة الإمامة . كإمام، وأئمّة . يُراد بها هذا المعنى الخاصّ، أي قيادة الأئمة وقُدوتها. سواءً القيادة الفكريّة، أم القيادة السياسيّة، أم الاثنين معًا. وبعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وظهور الانشقاق الفكريّ والسياسيّ بين المسلمين، اتّخذت كلمة الإمامة والإمام مكانة خاصّة، حيث إنّ مسألة القيادة السياسيّة شكّلت المحور الأساس للاختلاف. وكان لهذه الكلمة في البداية مدلولها السياسيّ أكثر من أيّ مدلولٍ آخر، ثمّ انضمت إليها بالتدرّج معاني أخرى، حتّى أصبحت مسألة "الإمامة" تُشكّل في القرن الثاني الهجريّ أهمّ مسائل المدارس الكلاميّة ذات الاتجاهات الفكريّة المختلفة، وكانت هذه المدارس تطرح أراءها بشأن شروط الإمام وخصائصه، أي شروط الحاكم في المجتمع الإسلاميّ، وهو معنًى سياسيّ للإمامة. في هذه القضية، جرت العادة أن يتمّ الحديث عن شروط وخصائص الإمام . أي حاكم المجتمع وزعيمه . وكان لكلّ فرقة في هذا المجال عقيدة وكلام.

إنّ للإمامة في مدرسة التشيع - الّتي يرى أتباعها أنّها أكثر القضايا الفكريّة الإسلاميّة أصالةً . المعنى نفسه أيضًا. وتتلخّص نظريّة هذه المدرسة بشأن الإمام بما يلي:

يجب أن يكون الإمام والزعيم السياسيّ في المجتمع الإسلاميّ منصوبًا من الله، بإعلانٍ من النبيّ، وأن يكون قائدًا فكريًّا ومفسّرًا للقرآن وعالمًا بكلّ دقائق الدّين ورموزه، وأن يكون معصومًا مبرأً من كلّ عيب



خلقي وأخلاقي وسبيي، ويجب أن يكون من سلالة طاهرة ونقية، ويجب، ويجب...وبذلك فإن الإمامة في عُرف مسلمي القرن الأول والثاني كانت تعني القيادة السياسية، وفي العرف الخاصّ بأتباع أهل البيت، تعني إضافةً إلى القيادة السياسية، القيادة الفكرية والأخلاقية أيضًا.

فالشيعة تعترف بإمامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتعًا بخصائص هي - إضافةً إلى مقدرته على إدارة الأمور الاجتماعية - مقدرته على التوجيه والإرشاد والتعليم في الحقل الفكري والديني، والتركيز الأخلاقي. وما لم تتوفر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يُعترف به كإمام بحق. وفي نظرهم، لا يكفي حسن الإدارة السياسية والاقتدار العسكري والصّلاح وفتح البلدان وأمثالها من الخصائص.

إذًا، بناءً على فهم الشيعة للإمامة، فإنّ إمام أيّ مجتمع هو تلك القدرة الفائقة التي توجّه وتقود الحركة الجمعيّة والفردية لأبناء المجتمع وفي الوقت نفسه يكون معلّم الدين والأخلاق والموجه لحياة الناس ومساعدتهم. ومن هنا، كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إمامًا أيضًا، لأنّه كان القائد الفكري والسياسي للمجتمع الذي أقام بنفسه دعائه. وبعد النبي، تحتاج الأمة إلى إمام يخلفه ويتحمّل عبء مسؤولياته، (بما في ذلك المسؤولية السياسية). ويعتقد الشيعة أنّ النبي نصّ على خلافة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ثمّ تنتقل الإمامة من بعده إلى الأئمة المعصومين من ولده (ولأجل المزيد من التفاصيل والأدلة ينبغي الرجوع إلى الكتب المتعلقة بهذا المجال).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ تداعل المهامّ الثلاث للإمامة: القيادة السياسية، والتعليم الديني، والتهديب الأخلاقي والروحي في الخلافة



والحكومة الإسلامية - حيث جعلت الإمامة والحكومة الإسلامية ذات أبعاد وجوانب ثلاثة، كما بيّنه بعض المفكرين البارزين في هذا الزمان تبياناً صحيحاً . ناشئ من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الإسلامي للحياة البشرية. فقيادة الأمة يجب أن تشمل هذه الحقول الثلاثة أيضاً. وبسبب هذه السعة وهذه الشمولية في مفهوم الإمامة لدى الشيعة، كان لا بد أن يُعيّن الإمام من قبل الله سبحانه.

نستنتج ممّا سبق أنّ الإمامة ليست، كما يراها أصحاب النظرة السطحية، مفهوماً مقابلًا لـ "الخلافة" و "الحكومة"، أو منصباً منحصرًا بالأمر المعنوي والروحي والفكري، وإنما في الفكر الشيعي تعني "قيادة الأمة" في شؤون دنياها وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية للناس في المجتمع (رئيس الدولة)، وأيضًا في شؤون التعليم والإرشاد والتوجيه المعنوي والروحي، وحلّ المشاكل الفكرية وتبيين الأيديولوجية الإسلامية، "القائد الفكري".

هذه المسألة الواضحة أضحت، مع الأسف، غريبة على أذهان أكثر المعتقدين بالإمامة، ولذلك نرى أنّ عرض بعض النماذج من مئات الأدلة القرآنية والحديثية، ليس بالأمر الكثير كما يبدو، في هذا المجال: في كتاب "الحجة" من "الكافي" حديثٌ مفصّل عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الإمام ووصف الإمام، ويتضمّن معاني عميقة ورائعة.

من ذلك ما ورد بشأن الإمامة من أنّها: "منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ومقام أمير



المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام، إنّ الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السّامي، بالإمام تمام الصلاة والزّكاة والصيام والحجّ والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف".

وحول الإمام أنّه: "النجم الهادي، والماء العذب، والمنجي من الرّدى، والسّحاب الماطر، ومفزع العباد في الدّاهية، وأمين الله في خلقه، وحجّته على عباده، وخليفته في بلاده، والدّاعي إلى الله، والذّابّ عن حرم الله، ونظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين"^{٤٤}.

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصادق ذكر صراحةً: أنّ كلّ ما كان يُمارسه النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من مسؤوليّات ومهامّ يتحمّلها الإمام عليّ عليه السلام والأئمّة من ولده أيضاً^{٤٥}.

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصّادق عليه السلام نرى تأكيداً على إطاعة "الأوصياء"، وتوضيح الرواية^{٤٦} أنّ الأوصياء هم أنفسهم الذين عبّر عنهم القرآن بـ ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾^{٤٧}.

^{٤٤} الكافي، ج ١، ص ٢٠٠.
^{٤٥} م.ن، ج ١، ص ١٩٦، نص الحديث: "جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم. وكذلك يجري الأئمة الهدى واحداً بعد واحد... ولقد حملت على مثل حمولة..."
^{٤٦} م.ن، ج ١، ص ١٨٩.
^{٤٧} سورة النساء، الآية ٨٣.



إنّ مئات الروايات المتفرقة في الأبواب والكتب المختلفة، تُصرّح أنّ مفهوم الإمام والإمامة في الثقافة الشيعية ما هو إلّا القيادة وإدارة شؤون الأمة المسلمة، وأنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الأصحاب الحقيقيون للحكومة. وتدلّ جميع (هذه الروايات)، بما لا يُبقي أيّ شكّ أو تردد، لأيّ باحثٍ منصف، على أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام في ادّعائهم الإمامة ذهبوا إلى ما هو أبعد من المقام الفكريّ والمعنويّ، ليطالبوا بالحكومة أيضًا كحقّ ثابتٍ لهم. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل إنّما هي دعوة لنضالٍ سياسيٍّ عسكريٍّ لتسلّم السّلطة.

(قيادة الصادق عليه السلام، ص ٩٦ - ٤٧)

الإمامة والحكومة

لو تصوّر أحدٌ أنّه لم يكن للأئمة من الإمام السجّاد إلى الإمام العسكريّ عليه السلام، سوى ذكر أحكام الدّين ومعارفه، وأنّه لم يكن لهم أيّ نوع من الجهاد السياسيّ بما يتناسب مع زمانهم، فإنّه حتمًا لا يكون قد حقّق غورًا كافيًا في حياة هؤلاء العظماء. فهذا ما يبرز بوضوح من أحوال هؤلاء العظماء. وفي الأساس لا يمكن قبول معنى الإمامة في الإسلام وفي الفلسفة التي يطرحها الشيعة حولها سوى من هذا الطّريق وبما يتناسب معه. وحتى لو لم يكن لدينا دليلٌ واضحٌ على جهاد الأئمة، ينبغي أن نعتقد أنّه وإن لم يكن لدينا علم ولم يصلنا، فإنّهم كانوا يجاهدون. ولا يمكن أن نعلم بوجود معنى للإمامة على هذا التّحوّل في ثقافة الإسلام. ليس فقط في ثقافة التشيع - وأن نكون معتقدين به وفي الوقت نفسه نقبل



مثلاً بأنّ أئمتنا عليهم السلام، جلسوا في بيوتهم طيلة المئة والخمسين سنة أو أكثر، ووضعوا كُفّاً على كف وشغلوا أنفسهم ببيان أحكام القرآن والمعارف الإسلامية دون أن يكون لهم أيّ مواجهة سياسية، فمثل هذا الشيء ليس صحيحاً بأيّ شكلٍ من الأشكال. بالطبع، عندما نقول إنّ الأئمة جاهدوا، يجب علينا أن نلتفت إلى أنّ الجهاد يكون في كلّ زمانٍ بشكلٍ خاصّ. فأحياناً، يكون الجهاد من خلال العمل الثقافيّ، والعلميّ، والسياسيّ، والتنظيميّ، والحزبيّ، وتأسيس المنظّمات، وأحياناً أخرى من خلال الأعمال الدمويّة والأنشطة العسكريّة والقتال الظاهريّ. وفي كلّ زمانٍ جهادٌ بنحوٍ ما.

(١٩٨٧/٠٧/٣١)

من الممكن أن يُشكل البعض قائلاً: كيف كان الأئمة عليهم السلام يُجاهدون ويُناضلون من أجل الإمساك بالحكومة، في حين أنّهم كانوا يعلمون بعلمهم الإلهيّ بأنّهم لن يصلوا إلى الحكومة؟ فمن المعلوم أنّ حياة الأئمة عليهم السلام تدلّ على أنّهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى الحكومة، ولم يُشكّلوا المجتمع والنظام الإسلاميّ بحسب ما يروونه وبحسب تكليفهم. لكن كيف يُمكن للأئمة أن يقوموا بهذا الأمر، مع أنّهم كانوا يعلمون وقد اطلّعوا بواسطة الإلهام الإلهيّ على ذلك؟

والجواب عن هذه الفكرة: إنّ معرفة عدم الوصول إلى الهدف لا تمنع من أداء الوظيفة والتكليف. فعلى سبيل المثال نجد في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه كان يعلم بجزمة المسلمين في معركة أُحد، وكان يعلم أنّ أولئك الذين وقفوا على كتف الجبل لن يصمدوا وسوف تُحرّكهم أطماعهم نحو الغنائم. وكذلك عندما ذهب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف من أجل هداية بني ثقيف، ولجأ



إليهم من شرّ أهل مكّة، كان يعلم أنّهم سيستقبلونه بالحصى والحجارة، لقد رموه بالحجارة إلى درجة أنّ الدّم سال من ساقيه المباركتين واضطّر إلى الرجوع. والأئمة عليهم السلام كانوا يعلمون ذلك كلّهم. كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم أنّه سوف يستشهد في الواحد والعشرين من شهر رمضان، لكنّه في الوقت نفسه، وقبيل شهر رمضان، أقام معسكرًا كبيرًا خارج الكوفة من أجل أن يكمل حربه على معاوية. لو كانت معرفة أمير المؤمنين عليه السلام موجبة لأن لا يعمل طبق المسار العاديّ، فلماذا نصب ذاك المخيم؟! ولماذا جيّش الجيوش فأخرج النّاس إلى خارج الكوفة وجعلهم ينتظرون؟! لماذا؟! ما هي الفائدة؟! إنّ معرفة الأئمة عليهم السلام بأنّهم لن يصلوا إلى الحكومة لا ينبغي أن تؤدّي إلى إيقاف مساعيهم. بل يجب السّعي والجهاد والقيام بكلّ ما ينبغي كشخصٍ لا يعلم ما ينتظره.

(١٩٨٥/٠٤/٢١)

المراحل الأربع لمسيرة الإمامة

ظهرت مسيرة الإمامة منذ اليوم الأول لرحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم - في شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة - واستمرت حتى عام وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام - في شهر ربيع الأول سنة ٢٦٠ هـ - وسط مجتمع المسلمين. وطوت المسيرة، خلال هذه السنوات، أربع مراحل بصورة تقريبية، وكان لكل مرحلة خصائصها بلحاظ مواقف الأئمة عليهم السلام مقابل القوى السياسية المهيمنة.

المرحلة الأولى: هي مرحلة السكوت، أو مرحلة التعاون مع الحكّام والسلطات.

تميّزت هذه المرحلة بأنّ المجتمع الإسلامي الحديث الولادة والفتيّ كان مخفوفاً بأعداءٍ مقتدرين ترتّبوا بالإسلام من الخارج، وبوجود عناصر من جماعات حديثة العهد بالإسلام، لا تتحمّل أن ترى تشتتاً في المجتمع الإسلامي، وكلّ ثغرة في جسد الأمة كانت تُشكّل تهديداً لأساس المجتمع الإسلامي ووجوده. ومن جانبٍ آخر، لم يكن منحنى انحراف الواقع عن الحقيقة كبيراً بحيث لم يعد قابلاً للتحمل



بالنسبة لشخص مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . الذي هو أحرص الناس على سلامة الرسالة وسلامة المجتمع الإسلامي وأكثرهم التزامًا بها - ولعلّ هذه الحالة التي حدثت في المجتمع الإسلامي، هي التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين أوصى تلميذه الفدّ بالصبر عند وقوعها^{٤٨}.

لقد استوعبت هذه المرحلة التي امتدت لـ ٢٥ سنة حياة الإمام علي عليه السلام منذ وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - عام ١١ للهجرة - حتى تولّيه الخلافة - سنة ٣٥ للهجرة. وقد شرح الإمام موقفه في هذه المرحلة من خلال الكتاب الذي وجهه إلى أهالي مصر، عبر مالك الأشتر عندما ولّاه إمارتها، حيث جاء فيه: "فأمسكت يدي، حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلمًا أو هدمًا تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم،... فنهضت في تلك الأحداث"^{٤٩}.

إنّ حياة أمير المؤمنين عليه السلام في هذه السنوات الـ ٢٥ لهذه المرحلة، تحكي عن التدخل الفعّال والدعم والعون الناتج من الحرص الكبير على الإسلام ومجتمع المسلمين. إنّ أجوبة وإرشادات هذا الإمام لخلفاء زمانه، فيما يتعلّق بالقضايا السياسيّة والاجتماعيّة وغيرها، قد نُقلت في نهج

^{٤٨} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٨، ص ٢١٠. عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يا علي إن القوم نقضوا أمرك واستبدّوا بها دونك وعصوني فيك فعليك بالصبر حتى يُنزل الله الأمر، وإنهم سيغدرون بك لا محالة فلا تجعل لهم سبيلًا إلى إذلالك وسفك دمك، فإن الأمة ستغدر بك بعدي، كذلك أخبرني جبرئيل عليه السلام من ربي تبارك وتعالى".

^{٤٩} نهج البلاغة، ص ٤٥١.



البلاغة وغيرها من كتب الحديث والتاريخ، وهي شهادة على عدم تردّده في هذا النهج.

المرحلة الثانية: هي مرحلة تسلّم الحكم ووصول الإمام إلى السّلطة.

وقد استغرقت (هذه المرحلة) أربعة أعوام وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وبضعة أشهر من خلافة ولده الحسن عليه السلام. ورغم قصر هذه المرحلة وما اكتنفته من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب لا تُحصى ولا تنفك عادة عن كلّ حكومة ثوريّة، إلّا أنّها سجّلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الإسلاميّة، بما قدّمته من طريقة إنسانيّة في التّعامل، ومن عدلٍ مطلق والتزامٍ دقيق بأحكام الإسلام وبأبعاده المختلفة في إدارة المجتمع الإسلاميّ. هذا إلى جانب الحزم والصّراحة والجرأة في التّطبيق واتّخاذ المواقف.

إنّ هذه المرحلة من تاريخ الإمامة كانت النموذج الذي دعا أئمّة أهل البيت عليهم السلام، خلال القرنين التاليين، إلى تطبيقه في الحياة السياسيّة والاجتماعيّة وسعوا على طريقه. وكان الشيعة يذكرون مثل هذه الذكرى العظيمة ويتحسّرون عليها، ويندّدون بالأنظمة التي تلتها عند مقارنتها بها. في الوقت نفسه، كانت درسًا وتجربةً ملهمة يمكن أن تدلّ على وضع وأحوال أيّة حكومة ثوريّة وإسلاميّة صرفة داخل مجتمعٍ وجماعةٍ لم تتربّ أو انجرت نحو الانحراف، ومنذ ذلك الوقت كانت تُفرض الأساليب والمناهج البعيدة المدى والمتلازمة مع كلّ أنواع التربية الصعبة والحزبيّة الشديدة على الأئمّة اللاحقين.



المرحلة الثالثة: هي التي استوعبت السنوات العشرين بين صلح الإمام الحسن عليه السلام سنة ٤١ هـ، وشهادة الإمام الحسين عليه السلام سنة ٦١ هـ.

فبعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، بدأ نوعٌ من العمل شبه السريّ للشّيعَة، كان هدفه إعادة القيادة الإسلاميّة إلى عترة النبيّ في الفرصة المناسبة. وهذه الفرصة، ووفق الاستنتاج الطبيعيّ، لم تكن بعيدة المنال وكان تحقّقها مأمولاً بعد انتهاء حياة معاوية الشّريرة، لهذا، يمكن تسمية المرحلة الثالثة بـ "مرحلة السّعي البتاء القصير المدى لإيجاد الحكومة والنّظام الإسلاميّ"^{٥٠}.

المرحلة الرّابعة: وهي مرحلة متابعة ذلك التّهجّ في برنامجٍ بعيد المدى، في زمنٍ قارب القرنين، شهد انتصاراتٍ وهزائمٍ في مراحل مختلفة، وتلازم مع الانتصار القاطع في مجال العمل الأيديولوجيّ، وامتزج بمئات التكتيكات المتناسبة مع الزّمان، والمزينة بآلاف مظاهر الإخلاص والتضحية وعظمة الإنسان الذي يريده الإسلام.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ١٦- ١٩)

إنّ أهمّ شيءٍ في حياة الأئمّة عليهم السلام، ممّا لم يتمّ الالتفات إليه بصورةٍ لائقة، هو عنصر الجهاد السياسيّ الحادّ في بداية النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة، حينما امتزجت الخلافة الإسلاميّة وبصورة علنيّة بزخارف السلطنة والملكيّة وتبدّلت الإمامة الإسلاميّة إلى حكومة ملكيّة جائرة. هناك شدّد أئمّة أهل البيت عليهم السلام نضالهم السياسيّ بما يتناسب

^{٥٠} في هذا المجال قد بحثت وضمن عدّة خطب بشرح وتفصيل وذكر الوثائق والشواهد (الكاتب).

مع الأوضاع والظروف. وكان الهدف الأكبر لهذا التّضال هو تشكيل النّظام الإسلامي وتأسيس الحكومة على أساس الإمامة. ولا شكّ بأنّ تبين وتفسير الدّين بحسب الرؤية الخاصّة لأهل بيت الوحي، ورفع التّحريفات والتّفسيرات المغلوطة للمعارف الإسلامية والأحكام الدينيّة، كانت أيضًا هدفًا مهمًّا لجهاد أهل البيت عليهم السلام. إلّا أنّه طبق القرآن الحتميّة، لم يكن جهاد أهل البيت منحصراً بهذه الأهداف، ولم يكن لديهم هدف أعظم من هدف "تشكيل الحكومة العلويّة" وتأسيس النّظام الإسلامي العادل. وإنّ أشدّ الصّعاب التي واجهها الأئمّة وأنصارهم، في حياتهم المليئة بالمرارة والإيثار، كانت بسبب امتلاك مثل هذا الهدف، وقد كانوا منذ عهد الإمام السّجّاد عليه السلام وبعد واقعة عاشوراء ينهضون لتأمين الأرضيّة المناسبة البعيدة المدى لتحقيق هذا الهدف.

وقد كان التّيار المرتبط بأئمّة أهل البيت عليهم السلام - أي الشيعة - يُعتبر العدوّ الأكبر والأخطر للأجهزة الحاكمة، في جميع مراحل المائة وأربعين سنة، ما بين واقعة عاشوراء وقضية ولاية العهد للإمام الثامن. ولقد تأمّنت الظروف والأرضيّة المناسبة في تلك المدّة عدّة مرّات، واقترب نضال التشيع، الذي ينبغي تسميته بالنهضة العلويّة، من الانتصارات الكبرى. ولكن في كلّ مرّة كانت تبرز الموانع على طريق التّصر النهائي. وفي الأغلب، فإنّ أكبر الصّربات كانت توجّه إلى المحور والمركز الأساس لهذه النهضة، وهو شخص الإمام في كلّ زمان، من خلال سجنه أو قتله. وعندما كان الدّور يصل إلى الإمام اللاحق كان القمع والضّغط والتّشديد يصل إلى حدّ يتطلّب زماناً أطول من أجل تهيئة وإعداد الأرضيّة المناسبة.



وقد تمكّن الأئمة من تثبيت التشيع وسط هذا الإعصار الشديد لهذه الأحداث بكلّ شجاعة وحكمة، كتيّارٍ صغيرٍ لكنّه عميقٌ وقويٌّ وثابتٌ وسط تلك المعابر الشديدة والخطرة. ولم يتمكّن الحكّام الأمويّون والعبّاسيّون من القضاء على تيّار الإمامة بقتلهم الإمام. وقد بقي هذا الخنجر الحادّ دومًا في خاصرة أجهزة الحكم، ويقصّ مضاجعهم بشكل دائم.

(١٩٨٤/٠٨/٠٩)

الفصل الثالث: الإمام علي عليه السلام

- مدرسة الإمام علي عليه السلام
- مرحلة السكوت والتعاون
- مرحلة الخلافة
- القدرة والمظلومية والنصر

مدرسة الإمام علي عليه السلام

إنَّ وجود أمير المؤمنين عليه السلام يُعدّ درسًا خالدًا لا يُنسى لكلّ الأجيال البشريّة، من جهاتٍ عدّة وفي الظّروف والأوضاع المختلفة، سواءً في عمله الفرديّ والشخصيّ أم في محراب عبادته أم في مناجاته أم في زهده أم في فنائه في ذكر الله، أم في جهاده مع النفس والشّيطان والدوافع النفسانية والمادية. ما زالت كلمات أمير المؤمنين عليه السلام تصدح وتملأ آفاق عالم الخلقة والحياة الإنسانيّة: "يا دنيا... غريّ غيري"^{٥١}. أيتها الزخارف الدنيويّة والزبارج المليئة بالجاهليّة وكلّ أنواع الزبارج التي تجذب أقوى البشر، اذهبي إلى شخصٍ آخر لتخدعيه، إنّ عليًّا أكبر وأقوى وأسمى من هذه الأمور. لهذا يجد كلّ إنسانٍ صاحٍ دروسًا لا تُنسى في كلّ لحظات حياة أمير المؤمنين عليه السلام وفي ارتباطه بالله وإيمانه به.

وفي البعد الآخر أيضًا، في جهاده لأجل رفع خيمة الحقّ وإقامة العدالة، أي منذ ذلك اليوم الذي حمل فيه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ثقل الرّسالة على عاتقه، ومن السّاعات الأولى، وجد إلى جانبه شخصًا مجاهدًا مؤمنًا

^{٥١} نهج البلاغة، ص ٤٨٠.



مضحياً - كان ما زال في بداية عهده وشبابه - وهو عليّ عليه السلام. وإلى آخر ساعات حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المباركة، لم يتوقف أمير المؤمنين عليه السلام لحظةً واحدةً عن الجهاد في طريق إقامة النظام الإسلامي، وفيما بعد من أجل الحفاظ عليه. فكم جاهد وكم خاطر بنفسه وكم ذاب في طريق الجهاد من أجل إقامة الحق والعدل؟ هناك عندما لم يكن يصمد أحدٌ في الميدان، كان يبقى. هناك عندما لم يكن يجرؤ أحدٌ على الإقدام كان يقدم. هناك عندما كانت الصعاب كالجبال التواسي تنهال على رؤوس المجاهدين في سبيل الله، كانت قامته الشاخنة تمنح الآخرين العزم والطمأنينة. بالنسبة له، كان معنى الحياة هو أن يستفيد من الإمكانيات التي منحها الله إياها من القوة الجسمانية والروحية والعاطفية وغيرها من أجل إعلاء كلمة الحق وإبقاء الحق حياً. وبقدرة وإرادة عليّ وعضده وجهاده بقي الحق حياً.

إذا كانت مفاهيم الحق والعدل والإنسانية، وغيرها من المفاهيم التي لها قيمة إنسانية بالنسبة لأصحاب الفهم في هذا العالم، قد بقيت وازدادت قوة ورسوخاً يوماً بعد يوم، فذلك بسبب تلك المجاهدات والتضحيات. لو لم يكن أمثال عليّ بن أبي طالب عليه السلام - والذين هم عبر تاريخ البشرية قلّة نادرة - لما كان اليوم من وجود لأيّ قيمة إنسانية، ولما كانت هذه العناوين الجذابة للناس تمتلك أيّ حاذبية، ولما كان للبشر حياةٌ وحضارةٌ وثقافةٌ وآمالٌ وقيمٌ وأهدافٌ ساميةٌ، ولتبدّلت البشرية إلى حيوانية وحشية وسعيّة. إنّ البشرية مرتحنة لأمير المؤمنين عليه السلام ولكلّ إنسانٍ بلغ من السمو مرتبته في حفظ المفاهيم السامية. إنّ كلّ ذلك الجهاد ترك هذا الأثر.



البعد الآخر من حياة أمير المؤمنين عليه السلام هو ميدان الحكومة. عندما تسلّم هذا الإنسان، صاحب الفكر العميق والشخصية العظيمة، الحكومة في نهاية الأمر، قام بأعمالٍ في ذلك العهد المختصر، لو قام المؤرّخون والكتّاب والفنّانون ولسنواتٍ طويلة بالكتابة عنها وتجسيدها وتصويرها لما قالوا إلا القليل. كان وضع حياة أمير المؤمنين عليه السلام في عصر حكومته قيامة. أصلاً، لقد بدّل عليّ معنى الحكومة.

إنّه تجسيدٌ للحكومة الإلهية، وتجسيدٌ للآيات القرآنية بين المسلمين، وتجسيدٌ لـ ﴿أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ﴾^{٥٢}، وتجسيدٌ للعدل المطلق. كان يُقرّب المساكين^{٥٣} ويعتني بالضعفاء عنايةً خاصّة، وكان الوجهاء، الذين يفرضون أنفسهم بغير حقّ بواسطة المال والسلطة وغيرها من الوسائل، كانوا في نظر عليّ هم والتراب على حدّ سواء. والذي كان في نظره وقلبه ذا قيمة، هو الإيمان والتقوى والإخلاص والجهاد والإنسانية. وبهذه المباني القيمة حكم أمير المؤمنين عليه السلام أقلّ من خمس سنوات. لقد مضت قرون وهم يكتبون عن أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكتبوا إلّا القليل، ولم يستطيعوا أن يُصوِّروا الأمر تصويراً صحيحاً، وأفضلهم يعترفون بعجزهم وتقصيرهم.

(١٩٩١/٠١/٣٠)

^{٥٢} سورة الفتح، الآية ٢٩.

^{٥٣} ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم، إيران، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، ج ١٨، ص ٢٢٦.

إنَّ أعظم خصائصه هي التَّقوى. فنهج البلاغة هو كتاب التقوى، وحياته طريق وسبيل التقوى.

(١٩٩٩/٠١/٠٨)

فهذه الآية الشريفة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^{٤٤} نزلت في أمير المؤمنين. وتأويل هذه الآية هو عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام. تقول الآية إنّ من بين الناس من يبيع نفسه ووجوده، أي أعزّ ما عند الإنسان، هذا الرأسمال العزيز الوحيد الذي لا يُمكن جبرانه - بحيث إنّك لو قدّمته لن يكون بعدها عنه بديل. فبعض يُقدّم هذا الرأسمال وهذا الوجود دفعةً واحدة من أجل الحصول على رضا الله لا غير، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ أي يبيع نفسه ويُقدّم وجوده ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، فلا يوجد في البين أي هدف آخر أو أي مقصد دنيوي أو أي دافع ذاتي، بل فقط وفقط جلب رضا الله. وفي مقابل مثل هذا الإيثار وهذه التضحية، فإنّ الله لا يُمكن أن يكون من دون ردّ فعل يُناسبها، ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ومصادقه الكامل هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وسوف أُبين هذا البعد.

الناظر إلى تاريخ حياة أمير المؤمنين عليه السلام، منذ الطفولة، ومنذ ذلك الوقت الذي كان فيه في سنّ التاسعة أو الحادية عشرة، يرى أنّه كان قد آمن بنبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأدرك الحقيقة بوعي تامّ وتمسك بها، ومنذ تلك اللحظة وإلى حين لحظة محراب العبادة، سحر يوم التاسع عشر

^{٤٤} سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

من شهر رمضان، قدّم نفسه في سبيل الله فرحاً مسروراً مليئاً بالشوق إلى لقاء ربّه. فطوال هذه السنوات الخمسين تقريباً أو أكثر، منذ سنّ العاشرة وحتى سن الـ ٦٣، يُرى أنّ هناك خطأً واحداً مستمراً يشرح ويُبيّن حياة أمير المؤمنين عليه السلام، وهو خطّ الإيثار. وفي كلّ القضايا التي مرّت عليه عليه السلام طيلة هذا التاريخ الممتدّ لـ ٥٠ سنة، تظهر علائم الإيثار من البداية وحتى النهاية. وهذا في الحقيقة درسٌ وعبرةٌ لنا. ونحن، الذين نتحدّث عنه ونبحث عنه ونُعرف في العالم بمحبّته، يجب علينا أن نأخذ هذا الدرس منه عليه السلام، فمجرّد الحبّ لا يكفي، ومجرّد معرفة فضيلة عليّ لا تكفي. كان هناك من يعترف في قلبه بفضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولعلّهم أكثر منّا نحن الذين يفصلنا عنه ١٤٠٠ سنة، هؤلاء أو بعضهم كانوا يُحبّون عليّاً من القلب كإنسانٍ معصومٍ ومنزّه، أمّا سلوكهم فكان سلوكاً مختلفاً. لأنّه لم يكن لديهم تلك الخاصيّة نفسها، وذلك الإيثار نفسه، وترك الدّات نفسه، وترك العمل من أجل الدّات نفسه، فكانوا ما زالوا عالقين في سجن النفس. أمّا امتياز عليّ فكان أنّه لم يقع في أسر النّفس. لم يكن له "أنا" مكان عنده، بل ما كان له مكان عنده كان التكليف والهدف والله والجهاد في سبيل الله.

لقد تحمّل أمير المؤمنين الأذى والسخرية منذ بداية إيمانه بالنبيّ، وعندما كان ما زال في مرحلة الطّفولة. تصوّروا مدينةً يستخدم أهلها العنف بشكل طبيعيّ، ولم يكونوا متحضّرين ووقورين ولا ثقيين، قومٌ يتشاجرون عند أدنى مسألة، وشديدو التعصّب لتلك العقائد الباطلة، في مثل ذلك المجتمع، طُرحت رسالة من إنسانٍ عظيم جعلت كلّ شيء في



ذلك المجتمع مورد تشكيك، على مستوى العقائد والآداب والتقاليد، فمن الطبيعي أن ينهض الجميع وبكل طبقاتهم، حتى عوام الناس، لمخالفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فحتى يقوم شخص بالدفاع عن هكذا إنسان وعن هكذا رسالة، بكل وجوده ويقوم باتباعه، فإن ذلك يتطلب نكران الذات. وكانت هذه خطوة أمير المؤمنين الأولى في نكران الذات.

وقف علي بن أبي طالب عليه السلام لمدة ١٣ سنة إلى جانب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفي أصعب المواطن. صحيح أن هجرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كانت اضطرارية وتحت الضغط المتواصل لقريش وأهل مكة، لكنها كانت ذات مستقبل مشرق. فالجميع كان يعلم أن هذه الهجرة هي مقدمة النجاحات والانتصارات. هناك عندما تتجاوز أي نهضة مرحلة المحنة لتدخل في مرحلة الراحة والعزة، هناك عندما يكون الجميع منشغلاً بحسب العادة لكي يوصلوا أنفسهم أسرع من غيرهم عليهم يأخذون من المناصب الاجتماعية شيئاً وينالون موقعية، في تلك اللحظة بالذات، كان أمير المؤمنين عليه السلام مستعداً لأن ينام مكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه في تلك الليلة المظلمة الحالكة، حتى يتمكن الرسول من الخروج من منزله ومن هذه المدينة. في تلك الليلة، كان مقتل من ينام في ذاك الفراش أمراً شبه قطعي ومسلماً به. كوننا نحن نعلم ما حدث، ونعلم أن أمير المؤمنين لم يقتل في تلك الحادثة، هذا لا يعني أن الجميع في تلك الأثناء كان يعلم ذلك، كلاً، فالقضية كانت أنه في ليلة حالكة، وفي لحظة معينة، كان من المقرر أن يقتل شخص حتماً. كان يقال أنه ومن أجل أن يخرج هذا السيد من هنا ينبغي أن يكون هناك شخص آخر مكانه حتى يشعر الجواسيس،



الذين يُراقبون، بأنّه ما زال هناك، فمن هو المستعدّ لذلك؟ هذا هو إشار أمير المؤمنين عليه السلام الذي يُعدّ بذاته حادثة استثنائية من حيث الأهمية. لكنّ توقيت هذا الإشار يزيد من أهميته. ففي أيّ وقت كان ذلك؟ في الوقت الذي كان متوقّعا أن تصل فيه هذه المحنة إلى نهايتها، وأن يذهبوا لتشكيل الحكومة، وأن يكونوا مرتاحين، وأهل يشرب قد آمنوا وينتظرون النبيّ. الكلّ كان يعلم ذلك. في مثل هذه اللحظة، يقوم أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الإشار، فلا ينبغي أن يكون هناك أيّ دافع شخصي في مثل هذا الإنسان، حتّى يقدم على مثل هذه الحركة العظيمة.

وبعدها يأتي إلى المدينة وتبدأ المعارك والقتال المتواصل لحكومة النبيّ الفتية. فالمعارك والحروب كانت دائمة، هكذا كانت خاصية تلك الحكومة. كان هناك مواجهات دائمة، بدأت قبل معركة بدر، واستمرّت على مدى السنوات العشر تلك، وإلى آخر حياة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، خاض فيها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عشرات المعارك والمواجهات مع الكفار على مختلف أنواعهم وأقسامهم وشُعَبِهِمْ. وفي كلّ هذه المراحل، كان أمير المؤمنين عليه السلام حاضرًا ليكون أوّل من يتصدّى وأكثر الناس تضحيةً وفداءً واستعدادًا للموت بين يديّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما بيّنه أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، وأظهره التاريخ في جميع هذه المراحل والميادين المهولة: "ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخّر فيها الأقدام"^{٥٥}. وقف أمير المؤمنين عليه السلام في أشدّ اللحظات حرجًا وما كان يلوي على شيء أو

يقول إنّ هناك خطراً. بينما كان بعض الناس يُفكّر في نفسه والحفاظ عليها بحجّة أن يكون مفيداً للإسلام فيما بعد. ولم يخذع أمير المؤمنين عليه السلام نفسه أبداً بمثل هذه المعاذير، ولم تكن نفسه السّامية تُخذع. ففي جميع مراحل الخطر كان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً في الخطوط الأماميّة.

(١٩٩٩/٠١/٠٨)

مرحلة السكوت والتعاون

إنَّ أشدَّ مراحل حياة أمير المؤمنين عليه السلام، بنظري، قد بدأت في هذه السنوات الثلاثين، أي بعد انتهاء عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وارتحاله عن هذه الدنيا. كانت تلك الأيام، أصعب مراحل حياة أمير المؤمنين عليه السلام، ففي تلك الأيام التي كان النبي العزيز صلى الله عليه وآله وسلم موجودًا فيها وكان (أمير المؤمنين) يذهب ويُجاهد في كنفه، كانت الأيام جميلةً وعذبة. في تلك الأيام المُرّة، والأيام التي تلت ارتحال النبي الأكرم والتي كانت أليماً نادراً، كانت قطع الليل المظلم للفتنة تسدّ آفاق الرؤية أمام الأعين، بحيث لا يستطيع أولئك الذين كانوا يريدون أن يسيروا بالاتجاه الصحيح أن يخطوا خطوة واحدة، في ظلّ مثل هذه الظروف نجح أمير المؤمنين عليه السلام في أعظم امتحانات الإيثار.

أولاً، أول ما حضرت الوفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كان أمير المؤمنين عليه السلام منشغلاً بأداء التكليف، لا أنه لم يكن يعلم بوجود اجتماع ومن الممكن أن يُحدّد فيه مصير السّلطة والحكومة في العالم الإسلامي، فلم تكن هذه هي قضية أمير المؤمنين، ولم تكن القضية بالنسبة له قضية "الأنا". فبعد أن استقرّت مسألة الخلافة، وبايع الناس أبا بكر وانتهى كلّ شيء، انزوى أمير



المؤمنين عليه السلام، ولم يُسمع منه أيّ كلمةٍ أو موقفٍ يحكي عن معارضته للجهاز الحاكم. لقد سعى في الأيام الأولى لعلّه يتمكّن من إحقاق ما يراه بحسب عقيدته حقًّا، ومّا ينبغي القيام به. وعندما رأى الأمر خلاف ذلك، وأنّ الناس قد بايعوا وانتهت القضية، وأضحى أبو بكر خليفة المسلمين، هنا نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام، عُرف عبر التاريخ كشخص، وإن كان معارضًا لكنّه لم يبدر منه أيّ خطر أو تهديد على الجهاز الحاكم، وبأيّ كَيْفِيَّةٍ كانت. لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه المرحلة - والتي لم تكن مديدة، لعلّها لم تكن أكثر من عدّة أشهر - لقد علمتم أنّي أحقّ الناس بها من غيري ويقصد الخلافة. "ووالله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين"، . فما دمْتُ أرى أنّه لا يُظلم أحد، "ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصّة"^{٥٦}، فإنّني لن أقوم بأيّ عملٍ ولن أعارض أبدًا.

وبعد مدّةٍ وجيزة، لا تزيد على عدّة أشهر، بدأ ارتداد بعض الجماعات، ولعلّها كانت مدفوعةً لذلك، حيث شعرت بعض القبائل العربية أنّه طالما لا يوجد نبيّ ولا يوجد قائد للإسلام، فلا بأس أن يختلقوا إشكالات وأن يُعارضوا ويُحاربوا ويُثيروا القلاقل، ولعلّ ذلك كان بتحريكٍ من المنافقين، فنشأ تيّار الرّدّة - أي ارتداد مجموعة من المسلمين - وبدأت حروب الرّدّة. وهنا حيث أصبح الوضع على هذا النحو، رأى أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الأمر لم يعد يحتمل الجلوس وعليه أن ينزل إلى الميدان للدّفاع عن الحكومة. هنا يقول: "فأمسكت يدي"، ويقصد ما جرى في قضية الخلافة

^{٥٦} نهج البلاغة، ص ١٠٢.

وصيرورة أبي بكر خليفة للمسلمين، "أمسكت يدي" وجلست جانبًا. كانت هذه حالة اختيار الانزواء، "حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم"^{٥٧}، رأيت أنّ جماعة من الناس قد ارتدّوا عن الإسلام ويريدون محو الإسلام، هنا نزلت إلى الميدان. لقد دخل أمير المؤمنين الميدان بصورة فعّالة، وهكذا كان في جميع القضايا الاجتماعية المهمة.

ويصف أمير المؤمنين عليه السلام حضوره في مرحلة الـ ٢٥ سنة من خلافة الخلفاء الثلاثة، بالوزارة، فعندما جاؤوا إليه بعد مقتل عثمان وبايعوه بالخلافة، قال: "وأنا لكم وزيرًا خير لكم مني أميرًا"^{٥٨}. أي كما كنت لكم في السابق دعوني كذلك. فقد كان مقامه وموقعيته طوال الـ ٢٥ سنة موقعيّة الوزارة، أي أنّه كان في خدمة الأهداف دومًا، وكان يُعين المسؤولين والخلفاء الذين كانوا على رأس الأمور حيث يلزم، ومثل هذا يُعدّ إيثارًا لا مثيل له، يخيّر الإنسان في الواقع ويجعله يُفكّر كم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مؤثرًا في حياته.

وخلال الـ ٢٥ سنة هذه، لم يُفكّر أبدًا بالقيام والانقلاب والمعارضة وجمع العدة والإمساك بالسلطة والسيطرة على الحكومة. مثل هذه الأمور تأتي على أذهان الناس. عندما ارتحل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا كان عمر أمير المؤمنين عليه السلام نحو ٣٣ سنة. وبعدها فإنّ كل المسائل الجذّابة التي كان من الممكن أن تتوفّر لإنسان، كانت موجودة في أمير المؤمنين

^{٥٧} نهج البلاغة، ص ٤٥١.
^{٥٨} م.ن، ص ١٣٦.

ولكن على نحوٍ أعلى وأسمى، من مراحل شبابه وقدرته الجسمانية ومرحلة نشاطه، إلى الواجهة والمحبوقة بين عموم الناس، إلى الذهن الوقاد والعلم الوفير. فلو أراد أن يقوم بأي عملٍ لاستطاع ذلك. إلا أنّ أمير المؤمنين عليه السلام، على مدى الـ ٢٥ سنة هذه، لم يُسمع منه أي شيء، ولم يَقم بأي تحرّك إلّا من أجل خدمة تلك الأهداف العامة والكلية للنظام الإسلامي الذي كان أولئك الخلفاء على رأسه. وكان هناك أحداثٌ عظيمةٌ استثنائية، ولا أريد الآن أن أدخل هنا في شرح الموارد التاريخية.

وبعد موت الخليفة الثاني، دُعي أمير المؤمنين عليه السلام إلى الشورى المشكّلة من ستة أشخاص، فلم ينزعج ودخل في الشورى. لم يقل إنّ هؤلاء ليسوا من مستواي، فأين طلحة والزبير وأين عبد الرحمن بن عوف وأين عثمان وأين أنا؟ وطبقاً لوصية عمر، فقد جعلوا ستة أشخاص بعنوان الشورى من أجل أن ينتخبوا من بينهم خليفةً. وكان حظّ أمير المؤمنين بالخلافة من بين هؤلاء الستة هو الأوفر. وكان رأي عبد الرحمن بن عوف هو الرأي الفاصل. فقد كان لأمر المؤمنين صوتان هو الزبير، وكان لعثمان صوتان هو وطلحة، وكان لعبد الرحمن بن عوف صوتان هو وسعد بن أبي وقاص، وكان صوت عبد الرحمن بن عوف هو الصوت الفاصل. فلو بايع أمير المؤمنين عليه السلام لصار هو الخليفة، ولو بايع عثمان لصار هو الخليفة. هنا توجّه (عبد الرحمن بن عوف) إلى أمير المؤمنين عليه السلام وسأله إن كان يعمل بكتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الشيخين، أي الخليفين السابقين. فقال عليه السلام: كلاً، إنني أعمل بكتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لقد كان من الممكن لأمر المؤمنين أن يحصل على الحكومة ويُمسك بزمام السلطة، لو



أنه تغاضى بأقل قدر ممكن عما هو صحيحٌ وحقٌّ. لكنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُفكِّر بذلك لحظةً واحدةً، ففقد الحكومة وخسر السُّلطة. وهنا قد آثر ولم يطرح نفسه وإيَّيته أبداً، بل جعلها تحت قدميه. وما كانت مثل هذه المشاعر لتبرز في أمير المؤمنين عليه السلام من الأساس.

وبعد مرور ١٢ سنة من حكومة عثمان، كثرت الاعتراضات عليه في نهاية الأمر، وبدأ النَّاس يُخالفونه ويعترضون عليه كثيراً، وتقاطروا من مصر ومن العراق ومن البصرة ومن أماكن أخرى، وفي النهاية تشكَّل جمعٌ كبير وحاصروا بيت عثمان وهدَّدوه. هنا ماذا يُمكن أن يفعل أيُّ إنسان في موضع أمير المؤمنين عليه السلام؟ ذاك الَّذي يرى نفسه صاحب حقٍّ بالخلافة، وكان لمُدَّة ٢٥ سنة يتغاضى عن حقِّه وهو يعترض على سلوك الحاكم الحالي، ها هو الآن يرى بيت هذا الخليفة محاصراً. فالشخص العاديّ بل حتَّى النخب والوجهاء ماذا يفعلون في مثل هذه الحالة؟ نفس العمل الَّذي قام به الآخرون، نفس ما فعله كلٌّ من طلحة والزبير وغيرهم، وكلّ الآخرين الَّذين كان لهم في قضية عثمان ما كان. إنَّ قضية قتل عثمان هي من الأحداث المهمَّة جداً في تاريخ الإسلام، ويُمكن للإنسان أن يُشاهد في نهج البلاغة وفي الآثار وفي التاريخ الإسلامي ما الَّذي أدَّى إلى مقتل عثمان، ليتَّضح له بشكلٍ كامل من الَّذي قتل عثمان ومن الَّذي دفع إلى قتله. أولئك الَّذين كانوا قد جعلوا ادِّعاء محبَّة عثمان فيما بعد محور تحركاتهم، هنا طعنوه من الخلف، وكانوا يُحرِّكون الأمور من وراء الكواليس. سألوهم عمرو بن العاص من الَّذي قتل عثمان، فقال: فلانٌ - وذكر اسم أحد الصحابة - هو الَّذي صنع سيفه، والآخر أحده، والثالث سمَّه، وذاك طعنه به. الواقع هو هذا.



نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الحادثة يقوم بكمال الإخلاص بما يراه تكليفاً إلهياً وإسلامياً، فيُرسل كلاً من الحسن والحسين عليهما السلام، هاتين الجوهريتين العظيمتين وبقية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلى بيت عثمان من أجل الدِّفاع عنه. كان المخالفون مُحاصرون بيت عثمان ويمنعون دخول الماء إليه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يُرسل له الماء والطعام ويُفاوض مرّاتٍ ومرّاتٍ أولئك الذين غضبوا على عثمان، لعلّه يُهدّئ من روعهم. وعندما قتلوا عثمان غضب أمير المؤمنين عليه السلام.

هنا أيضاً، نجد أنّه لا يُمكن أن نُشاهد في أمير المؤمنين عليه السلام أيّ حالة من الإنيّة وحبّ الذات ومشاعر الأنا التي يُمكن أن توجد في كلّ فرد من النَّاس. فبعد أن قُتل عثمان كان من الممكن لأَمير المؤمنين عليه السلام أن ينزل إلى الميدان كوجهٍ وجيه، وكشخصٍ انتهازيٍّ ومخلّص، ويقول أيّها النَّاس ها أنتم قد ارتحتم أخيراً وتخلّصتم من المشكلة، وكان النَّاس سيُحبّونه، لكنّه لم يفعل، فبعد حادثة عثمان، لم يتحرّك أمير المؤمنين عليه السلام نحو السّلطة والإمساك بالحكومة. فما أعظم هذه الرّوح: "دعوني والتمسوا غيري"^{٥٩}، أيّها النَّاس اتركوني واذهبوا إلى شخصٍ آخر. ولو اخترتم شخصاً آخر فإني سأكون له وزيراً وأعينه. هذه هي تصريحات أمير المؤمنين عليه السلام في تلك الأيّام. لكنّ النَّاس لم يقبلوا ولم يستطيعوا أن ينتخبوا شخصاً آخر للحكومة غير أمير المؤمنين.

^{٥٩} نهج البلاغة، ص ١٣٦.

مرحلة الخلافة

لقد بايعت جميع الأقطار الإسلامية أمير المؤمنين عليه السلام. وحتى ذلك الوقت، لم يكن قد جرى مثل هذه البيعة العامة التي تمت لأمر المؤمنين عليه السلام، حيث إنّ جميع الأقطار الإسلامية وكلّ الكبراء والصحابة قد بايعوه، باستثناء الشام. فقط عدّة قليلة، أقل من عشرة أشخاص لم يُبايعوا أمير المؤمنين عليه السلام، فأحضرهم إلى المسجد واحدًا واحدًا وسألهم لماذا لم يُبايعوا - وكان من بين هؤلاء عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص - فكان أن قدّم كلّ واحدٍ منهم عذرًا، وقال شيئًا. فبعضٌ منهم عاد وبايع، وبعضٌ آخر لم يُبايع مطلقًا - عددٌ قليلٌ جدًّا بعدد أصابع اليد الواحدة - فتركهم أمير المؤمنين عليه السلام. ولكن بقية الوجوه المعروفة كطلحة والزبير وغيرهما، جميعًا قد بايعوا أمير المؤمنين، وقبل أن يُبايعوه قال لهم: "واعلموا أنّي إن أحببتكم"، وهو يشير إلى أنّهم لو أُصرّوا أن يُمسك هو بالحكومة "ركبت بكم ما أعلم"^{٦٠}، فلا تتصوّروا أنّي سأراعي تلك الوجوه والشخصيّات والهياكل القديمة والمشهورين

^{٦٠} نهج البلاغة، ص ١٣٦.



والمعروفين، كلا، ولا تتصوّروا أنني سأتبع فلاناً وأقُلّد فلاناً، أي إنّي سأديركم بحسب ما أعلم وما أشخص وما أعرفه من الإسلام. وهكذا فقد أتمّ أمير المؤمنين عليه السلام الحجّة على الناس وقبِل بالخلافة. كان من الممكن لأمر المؤمنين هنا، ولأجل حفظ المصالح ورعاية جوانب القضية وأمثالها، أن يتنازل ويجذب إليه القلوب، لكنّه وبكلّ قاطعية أصرّ على الأصول والقيم الإسلامية بحيث إنّ كلّ هؤلاء الأعداء قد اصطقّوا في مقابله، وقد واجه أمير المؤمنين عليه السلام معسكراً مليئاً بالمال والقهر والتزوير، ومعسكراً آخر فيه الشخصيات الوجيّهة والمعتبرة والمعروفة، ومعسكراً ثالثاً يضمّ المتظاهرين بالقداسة والتعبّد، لكنّهم جاهلون بحقيقة الإسلام وروحه وتعاليمه ويجهلون شأنيّة أمير المؤمنين عليه السلام ومقامه من أهل التشبّث بالعنف والقسوة وسوء الخلق.

ميزان الحقّ والقيم الإسلاميّة

لقد قاتل أمير المؤمنين عليه السلام ثلاثة معسكرات بثلاثة خطوطٍ منفصلة، هم الناكثون والقاسطون والمارقون. وكلّ واحدة من هذه الوقائع تدلّ على تلك الروح الرفيعة للتوكّل على الله والإيثار والبعد عن الأنانيّة والإنيّة، في أمير المؤمنين عليه السلام. واستُشهد في النهاية على هذا الطريق، حتّى قيل بشأنه إنّ عدل عليّ عليه السلام قد قتله. لو لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مريدًا للعدالة، وعمد بدل ذلك إلى رعاية هذا وذاك، وتقديم الشأنيّة والمقام والشخصيّة على مصالح العالم الإسلامي لكان أكثر الخلفاء نجاحًا وقدرًا، ولما وجد له معارضًا. لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو ميزان



الحقّ والباطل. ولهذا كان عليه السلام يتحرّك وفق جوهر التكليف دون أيّ ذرة من تدخّل الأنا والمشاعر الشّخصيّة والمنافع الذاتيّة، وقد تحرّك على هذا الطريق الذي اختاره. هكذا كانت شخصيّة أمير المؤمنين عليه السلام. لهذا فإنّ عليّاً عليه السلام هو في الواقع ميزان الحقّ. هكذا كانت حياته عليه السلام، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾. فلم يكن عظيماً في الشّهادة فحسب، ولم يكن عند الممات يَمّن يفدي نفسه فحسب، بل على مدى حياته كان يُقدّم نفسه دوماً في سبيل الله.

(١٩٨٩/٠٤/٢٨)

أثبت أمير المؤمنين خلال هذه المدّة أنّ الأصول الإسلاميّة والقيم الإسلاميّة التي وُجدت في مرحلة عزلة الإسلام وفي مرحلة صغر المجتمع الإسلاميّ، قابلةٌ للتّطبيق مثلما أنّها كذلك في مرحلة الرّفاهية والتّوسّع والاقتدار والتّقدّم والازدهار الاقتصاديّ للمجتمع الإسلاميّ. فمن المهمّ جدّاً أن نلتفت إلى هذه النقطة. لقد نزل الوحي الإلهيّ بالأصول الإسلاميّة، والعدالة الإسلاميّة، وتكريم الإنسان، وروح الجهاد، والبناء الإسلاميّ، والمرتكزات الأخلاقيّة والقيميّة الإسلاميّة، في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وقد تمّ تطبيقها من قِبَل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المجتمع الإسلاميّ ضمن الحدود المتاحة. ولكن كيف كان المجتمع الإسلاميّ في عهد الرّسول؟ تأسّست القيم الإسلاميّة في بيئة صغيرة وضئيلة، إذ حتى عشر سنوات لم يكن سوى المدينة، وكانت مدينة صغيرة تضمّ بضعة آلاف من النّاس، ثمّ فُتحت مكّة والطائف، وهي منطقة محدودة بشروات قليلة جدّاً، فالفقر كان شاملاً، والإمكانات التي كانت في متناول أيديهم كانت ضئيلة جدّاً..



مضت خمس وعشرون سنة على رحيل الرسول عن الدنيا. وكانت مساحة الدولة الإسلامية قد ازدادت، خلال هذه المدّة، مئات الأضعاف، لا ضعفين أو ثلاثة أو عشرة. فيوم تسلّم أمير المؤمنين عليه السلام الحكم كانت الأرض التي تمتدّ من آسيا الوسطى حتّى شمال أفريقيا - أي مصر - داخله ضمن نطاق الدولة الإسلامية. ففي بداية الأمر، تلاشت إحدى الدولتين العظيمين المجاورتين للدولة الإسلامية - وأعني بهما إيران والروم - فقد تلاشت إحداهما نهائيًا وهي الدولة الإيرانية، وصارت كافّة الأراضي الإيرانية بيد الإسلام. ودخلت أجزاء مهمّة من الأراضي الرومانية. بلاد الشام وفلسطين والموصل ومناطق أخرى. أيضًا في دائرة الإسلام. مثل هذه الرقعة الواسعة كانت بيد الإسلام يومذاك. إذًا، لقد توقّرت ثروات طائلة ولم يعد هناك فقرٌ أو عوزٌ أو شحٌّ في الطّعام، وأصبح الذهب كثيرًا، والأموال وفيرة، وأصبح هناك ثروات طائلة. لذا، كانت الدولة الإسلامية قد أصبحت ثريّة. الكثيرون تمتّعوا برفاه جاوز الحدود. لو لم يكن الإمام عليّ عليه السلام في البين، ربّما كان التاريخ ليحكم بأنّ المبادئ الإسلامية والقيم النبويّة كانت جيّدة لعصر المدينة النبويّة فقط، أي لذلك العهد الذي تميّز بضالّة حجم المجتمع الإسلاميّ وفقره. أمّا بعد أن اتّسع المجتمع الإسلاميّ واختلط بالحضارات المختلفة حيث وفدت من إيران والروم ثقافات وحضارات شتّى إلى حياة النّاس، وانضوت شعوب مختلفة تحت مظلة المجتمع الإسلامي، فلا تبقى تلك المبادئ كافية ولا قادرة على إدارة البلد. وقد أثبت أمير المؤمنين عليه السلام، طوال هذه السنوات الخمس، بممارساته وسيرته وأسلوبه في الحكم أنّ الأمر



على العكس من ذلك، فتلك المبادئ نفسها التي كانت متألفة في صدر النبوة . ذات التوحيد، والعدل، والإنصاف والمساواة بين الناس - هي ممكنة التطبيق على يد خليفة قويّ كأمر المؤمنين عليه السلام. هذا شيء حلّده التاريخ. ومع أنّ هذا المنهج لم يستمرّ بعد أمير المؤمنين عليه السلام، لكنّه أثبت أنّ الحاكم الإسلاميّ ومديري المجتمع والمسؤولين المسلمين إذا قرّروا وعزموا وكانوا أصحاب عقيدة راسخة لأمكنهم تطبيق نفس تلك المبادئ في عهد اتّساع رقعة الدولة الإسلاميّة وظهور ظروف جديدة ومتنوّعة للحياة، حتّى ينتفع بها الناس... فمن الواضح أنّ إقامة العدالة الاجتماعيّة في مجتمع يضمّ عشرًا أو خمس عشرة ألف نسمة في المدينة تختلف اختلافًا هائلًا عنها في مجتمع يضمّ عشرات الملايين أو مئات الملايين كما كان الحال في عهد أمير المؤمنين عليه السلام. وقد نهض أمير المؤمنين عليه السلام بهذه المهام.

عدالة الإمام عليّ عليه السلام

نورد هنا نماذج من أعمال أمير المؤمنين عليه السلام تجلّت في كلمات هذا العظيم. وهناك آلاف الأمثلة الأخرى في حياته. جاء الناس وأصرّوا وبايعوا، لكنّه لم يوافق. وازداد إصرار جميع الناس، من أكابر وصغار ورؤساء وصحابة قدماء، فقالوا جميعًا: كلاً، لن يكون غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولن يستطيع ذلك سواه. جاؤوا وأخذوا الإمام مصيرين. فقال الإمام عليه السلام: إذا فلنذهب إلى المسجد. ارتقى الإمام المنبر، وألقى خطبة أوضح فيها آراءه، فقال: الأموال التي استحوذ عليها الخواصّ



والوجهاء من دون وجه حقّ سأعيدها إلى بيت المال أينما وجدّتها. حيث استطاع بعض الأشخاص خلال تلك السّنوات مصادرة أموال من بيت المال لصالحهم. فقال سأعيد كلّ هذه الأموال: "لو وجدّته قد تزوّج به النساء"، أي أنكم جعلتم تلك الأموال مهوّرًا لنسائكم، أو "فملك به الإمام" واشترىتم بها الجوّاري لحريمكم "لردّدته"^{٦١} وأعدّته إلى بيت المال. ليعلم النّاس والأكابر أنّ هذه هي طريقي.

بعد أيّام بدأت المعارضة، وكان المستضعفون من النّاس والطّبقة المضطّهدة في المجتمع يتمنّون من الله أن يُتبع مثل هذا المنهج، أمّا أصحاب النّفوذ والمخاطبون الحقيقيّون بهذا الكلام فمن البديهيّ أن يسخطوا. فجلسوا وعقدوا اجتماعًا وقالوا: ما هذا الذي يريد عليّ صنعه؟ قام الوليد بن عقبة - وهو نفسه الذي كان والي الكوفة في زمن عثمان - وجاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، نيابةً عنهم، فقال له: يا عليّ! إنّ لبيعنا إيتاك شروطًا، "ونحن نُباعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال في أيّام عثمان"^{٦٢}، شرطنا هو أن لا تنال من الأموال التي حصلنا عليها وتترك لنا ما كسبناه خلال العهد الذي سبقك. ومن بعد الوليد بن عقبة، جاءه طلحة والزبير. الوليد بن عقبة، بالطبع، يختلف عن طلحة والزبير. فالوليد بن عقبة كان في الحقيقة من حديثي العهد بالإسلام، وكانت عائلته ضدّ الإسلام ومعارضة للثّورة وقد حاربت الإسلام. وبعد ذلك حين ساد الإسلام، في نهاية عهد النّبّي، دخل في الإسلام كغيره من بني أميّة.

^{٦١} نهج البلاغة، ص ٣٩٦.
^{٦٢} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ١٩.



أما طلحة والزبير فكانا من السابقين في الإسلام ومن أعوان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المقرّين. جاء طلحة والزبير أيضًا - وهما يومذاك من أكابر الإسلام ومن البقية الباقية لأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وتكلّما كلامًا فيه عتاب، منه قولهم: "إنّك جعلت حقّنا في القسّم كحقّ غيرنا".

فقد ساويت بيننا وبين غيرنا في تقسيم بيت المال. "وسوّيت بيننا وبين من لا يُماثلنا"، ساويت في منح أموال بيت المال بيننا وبين من هم ليسوا مثلنا، فأيّ قسمة هذه؟ لماذا لا تُقرّر امتيازات معيّنة؟ "من لا يُماثلنا في ما أفاء الله تعالى بأسيافنا ورماحنا"^{٦٣} هذه خيرات استُحصلت بأسيافنا. نحن الذين رفعنا الإسلام، نحن الذين بذلنا الجهود والمسعى، وإذا بك تساوينا بالجُدد والأعاجم ومن جاؤوا من البلدان المفتوحة.

لم يُسجّل لنا التاريخ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للوليد بن عقبة، لكنّه أجاب الآخرين. صعد الإمام المنبر وأجابهم جوابًا شديدًا. قال بشأن قضية المساواة في تقسيم بيت المال: "فإنّ ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء"، فليست أنا من أسّس لهذه الطريقة وهذا المنهج، "بل وجدتُ أنا وأنتما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحكم بذلك"^{٦٤}، لم أجد بأسلوب جديد من عندي، إنّما أتبع الفعل الذي كان يأتي به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. أريد تكريس تلك القيم والقواعد الاعتقادية والسلوكية في المجتمع، في هذا العصر. وقد كرّسها الإمام عليّ عليه السلام وكان يفعل. وقد دفع أمير المؤمنين عليه السلام ثمن ذلك أيضًا.

^{٦٣} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢١.
^{٦٤} م.ن، ص ٢٢.

فكان ثمن هذا العمل أن نشبت ثلاثة حروب. وقف أمير المؤمنين عليه السلام. ومن البديهي أنه كان يرى لنفسه حق الخلافة. ولكن لم يكن الأمر على هذا النحو بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يتحرك على مدى خمس وعشرين سنة من أجل الشيء الذي كان يعلم أنه حقه. وإذا كان هناك من يريد التحدث بالأمر، كان يُهدّته، "إنك لقلق الوضين ترسل في غير سدد،... دع عنك نهياً صيح في حجراته"^{٦٥}. لم تصدر عنه ردود فعل إزاء تلك القضية على مدى خمس وعشرين سنة. لكن أمير المؤمنين عليه السلام تحمّل عبء ثلاثة حروب - حرب الحمل، وحرب صفين، وحرب النهروان - مقابل قضية تبدو في الظاهر أقل من تلك القضية - وهي قضية العدالة الاجتماعية، وقضية إحياء الأصول النبوية، وإعادة تشييد الصرح الإسلامي المتين الذي أرسى دعائمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فكم كانت هذه القضية مهمة بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام! وهذا هو الإنجاز العظيم الذي نهض به أمير المؤمنين عليه السلام. وله في هذا المجال كلمة أخرى، يقول فيها: "لا تمنعكم رعاية الحق لأحدٍ عن إقامة الحق عليه"^{٦٦}، أي إن الإنسان إذا كان مؤمناً ومجاهداً في سبيل الله وبذل جهداً كبيراً وخاض المعارك وأنجز أعمالاً كبيرة فستكون مراعاة حقه واجبة. وأما إذا تعدّى هذا الشخص حدوده في حالة خاصة وضيع حقاً من الحقوق، فلا ينبغي التغاضي عن خطئه هذا بحجة أعماله الحسنة السابقة، إذ لا بد من التمييز بين الأمور. فإذا كان الإنسان صالحاً وذا قدر كبير وسابقة محمودة وجهود بذلها للإسلام والبلاد فهذا جيّد وحقوقه مقبولة ومحفوظة وينبغي أن تُقدّر، ولكن إذا

^{٦٥} نهج البلاغة، ص ٢٣١.
^{٦٦} تصنيف غرار الحكم ودرر الكلم، ص ٦٩.



تعدّى وتجاوز، فإنّ مراعاة ذلك الحقّ ينبغي أن لا تؤدّي إلى غضّ الطّرف عن المخالفة الّتي ارتكبتها. هذا هو منطق أمير المؤمنين.

كان هناك شاعرٌ اسمه النّجاشيّ، هو من شعراء أمير المؤمنين عليه السلام ومدّاحيه، وصاحب أفضل القصائد في حرب صفّين في تحريض النّاس ضدّ معاوية، ومن محبّي أمير المؤمنين عليه السلام وأحد الدّاخلين في حربه، وأفعاله مشهورة بالإخلاص والولاية والسّوابق، وكان قد شرب الخمر في نهار شهر رمضان. حين علم أمير المؤمنين عليه السلام بالأمر قال إنّ حدّ الخمر معروف، آتوني به لإقامة الحدّ عليه. أقام أمير المؤمنين عليه السلام عليه حدّ الخمر أمام أعين النّاس، ثمانين سوطاً. فجاءت عائلته وقبيلته إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا: يا أمير المؤمنين، أرقت ماء وجوهنا. لقد كان هذا من أصحابك وأصدقائك. وتعبيرنا المعاصر. كان من تيّارك. فقال أنا لم أفعل شيئاً، إنّهُ مسلم ارتكب مخالفة، فوجب عليه حدّ من حدود الله، فأقمت ذلك الحدّ. بالطبع، النّجاشيّ، وبعد أن جُلد من قبل عليّ عليه السلام، قال: طالما كان الأمر كذلك، فسأذهب إلى معاوية وأنظم أشعاري به. فقام وفارق أمير المؤمنين عليه السلام والتحق بمعسكر معاوية. فلم يقل أمير المؤمنين عليه السلام إنّ النّجاشيّ قد تركنا وهذه خسارة مؤسفة، فلنحاول إبقاءه هنا، كلاً، إنّ ذهب، فليذهب! بالطبع، من الأفضل كان أن يبقى. هذا هو منطق أمير المؤمنين عليه السلام ومنهجه. قال الإمام عليه السلام لأصحاب النّجاشي: "فهل هو إلّا رجلٌ من المسلمين انتهك حرمة من حُرّم الله فأقمنا عليه حدّاً كان كفّارته"^{٦٧}. أقمنا عليه الحدّ فسقط عنه ذنبه.

^{٦٧} بحار الانوار، ج ٣٣، ص ٢٧٣.



وكان هناك رجلٌ من قبيلة بني أسد . كان من أقارب أمير المؤمنين عليه السلام - وجب عليه حدٌ من الحدود . فقال نفرٌ من محبِّي أمير المؤمنين عليه السلام ومن رجال قبيلة ذلك الشخص: لنذهب إلى أمير المؤمنين عليه السلام ونُعالج المشكلة بنحوٍ من الأنحاء . فجاؤوا أولاً إلى الإمام الحسن المجتبي^{٦٨} عليه السلام ليكون واسطتهم لدى أبيه، فقال الإمام الحسن: لا ضرورةً لمحيئي، اذهبوا أنتم، فوالدي أمير المؤمنين يعرفكم . فجاؤوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا: هذه هي حالنا فساعدنا . فقال الإمام عليه السلام في معرض إجابتهم لا مانع لديّ في أيّ أمر أكون فيه حرّاً مختاراً، وسأفعله لكم، ففرح هؤلاء وخرجوا، وفي الطريق صادفوا الإمام الحسن عليه السلام فسألهم: ماذا فعلتم؟ قالوا له: انتهى الأمر على خيرٍ والحمد لله، وقد وعدنا أمير المؤمنين عليه السلام . فسألهم: ماذا قال لكم أمير المؤمنين؟ قالوا: قال لنا أفعل لكم ما أكون حرّاً فيه ويعود أمره إليّ . فتبسّم الإمام الحسن عليه السلام وقال: إذا اذهبوا وافعلوا كلّ ما يجب أن تقوموا به في حال إقامة الحدّ عليه! وأقام أمير المؤمنين عليه السلام الحدّ عليه بعد ذلك . فجاؤوا وقالوا: يا أمير المؤمنين، لم أقمت الحدّ على هذا الرجل؟ فقال: ليس الحدّ ممّا أملك أمره وحرّية التصرف فيه . الحدّ حكمٌ إلهي . قلتُ لكم ما أكون حرّاً فيه أفعله لكم^{٦٩} . والحدّ ليس في يدي . هذا، وبنو أسد من أصدقاء أمير المؤمنين عليه السلام والمخلصين له . هكذا كانت

^{٦٨} وذكرت بعض المصادر أنّهم جاؤوا إلى الإمام الحسين عليه السلام .
^{٦٩} نعمان بن محمد المغربي، دعائم الإسلام، تحقيق وتصحيح: آصف الفيضي، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ، ج ٢، ص ٤٤٣ .



حياة أمير المؤمنين عليه السلام.

هناك روايات كثيرة عن قضائه وثيابه ومعيشته وأولاده. يقول الزاوي: ذهبت فشاهدت الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام جالسين يأكلان الطعام، طعامهما كان خبزاً وخلاً وبعض الخضار. فقلتُ لهما يا سيّداي أنتما أميران، أنتما العائلة الحاكمة، ابنا أمير المؤمنين وفي السّوق كلّ هذه المأكولات "وفي الرحبة ما فيها"، في الرحبة - بقرب الكوفة - يُباع كلّ شيء والنّاس تشتري، وأنتما ابنا الأمير عليه السلام، أهذا هو طعامكما؟ فالتفتا إليه وقالا: "ما أغفلك عن أمير المؤمنين" ^{٧٠}، أنت غافل عن أمير المؤمنين، اذهب وانظر إلى حياته! كان الإمام هكذا حتّى مع عائلته.

لقد سمعتم بقصّة زينب الكبرى والاستعارة من أبي رافع، وكذلك قصّة عقيل الذي جاء إلى الإمام وطلب: "صاع من بُر"، أي أراد من القمح مقدّراً أكثر من حصّته. فأخذ الإمام تلك الحديدية المحمّاة وقربها منه - بالطّبع لم يضعها عليه - وهدّده ولم يقبل طلبه. جاءه عبد الله بن جعفر - ابن أخيه وصهره، زوج السيّدة زينب - وقال: يا أمير المؤمنين ليس في يدي شيء، وأنا مضطّرّ لبيع بعض أدوات منزلي. فساعدني ببعض شيء، فلم يوافق الإمام عليه السلام وقال: إلّا إذا قلت لي اذهب يا عمّ واسرق واعطني من مال النّاس.

لقد حدّد أمير المؤمنين عليه السلام معيار الحكم في مجتمعٍ متطوّرٍ وكبيرٍ ومتحضّرٍ وثريٍّ، في زمانه على أساس ما كان في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. كلّ



شيء كان قد تطوّر. أراد أمير المؤمنين عليه السلام بسلوكة إثبات أنّه بالإمكان إحياء تلك المبادئ حتّى في أحلك الظروف. هذا هو العمل العظيم الذي قام به أمير المؤمنين عليه السلام. فمبدأ الإيمان، والعدالة، والجهاد، وصناعة النَّاس، والإدارة الكفوءة اللائقة المؤمنة - فحياة أمير المؤمنين عليه السلام زاهرة بأحداث وأمور أنتم أيّها النَّاس وعلى مدى سنوات تسمعون وقد سمعتم من كلّ قسمٍ منها على شكل قصص وروايات وأحاديث له عليه السلام - كلّها دلائل على هذه الحقيقة، وخلاصتها أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يُبرهن للعالم أنّ هذه المبادئ الإسلامية ممكنة التطبيق في كلّ الظروف. وهذا هو الواقع. ليست المبادئ الإسلامية في شكل ثياب أمير المؤمنين عليه السلام بحيث إذا كان يرتدي مئزرًا أو قميصًا علينا اليوم ارتداء نفس الملابس. المبادئ الإسلامية هي العدالة، والتوحيد، وإنصاف النَّاس، واحترام حقوقهم، ومتابعة شؤون الضعفاء، والوقوف بوجه الجبهات المعادية للإسلام والدين، والإصرار على ركائز الحقّ والإسلام والدِّفاع عن الحقّ والحقيقة. هذه مفاهيم ممكنة التطبيق في جميع العصور.

بالطبع، نحن عندما نذكر هذا الكلام اليوم، فإننا نأتي به من مكانٍ رفيع، فمن ذا الذي بوسعه حتّى أن يتصوّر التشبّه بأمر المؤمنين عليه السلام؟ كلاً، لا أحد يمكنه التشبّه بأمر المؤمنين عليه السلام. الإمام السجّاد عليه السلام وهو حفيد أمير المؤمنين عليه السلام وله مقام العصمة، حين قيل له إنّك كثير العبادة قال أين عبادتنا من عبادة عليّ عليه السلام؟ أي إنّ الإمام العابد السجّاد يقول ليس بالإمكان مقارنتي بعليّ عليه السلام. وبين الإمام السجّاد عليه السلام وخيرة العباد والزهاد في زماننا آلاف الفراسخ. أشار



أمير المؤمنين عليه السلام إلى التّمودج والقمة وأبجاء الحركة وحدّد الملاك، فلنصل أينما استطعنا الوصول. التّظام الإسلاميّ نظام العدل والإنصاف وخدمة النّاس واحترام حقوق الإنسان ومجاهدة الظّلم الذي يُمارسه القويّ ضدّ الضعيف. هذه هي مشكلات البشريّة المهمّة على امتداد التاريخ. أثّلت البشريّة بهذه المشكلات دائماً وما تزال تُعاني من هذا البلاء. لاحظوا اليوم كيف يدّعي العتاة والأقوياء في العالم أنّ العالم كلّهم. تُعاني الشّعوب الصّفعات وضنك العيش بسبب هذا التعسّف. إنّ منطق الإسلام ومنطق أمير المؤمنين عليه السلام ومنطق الحكومة العلويّة بمجاهدة هذه الأشياء، سواء داخل المجتمع إذا أراد قويّ ابتلاع ضعيف، أم على المستوى العالميّ والدوليّ.

(٢٠٠٤/١١/٠٥)



القدرة والمظلومية والنصر

لقد التأمت في شخصية وحياة وشهادة هذا الرجل الفدّ ثلاثة عناصر تبدو غير منسجمة تمامًا مع بعضها البعض في الظاهر، وتلك العناصر الثلاثة عبارة عن: القوّة، والمظلومية، والانتصار.

فقوّته تكمن في إرادته الصّلبة وعزمه الراسخ، وفي تسيير دفّة الشّؤون العسكريّة في أعقد المواقف، وفي هداية العقول نحو أسمى المفاهيم الإسلاميّة والإنسانيّة، وتربية وإعداد شخصيّات كبرى من قبيل مالك الأشتر وعمّار وابن عباس ومحمّد بن أبي بكر وغيرهم، وشقّ مسار مميّز في تاريخ الإنسانيّة. ويتمثّل مظهر قوّته في اقتداره المنطقيّ واقتداره في ميادين الفكر والسياسة، وفي اقتدار حكومته وشدّة ساعده. ليس ثمة ضعف في شخصيّة أمير المؤمنين عليه السلام في أيّ جانب من جوانبها. ويُعتبر في الوقت ذاته من أبرز الشخصيّات المظلومة في التاريخ. وقد كانت مظلوميّته في كلّ جوانب حياته، لقد ظلّم في أيّام شبابه، حيث تعرّض للظلم حينذاك من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وظلّم في سنوات كهولته وفي عهد خلافته واستشهد مظلومًا، وظلّ من بعد استشهادهِ يُسبّ على المنابر



على مدى سنوات طوال، وتُنسب إليه شتى الأكاذيب.

لدينا في جميع الآثار الإسلامية شخصيتان أُطلقت عليهما صفة "فار الله". ولا توجد في اللغة الفارسية كلمة معادلة تمامًا لكلمة "الثأر" كما في اللغة العربية، فعندما يُقتل شخص ظلمًا فأسرته هي وليّ دمه، وهذا ما يُسمّى بالثأر، ولأسرته حقّ المطالبة بثأره. أمّا ما يُسمّى بـ "دم الله" فهو تعبيرٌ قاصر وناقص لكلمة الثأر ولا يوصل المعنى المطلوب. فالثأر معناه حقّ المطالبة بالدم. فإذا كان لأسرة ما ثأر، فلها حقّ المطالبة به. وورد في التاريخ الإسلاميّ اسمّا شخصيتين، وليّ دمهما الله، فهو الذي يطلب بثأرهما، أحدهما الإمام الحسين عليه السلام، والآخر هو أبوه أمير المؤمنين عليه السلام: "يا ثار الله وابن ثاره"^{٧١}، أي أنّ المطالب بدم أبيه هو الله تعالى أيضًا.

أمّا العنصر الثالث الذي طبع حياة الإمام عليّ عليه السلام فهو التّصر، حيث تغلّب في حياته على جميع التّجارب العصبية التي فرضت عليه، ولم تستطع جميع الجبهات، التي سنذكرها لاحقًا، والتي فتحها ضده أعداؤه أن تنال منه وإنّما هُزمت كلّها أمامه. ومن بعد استشهاده أخذت حقيقته الناصعة تتجلّى وتفتّح يومًا بعد آخر أكثر ممّا كانت عليه في أيام حياته. ففي عالم اليوم، ليس العالم الإسلاميّ وحده وإنّما العالم كلّّه، هناك أناس كثيرون لا يؤمنون حتّى بالإسلام، إلا أنّهم يؤمنون بعليّ بن أبي طالب عليه السلام كشخصيّة تاريخيّة لامعة. وهذا هو جلاء ذلك الجواهر

^{٧١} الشيخ الكليني، الكافي، ج ٤، ص ٥٧٦.



الوَهَّاج، وكأنَّ الله يُكافئه على ما لحق به من ظلم. فلا بدَّ أن يكون لتلك المظلومية ولذلك الكبت والصَّغَط والتعتيم ولتلك الحقيقة السَّاطعة مع تلك التَّهم العجيبة، التي واجهها بالصَّبر، ثواب عند الله. وثوابها هو أنَّك لا تجد على مدى التاريخ شخصيَّة، على هذه الدرجة من التَّألق وقد نالت القبول بكلِّ هذا الإجماع. ولعلَّ أفضل الكتب التي سَطَّرت حتى اليوم بحقِّ أمير المؤمنين عليه السلام، وأكثرها ولهاً وحبًّا، هي تلك التي كتبها أشخاص غير مسلمين. وفي ذهني أسماء ثلاثة كتَّاب مسيحيين كتبوا بؤله حول أمير المؤمنين عليه السلام كتباً جديرة بالثناء حقًّا. وكان هذا الحبُّ قد نشأ منذ اليوم الأوَّل، أي من بعد استشهادهِ، حيث تكالب الجميع على الإساءة إليه والانتقاص منه. من الطَّغمة التي كانت تحكم الشام ومن كان يدور في فلكها، وممن امتلأ غيظًا من سيف أمير المؤمنين ومن عدله. فكانت هذه القضية واضحة منذ ذلك الوقت. وأنا أذكرها هنا مثلاً واحداً على ذلك: انتقص ابن عبد الله بن عروة بن الزبير من أمير المؤمنين عليه السَّلام ذات يوم، أمام أبيه عبد الله بن عروة بن الزبير. وكان آل الزبير كلَّهم ضدَّ عليٍّ، إلا واحداً منهم وهو مصعب بن الزبير الذي كان رجلاً شجاعاً وكرماً، وهو الذي دخل لاحقاً في صراعٍ مع المختار الثقفي في الكوفة، ومن بعده مع عبد الملك بن مروان، وهو زوج سكينه، أي إنَّه أوَّل صهر للإمام الحسين عليه السلام، فكان آل الزبير كلَّهم خصوصاً للأمير المؤمنين عليه السلام أباً عن جدِّ، باستثناءه هو. وهذا ما يدركه الإنسان من خلال دراسته للتاريخ. وبعدهما سمع عبد الله ذلك الانتقاص على لسان ابنه قال جملة ليست حيادية كثيراً، إلا أنَّها تنطوي على نقطة مهمَّة وهي:



"والله يا بُنيّ، ما بنى الناس شيئاً قطّ إلّا هدمه الدّين، ولا بنى الدّين شيئاً فاستطاعت الدنيا هدمه". أي إنهم يحاولون عبثاً هدم اسم أمير المؤمنين عليه السلام القائم اسمه على أساس الدّين والإيمان، "ألم ترَ إلى كيف تُظهر بنو مروان من عيبه وذمّه؟ والله لكأنّهم يأخذون بناصيته رفعاً إلى السّماء. وأما ترى ما يندبون به موتاهم من التّأبين والمديح؟ والله لكأنّما يكشفون به عن الجيف"^{٧٢}. لعلّ هذه الكلمة قيلت بعد نحو ثلاثين سنة من شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، أي إنّ عليه السلام وعلى الرغم من فداحة الظّلم الذي نزل به، أضحى هو المنتصر في حياته وفي التاريخ وفي ذاكرة الإنسانيّة.

ويمكن تلخيص قضية قوّة أمير المؤمنين إلى جانب مظلوميّته الّتي انتهت إلى هذا الحال في ما يلي:

القاسطون

لقد اصطقّت ضدّ عليّ عليه السلام في أيّام حكومته الّتي استمرّت أقلّ من خمس سنوات، ثلاثة تيارات هي: القاسطون، والناكثون، والمارقون، إذ ينقل عنه عليه السلام السّنة والشّعبة أنّه قال: "أمرت أن أقاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين"^{٧٣}. وهذه التسمية هو الذي أطلقها على تلك الفئات الثلاث، فالقاسطون بمعنى الظّالمين، لأنّه عندما يأتي الفعل قسط مجرّداً: قَسَطَ يَقْسِطُ، بمعنى جارٍ يجور، وظلم يظلم. وحينما يأتي على صيغة التّلاثيّ المزيد على وزن أفعل: أقسط يُقْسِطُ، فمعناه العدل

^{٧٢} راجع: بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ٣١٤.
^{٧٣} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٦.



والإنصاف. وعلى هذا، إذا استعملت كلمة القسط على وزن إفعال، تعني العدل، وإذا جاءت على صيغة قَسَطَ يَقسِطُ فهي على عكس ذلك، أي بمعنى الظلم والجور. فهو عليه السلام ستمهم الظالمين. ولكن من هم أولئك القاسطون؟ القاسطون فئة دخلت الإسلام ظاهرياً لمصالحها الخاصة ولم تكن تعترف بالحكومة العلوية أساساً. ولم تُجدِ كلّ الأساليب، التي انتهجها معها أمير المؤمنين عليه السلام، نفعاً. والتفت تلك الفئة حول محور بني أمية الذي كان معاوية بن أبي سفيان - والي الشام آنذاك - أبرز شخصية فيه، ثم يأتي من بعده مروان بن الحكم والوليد بن عقبة. شكّل هذا المحور جبهة رفضت التفاهم والاتفاق مع أمير المؤمنين عليه السلام. ومع أنّ المغيرة بن شعبة وعبد الله بن عباس وغيرهما أشاروا على أمير المؤمنين عليه السلام منذ أول حكومته بالإبقاء عليهم في مناصبهم لبعض الوقت، غير أنّه أبى عليهم ذلك، فذهبت بهم الأوهام إلى أنّه لم يُحسن اتخاذ الموقف السياسي المناسب. ولكنهم هم الذين كانوا في غفلة كما برهنت عليه الأحداث اللاحقة، فمعاوية لم يكن يأتلف مع أمير المؤمنين عليه السلام رغم كلّ ما كان يفعله عليه السلام، ولم يكن يقبل به رغم كلّ الأساليب التي اتبعها عليه السلام لأجل هذه الغاية. ولم يكن ذلك التهجّم مما ترتضيه حكومة كالحكومة العلوية، على الرغم من تحمّل السابقين لبعض هؤلاء.

كان هناك أقلّ من ثلاثين سنة ما بين إسلام معاوية وهبوه لمحاربة أمير المؤمنين عليه السلام. فكان هو وأذناؤه قد حكموا الشّام لسنواتٍ طوال وبسطوا نفوذهم فيها وأسّسوا لهم قاعدة واسعة هناك. ولم تكن الأحوال



آنذاك كما كانت عليه في الأتيم الأولى التي كان بالإمكان أن يُقال لهم فيها . إذا ما أظهروا الخلاف . إنكم دخلتم الإسلام تَوْأً، ولا يحقّ لكم الخلاف. فهم كانوا قد ثبتوا لهم قدمًا عند ذاك. إذاً كان هذا التيار يرفض الحكومة العلوية جملةً وتفصيلاً، ويرنو إلى نمط آخر من الحكم يكون زمامه بيده، وهو ما ثبت عنهم فيما بعد وذاق العالم الإسلامي مرارة حكمهم. فهذا معاوية نفسه، الذي كان في عهد صراعه مع أمير المؤمنين عليه السلام يُظهر الودّ والمحبة لبعض الصحابة، قد أبدت حكومته فيما بعد أسلوبًا في غاية العنف والشدة حتى انتهى بها الحال إلى عهد يزيد وواقعة كربلاء، ومن بعده إلى زمن مروان وعبد الملك والحجاج بن يوسف الثقفيّ ويوسف بن عمر الثقفيّ الذين يُعدّون من جملة نتائج تلك الحكومة وثمارها. ومعنى هذا أنّ الحكومات التي يهتَزُّ التاريخ لذكر جرائمها . كحكومة الحجاج على سبيل المثال . كان معاوية هو الذي أرسى أسسها وحاربه أمير المؤمنين عليه السلام من أجلها. فقد كانت غايتهم معروفة منذ البداية، إذ إنهم كانوا يبتغون حكومة دنيوية محضة تدور في فلك ذواتهم ومصالحهم الذاتية، وهي المظاهر التي شاهدها الجميع في حكومة بني أمية.

ولا نودّ الدخول هنا في أيّ بحث عقائديّ أو كلاميّ. والأمور التي نعرضها هي من صلب التاريخ، وليس تاريخ الشيعة طبعًا، وإنّما تاريخ ابن الأثير وابن قتيبة وما شابه ذلك. وهي نصوص مدوّنة ومحفوطة، وتدخل في عداد الحقائق المسلّم بها وليس في إطار الاختلافات الفكرية بين الشيعة والسنة.

الناكثون

الجهة الثانية التي حاربت أمير المؤمنين عليه السلام هي جهة الناكثين. والناكث هو الناقض، والمراد به هنا ناقض البيعة. وهذه الفئة بايعت أمير المؤمنين عليه السلام في البداية إلا أنّها نقضت البيعة فيما بعد ونكثتها. وكان أفراد هذه الفئة . على العكس من الفئة الأولى . مسلمين ملتزمين، وفي الخندق الموالي. إلا أنّ ولاءهم واعترافيهم بحكومة عليّ بن أبي طالب عليه السلام كان منوطاً بإعطائهم حصّة مقبولة فيها والتّشاور معهم ومنحهم المناصب والمسؤوليات الحكوميّة مع عدم التعرّض لما في أيديهم من ثروات وعدم السّؤال عن مصادرها. ويُمكن ملاحظة مدى ضخامة الثروات التي خلّفها أمثال هؤلاء بعد موتهم. إذ، كانت هذه الفئة ترتضي حكم أمير المؤمنين عليه السلام ولكن بشرط عدم المساس بمثل هذه الأمور، وأن لا يُقال لأحدهم من أين لك هذه الثّروة؟ وكيف حصلت عليها؟ وما إلى ذلك. ولهذا السّبب بايع أكثرهم منذ البداية، في حين أنّ بعضاً آخر لم يُبايع، فسعد بن أبي وقاص لم يُبايع منذ البداية، إلا أنّ طلحة والزبير وأكابر الصّحابة وغيرهم بايعوا أمير المؤمنين عليه السلام وأسلموا له القيادة، بيد أنّهم أدركوا بعد مضيّ ثلاثة أو أربعة أشهر عدم إمكانيّة الانسجام مع هذه الحكومة التي لا تُفرّق في تعاملها بين القريب والبعيد، ولا ترى لذاتها ولا لأفراد أسرها أيّ امتياز، ولا تقرّ بأيّ امتياز للسّابقين في الإسلام - وإن كان أمير المؤمنين عليه السلام نفسه أولهم إسلاماً . ولا تُحابي أحداً في تطبيق الأحكام الإلهيّة. ولهذا الأسباب جنّدوا أنفسهم لمعارضة هذه الحكومة وتسبّبوا في وقوع معركة الجمل التي كانت فتنة حقّاً، وقُتل



في هذه المعركة عددٌ كبيرٌ من المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار أمير المؤمنين عليه السلام وإعادة الأمور إلى نصابها. وهذه هي الجبهة الثانية التي شغلت أمير المؤمنين عليه السلام ردحًا من الزمن.

المارقون

أما الجبهة الثالثة فكانت جبهة المارقين، والمارق بمعنى الخارج والهاب. وقيل إنهم سَمُوا بالمارقين لخروجهم من الدين كخروج السهم من القوس. وكانت هذه الفئة متمسكة بظواهر الدين، ويكثر من التبجح باسم الدين. وهؤلاء هم الخوارج الذين وضعوا أسسهم الفكرية على أساس فهم مغلوط للدين - وهي ظاهرة خطيرة طبعًا - ولم يأخذوا الدين عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان مفسرًا للقرآن وعالمًا بالكتاب. أمّا تكتلهم أو ما يُسمى بالاصطلاح المعاصر "تحزيبهم" فكان يستلزم سياسة معينة، وكانت هذه السياسة توجه من مكانٍ آخر. والسمة البارزة التي كانت تُميّز أعضاء هذه الفئة هي أنك لا تكاد تتلفظ بكلمة حتى يُسارع أحدهم إلى الإتيان بآية من القرآن، وكانوا كثيرًا ما يقرؤون أثناء صلاة جماعة أمير المؤمنين عليه السلام آيات معرضين به، أو يقومون عند منبره وقرؤون آية فيها تعريض يقصدونه بها، وكان شعارهم "لا حكم إلا لله"، بمعنى أننا لا نعترف بحكومتك، ونحن أتباع حكومة الله! هذه الفئة، التي كان ظاهر أمرها على هذه الشاكلة، كان تنظيمها واتجاهها السياسي يجري وفقًا لآراء وتوجيهات كبار القاسطين والشخصيات البارزة في حكومة الشام. أي عمرو بن العاص ومعاوية. إذ كانت لهذه



الفئة علاقات بأولئك الأشخاص، فالأشعث بن قيس، كما يشير الكثير من القرائن. كان رجلاً غير نزيه. واتبعت هذه الفئة طائفة كبيرة من البسطاء فكرياً. إذاً، الفئة الثالثة التي جابهت أمير المؤمنين عليه السلام . وانتصر عليها طبعاً . هي فئة المارقين التي وجه لها ضربة قاصمة في معركة النهروان. ولكن كان لهم وجود في المجتمع، وفي ختام المطاف كان استشهادهم على أيديهم.

ينبغي أن لا يُشتبه في فهم الخوارج، فهناك من يصف الخوارج بالتحجر والتنسك الجامد، ولكن المتنسك يتصف بالعزلة والانطواء على صلاته ودعائه، وهذا المعنى لا يصدق على الخوارج، لأن الخوارج عناصر متمردة تُثير الأزمات، ولها وجود فاعل في الساحة، وتشق حرباً ضد عليّ عليه السلام، ولكن أساس عملها خاطئ، وحرماً خاطئة، وأساليبها مرفوضة، وغايتها باطلة. هذه هي الفئات الثلاث التي جابهت أمير المؤمنين.

الفرق بين حكومة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحكومة علي عليه السلام

الفارق الأساس بين أمير المؤمنين عليه السلام في عهد حكمته، وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أيام حياته وعهد حكمته هو أنّ الخنادق في عهد الرسول كانت مشخّصة ومشخّصة تماماً، خندق الإيمان وخندق الكفر، أما المنافقون فكثيراً ما كانت الآيات القرآنية تُشير إليهم وتُحذّر منهم وتُقوّي صفوف المؤمنين في مواجهتهم وتُضعف من شوكتهم، أي إنّ كلّ شيء كان في النظام الإسلامي في عهد الرسول واضحاً تمام الوضوح، وكانت الصفوف مفروزة فرزاً جلياً، فطائفة كانت على الجاهليّة



والكفر والطاغوت، وأخرى كانت على الإيمان والإسلام والتوحيد، ومن الطبيعي أن كل واحدة من هاتين الطائفتين كانت تضم صنوفاً شتى من الناس، لكن الصفوف كانت مشخصة وواضحة كل الوضوح. أما في عهد أمير المؤمنين عليه السلام فكانت المشكلة الكبيرة في تداخل الصفوف والحنادق، وهذا هو السبب الذي جعل للفئة الثانية - أي الناكثين - وضعاً مقبولاً ومبرّراً. وكان كل مسلم يتردد كثيراً في محاربة شخصيات من أمثال طلحة أو الزبير، فالزبير هو ابن عمّة الرسول وكان من الشخصيات البارزة والمقرّبة إليه، حتى أنه كان ممن اعترضوا على السقيفة دفاعاً عن أمير المؤمنين عليه السلام بعد عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن الأمور بخواتيمها. نسأل الله أن يجعل عاقبتنا إلى خير. فقد يؤثّر حبّ الدنيا ومظاهر الحياة في بعض الناس إلى درجة تجعل المرء يشكّ حتى في الخواصّ، فما بالك بالعوام. وعلى كل الأحوال، كانت الظروف آنذاك عصبية حقاً.

ولا بدّ أنّ الناس الذين صمدوا مع أمير المؤمنين عليه السلام وحاربوا إلى جانبه كانوا على قدر كبير من البصيرة. والشاهد على هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام: "لا يحمل هذا العلم إلا أهل البصر والصبر"^{٧٤}. فلا بدّ من توفر البصيرة بالدرجة الأولى. ويُستدل من هذه التداخلات على طبيعة المشاكل التي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى الأساليب المتنوعة التي اتّبعها الناس الذين حاربوه. ففي صدر

الإسلام، كان هناك أفكار خاطئة كثيرة تُطرح في السّاحة، ولكن كانت تنزل آية قرآنية وتفنّدها بصراحة، سواء عندما كان النبيّ في مكّة أم في المدينة، فسورة البقرة - على سبيل المثال - وهي سورة مدنية، عندما ينظر المرء فيها يراها حافلة بصور من التحدّيات والاشتباكات بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والمنافقين واليهود، حتّى أنّها تناولت التفاصيل الجزئية واستعرضت الأساليب التي كان يتّبعها يهود المدينة في إيذاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسياً، ومنها ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾^{٧٥} وما شابه ذلك. وجاءت أيضاً سورة الأعراف، وهي سورة مكّية، زاخرة بمحاربة الخُرافات وكُرس فصلٌ منها للحديث عن تحريم وتحليل أنواع اللحوم، في مقابل التحليل والتّحريم الزائف الذي اصطنعه النّاس لأنفسهم يومذاك: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾^{٧٦}. هذه هي المحرّمات الحقيقية وليست تلك التي اصطنعتموها أنتم لأنفسكم من أمثال البحيّرة والسّائبة وما شاكل ذلك. وكان القرآن يحارب هذه الأفكار صراحةً. أمّا في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، فقد كان أعداؤه يستغلّون تلك الآيات القرآنية. وهذا ما صعب كثيراً من مهمّة أمير المؤمنين عليه السلام. لقد قضى عليه السلام مدّة خلافته القصيرة في أمثال هذه المصاعب والمعضلات.

^{٧٥} سورة البقرة، الآية ١٠٤.

^{٧٦} سورة الأعراف، الآية ٣٣.



وفي مقابل هؤلاء كانت جبهة عليّ نفسه، وهي جبهة قوية حقاً، وفيها رجال كعمّار ومالك الأشتر وعبد الله بن عباس ومحمّد بن أبي بكر وميثم التمار وحجر بن عديّ، كانوا شخصيّات مؤمنة ذوي بصيرة ووعي، وكان لهم دورٌ مؤثّر في توعية الناس الآخرين. فكان من جملة المواقف الجميلة في عهد أمير المؤمنين - ويُعزى جملها طبعاً إلى الجهود الطيّبة لهؤلاء الأكابر، إلا أنّها في الوقت ذاته كانت مريّة بسبب ما لحقهم من جزائنها من عناءٍ وعذاب - هو مسيرهم نحو الكوفة والبصرة من بعد ما هبّ طلحة والزبير وغيرهما واستولوا على البصرة وأرادوا المسير منها نحو الكوفة، حيث أرسل أمير المؤمنين عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام وبعض هؤلاء الأصحاب، وكان لهم مع الناس في المسجد مداولات وأحاديث ومحاجّات تُعتبر من المواقف المثيرة وذات مغزى عميق في تاريخ الإسلام. ولهذا السبب يلاحظ أنّ الهجمات الأساس لأعداء أمير المؤمنين عليه السلام وُجّهت صوب هذه الشخصيّات، ضدّ مالك الأشتر، ضدّ عمّار بن ياسر، ضدّ محمّد بن أبي بكر، ضدّ كلّ من وقف إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام منذ البداية وأثبتوا صلابة إيمانهم وسلامة بصيرتهم. ولم يتورّع الأعداء عن كيل أنواع التّهم لهم والسّعي لاغتيالهم. ولهذا قضى أكثرهم شهداء، فاستشهد عمّار في الحرب، واستشهد محمّد بن أبي بكر بتحليل أهل الشام، وكذا استشهد مالك الأشتر بحيلةٍ من أهل الشام.



وبقي البعض الآخر، ولكنهم عادوا واستشهدوا على نحوٍ قاسٍ وفجيع.

هذه هي الظروف التي عاشها أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وفي عهد حكومته. ولو أردنا الخروج بنتيجة مختصرة عنها لقلنا إنّها كانت حكومة قويّة ولكنّها في الوقت ذاته مظلومة ومنتصرة، بمعنى أنّه استطاع قهر أعدائه في أيام حياته، واستطاع من بعد استشهاده مظلومًا أن يتحوّل إلى شعلّةٍ وهّاجة على مدى تاريخ الإنسانية. ولا شكّ في أنّ المرارة التي ذاقها أمير المؤمنين عليه السلام خلال هذه الفترة تُعتبر من أشدّ وأصعب المحن في التاريخ.

(١٩٩٩/٠١/٠٨)

الفصل الرابع: السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام

- المكانة المعنوية للزّهراء عليها السلام
- حياتها الجهادية والسياسية
- حياتها العلمية والعبادية

المكانة المعنوية للزَّهراء عليها السلام

الصابرة الممتحنة

لا تنحصر فيوضات السيِّدة فاطمة الزَّهراء عليها السلام لمجموعة صغيرة تُعدّ جماعةً محدودة من مجموع العائلة البشريَّة. فلو أنَّنا نظرنا بنظرةٍ واقعيَّة ومنطقيَّة، فإنَّ البشريَّة مرهونة لفاطمة الزَّهراء عليها السلام، وهذا ليس جزافاً، إنّها حقيقة، مثلما أنَّ البشريَّة مرهونة للإسلام والقرآن ولتعاليم الأنبياء عليهم السلام والنبيِّ الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. لقد كان الأمر كذلك دوماً وعلى مرَّ التاريخ وهو اليوم كذلك، فإنَّ نور الإسلام ومعنويَّات فاطمة الزَّهراء عليها السلام يوماً بعد يوم سيصبحان أكثر نصوعاً، وسوف تتلمَّس البشريَّة ذلك. ما لدينا من تكليف ووظيفة في هذا المجال، هو أن نجعل أنفسنا لائقين للانتساب إلى هذه العترة. وبالطَّبع، فإنَّ الانتساب لعترة الرسالة وأن نكون من جملة التابعين لهم المعروفين بولايتهم أمرٌ صعبٌ، حيث نقرأ في الزيارة إنّنا أصبحنا معروفين بمحبَّتكم وولايتكم، وهذا ما يُلقَى على كاهلنا تكليفاً مضاعفاً.



إنّ هذا الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى في سورة الكوثر المباركة كبشارة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^{٧٧}، تأويله هو فاطمة الزهراء عليها السلام، في الحقيقة هو مجمع جميع الخيرات الذي سوف ينزل يوماً بعد يوم من منبع الدين النبويّ على كلّ البشريّة والخلائق. لقد سعى الكثيرون من أجل إخفائه وإنكاره ولكنهم لم يتمكنوا ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^{٧٨}.

يجب علينا أن نُقَرِّب أنفسنا إلى مركز التور هذا، وإنّ لازم وخاصيّة هذا التقرب هو التنوّر. يجب علينا أن نُصبح نورانيّين من خلال العمل، لا بواسطة المحبّة الفارغة، العمل الذي تُملّيه علينا هذه المحبّة وتلك الولاية وذاك الإيمان ويطلبه منّا، بهذا العمل يجب أن نُصبح من هذه العترة والمتعلّقين بها. ليس من السهل أبداً أن يصير المرء قنبراً في بيت عليّ عليه السلام، ليس من السهل أن يصبح الإنسان "سلمان منّا أهل البيت"^{٧٩}. نحن مجتمع الموالين وشيعة أهل البيت عليهم السلام نتوقّع من هؤلاء العظماء أن يعتبرونا منهم ومن حاشيتهم. "فلان من ساكني تربة عتباتنا"، قلوبنا تريد أن يحكم علينا أهل البيت بهذه الطريفة وهذا الأمر ليس سهلاً ولا يحصل بمجرد الادّعاء. إنّ هذا يستلزم العمل والإيثار والتشبه والتخلّق بأخلاقهم.

انظروا إلى هذه السيّدة الجليلة في أيّ سنّ حازت على كلّ هذه الفضائل! وفي أيّ عمرٍ برزت فيها كلّ هذه التألّقات! في عمرٍ قصيرٍ لم

^{٧٧} سورة الكوثر، الآية ١.

^{٧٨} سورة الصف، الآية ٨.

^{٧٩} بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٢٣.



يتجاوز ١٨ سنة، ٢٠ سنة، ٢٥ سنة بحسب اختلاف الروايات. وكلّ هذه الفضائل لا تحصل عبثاً، "امتحنك الله الذي خلقك قبل أن يخلقك، فوجدك لما امتحنك صابرة"^{٨٠}، فإنّ الله تعالى قد امتحن زهراء الطهر، وهي المصطفاة من عباده. إنّ النظام الإلهي هو نظامٌ يعتمد على الحساب والكتاب، وما يمنحنا إياه إنّما يكون محسوباً بدقّة. إنّّه يعدّ كلّ هذا الإيثار والمعرفة والتّضحية الخاصّة (وهي من عبيده الخواص)، في سبيل الأهداف الإلهيّة، لذلك جعلها مركز فيوضاته.

(١٣٧٠/١٠/٠٥)

نور فاطمة

في رواية، إنّ سطوع نور فاطمة الزهراء عليها السلام أدّى إلى أن تنبهر عيون الكروبيّين من الملائكة الأعلى، "زهر نورها لملائكة السماء"^{٨١}. فماذا نستفيد نحن من هذا التّور والسطوع؟ يجب علينا الاهتمام بهذا التّجم السّاطع إلى الله وإلى طريق العبوديّة الذي هو الصّراط المستقيم، الذي سلكته فاطمة الزهراء عليها السلام، فوصلت إلى تلك المداخل والمقامات العالية. فإن جعل الله طبيعتها طينّة متعالية، فلائّه كان يعلم أنّها تخرج مرفوعة الرّأس من الامتحان في عالم المادّة والتّاسوت "امتحنك الله الذي خلقك قبل أن يخلقك فوجدك لما امتحنك صابرة"^{٨٢}، هذه هي

^{٨٠} بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ١٩٤.

^{٨١} م.ن، ج ٤٣، ص ١٧٢.

^{٨٢} بحار الأنوار، ج ٩٧، ص ١٩٤.



القضية. فالله تعالى إذ تلطف بلطفه الخاص على تلك الطينة، فجانب من القضية هو أنه يعلم بأنها تخرج مرفوعة الرأس من الامتحان، وإلا فإن الكثيرين كان لديهم طينة طيبة، لكن هل تمكّن الجميع من الصبر على الامتحان؟ هذا جانب من حياة الزهراء عليها السلام التي نحتاج إليها لنجاة أنفسنا، فالحديث ورد من طريق الشيعة أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة عليها السلام: "يا فاطمة اعلمي فيّ لا أغني عنك من الله شيئاً"^{٨٣}، أي يجب عليك أن تُفكر وتُفكر بنفسك، فكانت تهتم بنفسها منذ صغرها وإلى نهاية عمرها القصير.

كيف كانت حياتها؟ كانت إلى ما قبل الزواج، عندما كانت ما زالت فتاة كانت تعامل أباهما، الذي كان بهذه العظمة، بحيث راحت تُكنّى بـ "أمّ أبيها"^{٨٤}، في الوقت الذي كان نبيّ الرحمة والنور ومؤسس الحضارة الحديثة والقائد العظيم الخالدة يرفع راية الإسلام. ولم تُكنّ بـ "أمّ أبيها" اعتباطاً، فقد كانت الزهراء إلى جانب أبيها، تزيل يديها الصغيرتين غبار الحزن والغم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، سواء في مكة أم في شعب أبي طالب مع كلّ شدايدهما، أم عندما بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحيداً مكسور القلب بوقوع حادثتين في فترة قصيرة، هما وفاة خديجة عليها السلام ووفاة أبي طالب عليه السلام حيث أحسن النبي بالغيرة. هذا هو منشأ كنيته بـ "أمّ أبيها"^{٨٥}.

^{٨٣} شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ١٣٤.

^{٨٤} بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٩.

^{٨٥} (م.ن).



لقد كانت السيّدة الزّهراء عليها السلام في سنّ السادسة أو السّابعة . حيث يوجد روايات مختلفة بشأن تاريخ ولادتها . عندما حدثت مسألة شُعب أبي طالب . لقد شكّلت شعب أبي طالب مرحلة صعبة جدّاً في تاريخ صدر الإسلام، أي إنّ دعوة النّبي كانت قد بدأت وصارت علانيّةً، وبالتدرّج بدأ أهل مكّة . وخصوصاً الشباب، وبالأخصّ العبيد . يقبلون ويؤمنون به، ورأى صناديد قريش كأبي لهب وأبي جهل وغيرهما أنّه لا بدّ من إخراج النّبيّ وكلّ من كان معه من مكّة، وهذا ما فعلوه. فأخرجوا عدداً كبيراً منهم وقد بلغوا عشرات الأسر بما في ذلك النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأسرتهم وأبو طالب نفسه، مع أنّ أبا طالب كان يُعدّ من الوجهاء الكبار. فخرجوا من مكّة ولكن إلى أين يذهبون؟ صادف أن كان لأبي طالب مُلْكٌ في بقعة قريبة من مكّة . لعلّها كانت تبعد عدّة كيلومترات . وكانت في شعاب جبلٍ يُدعى شُعب أبي طالب. فقال لهم أبو طالب فلنذهب إلى هذه الشّعب. فكّروا في هذا الأمر! كانت التّهارات في مكّة شديدة الحرارة، والليالي في غاية البرودة، أي إنّ الوضع لم يكن قابلاً للتحمّل. لقد عاشوا في هذه الشّعب مدّة ثلاث سنوات. فكم تحمّلوا من جوعٍ وصعابٍ ومحنٍ، الله وحده يعلم. فأحد المراحل الصّعبة في حياة النّبيّ كانت هناك. ولم تكن مسؤولية النّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المرحلة منحصرة في القيادة بمعنى إدارة مجموعة، بل كان عليه أن يتمكّن من الدفاع عن عمله أمام هؤلاء الذين كانوا واقعين في المحنة.

ومن المعلوم أنّه عندما تكون الأوضاع جيّدة، فإنّ الذين يكونون مجتمعين حول القيادة، يكونون جميعهم راضين عن الأوضاع ويقولون:



رحم الله أباه، فقد أوصلنا إلى هذا الوضع الجيد. ولكن عندما تسوء الأحوال، فإن الجميع يُصابون بالحيرة والتردد، ويقولون: إنه هو الذي أوصلنا إلى هذا الوضع السيئ! ولم نكن نريد أن نصل إلى مثل هذا الوضع! وبالطبع، فإن أصحاب الإيمان القوي يصمدون، ولكن في النهاية إن كل الصعاب كانت تنهال على الرسول. وفي هذه الأثناء، وعندما كان النبي يُقاسى أشد أنواع المحنة، توفي كل من أبي طالب الذي كان الداعم للنبي وأمله، والسيدة خديجة الكبرى التي كانت تُعد أكبر عونٍ روحيٍّ له، في ظرف أسبوعٍ واحد! فكانت حادثة عجيبة جدًا، أي أن النبي أصبح بعدها وحيدًا فريدًا.

إن من يتأثر مجموعة معينة، يعلم ما معنى مسؤولية المجموعة. ففي مثل هذه الظروف يصبح الإنسان متحيرًا. انظروا إلى دور فاطمة الزهراء عليها السلام في مثل هذه الظروف. عندما يتأمل الإنسان في التاريخ، ينبغي أن يجد مثل هذه الموارد في الروايات المختلفة، وللأسف لم يتم فتح أي فصل لأي من هذه الأمور. لقد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام كأمٍّ ومشاورٍ وممثلة بالنسبة للنبي. هناك قيل "فاطمة أم أبيها". إن هذا الأمر مربوط بذلك الوقت، أي عندما كان للابنة من العمر ست أو سبع سنوات. وبالطبع، في البيئة العربية وفي البيئات الحارة، تنمو البنات بصورةٍ أسرع من الناحيتين الجسدية والروحية، أي بمعدل فتاة بعمر العاشرة أو الثانية عشرة في أيامنا هذه. وهذا ما يؤدي إلى الشعور بالمسؤولية. ألا يمكن أن يُشكل ذلك قدوةً لأي فتاة، كي تشعر باكراً بالمسؤولية والنشاط تجاه القضايا التي تدور من حولها؟ إن هذا الرأسمال العظيم للنشاط الموجود



فيها، كانت تنفقه من أجل أن تزيل غبار التكدر والغم عن وجه أبي لعلّه قد مرّ على عمره أكثر من ٥٠ سنة وقد قارب سنّ الهرم. ألا يمكن أن يكون هذا بالنسبة للفتاة نموذجًا وقودًا؟ هذا مهم جدًا.

(١٩٩٨/٠٤/٢٧)

في ذاك الوقت، وفي مثل هذا العالم، ربّي النبيّ الأكرم بنتًا صارت لائقةً لأن يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويُقبّل يدها! إنّ تقبيل يد فاطمة الزهراء عليها السلام، من قبل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا ينبغي أن يؤخذ أبدًا على معنى عاطفيّ. فإنّ هذا أمرٌ خاطئٌ جدًّا وحقيّرٌ جدًّا فيما لو تصوّرنا بأنّه يُقبّل يدها فقط لأنّها ابنته ولأنّه يُحبّها. فهل يُمكن لشخصيّة ممثّل هذه العظمة، وممثّل تلك العدالة والحكمة، التي كانت في النبيّ، يعتمد على الوحي والإلهام الإلهيّ أن ينحني ليقبّل يد ابنته؟ كلاً، إنّ هذا أمرٌ آخر وله معنى آخر. إنّّه يحكي عن أنّ هذه الفتاة وهذه المرأة عندما ترحل من هذه الدنيا في عمر ١٨ أو ٢٥ - قيل ١٨ وقيل ٢٥ - تكون في أوج الملكوت الإنسانيّ وشخصاً استثنائيّاً. هذه هي نظرة الإسلام إلى المرأة.

(١٩٩١/١٢/٢٥)

أمّا المقام المعنويّ لهذه السيّدة العظيمة، بالنسبة لمقامها الجهاديّ والثوريّ والاجتماعيّ، فهو أعلى بدرجات. ففاطمة الزهراء عليها السلام هي في الظاهر بصورة بشر، وامرأة، وامرأة شابة أيضاً، ولكنّها في المعنى هي حقيقة عظيمة ونور إلهيّ ساطع وعبّد صالح وإنسانٌ مميّز ومصطفى. هي شخصٌ قال فيه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأُمير المؤمنين عليه السلام: "يا عليّ أنت إمام أمّتي وخليفتي عليها بعدي، وأنت قائد المؤمنين إلى الجنة،



وكأنّي أنظر إلى ابنتي فاطمة قد أقبلت يوم القيامة على نجيبٍ من نور عن يمينها سبعون ألف ملك، وعن يسارها سبعون ألف ملك، وبين يديها سبعون ألف ملك، وخلفها سبعون ألف ملك تقود مؤمنات أمتي إلى الجنة^{٨٦}، أي أنّه يوم القيامة يقود أمير المؤمنين عليه السلام الرجال المؤمنين، وتقود فاطمة الزهراء عليها السلام النساء المؤمنات إلى الجنة الإلهية. فهي عدل أمير المؤمنين عليه السلام. هي التي إذا وقفت في محراب العبادة فإنّ آلاف الملائكة المقربين لله يُخاطبونها ويُسلمون عليها ويُهنئونها ويقولون لها ما كانوا يقولون في السابق لمريم الطاهرة عليها السلام: "يا فاطمة إنّ الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين"^{٨٧}، هذا هو المقام المعنوي لفاطمة الزهراء عليها السلام.

امرأة، في سنّ الشباب، وصلت بلحاظ المقام المعنوي، ووفق ما نُقل في الروايات، إلى حيث تُحدّثها الملائكة وتظهر لها الحقائق. "المحدّثة" أي من تُحدّثها الملائكة وتتكلّم معها. وهذا المقام المعنوي والميدان الواسع والقيمة الرفيعة هي في مقابل جميع نساء عالم الخلق. إنّ فاطمة الزهراء عليها السلام في قمة هذا العلو العظيم تقف وتُخاطب كلّ نساء العالم، وتدعوهم لطبي هذا الطريق. هؤلاء الذين كانوا عبر التاريخ. سواء في الجاهلية القديمة أم في جاهلية القرن العشرين. قد سعوا لتحقير المرأة وجعلها متعلّقة بهذه الزخارف والزينة الظاهرية ولا هم لها سوى

^{٨٦} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٤.

^{٨٧} م.ن.



الموضنة واللباس والزينة والذهب والتخاريف، ولا هم لها سوى أن تقضي هذه الحياة في لهوٍ وعبث، وقد تحركوا من أجل ذلك، إنَّ منطقهم هو منطق يشبه الثلج والجليد مقابل حرّ شمس المقام المعنويّ لفاطمة الزهراء عليها السلام، سيدوب وينعدم. يُعرّف الإسلام فاطمة . هذا العنصر المميّز والملكوتيّ الممتاز . بعنوان الأنموذج والأسوة للنساء. وهو تلك الحياة الظاهرية والجهاد والعلم والبيان والتضحية وحسن التبعل والأمومة والزوجية والهجرة والحضور في جميع الميادين السياسية والعسكرية والثورية، والتفوق في جميع الجوانب بحيث يخضع لها كلّ الرجال العظماء، بل هذا أيضًا المقام المعنويّ والركوع والسجود ومحراب العبادة والدعاء والصحيفة والتضرّع والدّات الملكوتية وتألّق العنصر المعنويّ وكذلك عدل ووزان أمير المؤمنين عليه السلام والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. هذه هي المرأة، وهذا هو نموذج المرأة الذي يريد أن يصنعه الإسلام.

(١٣٦٨/١٠/٢٦)

حياتها عليها السلام الجهادية والسياسية

توجد نقطة في حياة الزهراء المطهرة عليها السلام يجب الالتفات إليها. بالطبع، فإننا لن ندخل في بيان المقامات المعنوية لهذه السيدة الجليلة، فضلاً عن أننا لسنا قادرين على إدراك هذه المقامات وفهمها. وفي الحقيقة، الله تعالى وحده يعرف أمثال هؤلاء العباد الذين يكونون في أوج قمة المعنوية الإنسانية والتكامل البشري. وأولئك الذين يكونون على طرازهم. ويرى مقامهم. لهذا لم يكن هناك من يعرف فاطمة الزهراء عليها السلام سوى أمير المؤمنين عليه السلام وأبيها صلى الله عليه وآله وسلم وأولادها المعصومين عليهم السلام. فلا يمكننا نحن في هذا الزمن. ولا للناس الذين كانوا في ذاك الزمان والأزمنة التي تلتها. أن نُشخص ذلك التألق والتألق المعنوي الذي كان موجوداً فيها. فلا يمكن لنور المعنويات الساطع أن يصل إلى عيون جميع الأشخاص، وتعجز عيوننا الضعيفة والقاصرة عن أن ترى تجلّي الإنسانية الساطع الذي كان موجوداً في هؤلاء العظماء. لهذا، لن ندخل في مجال تعريف الجانب المعنوي لفاطمة الزهراء عليها السلام. لكن توجد نقطة مهمة في حياتها اليومية وهي الجمع بين حياة امرأة مسلمة



في سلوكها مع زوجها وأبنائها وقيامها بمسؤولياتها في البيت من جهة، وبين مسؤوليات الإنسان المجاهد الغيور الذي لا يعرف التعب في التعامل مع الأحداث السياسية المهمة بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث جاءت إلى المسجد وخطبت واتخذت المواقف ودافعت وتحذرت وكانت من جهات أخرى مجاهدة بكل ما للكلمة من معنى، لا تعرف التعب وتتقبل المحنة والصعاب. ومن جهةٍ ثالثة، فقد كانت عابدة ومقيمة للصلاة في الليالي الحالكَة وتقوم لله خاضعة خاشعة له، وفي محراب العبادة كانت هذه المرأة الصبية كالأولياء الإلهيين تناجي ربها وتعبده.

إنّ هذه الأبعاد الثلاثة مجتمعةً تُمثّل النقطة الساطعة لحياة فاطمة الزهراء عليها السلام. فإنّها لم تكن تفصل بين هذه الجهات الثلاث. يتصوّر بعض الناس أنّ الإنسان عندما يكون مشغولاً بالعبادة، وهو من أهل الذّكر، لا يُمكنه أن يكون سياسياً، أو يتصوّر البعض الآخر أنّ أهل السياسة، سواء من الرجال أو النساء، إذا كانوا حاضرين في ميدان الجهاد في سبيل الله بفاعليّة، فإذا كنّ من النساء، لا يُمكنهنّ أن يكنّ ربّات منزل يؤدّين وظائف الأمومة والزوجيّة والخدمة، وإذا كان رجالاً لا يُمكنه أن يكون ربّ منزل وصاحب دكان وحياة، إنهم يتصوّرون أنّ هذه تتنافى فيما بينها وتعارض في حين أنّ هذه الأمور الثلاثة لا تتنافى مع بعضها البعض ولا توجد ضديّة بينها من وجهة نظر الإسلام. ففي شخصيّة الإنسان الكامل تكون هذه الأمور معينة لبعضها البعض.

(١٣٦٨/٠٩/٢٢)

تُعتبر شخصية الزهراء المطهرة عليها السلام في الأبعاد السياسية والاجتماعية والجهادية شخصية مميزة بحيث إنّ جميع النساء المجاهدات والثورات والمميزات والسياسيات في العالم يُمكنهنّ أن يأخذن الدروس والعبر من حياتها القصيرة والمليئة بالمحتوى والمضمون. امرأةٌ وُلدت في بيت الثورة، وأمضت كلّ طفولتها في حضن أبيّ كان في حالة مستمرة من الجهاد العالمي العظيم الذي لا يُنسى، تلك السيدة التي كانت في مرحلة طفولتها تتجرّع مرارات الجهاد في مكّة، وعندما حوصرت في شعب أبي طالب، لمست الجوع والصعب والتعب وكلّ أنواع وأصناف الشدائد في مكّة، وبعد أن هاجرت إلى المدينة أضحت زوجة رجلٍ كانت كلّ حياته جهاداً في سبيل الله، فلم تمرّ سنة أو نصف سنة على هذا الزوج لم يكن فيها في جهادٍ في سبيل الله أو لم يذهب فيها إلى ميدان المعركة، طيلة المدّة التي عاشتها فاطمة الزهراء عليها السلام مع أمير المؤمنين عليه السلام، والتي قاربت الإحدى عشرة سنة. وكانت هذه المرأة العظيمة والمضحية زوجةً لائقاً لرجلٍ مجاهدٍ وجنديٍّ وقائد دائمٍ في ميدان الحرب. فحياة فاطمة الزهراء عليها السلام، وإن كانت قصيرة ولم تبلغ أكثر من عشرين سنة، لكنّها من جهة الجهاد والتضال والسعي والصبر الثوريان والدّرس والتعليم والتعلّم والخطابة والدّفاع عن النبوة والإمامة والنّظام الإسلاميّ كانت بحرّاً مترامٍ من السعي والجهاد والعمل وفي النّهاية الشهادة. هذه هي الحياة الجهاديّة لفاطمة الزهراء عليها السلام التي هي عظيمة جداً واستثنائية وفي الحقيقة لا نظير لها، وبقيناً ستبقى في أذهان البشر - سواء اليوم أم في المستقبل - نقطةً ساطعةً واستثنائية.

(١٩٩٠/٠١/١٦)



أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة
www.islamicooa.com/ims
+989217854824

حياتها عليها السلام العلميّة والعباديّة

وفي أجواء العلم، كانت فاطمة الزّهراء عليها السلام عالمةً عظيمة، فتلك الخطبة الّتي ألقتها في مسجد المدينة بعد رحيل النبي، هي خطبة، بحسب كلام العلامة المجلسي، يحتاج فطاحل الفصحاء والبلغاء والعلماء أن يجلسوا ليفسّروا معاني كلماتها وعباراتها، لقد كانت بمثل هذا العمق، وبلحاظ جمالية الفنّ فهي مثل أجمل وأرقى كلمات نهج البلاغة. تذهب فاطمة الزّهراء عليها السلام إلى مسجد المدينة وتقف أمام النّاس وترتجل، ولعلّها تتحدّث لمُدّة ساعة بأعذب وأجمل العبارات وأكثرها بلاغةً.

(١٩٩٢/١٢/١٦)

فأمثالنا نحن الذين نُعدّ من أهل الخطابة والكلام الارتجاليّ نفهم كم أنّ هذه الخطبة عظيمة. فتاة ابنة ١٨ أو ٢٠ سنة وفي الحدّ الأكثر ٢٤ سنة - فالسنّ الدّقيق لحضرة الزّهراء عليها السلام غير معلّم. ومع كلّ تلك المصائب والصّعاب أتت إلى المسجد وخاطبت الجمع الغفير من وراء حجاب، بحيث بقيت كلمات هذه الخطبة، كلمة كلمة في التاريخ.



كان العرب معروفين بقوة حافظتهم. فكان يأتي شخصٌ وينشد قصيدة من ٨٠ بيتاً وبعد أن ينتهي يقوم ١٠ أشخاص ويكتبون هذه القصيدة، فهذه القصائد التي بقيت إلى يومنا هذا، في الأغلب هكذا حُفظت. كانت الأشعار تُتلى وتُحفظ في الأندية - أي في تلك المراكز الاجتماعية. وهذه الخطب وهذه الأحاديث كانت (تُحفظ) بهذه الكيفية أيضاً. لقد جلسوا وكتبوا وحفظوا وبقيت هذه الخطب إلى يومنا هذا. أما الكلمات الجوفاء فلا تبقى في التاريخ، فليس كل كلام يُحفظ، فلقد قيل الكثير الكثير، وألقي الكثير من الخطب والكثير من الأشعار ولكن لم تبقى كلها، ولم يعتن بها أحد. كلما نظر الإنسان إلى ذاك الشيء الذي حفظه التاريخ في قلبه، وبعد مرور ١٤٠٠ سنة، يشعر بالخضوع، وهذا إنما يدل على هذه العظمة. برأيي إن هذا يُعَدُّ بالنسبة للفتاة الشابة قدوة.

(١٩٩٨/٠٤/٢٧)

كانت حياة فاطمة الزهراء عليها السلام في جميع الأبعاد، حياةً مليئةً بالعمل والسعي والتكامل والسمو الروحي للإنسان. وكان زوجها الشاب في الجبهة وميادين الحرب دائماً، وكانت مشاكل المحيط والحياة قد جعلت فاطمة الزهراء عليها السلام كمركزٍ لمراجعات الناس والمسلمين. إنها ابنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المفترجة للهموم، وقد صارت في حياتها في تلك الظروف بمنتهى العزة والسمو، وقامت بتربية أولادها الحسن والحسين وزينب، وإعانة زوجها علي عليه السلام، وكسب رضا أب كالنبي. وعندما بدأت مرحلة الفتوحات والغنائم لم تأخذ بنت النبي ذرةً من لذائذ الدنيا وزخرفها ومظاهر الزينة والأمور التي تميل لها قلوب الشابات والنساء.



وكانت عبادة فاطمة الزهراء عليها السلام عبادةً نموذجيةً. يقول الحسن البصري، الذي كان أحد العبّاد والزهاد المشهورين في العالم الإسلامي، بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام: إنّ بنت النبيّ عبت الله ووقفت في محراب العبادة حتى تورّمت قدمها^{٨٨}. ويقول الإمام الحسن المجتبي عليه السلام إنّ أمّه وقفت تعبد الله في إحدى الليالي - ليلة الجمعة - "حتى انفجر عمود الصبح". ويقول الإمام الحسن عليه السلام إنّّه كان يسمعها تدعو دائماً للمؤمنين والمؤمنات وللناس، وتدعو لقضايا العالم الإسلاميّ العامّة، وعند الصّباح قال لها: "يا أمّاه لما لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بنيّ الجار ثمّ الدار"^{٨٩}. هذه الرّوحية العظيمة. إنّ جهاد تلك المكرّمة في الميادين المختلفة هو جهاد نموذجي في الدفاع عن الإسلام، وفي الدّفاع عن الإمامة والولاية، وفي الدّفاع عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وفي حفظ أكبر القادة الإسلاميّين وهو أمير المؤمنين عليه السلام زوجها. وقد قال عليّ عليه السلام مرّة بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام: "لا أغضبيني ولا عصت لي أمراً"^{٩٠}. ومع تلك العظمة والجلالة، فإنّها كانت زوجة في بيتها، وامرأة بالنّحو الذي يقول عنه الإسلام.

تلك كانت عبادتها وفصاحتها وبلاغتها وحكمتها وعلمها ومعرفتها وجهادها وسلوكها كابنة وزوجة وأمّ، وكان إحسانها إلى الفقراء بحيث عندما أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً عجوزاً فقيراً إلى بيت أمير المؤمنين عليه السلام

^{٨٨} المناقب، ج ٣، ص ٣٤١.

^{٨٩} بحار الأنوار، ج ٨٦، ص ٣١٣.

^{٩٠} م.ن، ج ٤٣، ص ١٣٤.



وقال له أن يطلب حاجته منهم، أعطته فاطمة الزهراء عليها السلام جلدًا كان ينام عليه الحسن والحسين عليهما السلام حيث لم يكن عندها شيء غيره، وقالت له أن يأخذه ويبيعه ويستفيد من ثمنه. هذه هي الشخصية الجامعة لفاطمة الزهراء عليها السلام. إنها أسوة للمرأة المسلمة.

إنّ على المرأة المسلمة أن تسعى في طريق الحكمة والعلم وفي طريق بناء الذات معنويًا وأخلاقيًا وأن تكون في الطليعة في ميدان الجهاد والكفاح، وأن لا تهتمّ بزخارف الدّنيا ومظاهرها الرّخيصة، وأن تكون عفتها وعصمتها وطهارتها بحيث تدفع بذاتها عين ونظرة الأجنبيّ المريبة تلقائيًا، وفي البيت سكينه للزّوج والأولاد وراحة للحياة الزوجيّة، وتُربّي في حضنها الحنون والزّؤوف ويكلماتها اللطيفة والحنونة أولادًا مهذّبين بلا عُقد، وذوي روحية حسنة وسليمة، وتُربّي رجال المجتمع ونساءه وشخصياته. إنّ الأم أفضل من يبي، فقد يصنع أكبر العلماء آلة إلكترونية معقّدة جدًّا مثلاً، أو يصنعون أجهزة للصّعود إلى الفضاء، أو صواريخ عابرة للقارّات، ولكن كلّ هذا لا يُعادل أهميّة بناء إنسانٍ سامٍ، وهو عمل لا يتمكّن منه إلا الأم، وهذه هي أسوة المرأة المسلمة.

(١٩٩٢/٠٢/١٦)

الفصل الخامس: الإمام الحسن المجتبي عليه السلام

- أعظم هدية في التاريخ
- صراع الحق والباطل



أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة
www.islamicooa.com/ims
+989217854824

أعظم هدنة في التاريخ

الظروف التاريخية للصّح

كان عهد الإمام المجتبي عليه السلام وواقعة صلحه مع معاوية . ما سُمّي بالصّح . حدثاً مصيرياً وفريداً على امتداد مسير الثورة الإسلامية في العهد الأوّل . فليس لدينا نظير لهذه الحادثة . وهنا أقدم إيضاحاً مقتضباً لهذه العبارة ثمّ أدخل إلى أصل المطلب .

إنّ ثورة الإسلام أي الفكر الإسلامي والأمانة التي تحمل عنوان الإسلام والتي أرسلها الله سبحانه إلى العالمين، كانت في عهدها الأوّل عبارة عن نهضة واحدة وتحريك واحد، جاء في إطار حركة جهاديّة ونهضة ثوريّة عملاقة . وما إن أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الفكر في مكّة حتّى حشد أعداء الفكر التّوحيديّ وأعداء الإسلام صفوفهم للوقوف بوجهه والحيلولة دون أن يشقّ هذا الفكر طريقه، فعمد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى تنظيم هذه النهضة بتعبئة قواه من العناصر المؤمنة صانعاً ملحمة جهاديّة في غاية الفطنة والقوّة والتقدّم داخل مكّة استمرّت إحدى عشرة سنة، فكانت تلك المرحلة الأولى .



وبعد ثلاث عشرة سنة، ومن خلال تعاليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والشعارات التي رفعها والتنظيم الذي اعتمده والتضحيات التي بُذلت وبمجموع العوامل التي توقّرت، تحوّل هذا الفكر إلى حكومة ونظام، وتبدّل إلى نظامٍ سياسيٍّ وحياتيٍّ لأمةٍ بأكملها، وكان ذلك عندما قدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة وجعل منها قاعدة له وبسط فيها الحكومة الإسلامية، فتحوّل الإسلام من نهضة إلى حكومة، وهذه هي المرحلة الثانية.

استمرّت هذه المسيرة على مدى عشر سنوات من حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والفترة التي تلتها من عهد الخلفاء الأربعة، ومن ثمّ إلى زمان الإمام المجتبي عليه الصّلاة والسّلام، وخلافته التي استمرّت ما يناهز ستّة أشهر، برز خلالها الإسلام على شكل حكومة. وكان كلّ شيء يتّخذ هيئة النظام الاجتماعيّ، أي الحكومة والجيش والعمل السياسيّ والثقافيّ والقضائيّ وتنظيم العلاقات الاقتصادية للأمة، وكان قابلاً للتّسع، ولو قدّر له أن يمضي قدماً على هذا النّحو لكان قد عمّ المعمورة بأكملها، أي لكان الإسلام أثبت أنّ لديه هذه القابليّة.

لقد تنامي التّيّار المعارض في زمن الإمام الحسن عليه السلام إلى أن استطاع أن يبرز كواحدٍ من العراقيين. بالطبع، إنّ هذا التّيّار المعارض لم يظهر إلى الوجود في عهد الإمام المجتبي عليه السلام، بل في السّنوات التي سبقتة. فلو أراد شخصٌ أن يتعد قليلاً عن الجوانب العقائدية ويعتمد فقط على الشّواهد التاريخيّة، لعلّه يستطيع الادّعاء أنّ هذا التّيّار لم يظهر إلى الوجود حتّى في العهد الإسلاميّ، وإنّما كان استمراراً لما شهدته مرحلة نهضة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أي مرحلة مكّة. بعد ذلك، وصلت



الخلافة في عهد عثمان - الذي كان من بني أمية . إلى أيدي هؤلاء القوم، وأبو سفيان - الذي كان أعمى يومها - كان يجلس بعيداً مع أصدقائه. فسأل: من هم الحاضرون في الجلسة؟ فجاءه الرد: فلانٌ وفلانٌ وفلان، فلما اطمأنَّ بأنَّ الحاضرين جميعهم من قومه، ولا يوجد شخصٌ غريب بينهم، خاطبهم قائلاً: "تلقّفوها تلقّف الكرة"^{٩١}، أي تناولوا الحكومة كتناول الكرة ولا تدعوها تفلت منكم. وقد تناقلت تواريخ الشيعة والسنة هذه الحادثة. فهذه ليست مسألة عقائدية، ونحن لا نتناولها وفق رؤية عقائدية، ولا أُحَبِّد أن أتناولها من خلال هذه الرؤية، بل إنني أُثيرها من بعدها التاريخي فقط.

بالطبع، كان أبو سفيان في ذلك الوقت مسلماً وقد أسلم، غاية الأمر، كان إسلام ما بعد الفتح أو على شرف الفتح، عندما لم يكن الإسلام يعيش زمن الغربة والضعف، فكان إسلامه بعد بلوغ الإسلام أوج قدرته. لقد بلغ هذا التيار ذروته في عهد الإمام الحسن المجتبي عليه السلام وبرز متجسداً بمعاوية بن أبي سفيان وهو يقف بوجه الإمام الحسن المجتبي عليه السلام. فباشر هذا التيار معارضته ساداً الطريق بوجه الحكومة الإسلامية - أي الإسلام بطابعه الحكومي - مفتعلاً المشاكل حتى تحوّل إلى عائق أمام تقدّم تيار الحكومة الإسلامية عملياً.

لقد ذكرنا مراراً فيما يتعلّق بصلح الإمام الحسن عليه السلام، وما نصّت عليه المصنّفات والكتب أيضاً، عدم قدرة من كان في نفس موقف الإمام

^{٩١} بحار الأنوار، ج ٣١، ص ١٩٧.



الحسن المجتبي عليه السلام وفي مثل ظروفه، إلّا أن يقوم بمثل ما قام به الإمام الحسن عليه السلام، بما في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، ولا يستطيع أحد أن يقول إنّ الجانب الفلانيّ من عمل الإمام عليه السلام هو مثارٌ للتشكيك. كلاً، ففعله عليه السلام كان مطابقاً للاستدلال المنطقيّ الذي لا يقبل التخلّف.

من هو الأكثر ثوريّة من بين آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ ومن الذي فاقهم في اصطباغ حياته بصبغة الشّهادة وفاقهم حميّةً للمحافظة على الدّين ومواجهة العدو؟ إنّّه الحسين بن عليّ عليه السلام، وهو عليه السلام قد شارك الإمام الحسن عليه السلام في هذا الصّلاح، فلم يعقد الإمام الحسن الصّلاح وحده بل عقده معاً، غاية الأمر أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان المتقدّم يتبعه الإمام الحسين في ذلك. كان الإمام الحسين عليه السلام أحد الذائدين عن مبدأ صلح الإمام الحسن عليه السلام. وعندما بدر اعتراضٌ من أحد الأنصار المقرّبين - من هؤلاء المتحمّسين الثائرين - على ما فعله الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، ردّ عليه الإمام الحسين عليه السلام، "وغمز الحسين حجراً"^{٩٢}، وليس هنالك من يقول: لو كان الإمام الحسين مكان الإمام الحسن لما وقّع الصّلاح، كلاً، فلقد كان الإمام الحسين إلى جانب الإمام الحسن ووقع الصّلاح، ولو لم يكن الإمام الحسن عليه السلام وكان الإمام الحسين عليه السلام وحيداً في تلك الظروف لحدث ما حدث ووقع الصّلاح.

^{٩٢} شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٥.

ضرورة الهدنة والصّـلح

لقد كانت للصّـلح عوامله، ولم يكن بالإمكان تفاديه، فلا مناص منه. يومها لم تكن فكرة شهادة الإمام أمراً ممكناً. وبثبت المرحوم الشّـيخ راضي آل ياسين، رضوان الله تعالى عليه، في كتابه "صلح الحسن"، تعدّر الشّهادة إذ ذاك - وقد ترجمت هذا الكتاب قبل عشرين عاماً وجرى طبعه - فليس كلّ قتلٍ شهادة، بل الشّهادة قتلٌ بشروط، ولم تكن تلك الشّـروط متوقّرة حينها. ولو قُدّر للإمام الحسن عليه السلام القتل يومذاك لما مات شهيداً، فقد كان متعدّراً على أيّ أحد القيام بتحريك مضمون المصلحة في تلك الظروف فيقتل شهيداً إلا أن ينتحر.

لقد تحدّثنا عن الصّـلح بأبعاده المختلفة. والقضيّة التي تبلورت الآن هي أنّ الأمر جرى تنظيمه بعد صلح الإمام الحسن المحتجب عليه السلام بذلك وحنكة بنحوٍ لا يدخل فيه الإسلام والنّهضة الإسلاميّة في نفق الخلافة بما تحمله من مواصفات الملكيّة، وهذا كان فنّ الإمام الحسن المحتجب عليه السلام. فقد قام هذا الإمام بعملٍ جعل تيّار الإسلام الأصيل - الذي كان قد انطلق من مكّة ووصل إلى الحكومة الإسلاميّة وإلى زمن أمير المؤمنين، وإلى زمنه هو - يسير في مجرى آخر، غاية الأمر، أنّه وإن لم يكن على شكل حكومة، لأنّ ذلك لم يكن ممكناً، فعلى الأقل جرى مرّة أخرى على شكل نهضة. كانت هذه المرحلة الثالثة للإسلام. مرّة أخرى، نهض الإسلام، الإسلام الأصيل، الإسلام المقارع للظلم، الإسلام الذي لا يداهن، الإسلام البعيد عن التحريف والمنزّه من التحوّل إلى ألعوبة تتقاذفها الأهواء والنزوات. لقد بقي، ولكن بقي على شكل نهضة. أي أنّه في زمن الإمام الحسن عليه الصّلاة

والسلام، فإنّ الفكر الثوريّ الإسلاميّ الذي كان قد طوى مرحلة ووصل إلى السّلطة والحكومة، عاد مرّةً أخرى وتحوّل إلى نهضة. وبالطّبع، كانت هذه المرحلة، مرحلة الثورة، أكثر تعقيداً بمراتب ممّا كانت عليه في زمن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، لأنّ الذين رفعوا الشعارات كانوا ممّن تلبّسوا بزّيّ الدّين ولم يكونوا من أهله. وهنا تكمن المشكلة الّتي واجهها أئمّة الهدى عليهم السلام. بالطّبع، من خلال مجمل الآيات وعموم حياة الأئمّة عليهم السلام لقد استنبط ما يلي أنّ هؤلاء العظام عليهم السلام ومنذ صلح الإمام المجتبي عليه السلام وحتى النهاية كانوا دائماً بصدد إعادة هذه النهضة مجدّداً لتتخذ شكل حكومة علويّة وإسلاميّة. ويوجد روايات بهذا الصدد. بالطّبع، يُمكن للبعض الآخر أن لا يرى المسألة على هذا النّحو وأن يراها بنحوٍ آخر، لكنّ تشخيصي هو على هذا الشّكل. كان الأئمّة عليهم السلام يريدون أن يبدّلوا النهضة مجدّداً إلى حكومة وتيّارٍ إسلاميّ أصيل، وأن يكون هذا التيّار الإسلاميّ بعيداً عن التلوّن والامتزاج والتلوّث بلوث الأهواء التّفسية، ليمسك بزمام الأمور. بيد أنّ هذا العمل كان عملاً صعباً.

الغاية من الصلح

إنّ أهم ما كانت الأُمّة بحاجة إليه خلال المرحلة الثانية من النهضة - فترة خلافة السفينتين والمروانيتين والعبّاسيين - معرفتها وتشخيصها لمواطن الأصابة في الإسلام ومكامن الانبعاث الّتي ينطوي عليها الإسلام الأصيل والقرآنيّ، من بين طيّات التفسيرات المختلفة والمشتتة، وأن لا يخلطوا بينها. فهذا التأكيد في الأديان على التعقّل والتدبّر ليس عبثاً.



وما ورد في القرآن الكريم من حثّ النَّاس على التّفكّر والتّعقّل والتدبّر فيما يتعلّق بأهمّ الموضوعات الدّينيّة وهو التّوحيد، ليس لغوّاً. فالتّوحيد لا ينحصر في قولنا إنّ الله موجودٌ، وهو واحدٌ لا اثنين، بل هذه صورة من التّوحيد. فحقيقة التّوحيد هي أنّه محيطٌ بلا شاطئ يغرق فيه أولياء الله، وهو وادٍ عظيم الشّأن، لقد طُلب من المؤمنين والمسلمين الموحّدين السّير في هذا الوادي ذي العظمة بتفكّرٍ وتدبّرٍ وتعقّل. وفي الحقيقة، إنّ العقل والتّفكّر هما اللذان يستطيعان التّقدّم بالإنسان إلى الأمام. وبطبيعة الحال، فإنّ هذا العقل إنّما يتغذى ويستمدّ من نور الوحي والمعرفة ويستلهم من تعاليم أولياء الله على مراحل متعدّدة، لكن في التّهاية، إنّ الذي يتحرّك إلى الأمام هو العقل، ومن دونه لا مجال للحركة أبداً.

إنّ الشّيء الذي كان يحتاج إليه الشّعب الإسلاميّ، على مرّ القرون الّتي تمّ التسلّط فيها عليه باسم الخلافة - أي حتّى القرن السّابع، فترة الخلافة العبّاسيّة، وبالطبع، بعد انخيار الخلافة العبّاسيّة، كانت تأتي حكومات من هنا وهناك تحكم باسم الخلافة، كزمن المماليك في مصر، وما تلاها كذلك في البلدان العثمانيّة وأماكن أخرى - إنّ ما كان يحتاج إليه هو تحكيم العقل ليعلم ما إذا كانت رؤية الإسلام والقرآن والكتاب الإلهيّ والأحاديث المسلّمة بشأن أولياء الأمور تنطبق مع الواقع المعاش أم لا، إنّ هذا أمر في غاية الأهمية.

لقد تميّزت فترة الخلافة المروانيّة والسّفّانيّة والعبّاسيّة بإفراغ القيم الإسلاميّة من محتواها الحقيقيّ، إذ بقيت منها صورها لكنّ المضامين تبدّلت إلى مضامين جاهليّة وشيطانيّة.



لقد تحوّل ذلك الجهاز الذي كان يريد تربية وصناعة أناسٍ عقلاء متعبّدين مؤمنين أحرار بعيدين عن التلوّث، خاضعين لله متكبّرين على المتكبّرين - والذي كان أفضله الجهاز الإداري الإسلامي الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم - إلى جهاز يُرِيّ الناس ويُعلّمهم أصناف المكر ويجعلهم من أهل الدّنيا والأهواء والشّهوات والتملّق وبعيدين من المعنويّات، أناسًا فارغين، ديدنهم الفسق والفساد.

وللأسف، كان الوضع على هذه الشّاكلة على امتداد فترة الخلافة الأمويّة والعبّاسيّة. لقد سَطّروا في كتب التاريخ أمورًا، لو شئنا التطرّق إليها لطال بنا المقام. لقد بدأ الأمر في عهد معاوية، حيث امتدح المؤرّخون معاوية كثيرًا بوصفه بالحلم وسعة الصدر وسماحه لمعارضيه بالتفوّه بما شاءوا أمامه. ولعلّه كان كذلك لبرهنة من الزّمن وفي أوائل حكمه. ولكن هنالك أبعاد أخرى إلى جانب هذا البعد من شخصيّته، نادرًا ما تطرّقوا إليه. فهناك الكثيرون ممّن لم يشيروا إلى طريقة استمالاته للأفراد والأقطاب والأشراف من الرّجال لكي يتنصّلوا ممّا يعتقدون ويؤمنون به، بل وتجنيدهم لمواجهة الحقّ. والكثيرون لم يكتبوا مثل هذه الأمور. وهذا - بطبيعة الحال - مدوّن في التاريخ، وهناك أناسٌ كتبوا ما نعرفه نحن الآن.

إنّ النّاس الذين كانوا يخضعون لتربية تلك الأجهزة، كانوا يدرجون على عدم التفوّه بما يُخالف هوى الخليفة ورغبته، فيا له من مجتمع! ويا له من إنسان! وأين هي تلك الإرادة الإلهيّة والإسلاميّة الموجودة في النّاس لإصلاح المفاصل وإزالتها وجعل المجتمع مجتمعًا إلهيًّا؟ فهل أنّ مثل هذا الشّيء سيكون ممكنًا؟



يروى "الجاحظ" أو لعله "أبو الفرج الأصفهاني" أنّ معاوية توجه إبان حكمه إلى مكة ركبًا فرسًا، وكان أحد الوجهاء إلى جانبه يومها، ومعاوية منهمكٌ في الحديث معه ويتبعهما آخرون. كان معاوية يُحدث هذا الرجل متفاخرًا بأجماده وأجداد أبيه "أبي سفيان" في الجاهلية. وكانت مجموعة من الأطفال تلهو في الطريق، وعلى ما يبدو كانوا يلعبون بالأحجار. وفي تلك الأثناء أصاب حجرٌ جبهة ذلك الرجل المرافق لمعاوية فسالت الدماء منها لكنّه لم ينبس ببنت شفة ولم يقطع على معاوية حديثه، فأخذ يتصبّر بينما كانت الدماء تسيل على وجهه ولحيته. وفيما كان معاوية يسهب في الحديث، وإذ به يلتفت إلى صاحبه فيرى الدماء قد غطّت وجهه، فقال له: إنّ الدماء تسيل من جبهتك، فأجاب الرجل معاوية: أدماءٌ تسيل من جبهتي؟! أين ومتى؟ فلشدّة انبهاره بمعاوية، تظاهر بعدم إحساسه بإصابة الحجر وجرحه وسيلان الدّم من جبهته. فقال له معاوية: عجبٌ لك، أصاب الحجر جبهتك ولم تشعر به! فأجاب: كلاً، لم أشعر به، ثمّ ضرب يديه وقال: واه، إنّهُ دمٌ! ثمّ أخذ يُقسم بنفس معاوية وبمقدّساته: لو لم تخبرني، لما شعرتُ بجريان الدّماء لما في كلامك من حلاوة! فسأله معاوية: كم هو عطاؤك من بيت المال؟ فأجابه: كذا. على سبيل المثال. قال معاوية: لقد ظلموك، فلا بدّ أن يُزاد أضعافًا ثلاثة! هذه هي التّقاليد التي كانت سائدة في الجهاز الحكومي لمعاوية.

الذين كانوا يُسكّون بزمام الأمور في تلك الفترة هم الأشخاص الذين كانوا يتزوّفون للرّعاء والخلفاء، فلم تكن الأعمال تُقسّم على أساس الصّلاح والكفاءة، وعادة العربيّ كانت أن يعطي أهميّة بالغة للأصل

والتَّسَبُّبُ، حيث كان يسأل: ذاك الشَّخص من أيِّ عشيرة هو؟ ومن هم آباؤُه؟ إلَّا أنَّ هؤلاء حتَّى الأصول والأنساب لم يكونوا يراعونها... وفي زمن عبد الملك وبعض أولاده، تمَّ تنصيب شخص باسم يوسف بن عمر الثقفيِّ واليًا على العراق لمُدَّةٍ طويلة، وقد بقي حاكمًا وواليًا على العراق لسنوات. وكان معقدًّا وشقيًّا. ومن نافل ما يُنقل عن عقده أنَّه كان قصير القامة، فكان عندما يُعطي قطعة القماش للخيَّاط كي يخيِّطها له، يسأل الخيَّاط: هل تكفي هذه القطعة لقامتي؟ فكان الخيَّاط ينظر إلى هذه القطعة من القماش، فإذا قال مثلاً إنَّها مناسبة لك أيُّها الأمير وربَّما تزيد، كانوا يأخذون منه ذلك القماش فورًا ويأمرون بمعاقبته. فأدرك الخيَّاطون القضيَّة، فصاروا عندما يعرض عليهم قطعة القماش ويسألهم ما إذا كانت تكفي لهيكله أم لا، يردُّون: كلا، يبدو أنَّها لا تكفي ويلزمنا كثير من الجهد لكي نجعلها تتَّسق مع بدنك الضَّخم. فكان يسرُّه ذلك، رُغم علمه بكذب الخيَّاط! لقد كان أحقَّ إلى هذا الحدِّ! إنَّه ذلك الرجل الَّذي قتل زيد بن عليٍّ عليه السلام في الكوفة. فمثل هذا، تسلَّط على نفوس النَّاس وأموالهم وأعراضهم لسنوات. فلم يكن يملك لا الأصل ولا التَّسبب ولا العلم ولا القابليَّة، لكن لقربه من قطب السَّلالة فقد عُيِّن لهذا المنصب، وهذا وبال، ومن أعظم الآفات الَّتِي تفتك بأيِّ نظام.



الثمار العظيمة للصلح

استمرّ هذا التيار على هذا المنوال، فيما كان يسير إلى جانبه تيار إسلامي أصيل هو إسلام القيم والقرآن الذي لا يعرف المهادنة مع ذلك التيار الحاكم المنافي للقيم، ومصادقه البارز أئمة الهدى عليهم السلام والكثير من المسلمين الموالين لهم. وبفضل وجود الإمام الحسن المجتبي عليه السلام، فقد حافظ هذا التيار القيم للنهضة الإسلامية على الإسلام - فلولا صلح الإمام المجتبي لما كتب لذلك الإسلام القيمي التهضويّ البقاء، ولزال من الوجود، لأنّ الغلبة كانت لتكون في خاتمة المطاف من نصيب معاوية، ولم يكن الوضع بحيث يمكن أن تكون الغلبة للإمام الحسن المجتبي عليه السلام، فقد كانت جميع العوامل تسير بالاتجاه المعاكس لغلبة الإمام المجتبي عليه السلام، ولأنّ تكون الغلبة لمعاوية وذلك لأنّ الجهاز الإعلامي كان طوع يده، ولأنّ شخصيته في العالم الإسلامي لم تكن تلك الشخصية التي يعجزون عن تبريرها وإبرازها.

ولولا لجوء الإمام الحسن عليه السلام للصلح لكانوا قضوا على وجود آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم تمامًا، ولما بقي من يحفظ النظام القيميّ الأصيل للإسلام، ولكان انتهى كلّ شيء، ولا تحى ذكر الإسلام. ولما كان الدور ليصل لحادثة عاشوراء. فلو كان الإمام المجتبي عليه السلام قد قرّر الاستمرار في الحرب ضدّ معاوية وانتهت (الحرب) باستشهاد آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لكان الإمام الحسين عليه السلام قُتل في نفس تلك الحادثة وحصل نفس الشيء لكبار الأصحاب، أمثال حجر بن عديّ، ولكان مات الجميع وما بقي من يستفيد



من الفرصة للمحافظة على الإسلام بإطاره القيمي . فقد كان للإمام المجتبي عليه السلام حقٌ عظيم على بقاء الإسلام.

(١٩٩٠/٠٤/١١)

بالطبع، كان الصّـلح مفروضاً، وقد وقع صلحٌ في النهاية. ولكن يجب القول بأنّ الإمام لم يكن راغباً به. وتلك الشّروط التي أقرّها الإمام، في الواقع، زلزلت أسس عمل معاوية. فالصلح بذاته وشروط الإمام الحسن عليه السلام، كانت جميعها مكرّاً إلهيّاً، ﴿وَمَكْرُوهٌ مِّنَ اللَّهِ﴾^{٩٣}، أي لو أنّ الإمام الحسن حارب وقُتل في الحرب - وكان هناك احتمالٌ كبير لأن يُقتل على يد أصحابه أو على يد الجواسيس الذين اشتراهم معاوية . لكان معاوية ليقول أنا لم أقتله بل قتله أصحابه، ولعلّه كان سيقوم العزاء عليه أيضاً، ويبعد جميع أصحاب أمير المؤمنين من بعدها، ولما كان بقي هناك أي شيء باسم التشيع، حتّى تظهر بعد ٢٠ سنة في الكوفة جماعة تدعو الإمام الحسين عليه السلام. فما كان ليبقى أي شيء أصلاً. لقد حفظ الإمام الحسن الشيعة، أي إنّ حفظ البناء حتّى ترجع الحكومة إلى أهل البيت بعد عشرين أو ٢٥ سنة.

(١٩٩٠/٠٤/١١)

^{٩٣} سورة آل عمران، الآية ٥٤.



الاعتراض على الصلح

بعد أن صالح الإمام الحسن معاوية، بدأ الجاهلون عديمو الوعي يذمّونه بمختلف العبارات، حتّى كان بعضهم يُسلّم عليه بـ "مذلّ المؤمنين"^{٩٤}، ويقولون له إنّك بصلحك هذا قد أذلت المؤمنين المتحمّسين لقتال معاوية واستسلمت لمعاوية، وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون عبارات أكثر احترامًا وأدبًا، إلا أنّ المضمون كان واحدًا. وقد قام الإمام الحسن عليه السلام في مقابل هذه الاعتراضات والملاحظات بمخاطبتهم بجملة لعلّها هي الأبلغ في كلّ خطبته: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾^{٩٥}. وهي آية قرآنية، وكأنّه يريد أن يقول: قد يكون ما جرى فتنة لكم وامتحانًا أو إنّهُ متاعٌ محدود لمعاوية.

وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ الإمام كان ينتظر المستقبل، وهذا المستقبل لا يمكن أن يكون سوى أنّ الحكومة التي لا يُمكن أن تكون مقبولة بنظر الإمام الحسن عليه السلام والتي هي على غير الحقّ يجب أن تنتحى جانبًا وتأتي حكومة وفق رأيه. لهذا، كان يقول لهم إنّكم لستم مطلّعين على فلسفة هذا الأمر. فماذا تعلمون؟ لعلّ هناك مصلحة في هذا الأمر.

جاء اثنان في بداية الصلح من وجهاء الشيعة - مُسيّب بن نجبة وسليمان بن صُرَد - ومجموعة من المسلمين إلى الإمام المجتبي عليه السلام. وقالوا لدينا قوى كثيرة من خراسان ومن العراق وغيرهما، ونحن نضعهم تحت

^{٩٤} ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة الأولى، قم، ١٤٠٣ هـ، ص ٣٠٨.
^{٩٥} سورة الأنبياء، الآية ١١١.



تصرفك، كما إننا مستعدون لملاحقة معاوية حتى الشام. فطلبهم عليه السلام إلى خلوة وتحدث معهم لهنيهة. وبعد أن خرجوا من عنده كانوا هادئين وتركوا قوّاتهم ولم يعطوا لمن كان معهم أيّ جواب واضح. ويدّعي طه حسين بأنّ هذا اللقاء في الواقع قد وضع حجر الأساس لجهاد الشيعة، أيّ إنّه يريد القول بأنّ الإمام الحسن عليه السلام قد جلس معهم وشاورهم وأوجد في هذا الاجتماع التشكيلات الشيعية العظيمة.

بناءً عليه، فإنّ هذا المعنى واضح في حياة الإمام الحسن عليه السلام وفي كلماته، وإن لم تكن أرضية مثل هذا القيام مهية في ذلك العصر لأنّ وعي الناس كان قليلاً والإمكانات المالية للعدو وإعلامه كانت كثيرة جداً. لقد استعمل العدو أساليب ما كان الإمام الحسن عليه السلام ليستعملها، كدفع الأموال دون طائل، وجمع الفاسدين والأشرار وأمثالهم. فلذلك كانت يد معاوية مبسوطة بخلاف الإمام الحسن عليه السلام.

(مجلة پاسدار اسلام، ٦)

توجد رواية عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيها: "وُقِّت هذا الأمر في السبعين"^{٩٦} فبالتقديرات الإلهية إنّ أمر الحكومة يعود إلى أهل البيت حتى ولو بعد مرور ٣٠ سنة على شهادة أمير المؤمنين عليه السلام و ١٠ سنوات على شهادة الإمام الحسين عليه السلام. إلّا أنّ منتهى الأمر هو كيف يمكن أن تحصل هذه النتيجة بمثل هذه العظمة؟ ذلك عندما يُهيئ الناس مقدّماتها بالإرادة والعزم. فالله تعالى لا يُجّابي أحداً، وليس له من أقارب! فالأمر

^{٩٦} الكليني، الكافي، ج ١، ص ٣٦٨.



الَّذِي كَانَ عَلَى عَاتِقِ النَّاسِ لَمْ يُنْجِزْهُ. أَمَّا الْعَمَلُ الَّذِي كَانَ عَلَى عَاتِقِ الْإِمَامِ الْحَسَنِ وَالْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فَقَدْ أَدَّيَاهُ، وَلَكِنَّ الْعَمَلَ الَّذِي كَانَ عَلَى عَاتِقِ الْخَوَاصِّ - عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا - فَلَمْ يَتِمَّ. حَتَّى أُولَئِكَ الَّذِينَ جَاءُوا فِيمَا بَعْدَ إِلَى كَرْبَلَاءَ وَحَارِبُوا مَعَ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يَقُومُوا بِمَا كَانَ يَنْبَغِي عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِهِ فِي زَمَانٍ مُسْلِمٍ، لَقَدْ قَصَّرُوا، وَإِلَّا لَمَا حَدَثَ لِمُسْلِمٍ مَا حَدَثَ. كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنْهَوْا الْمَسْأَلَةَ وَلَمْ يَفْعَلُوا. وَهَذَا التَّقْصِيرُ أَدَّى إِلَى أَنْ تَحْدَثَ وَاقِعَةُ كَرْبَلَاءَ.

ثُمَّ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "فَلَمَّا أَنْ قُتِلَ الْحُسَيْنُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَأَخَّرَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ وَمِائَةً"^{٩٧}. أَيُّ أَنَّهُ فِي الظَّاهِرِ قَدْ تَأَخَّرَ. وَبِرَأْيِي قَدْ وَصَلَ إِلَى سَنَةِ ٤٠ أَيُّ أَنَّهُ تَأَخَّرَ سَبْعِينَ سَنَةً. وَهِيَ السَّنَوَاتُ الَّتِي وَصَلَ فِيهَا الْعَبَّاسِيُّونَ إِلَى السَّلْطَةِ... أَيُّ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ صَلَاحَ الْإِمَامِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدْ هَيَّأَ الْأَرْضِيَّةَ لِهَذَا الْعَمَلِ الْكَبِيرِ وَإِلَّا فَإِنَّ الْأَثَمَةَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَمْ يَكُونُوا لِيَتْرَكُوا الْقَضِيَّةَ. فَهَلْ أَنَّ قَضِيَّةَ الْوَلَايَةِ وَالْحُكُومَةِ هِيَ قَضِيَّةٌ بَسِيطَةٌ؟! لَقَدْ كَانَ هَذَا أَسَاسَ الدِّينِ وَمُحَوْرَهُ. وَلَكِنْ هَذَا مَا حَدَثَ فِي النَّهْيَةِ.

(١٩٩٠/٠٤/١١)



الصّٰلِح وتبديل مجرى الخلافة

لقد قيل الكثير بشأن هذا الصّٰلِح. وأمّا ما أُريد أن أقوله فهو التّعامل مع قضيّة صلح الإمام الحسن عليه السلام من وجهة نظر جديدة. لأنّ هذه الحادثة تُمثّل مقطعًا تاريخيًا شديد الحساسية يجعل أهميّة هذه الحادثة أكبر من أيّ حادثة سياسية طيلة تاريخ الإسلام. إنّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالأحداث المختلفة - أحداث عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما بعده وعصر أمير المؤمنين عليه السلام والحوادث في عهد الأئمّة عليهم السلام والأمويّين والعباسيّين - فالإسلام تاريخٌ مليءٌ بالحوادث المهمّة. لكن قليلةٌ هي الأحداث التي لدينا والتي تُشبه هذه الحادثة، حادثة الإمام الحسن عليه السلام، من حيث البعد المصيريّ للتاريخ الإسلاميّ كلّهُ، فأنا العبد قد نقّبت وبجّثت في تاريخ الإسلام ولعلّه يوجد ما يشبه هذه الحادثة واحدة أو اثنتين، كان لهما هذا التّأثير على كل تيّار حركة الإسلام وتاريخ الإسلام كلّهُ وعلى مرّ القرون المتمادية. فمن هذه النّاحية، فإنّ حادثة (الإمام الحسن) حادثة مهمّةٌ جدًّا.

خلاصة الأمر إنّ هذه الحادثة عبارة عن تبديل تيّار الخلافة الإسلاميّة إلى الملكيّة. هذه جملة مليعة بالمعنى والمضمون لو تأملنا فيها. فالخلافة هي نوع من الحكومة والملكيّة هي نوعٌ آخر. ولا ينحصر التمايز بين هاتين بخصوصيّة واحدة أو خمس خصوصيّات. فمسار الملكيّة ومسار الخلافة، هما مساران منفصلان ويتمايزان بالكامل على مستوى إدارة المسلمين وحكمهم، وإدارة البلاد والمجتمع الإسلاميّ. ففي هذه الحادثة تبدّل مسار



القطار العظيم للتاريخ الإسلامي والحياة الإسلامية، مثلما يحدث عندما تنظرون إلى القطارات عند تغيير مساراتها، ففي محلّ ما يتمّ تبديل هذه السكّة ويؤدّي ذلك إلى أن يتغيّر مسار القطار ١٨٠ درجة، وقد يكون القطار متّجهًا شمالًا فيُصبح بعد ذلك متّجهًا جنوبًا. وبالطبع، إنّ هذا التغيير إلى ١٨٠ درجة لا يحصل في لحظةٍ واحدةٍ ملموسة، لكن مآل ذلك أنّ الإنسان يُشاهد شيئًا يُشبه هذا الأمر. أنا أنظر إلى هذه الحادثة من زاوية النّظر هذه.





أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة
www.islamicoa.com/ims
+989217854824

صراع الحق والباطل

هناك سبعة أسئلة أساس تدور حول هذه القضية:

الأول: بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام حلّ مسارّ آخر مكان المسار السابق، فانتقلت السلطة من خطّ إلى خطّ آخر، بحسب تعبير اليوم. فما هي مميّزات وخصائص هذين الخطّين؟ وما هي خصائص هذين المسارين اللذين تبادلا الأدوار معًا؟

الثاني: ما هي أساليب تيّار الباطل الذي أمسك بالسلطة من أجل كسب السيادة والهيمنة على المجتمع؟

الثالث: ما هي أساليب تيّار الحقّ الذي خسر السلطة - أي تيّار الإمام الحسن - من أجل مقاومة تيّار الباطل؟ ما هي الأساليب والطرق التي استخدمها الإمام؟

الرابع: تحليل ودراسة الهزيمة. ماذا حدث حتّى انهزم تيّار الحقّ في هذه الأحداث؟ ما هو تحليل هذه الأمور؟

الخامس: كيف كان سلوك المنتصرين تجاه المغلوبين؟ لأنّ من أهمّ الفصول المليئة بالدروس والعبر هو هذا الفصل.



السادس: كيف كان سلوك المغلوبين مقابل الغالبين؟ أيّ سياسة اختاروا؟ وأيّ استراتيجية؟ وماذا كانت عاقبة الأمر؟

السابع: ماذا كانت العاقبة؟

خصائص تيّار الحقّ والباطل

فيما يتعلّق بخصائص كلّ تيّار، هناك الكثير ممّا يُمكن أن يُقال، بحيث لو أردنا أن نُعدّدها لاحتجنا إلى لائحةٍ طويلة...، فإنّ تيّار الحقّ، أي تيّار الإمام الحسن عليه السلام، يُعطي الأصالة للدين، فبالنسبة لهم الأصل كان الدين. فما هو الدين؟ هو أن يبقى الإيمان والاعتقاد بالدين بين الناس وأن يبقوا متعبّدين به وملتصّكين بالإيمان والعمل، وأن يكون الدين حاكمًا في إدارة المجتمع. فالأصل بالنسبة لهم كان أن يتحرّك المجتمع وفق إدارة الدين وسيادته وحاكميّته وأن يكون النظام هو النظام الإسلاميّ. أمّا الحصول على السيادة والحكومة والإمساك بزمام السلطة فيأتيان بالمرتبة الثانية، والثالثة والرابعة وهكذا، وغيرها من القضايا الفرعية. لكنّ القضية الأساس كانت أنّ هذا النظام وهذا المجتمع ينبغي أن يُدار وفق حاكمية الدين، وأن يبقى أبناء هذا المجتمع على دينهم وإيمانهم، وأن يترسّخ ويتعمّق هذا الأمر في قلوبهم. كانت هذه هي خصائص التيّار الأوّل.

أمّا بالنسبة للتيّار الثاني فقد كان الأصل عنده هو الإمساك بالسلطة وبأيّ ثمنٍ كان. كانوا يريدون الحكومة... وكانت هذه هي السياسة الحاكمة على التيّار الثاني. وكانت القضية بالنسبة لهذا التيّار الإمساك بالسلطة بأيّ ثمنٍ كان وبأيّة وسيلة كانت وبأيّ نحو كان.



مثلاً هو معروف اليوم بين السياسيين في العالم. فالقيم والأصول بالنسبة لهم لا تُشكّل أصلاً. فإن استطاعوا أن يُحافظوا على الأصول الموجودة في أذهانهم فليكن، وإن لم يتمكنوا فإنّ الأصل بالنسبة لهم يكون بأن يبقوا على السلطة في أيديهم. هذا ما هو مهمّ بالنسبة لهم. ومثل هذا يُعدّ حدّاً حسّاساً ومهمّاً. فمن الممكن أن يكون كلٌّ من التيارين يعملان بظواهر الدين، كما كان عليه الأمر في الحرب بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعوية. ففي يوم من الأيام، نجد أنّ جماعة من المقاتلين كانوا في صفوف أمير المؤمنين عليه السلام. في حرب صفّين التي وقف معاوية فيها مقابل أمير المؤمنين عليه السلام. ثم تردّدوا، وكان من بينهم عدّة من أولئك الذين يحملون الشّبهات ولا يستطيعون أن يحلّوها بأنفسهم، ولا هم يرجعون إلى شخصٍ قادرٍ على ذلك، فلذلك كانوا يعزمون على إشاعتها، فيجمعون مجموعة من الأفراد من حولهم. ومثل هؤلاء كانوا يقعون في التردّد، فيقولون لماذا نحن نتحارب؟ فهم يُصلّون ونحن نُصلّي، وهم يقرؤون القرآن ونحن نقرأ القرآن، وهم يذكرون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونحن كذلك، فوقعوا في مثل هذا التردّد والحيرة. وكان هناك عمّار بن ياسر. وقد وجدت نقطة بارزة بشأن عمّار بن ياسر في تاريخ صدر الإسلام. هذا الجليل المحلّل والكاشف للمسائل المليئة بالشبهات والدقيقة، والتي كانت في ذلك الزمان مورد غفلة وجهالة. فهذا هو شأن عمّار بن ياسر في تاريخ الإسلام، فإذا كنّا نعرف مالكا الأشر بـ سيفه وشجاعته، فعلياً أن نعرف عمّار بن ياسر بكلامه وفكره ورؤيته الصحيحة وكشفه للكثير من الأمور في تاريخ صدر الإسلام. فأنا بحثت ووجدت أنّه نادراً ما كان هناك موارد



هي محلّ شبهة في زمن أمير المؤمنين عليه السلام ولم يكن لعمر بن ياسر يد أو حضور فيها، لقد كان هذا الرجل الجليل رجلاً استثنائياً.

لقد علم عمر بن ياسر أنّ هناك جماعة وقعوا في هذه الشبهة، فذهب إليهم وبيّن لهم الحقائق. وتّضح لهم أنّ القضية ليست قضية أنّه هو يُصليّ وأنت تُصليّ، وقال أقسم بالله إنني رأيت في حربٍ أخرى هاتين الرايتين تتقابلان، هذه الراية التي يحملها أمير المؤمنين عليه السلام اليوم، وهذه الراية التي تقف مقابله وتحملها معاوية، وذلك في معركة بدر. ففي معركة بدر تقابلت هاتان الرايتان. راية بني هاشم وراية بني أمية. فكانت تحت هذه الراية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وتحت تلك الراية كان معاوية هذا وأبوه، وكان النبي وأمير المؤمنين عليه السلام نفسه حاضرين تحت هذه الراية. فالخلاف بينهما خلافاً حول الأصول، فلا تنظروا إلى هذه الظواهر، وأزيلوا هذه الشبهة من أذهانكم.

قد يراعي هذا التيار، الذي تكون السلطة أساساً بالنسبة له، الظواهر الإسلامية في بعض الأحيان، وهذا ليس دليلاً ومعيّاراً، بل ينبغي النظر إلى باطن القضية وتشخيصها بذكاء، وكيف أنّ كلّ تيار ينطبق على أيّ شيء، هذا هو المطلوب الأول. فخصائص كلّ من التيارين: أنّ هناك تياراً لا همّ له سوى الوصول إلى السلطة، وتياراً يتّجه نحو القيم والمبادئ والأصول. فهو يؤمن بالبنى والأفكار الإسلامية الأصلية، أي القيم الإسلامية، ويسعى من أجلها ويجهاد في سبيلها. ففي هذه الجهة الأصولية وحفظ القيم الأصلية، وفي الجهة المقابلة، هناك سعي نحو السلطة وطلب الحصول عليها، أحياناً يكون الأمر بهذا النحو وأحياناً



أخرى بذاك النحو ولكن في كل الأحوال ما يريده هو أن تكون السلطة بيده. هذا هو المطلوب الأول.

أساليب تيار الحق والباطل في العمل

أما بالنسبة لتيار الباطل فما هي الأساليب التي استخدمها؟ فمثل هذا لافت للأنظار جدًا. إنَّ أساليب الباطل في العموم هي مزيج من عدّة أشياء، أي إنَّ خطة معاوية كانت خطة مؤلّفة من عدّة أقسام من أجل الحفاظ على السلطة وترسيخها، ولكلّ قسم أسلوبه في العمل والتّنفيد. فأحد هذه الأساليب كان عبارة عن استعراض القوّة، وفي بعض الأماكن كان يستعرضها من خلال العنف والقمع والتّنكيل، وثانيها هو المال، الذي يُعدّ أكثر الأشياء فعالية بيد عوامل الشرّ، الآخر هو الإعلام، والرابع هو العمل السياسي، أي الأساليب السّياسيّة، والمقايضات السّياسيّة. هذه بمجموعها كانت أساليب معاوية.

أنتم ترون في مكانٍ ما أنّ معاوية قد وصل به العنف إلى قتل حُجر بن عديّ، الذي هو من صحابة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، حتّى ولو كان قتله يُحمّله ثمنًا باهظًا. ثمّ يلاحق رشيد الهجريّ حتّى يقتله. ونجده يوليّ زياد بن أبيه، هذا الفرد الظّالم والمعتدّ والذي لا قيمة عنده ولا همّ له سوى السّلطة، والذي كان سيّئ الأخلاق، يوليّه على الكوفة. التي هي مركز سلطة الفكر الشيعيّ والفكر الولائيّ. ويُعطيه الإجازة والصّلاحية ليفعل ما يريد. وبشأن زياد بن أبيه كتب المؤرّخون (والنص للإمام الحسين عليه السلام): "أخذك



بالظنّة وقتلك أولياءه على التهم"^{٩٨}، فكان يأخذ أيّ شخصٍ بالتّهمة وسوء الظّنّ لأدنى مورد، فيعتقل ويحبس ويُنكّل بكلّ من اتّهم بالانتماء لأهل البيت أو التعاون معهم ومع ذلك التّيار المغلوب، ويقتله ويقضي عليه. لقد عمّت فتنته في الكوفة والعراق الذي كان مركز حاكميّة التشييع وأهل البيت عليهم السلام. هكذا كان يستعرض قوّته. ومعاوية نفسه في موردٍ آخر، كان يلاطف امرأة عجوزاً تأتي من القبيلة الفلاتيّة وهي تسبّه وتشتّمه وتوبّخه بأنّك فعلت كذا وكذا وكذا، فيضحك لها ويلاطفها ولا يقول لها شيئاً. يأتي عديّ بن حاتم إلى معاوية وقد كان فاقد البصر، فيقول معاوية: "يا عديّ إنّ عليّاً لم يُنصفك، لأنّه حفظ ولديه في حروبه وأخذ منك ولديك". يبيكي عديّ ويقول: "يا معاوية، أنا لم أنصف أمير المؤمنين حينما استشهد هو وأنا ما زلت حيّاً"^{٩٩}. وكان كلّ من يأتي من المرتبطين بأهل البيت عليهم السلام إلى مجلس معاوية، ويحصل فيه أقلّ إهانة لأمر المؤمنين، كان يحمل على معاوية وأتباعه بشجاعة وقوّة وصراحة، وكان معاوية يضحك ويلاطف وأحياناً كان يبيكي. كان يقول: أجل تقول حقّاً. لعلّ ذلك بالنّسبة لكم لا يُصدّق، ولكن هذا هو الواقع، هكذا كان الإعلام، فالإعلام أكثر الأساليب سماً وخطراً على مرّ التاريخ. وكان الباطل يستفيد منه كثيراً. ولا يُمكن لتيّار الحقّ أن يستخدم الإعلام كما يستخدمه الباطل في أيّ زمن. فلأجل أن يتمكّن الإعلام من التغطية الكاملة على الأذهان يحتاج إلى التلاعب وإلى الكذب والخداع. وتيّار الحقّ ليس من جماعة الكذب والخداع. إنّ تيّار

^{٩٨} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٢١٤.
^{٩٩} راجع: أمالي المرتضى، ج ١، ص ٢٩٨.



الباطل الذي لا يهّمه أي شيء، فالمهمّ عنده هو أن يقلب الحقيقة في أعين الناس. وهو يستفيد من جميع الوسائل، وقد فعل.

وما هو مشهور ومتناقل على ألسنٍ متعدّدة، أنّه عندما قُتل أو ضُرب أمير المؤمنين عليه السلام في محرابه، تعجّب أهل الشام كيف أنّ عليّاً كان في المحراب. فالمحراب هو للصلاة، وبعض الناس لا يُصدّق مثل هذا، ولكن هذا هو الواقع، فعلى مدى سنوات كانت حكومة معاوية، ومن قبله أخيه يزيد بن أبي سفيان، تبتّ مثل هذه الأنباء في الشام، وتُعتمّ الأجواء وتشوّش الأذهان، بحيث إنّ لم يكن من الممكن لأحد أن يفهم غير هذا، هذا ما حدث. كان الإعلام لمصلحة بني أميّة ومعاوية وضدّ آل النبيّ. فهذا الواقع الذي قام في العالم الإسلامي وبقي إلى حوالي مائة سنة بعد الهجرة - أي لعلّه أربعون أو خمسون سنة بعد عهد أمير المؤمنين عليه السلام، كان أمير المؤمنين يُلعن خلالها على المنابر - وهذا اللعن في عالم الإسلام، الذي يُتهم به الشيعة ويلامون عليه أنّه لماذا تلعنون بعض الصحابة، كان من عمل معاوية وأخلاقه، فهم من قام بهذا العمل، إنّ عمل معاوية. فأمر المؤمنين، عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان أفضل القوم^{١٠٠} وأقدمهم إسلاماً^{١٠١} وأقرب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كان يُلعن به ويُلعن لعشرات السنوات على المنابر. وحتى زمن عمر بن عبد العزيز، الذي منع ذلك

^{١٠٠} الشيخ الكليني، الكافي، ج ١٥، ص ٢٠١، "كان عليّ أفضل الناس بعد رسول الله".

^{١٠١} الحراني الأصفهاني، عبد الله بن نور الله، عوالم العلوم والمعارف، تحقيق وتصحيح محمد باقر الأبطحي الأصفهاني، نشر مؤسسة الإمام المهدي، إيران - قم، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ، ج ١١، ص ٣٨٣، "... قد زوجتك أقدمهم إسلاماً، وأعظمهم حِلماً، وأحسنهم خُلُقاً، وأعلمهم بالله علماً". (من كلام الرسول مع ابنته حضرة الصديقة الكبرى).



عندما صار خليفة، وقال لا يحقّ لأحد أن يفعل هذا. فبعد عبد الملك بن مروان، حكم ولداه، الوليد وسليمان، بحدود ١٢ أو ١٣ سنة، ثمّ جاء بعدهما عمر بن عبد العزيز، وبعد سنة أو سنتين من حكومته، حكم ولدا عبد الملك الآخرين أي يزيد وهشام. لم يسمح عمر بن عبد العزيز لهم أن يلعنوا أمير المؤمنين، وهو ما كانوا يفعلونه إلى ذلك الوقت. هذا هو أحد الأعمال التي كانوا يفعلونها. أجل، في البداية كان الناس يتعجبون لكنهم اعتادوا على ذلك شيئاً فشيئاً.

نقرأ في التاريخ أنّه لم يبقَ من قارئٍ أو محدِّثٍ أو راوٍ في الدين أو في العالم الإسلاميّ إلّا وأجبره جهاز حكومة معاوية وأتباعه على اختلاق حديثٍ أو تفسير آية، وأمثال ذلك، في ذمّ أهل البيت عليهم السلام وفي مدح أعدائهم.

هذا ثمرة بن جندب بن معروف الذي وردت بشأنه الرواية المعروفة "لا ضرر ولا ضرار"^{١٠٢}، وهو كان من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، غاية الأمر أنّه صحابيّ غضب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليه، وذلك بسبب تلك القصة المعروفة أنّه كان له شجرة في أرضٍ لعائلةٍ وكان يذهب ويُزعجهم ويدخل عليهم في بيّتهم من دون أي استئذان، مع وجود العائلة والنساء والأطفال في ذلك البيت، وكانوا يرونه وقد دخل عليهم فجأة لأنّ له هذه الشجرة، فشكوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: بع هذه الشجرة لأصحاب هذا البيت، فقال: لا أبيعها، هذه شجرتي وأنا أريد أن أهتمّ بشجرتي،



فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : بعها لي، فلم يقبل، فقال له الرسول: أعطيك المبلغ الفلاني، فلم يقبل، فقال له الرسول: أعطيك شجرة في الجنة، وهذا يعني وعدًا بالجنة، لكنّه لم يقبل، وقال: أريد هذه الشجرة ولا بدّ، فلمّا وجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الإصرار قال لصاحب المنزل اذهب واقتلع هذه الشجرة وارمها خارجًا، "فلا ضرر ولا ضرار في الإسلام". أي إنّ لا يوجد في الإسلام ما يقبل بأذية الناس وضررهم، فلا يوجد في الإسلام مثل هذا أنّه بحجة أنّ هذا ملكي فأؤذي الناس. فحديث "لا ضرر" المعروف، والذي يُعدّ من الأصول والقواعد الفقهية عندنا، هو بشأن هذا الرجل. إنّ سمرة بن جندب بقي حيًّا إلى زمن معاوية. ولها من عاقبة، لأنّ معاوية كان يتتبع الصحابة ويسعى إليهم. فقد كان لأصحاب النبي شهرة ومكانة ولهذا كان يسعى لجمعهم حوله. فأحضره معاوية إليه وقال له إنّني أرغب في أن تقول إنّ هذه الآية المعروفة، ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾^{١٠٣} قد نزلت بعلي عليه السلام، أراد معاوية أن يجعل هذه الآية مقابل كلام أمير المؤمنين عليه السلام في ذم الدنيا، في تلك الخطبة القاصعة في نهج البلاغة التي لها أثر كبير. أنتم تلاحظون أنّ تلك الكلمات والخطب كانت في منتهى الجمال.

تصوّروا اليوم مثلاً شخصًا يؤلّف كتابًا أو شعرًا أو مقالًا في غاية الفصاحة والجمال والفنّ حول موضوع ما، من الطبيعي أنّ الموضوع سيأخذ مجده، وسيكون لصاحب هذا الأثر الفنيّ حلاوة في أعين الناس.

^{١٠٣} سورة البقرة، الآية ٢٠٤.



وهنا لا يمكن في الواقع مقارنة كلام أمير المؤمنين عليه السلام بأي أثرٍ من الآثار الفنيّة التي نعرفها، إنّهُ فوق ذلك بكثير، إنّهُ آية في الجمال. وهذه كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، وكذلك هي في الواقع في بيان القيم الإسلاميّة والمعارف الإسلاميّة، كانت ممّا لا يمكن معاوية تحمّله وقبوله، لأنّها تجعل أمير المؤمنين عليه السلام مورد استحسان في أعين النّاس. أراد (معاوية) أن يواجه هذه الكلمات الزاهدة في مذمّة الدنيا، والتي نُقلت عن أمير المؤمنين عليه السلام، فلذلك قال معاوية لسمرّة بن جندب قل إنّ هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أي أنّ عليّاً عليه السلام (وفق ذلك) سيكون ممّن يتحدّث عن الدّنيا بحديثٍ رائعٍ ويُعجب النّاس ويقسم على ذلك لكنّه في الواقع هو من ألد أعداء الله والإسلام.

والآية الأخرى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾^{١٠٤} قيل إنّها نزلت في ابن ملجم. هذه من الأمور التي كان يحتاجها معاوية كثيراً في إعلامه ودعاياته. فقال لأحد أصحاب النّبّي صلى الله عليه وآله وسلم الذي شاهده في المعارك وكان إلى جنبه . فسمرة بن جندب كان منذ حدوثه جندياً وكان يُشارك في المعارك رغم أنّه كان تحت سنّ التكليف، كان من هذا النوع، وكان من أصحاب النّبّي أيضاً . قال له قل إنّ هذه الآية قد نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، اقترح عليه ذلك، لكنّ سمرة بن جندب، رغم أنّه كان سيّئاً وشقيّاً، لكنّ وجدانه لم يكن مستعدّاً، فقال: كلاً. والذين كانوا يتوسّطون لهذا الأمر في بلاط معاوية قالوا له لا تقلق فإنّ حسابك

سيصلك، فلا تقلق بشأن المال وسوف يُعطيك ٥٠ ألف درهمًا، وكان هذا المبلغ في ذلك الزمان كثيرًا جدًا، فخمسون ألف مثقال من الفضة يعني خمسة مثاقيل من الذهب، في حسابات ذلك الزمان، هذا يُعدُّ ثروة كبيرة، قالوا له نعطيك خمسين ألفًا، فقال: كلاً، لا أقبل. هنا يقول بعض الناس إنَّ سمرة بن جندب كان في الواقع يتلاعب وأراد أن يرفع السعر لا أنه قد أثَّبه ضميره، فهو كان يعلم بأنَّ معاوية يحتاج إلى هذا الأمر وفي الحقيقة كان يحاول أن يساوم. هنا، هل أنَّ وجدانه كان يتقبل الأمر أم لا، لا أعرف، ولا أضع ذلك على ذمّتي، ولكن عندما لم يقبل رفعوا السعر إلى مائة ألف درهم ولم يقبل أيضًا، حتّى وصل الأمر إلى نحو ٥٠٠ ألف درهم تقريبًا، لكن مثل هذا المبلغ الكبير جدًّا، هو ثروة استثنائية، ولكن مع ذلك لم يقبل. هنا، قال معاوية لذلك الذي كان يتوسّط إنَّ هذا الرجل بلا عقلٍ وهو مجنون لأنَّه لا يعرف ما هي الـ ٥٠٠ ألف، فقولوا له: ٥٠٠ ألف وأحضروه إلى هنا حتّى أرى هل أثَّه سيقبل أم لا. فأمر معاوية من كان مسؤولاً عن بيت المال أن يحضر هذا المبلغ إلى المجلس. وكما تعلمون في تلك الأزمنة الأموال ستكون من الذهب، وعندما توضع في الأكياس ستكون ثقيلة وذات حجم كبير وتحتاج إلى من يحملها، فأحضر الحمالون الأكياس ووضعوها فوق بعضها بعضًا حتّى وصلت إلى أعلى السقف، وقالوا هذه هي الـ ٥٠٠ ألف، فهل أنت جاهز أم لا؟ عندما نظر إلى هذه الأموال ورأى هذه الثروة العظيمة قبل، وفَسَّر تلك الآية كما أراد معاوية وبقيت في الكتب. وصحيح أنَّ مثل هذه الكلمات الممتزجة بالخطأ والزّالة قد تمَّ اختلاقتها في العالم الإسلاميّ، وبالأغلب جاء العلماء فيما بعد واستبعدوها، لكن هذه رشحاتٌ



من هؤلاء وقد بقيت في أذهان عدّة وأثّرت فيهم، وهذه من الأعمال التي كان يقوم بها معاوية في الإعلام. فمجموع هذه الأساليب هي التي شكّلت أساليب معاوية لكسب الرّعاية والستّلة.

أمّا تيّار الحقّ فلم يجلس ساكنًا مقابل هجمات الباطل. فقد كانت له أساليبه والتي يُمكن اختصارها: **أولًا:** بالمقاومة والحركة المقتدرة. فبعضُ تصوّر أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يُحارب خوفًا، كلاً، إنّ الإمام الحسن المجتبي عليه السلام كان عازمًا بشدّة على الحرب وهو من شجعان العرب. كنت أتأمّل في كتابٍ يذكر بطولات الإمام المجتبي عليه السلام في القضايا المختلفة، فبطولاته في الأحداث المختلفة كثيرة. غاية الأمر أنّه في حروب أمير المؤمنين عليه السلام، وحيث كان الميدان ميدان حرب كان أمير المؤمنين عليه السلام نفسه يمنع أن يُحارب الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، وكان يمنع أن يقعا في الخطر. فقال بعضهم لماذا ترسل محمّد ابن الحنفية وهو ابنك وتمنع من إرسال الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال إني أخاف أن ينقطع نسل الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فهما بقيّة النّبي وأريد أن أحفظ نسل النّبي صلى الله عليه وآله وسلم. كان يشعر بالخطر في ميدان الحرب وأراد أن يحفظهما، لا بسبب حبّه فهو يُحبّ أبنائه الآخرين، ونفس أمير المؤمنين عليه السلام هو رجل الحرب ورجل الميدان والمخاطر وليس من أولئك الذين يتوهمون الخطر. غاية الأمر أنّهما ابنا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يرغب أن يوقعهما في الخطر. ولأنّهما حضرا في حروب أمير المؤمنين عليه السلام فلم يكن لهما صولات كثيرة لأجل هذا، لهذا لم يُسجّل اسم هذين العظيمين - الإمام



الحسن والإمام الحسين عليهما السلام - ضمن الشّجّعان، ولكن كان للإمام الحسن عليه السلام مشاركة في الحروب الإسلامية ضدّ إيران، كما كان له حضورٌ في دفاعه عن بيت عثمان أمام المهاجمين والثوّار، بأمرٍ من أمير المؤمنين عليه السلام ، وكذلك كان له حضورٌ في القضايا المهمة الكثيرة. وفي واقعتي الجمل وصفين كان له دورٌ مهمٌ واستثنائيٌ بحيث شهدت أنّ اسم الإمام الحسن عليه السلام ورد كثيراً في وقائع صفين والجمل خاصّةً. فيما شاهدت أنّ اسم الإمام الحسين عليه السلام كان أقل. أي إنّ كان للإمام الحسن المجتبي عليه السلام حضورٌ أكبر في الميادين والأحداث من الإمام الحسين عليه السلام. لقد كان رجل الحرب والسياسة والتدبير والفصاحة والقوّة. عندما يُطالع المرء محادثات ومناظرات الإمام الحسن عليه السلام يقشعرّ بدنه من قوّته وقدرته. وفي وقائع الصّلح، وبعد الصّلح، نُقل عن هذا العظيم من الكلمات القاطعة والقاصعة ما كان في بعض الموارد أشدّ قوّةً وأحدّ من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام. ولعلّه قليلاً ما شاهدت مثل هذه الشدّة والقدرة في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في مقابل الأعداء، بسبب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يواجه مثل هؤلاء الأعداء، الذين كانوا يمثل تلك الوقاحة والخبث، وجهاً لوجه وعن قرب. لهذا، لا يوجد أيّ نقصٍ في عمل الإمام الحسن عليه السلام. إنّما كان النقص في الظروف الزّمانية. وباقتدارٍ وقف للدّفاع إلى الحدّ الممكن، وهذا كان أحد أساليبه. ففي بعض المواطن يكون الوقوف المقتدر سبباً للضرر. فإنّ تغيير الأسلوب والمناورة في اختيار الأساليب يُعدّان عملاً أساساً وضروريّاً.

ثانياً: الإعلام. إنّ العمل الإعلاميّ في جهاز الحقّ له أهميّة فائقة. وغاية

الأمر أنّ تيّار الحقّ مكتوفٌ في الإعلام، فلا يُمكنه استخدام أيّ أسلوبٍ وأيّ وسيلةٍ كانت. فهو لا يُبيّن سوى الحقّ والواقع. هناك أشياء تكون مرغوبة عند الناس، والتيّار الباطل لا يأبى أبداً أن يُظهرها كما يُحبّ الناس، لكنّ تيّار الحقّ لا يُمكنه ذلك، بل يُبيّن الحقّ ولو كان مرّاً. كيف كان يُخاطب أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه بطريقة مرّة بحيث يتعجّب الإنسان؟ نحن الذين نُحبّ أن تكون أساليبنا مثل أسلوب أمير المؤمنين عليه السلام نتعجّب أحياناً من هذا الأسلوب في بعض الموارد. أمّا معاوية، فلم يكن يستخدم هذا الأسلوب بتاتاً. كان معاوية يتملّق الناس، ويسعى للحصول على دعمهم بأيّ ثمنٍ. لم يفعل عليّ بن أبي طالب عليه السلام هذا الأمر أبداً، لا أنّه لم يكن يعرفه بل لأنّه خلاف التقوى وخلاف الأصول، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول: "لولا التقى لكنت أدهى العرب"^{١٠٥}. في هذه الأمور، فإنّ الحقيقة هي هذه، فمن الواضح المعلوم بالرجوع إلى سوابق عليّ ومعايشته للنبيّ ومفاخره العظيمة وذهنيّته وروحه المتألّفة أنّه أعلم من معاوية وأذكى وأكثر حنكةً، ويُمكنه أن يقوم بالكثير من الأعمال والأفعال غاية الأمر أنّ الحقّ لا يُجيز ولا يسمح.

ثالثاً: السعي نحو القيم. والأسلوب الآخر هو الإصرار على حفظ القيم. فالشيء المهم جدّاً عند جهاز الحقّ والذي يتمّ الاعتناء به في أساليبهم هو إصرارهم على حفظ القيم بأيّ ثمنٍ كان. وفي النهاية التّراجع إلى حدّ حراسة بقاء الدّين. فلو أنّ الحقّ رأى أنّ الصمود يؤدّي إلى أن يزول



أصل الدين، فإنه يتراجع. فالإمام الحسين عليه السلام يقول: "الموت خيرٌ من ركوب العار والعار خيرٌ من دخول النار"^{١٠٦}، فلو أنه تقرّر أن أقبل العار فأقبله ولكن لا أدخل جهنّم. يوجد بعض الأماكن بحيث نرى بعض الناس، ولأجل أن لا يتحمّل العار، يقوم بعملٍ لا يهتمّ معه أن يناله العذاب والسخط الإلهيّان. ما هو العار؟ الأصل هو أن يكسب الإنسان رضا الله وأن يؤدي تكليفه، ولو بالتراجع عن كلامٍ قاله أو خطّ مشى عليه أو تراجع عن موقفٍ له، فكلّ ما يريد الله، وكلّ ما يرضي الله يُعتبر أصلاً في حياة الأئمة. كان الأمر كذلك في حياة الإمام الحسن عليه السلام. فعندما وجد أنه لا بدّ له أن يقبل بالصّلح مع معاوية من أجل الضّرورات وضغط الظّرف الواقع، رغم أنه في ذلك الوقت كان يُرسل الجند ويُحرّض على الحرب ويُجيش الجيوش ويُرسل الكتب ويقوم بكلّ ما هو لازم من أجل الحرب وعلى مختلف المستويات، وعندما رأى أنه لا يُمكن (القيام بالحرب) قَبِل بالصّلح. فانفضّ عنه أقرب الناس إليه... مع أنّ الكثيرين في ذلك الوقت، وبعد أن صالح الإمام الحسن، فرحوا ومن أعماق قلوبهم لأهمّ كانوا متنفّرين من الحرب، ولكن حتّى نفس هؤلاء الذين فرحوا، رجعوا إلى الإمام الحسن عليه السلام وأرادوا أن يلوموه على تراجعه عن موقفه، حتّى المقرّبون والوجهاء الذين كانوا من الصّحابة المشهورين، جاؤوا إليه وتحدّثوا معه بعبارةٍ غير لائقة. لكنّ الإمام عليه السلام تراجع من أجل الحفاظ على الدّين.

^{١٠٦} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٢٨.

أسباب هزيمة تيار الحقّ

القضية اللاحقة هي تحليل هزيمة تيار الحق، إنّ السبب الأساس في هزيمة الإمام الحسن عليه السلام كان ضعف الرؤية العامة وامتزاج الإيمان بالدوافع المادّية. ففي مجال ضعف الوعي العام، كان الناس بعيدين كلّ البعد عن الوعي، وكان إيمانهم الدّينيّ ممتزجاً بالدوافع المادّية. لقد أضحت المادّية عندهم أصلاً، وتزلزلت عندهم القيم لما يزيد على عشر أو عشرين سنة من بعد الصّلاح. وحدث ذلك في كلّ مجالات القيم. وكان هناك شيء من التمييز وغيرها من الأمور، كلّ هذه أدّت إلى ألاّ يتمكّن الإمام الحسن عليه السلام من المقاومة. وأمّا سلوك الغالبين مع المغلوبين فبدلاً من أن يأتوا إلى الإمام الحسن عليه السلام وأتباعه، فيأسروهم أو يقتلوهم فإنّهم على العكس من ذلك، عندما تسلّطوا على الأمور، احترامهم بالظّاهر وتعاملوا مع الإمام الحسن عليه السلام بكلّ احترام. لكنّ معاوية وجماعته قرّروا أن يمحوا الشّخصيّة ويضعفوها. فيحفظ الشّخص ويبيد الشّخصيّة، هذا كان نهجهم. هذا كان أصلاً أساساً في الإعلام عندهم.

وأما الجماعة المغلوبة فماذا فعلت مع الغالبين؟ لقد كانت استراتيجيّتهم أن يُنظّموا تيار الحقّ وسط هذا الفضاء المليء بالفتن والغشاة والمخاطر والسّموم وأن يعطوه شكلاً ليكون العمود الفقريّ لحفظ الإسلام. والآن حيث لا نقدر أن نجعل كلّ المجتمع في ظلّ الفكر الإسلاميّ الصحيح، فبدلاً من أن نهتمّ بتيّارٍ هشّ قابلٍ للزوال . وهو التيار العام - فلنحفظ تياراً عميقاً وأصيلاً في أقلّية ونحفظه لكي يبقى ويضمن حفظ الأصول الإسلاميّة. هذا ما فعله الإمام الحسن عليه السلام. فقد شكّل تياراً محدوداً، أو الأفضل



أن نقول نظّمه، وهو تيّار الأصحاب أو الأنصار وأصحاب أهل البيت عليهم السلام أي تيّار التشيع. وبقي هؤلاء طيلة تاريخ الإسلام، وفي كلّ عهود القمع والتّكيل. وقد أدّى ذلك إلى أن يضمّنوا بقاء الإسلام، ولو لم يكن هؤلاء لتبدّل كلّ شيء. فقد كان تيّار الإمامة، تيّار رؤية أهل البيت عليهم السلام، ضامناً للإسلام الواقعيّ.

وأما العاقبة فإنّ جماعة الغالبين والمتسلّطين والمنتصرين أضحوا مُدانين ومغلوبين، والمستضعفون أضحوا الحكّام والفاثين في ذهنيّة العالم الإسلاميّ. إذا نظرتم اليوم إلى الذهنيّة الموجودة في العالم الإسلاميّ، وهي تلك الذهنيّة الّتي رُوّج لها تقريباً الإمام الحسن عليه السلام وأمير المؤمنين عليه السلام، فهي ليست الذهنيّة الّتي أرادها معاوية ويزيد من بعده، وكذلك عبد الملك بن مروان وخلفاء بني أميّة. لقد انهزمت تلك الذهنيّة الّتي كانت لديهم بالكامل وزالت ولم تعد موجودة في التّاريخ. لو أردنا أن نُطلق عنواناً على ذهنيّتهم لقلنا إنّها ذهنية التّواصب. التّواصب هي فرقة من الفرق الّتي لم يعد لها في العالم الإسلاميّ اليوم وجودٌ خارجيّ بحسب الظّاهر. فالتّواصب هم أولئك الّذين كانوا يسبّون أهل بيت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام ولا يقبلون إسلامهم، حيث إنّ هذا هو تيّارهم الفكريّ. فلو كان من المقرّر أن يكون معاوية فاتحاً وحاكماً لكان اليوم من المفترض أن يكون تيّاره هو الحاكم في العالم الإسلاميّ. في حين أنّ الأمر ليس كذلك. إنّ التّيار الفكريّ لأمير المؤمنين عليه السلام ولإمام الحسن عليه السلام هو الحاكم في العالم. وإن كان في بعضٍ من الفروع وقسمٍ من عقائد



الدّرجة الثّانية والثّالثة لم يُنقل، لكنّه في المجموع هذا هو التّيّار، الإمام الحسن عليه السلام بناءً على هذا هو الفاتح وتيّاره هو الذي انتصر. هذه هي خلاصة وقائع صلح الإمام الحسن عليه السلام من ناحية تأثيرها على كلّ التاريخ الإسلاميّ.

(١٩٨٩/٠٤/٢٢)

الفصل السادس: الإمام الحسين عليه السلام

- مخاطر المرحلة ووسائل المواجهة
- أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام
- منطلقات الثورة وثمارها



مخاطر المرحلة ووسائل المواجهة

الآفات الداخلية والخارجية

لقد تمّ استشراف المخاطر التي تُهدّد الإسلام كظاهرةٍ عزيزة، قبل ظهور الإسلام أو في بداية ظهوره، من جانب الرّب المتعال. وقد تمّت ملاحظة وسيلة مواجهة تلك الأخطار، وأودعت في نفس الإسلام وفي نفس هذه المجموعة، فهما مثل بدنٍ سالمٍ جهّزه الله تعالى بالقدرات الدفاعيّة، وكآلةٍ سالمَةٍ يحمل مهندسها وصانعها أدوات إصلاحها معها. فالإسلام ظاهرةٌ، ومثل جميع الظواهر، يُهدّد بأخطار ويحتاج إلى وسائل للمواجهة. وقد جعل الله هذه الوسيلة في الإسلام نفسه. ولكن ما هو هذا الخطر؟

هناك خطران أساسان يُهدّدان الإسلام، أحدهما خطر العدو الخارجي، والآخر هو الاضمحلال الداخلي.

العدوّ الخارجي هو الذي يكون من خارج الحدود، ويقوم باستهداف وجود نظامٍ ما في فكره وجهاز بنيته التحتية العقائديّة وقوانينه وكلّ شؤونه وبشّى أنواع الأسلحة.

فما المقصود من الخارج؟ ليس المقصود من خارج البلد، بل من



خارج النظام وإن كان داخل البلد. هناك أعداءٌ يعدّون أنفسهم غرباء عن النظام ويُعارضونه. فهؤلاء هم من الخارج وغرباء وأجانب. فهؤلاء يتوسّلون بالسّلاح والناريّ وبأحدث الأسلحة الماديّة والإعلام والمال وبكلّ ما هو في متناول أيديهم من أجل القضاء على النظام وإزالته من الوجود. هذا نوعٌ من الأعداء.

العدوّ، والتهديد الثاني هو تهديد التزّهل الداخليّ، أي داخل النظام، الذي لا يكون من الغرباء بل منه وفيه. فمن الممكن للمنتسبين للنظام، على أثر التعب أو الخطأ في فهم الطّريق الصّحيح، أو على أثر تغلب المشاعر النفسانيّة، أو على أثر النظر إلى المظاهر الماديّة وتعظيمها، أن يُصابوا فجأةً بهذا التهديد من الدّاخل. وبالطّبع، إنّ خطر(هذا العدو) أكبر من خطر الأول.

هذان النوعان من الأعداء . التهديد الخارجيّ والتهديد الداخليّ . موجودان لدى أيّ نظام أو تنظيم أو ظاهرة. وقد عيّن الإسلام علاجاً لمواجهة كلّ من هذين التهديدين، ووضع الجهاد. فالجهاد لا يختصّ بالأعداء الخارجيين، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^{١٠٧}، فالمنافق هو من داخل النظام. لذلك يجب مجاهدة كلّ هؤلاء. الجهاد هو في مقابل العدو الذي يُريد أن يُهاجم هذا النظام انطلاقاً من رفضه العقائديّ وعدائه له. وكذلك ومن أجل مواجهة ذلك التفكّك الداخليّ، توجد تعاليم أخلاقية مهمّة جدّاً تُفهم الإنسان حقيقة هذه الدنيا، ﴿اعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

^{١٠٧} سورة التوبة، الآية ٧٣.



لَعِبْ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ^{١٠٨}، أي إنّ هذه التّخاريف وهذه المظاهر وهذه اللذائذ الدنيويّة، وإن كانت ضروريّة لكم، وإن كنتم مضطّرين لأن تستفيدوا منها وإن كانت حياتكم مرتبطة بها، فلا شكّ في ذلك، ويجب أن تؤمّنوها بأنفسكم، ولكن اعلّموا أنّ إطلاقها والتحرّك نحوها بعينٍ مغمضة ونسيان الأهداف هو أمرٌ خطرٌ جدًّا.

أمير المؤمنين عليه السلام هو أسد ميدان مواجهة العدو، وعندما يتحدّث فإنّ المرء يتوقّع أن يكون نصف خطبه أو أكثرها راجعًا إلى الجهاد، والحرب، والبطولات. لكن عندما ننظر في روايات وخطب نصح البلاغة نجد أنّ أغلب خطبه ووصاياها راجعة إلى الزّهد والتّقوى والأخلاق ورفض الدّنيا وتحقيرها، وتعظيم القيم المعنويّة والإنسانيّة الرّفيعة.

لقد كانت واقعة الإمام الحسين عليه السلام إدغاماً لهذين القسمين، أي إنّ الجهاد مع العدو والجهاد مع النفس قد تجلّى في أعلى مراتبه هناك، في واقعة عاشوراء. أي إنّ الله تعالى يعلم أنّ هذه الحادثة ستقع ويجب أن تُظهر المثل الأعلى ليكون قدوةً، مثلما يحدث في البلاد مع الأبطال عندما يبرزون في مجالٍ ما، ويكون البطل محفّزاً لغيره في ذلك المجال من الرياضة. بالطبع، هذا مثلاً صغيرٌ من أجل تقريب (الصّورة) إلى الدّهن. إنّ واقعة عاشوراء عبارة عن حركةٍ عظيمة مجاهدة في كلا الجبهتين. سواء في جبهة المواجهة مع العدو الخارجي، الذي كان عبارة عن جهاز الخلافة الفاسد نفسه، وطلاب الدّنيا المرتبطين بجهاز السّلطة

^{١٠٨} سورة الحديد، الآية ٢٠.



هذا، والذين أرادوا تلك القوة التي كان النبي قد استخدمها من أجل نجاة البشر، من أجل تلك الحركة المقابلة لمسيرة الإسلام ونبيه المكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أم في الجبهة الداخلية حيث كان المجتمع في ذلك الوقت قد تحرك بشكل عام نحو ذلك الفساد الداخلي.

النقطة الثانية وهي الأهم بنظري، وهي أنه كان قد مرّ مقطع من الزمن، وكان قد طوي عهد المصاعب الأساس للعمل. فالفتوحات قد تحققت، وقد تمّ الحصول على الغنائم، ونطاق الدولة قد اتسع، وقد تمّ قمع الأعداء الخارجيين من هنا وهناك، وتدفقت الغنائم الوفيرة إلى داخل الدولة، وأضحى البعض من أصحاب الرّساميل، وانتمى البعض لطبقة الأشراف. فبعد أن كان الإسلام قد اقتلع هذه الطبقة وقمعها، عادت وتشكّلت طبقة جديدة من الأشراف في العالم الإسلامي. هناك أفراد، باسم الإسلام وبسمات وعناوين إسلامية - ابن الصحابيّ الفلاني وابن التابع الفلاني، وابن المقرّب للنبيّ الفلاني - دخلوا في أعمال غير لائقة وغير مناسبة، وقد سجّل التاريخ أسماء بعض هؤلاء، وكانوا يجعلون مهر بناتهم مليون مثقال من الذهب الخالص أي مليون دينار، بدل أن يكون مهر الستّة، الذي جعله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام ومسلمو الصّدر الأوّل من الإسلام، وهو ٤٨٠ درهماً. فمن هم هؤلاء؟ هم أولاد صحابة أجلّاء كمصعب بن الزبير وغيره.

(١٩٩٣/٠١/٢٦)

لقد بدأت الأحداث قبل مرور أقلّ من عقدٍ من الزّمان على رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. في البداية، تمتّع أصحاب السّوابق (الأجداد) في الإسلام -



بمن فيهم من صحابة وتابعين وأشخاص قد شاركوا في حروب النبي - بالامتيازات. وقد كان الحصول على عطاءات مالية إضافية من بيت المال أحد هذه الامتيازات. وأضحى هناك عنوان يجعل مساواتهم مع الآخرين غير صحيح وغير ممكن أيضًا! كانت هذه هي اللبنة الأولى. إنَّ التحركات التي تنجرُّ إلى الانحراف تبدأ من هذه النقطة الصغيرة، ومع كلِّ خطوة تزداد سرعتها. لقد بدأت الانحرافات من هذه النقطة حتَّى وصلت إلى أواسط عهد عثمان، حيث وصل الوضع في عهد الخليفة الثالث إلى حدٍّ أنَّ كبار صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أضحوا من أكبر الرأسماليين في زمانهم! إنَّهم من الصحابة، أصحاب الشأن الرفيع والمعروفين - كطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وغيرهم - هؤلاء الكبار والوجهاء الذين كان لكلِّ واحدٍ منهم سجلٌّ ضخم من المفاز السابقة في بدرٍ وحنين وأُحد، صاروا من الرأسماليين الكبار في الإسلام. عندما توفِّي أحدهم وترك الجواهر والذهب وأرادوا تقسيمها بين ورثته، جاؤوا في البداية بسبائكها وقطعها وأرادوا أن يُقسَّموها ويُقطَّعوها بالفؤوس وكأنَّها قطعات حطب تحتاج إلى فأس ليقطعها، فالذهب عادةً يتم حسابه وقياسه بالثاقيل، فانظروا كم كان يمتلك من الذهب حتَّى احتاجوا إلى الفأس لتقسيمه. لقد ذُكرت هذه الأمور في التاريخ، وليست من القضايا التي ذكرها الشيعة في كتبهم، إنَّها حقائق، كان يسعى الجميع لضبطها وتسجيلها. لقد تركوا من الدراهم والدنانير ما يبلغ حدَّ الأساطير.

(١٩٩٦/٠٦/٠٩)

عندما نقول فساد الجهاز من الدَّاخل، فمعناه أنَّه يظهر أفرادٌ في المجتمع ويبدؤون بالتدريج بنقل أمراضهم الأخلاقية المعدية . حبَّ الدُّنيا



والشّهوات . والتي هي للأسف أمراضٌ مهلكةٌ إلى باقي أفراد المجتمع . في مثل هذه الحالة، هل سيكون هناك من يجرؤ أو يمتلك الهمة للمضيّ قدماً في مخالفة جهاز يزيد بن معاوية؟! هل سيحدث مثل هذا الأمر حينها؟ فمن هو الذي كان يُفكر بمواجهة جهاز الظلم والفساد ليزيد في ذلك الزّمان؟ على مثل هذه الأرضيّة، قامت النّهضة الحسينيّة العظيمة التي كانت تُجاهد العدو، كما كانت تواجه رويّة طلب الرّاحة المهلكة المنتشرة بين المسلمين العاديين وعامّتهم . وهذا أمرٌ مهمٌ.

(١٩٩٣/٠١/٢٦)

أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

لو دققنا النظر في هذه الحادثة، لعلّه يُمكن القول: إنّ الإنسان يستطيع أن يعدّ أكثر من مائة درس مهمّ في هذا التحرك الذي قام به الإمام أبو عبد الله عليه السلام في بضعة أشهر، من اليوم الذي خرج فيه من المدينة نحو مكة وإلى اليوم الذي شرب فيه كأس الشهادة العذب في كربلاء. ويُمكن القول آلاف الدروس، حيث تُعتبر كلّ إشارة من ذلك الإمام العظيم درساً. لكن عندما نقول أكثر من مائة درس، نعني بذلك أنّه لو أردنا أن ندقق في هذه الأعمال لأمكننا استقصاء مائة عنوان وفصل، وكلّ فصل يُعتبر درساً لأمة وتاريخ وبلد ولتربية النفس وإدارة المجتمع وللتقرب إلى الله. هكذا هو الحسين بن عليّ (أرواحنا فداء وفداء اسمه وذكره) كالشمس الساطعة بين القديسين، أي إن كان الأنبياء والأئمة والشهداء والصالحون كالأقمار والأنجم، فالحسين عليه السلام كالشمس الطالعة بينهم، كلّ ذلك لأجل هذه الأمور.

وإلى جانب المائة درس، هناك درس رئيس في هذا التحرك والنهضة التي قام بها الإمام الحسين عليه السلام، سأسعى لتوضيحه لكم، وتكون كلّ



تلك الدروس بمنزلة الهوامش أمام هذا الذي هو بمنزلة النصّ الأصليّ، وهو لماذا ثار الحسين عليه السلام؟ هذا هو الدرس، لماذا ثرت يا حسين رغم كونك شخصيّة لها احترامها في المدينة ومكّة، ولك شيعتك في اليمن؟ اذهب إلى مكان لا شأن لك فيه بيزيد ولا ليزيد شأنٌ بك، تعيش وتعبّد الله وتُبلّغ. هذا هو السؤال والدرس الرئيس، ولا نقول إنّ أحدًا لم يُشر إلى هذا الأمر من قبل، فقد حقّقوا وتحدّثوا كثيرًا في هذه القضية. وللإنصاف، ما نوّد قوله اليوم وهو برأينا استنتاجٌ جامعٌ ورؤية جديدة للقضيّة هو أنّ بعض النّاس يودّ أن يقول: إنّ هدف ثورة أبي عبد الله الحسين عليه السلام هو إسقاط حكومة يزيد الفاسدة وإقامة حكومة بديلة. هذا القول شبه صحيح وليس بخطأ، فلو كان القصد من هذا الكلام هو أنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة حكومة بحيث إنّ لو رأى أنّه لن يصل إلى نتيجة لقال لقد قمنا بما علينا فلنرجع، فهذا خطأ. أجل، إنّ الذي يتحرّك لأجل الحكم، يتقدّم حتّى يرى إلى حيث يرى إن كان الأمر ممكنًا، فإذا رأى أنّ احتمال حصول هذا الأمر أو الاحتمال العقلائيّ غير موجود، فتكليفه هو أن يرجع. فإذا كان الهدف تشكيل الحكومة فالجائز هو أن يتحرّك الإنسان إلى حيث يُمكن، وعندما يُصبح غير ممكنٍ يجب أن يرجع.

وبعضٌ على العكس من ذلك، قالوا: ما الحكومة؟ إنّ الحسين عليه السلام كان يعلم بعدم تمكّنه من إقامة الحكومة، إنّّه جاء لأجل أن يُقتل ويستشهد. لقد شاع هذا الكلام على الألسن كثيرًا لمُدّة من الزّمن، وكان بعضٌ يُبيّن ذلك بعباراتٍ شاعريّة جميلة، حتّى إنّني رأيت بعض علمائنا الأجلاء قد قالوا ذلك أيضًا. فالقول بأنّ الإمام عليه السلام ثار لأجل أن يستشهد، لأنّه رأى



أنّه لا يمكنه عمل شيء بالبقاء، فقال: يجب أن أعمل شيئاً بالشهادة، لم يكن كلاماً جديداً. وبالتّسبة لهذا الكلام أيضاً، ليس لدينا في المصادر والأسانيد الإسلاميّة ما يجوز للإنسان إلقاء نفسه في القتل، ليس لدينا مثل هذا الشيء. إنّ الشهادة، التي نعرفها في الشّرع المقدّس والآيات والروايات، معناها أن يتحرّك الإنسان ويستقبل الموت لأجل هدفٍ مقدّس واجب أو راجح، هذه هي الشّهادة الإسلاميّة الصّحيحة. أمّا أن يتحرّك الإنسان لأجل أن يُقتل، أو بحسب التعبير الشّاعريّ أن يجعل دمه وسيلةً لزلزلة الظّلم وإيقاعه أرضاً، فمثل هذه الأمور لا علاقة لها بواقعة بتلك العظمة. إذاً هذا الأمر وإن كان فيه جانب من الحقيقة لكن لم يكن هدف الحسين عليه السلام. وباختصار لا يُمكننا القول إنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة الحكومة، ولا القول: إنّّه ثار لأجل أن يستشهد، بل يوجد شيء آخر في البين. أتصوّر أنّ القائلين إنّ الهدف هو الحكومة أو الهدف هو الشهادة قد خلطوا بين الهدف والنتيجة. فقد كان للإمام الحسين عليه السلام هدف آخر، والوصول إليه يتطلّب طريقاً وحركةً تنتهي بإحدى النتيجتين: الحكومة أو الشّهادة، وكان الإمام مستعدّاً لكلا النتيجتين، فقد أعدّ مقدّمات الحكم وكذا مقدّمات الشهادة، ووطّن نفسه على هذا وذاك، فإذا تحقّق أيّ منهما، كان صحيحاً، لكن لم يكن أيّ منهما هدفاً، بل كانا نتيجتين، وأمّا الهدف فهو شيء آخر.

بشكلٍ مختصر لو أردنا بيان هدف الإمام الحسين، ينبغي أن نقول التالي: إنّ هدف ذلك العظيم كان عبارة عن أداء واجبٍ عظيم من واجبات الدّين لم يؤدّه أحدٌ قبله، لا النّبّي صلى الله عليه وآله وسلم ولا أمير المؤمنين عليه السلام ولا الإمام



الحسن المجتبي عليه السلام، واجبٌ يحتلّ مكاناً هاماً في البناء العام للنظام الفكري والقيمي والعملي للإسلام. ورغم أنّ هذا الواجب مهمٌ وأساس، فلماذا لم يؤدَّ حتى عهد الإمام الحسين عليه السلام؟ كان يجب على الإمام الحسين عليه السلام القيام بهذا الواجب ليكون درساً على مرّ التاريخ، مثلما أنّ تأسيس النبي صلى الله عليه وآله وسلم للحكومة الإسلامية أصبح درساً على مرّ تاريخ الإسلام، ومثلما أصبح جهاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله درساً على مرّ تاريخ المسلمين وتاريخ البشرية إلى الأبد. كان ينبغي للإمام الحسين عليه السلام أن يؤدّي هذا الواجب ليصبح درساً عملياً للمسلمين وعلى مرّ التاريخ.

وأما أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو الذي قام بهذا الواجب فلازّ أرضية هذا العمل قد مُهّدت في زمن الإمام الحسين عليه السلام، فلو لم تُمهّد هذه الأرضية في زمن الإمام الحسين عليه السلام، كأن مُهّدت، على سبيل المثال، في زمن الإمام علي الهادي عليه السلام لقام الإمام علي الهادي عليه السلام بهذا الواجب، ولصار هو ذبيح الإسلام العظيم، ولو صادف أن حدث ذلك في زمن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام أو في زمن الإمام الصادق عليه السلام لكان على أحدهما أن يعمل به. لكن لم يحدث ذلك في زمن الأئمة حتى عصر الغيبة إلّا في عصر الإمام الحسين عليه السلام. إذّا، لقد كان الهدف أداء هذا الواجب، وعندها تكون نتيجة أداء الواجب أحد الأمرين، إمّا الوصول إلى الحكم والسلطة وقد كان الإمام الحسين عليه السلام مستعداً لذلك، لكي يعود المجتمع كما كان عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام، وإمّا الوصول إلى الشهادة وهو عليه السلام كان مستعداً لها أيضاً. لقد خلق الله الحسين والأئمة عليهم السلام بحيث يتحمّلون مثل هذه



الشَّهادة لمثل هذا الأمر، وقد تحمّل الإمام الحسين عليه السلام ذلك.

إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - وكذا الأمر بالنسبة لأيّ نبيّ - عندما بُعث، أتى بمجموعة من الأحكام، بعضها فرديّ من أجل إصلاح الفرد، وبعضها اجتماعيّ من أجل بناء المجتمعات البشريّة وإدارة الحياة البشريّة. هذه المجموعة من الأحكام يُقال لها النّظام الإسلاميّ. لقد نزل الإسلام على القلب المقدّس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء بالصلاة والصّوم والزّكاة والانفاقات والحيّج والأحكام الأسريّة والعلاقات الفرديّة، ثمّ جاء بالجهاد في سبيل الله وإقامة الحكومة والاقتصاد الإسلاميّ، وعلاقة الحاكم بالرعيّة ووظائف الرعيّة تجاه الحكومة. هذه المجموعة من الأحكام عرضها الإسلام على البشر، وبينها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: "يا أيّها النّاس والله ما من شيء يُقرّبكم إلى الجنّة ويُباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به"^{١٠٩}. ولم يُبيّن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كلّ ما يُسعد الإنسان والمجتمع الإنسانيّ فحسب، بل طبّقه وعمل به.

فقد أقام الحكومة الإسلاميّة والمجتمع الإسلاميّ، وطبّق الاقتصاد الإسلاميّ، وأقيم الجهاد واستُحصلت الزكاة، فشيّد نظامًا إسلاميًّا وأصبح النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وخليفته من بعده، مهندس النّظام وقائد هذا القطار في هذا الخطّ. كان الطريق واضحًا وبيّنًا، فوجب على الفرد وعلى المجتمع الإسلاميّ أن يسير في هذا الطّريق وعلى هذا التّهج، ولو حصل ذلك لبلغ النّاس الكمال، ولأصبحوا صالحين كالملائكة، ولزال

^{١٠٩} الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٧٤.



الظلم والشر والفساد والفرقة والفقر والجهل من بين الناس، ولوصلوا إلى السعادة الكاملة ليصبحوا عباد الله الكامل. لقد جاء الإسلام بهذا النظام بواسطة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وطُبق في مجتمع ذلك اليوم، فأين حدث ذلك؟ في بقعة تُسمّى المدينة، واتسع بعد ذلك ليشمل مكة وما حولها. وهنا يُطرح سؤال وهو: ماذا يكون التكليف فيما لو جاءت يدٌ أو حادثة وأخرجت هذا القطار الذي وضعه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه السكة؟ وماذا يكون التكليف فيما لو انحرف المجتمع الإسلامي وبلغ الانحراف درجة بحيث خيف من انحراف أصل الإسلام والمبادئ الإسلامية؟

لدينا نوعان من الانحراف. فتارةً يفسد الناس، وهذا ما يقع كثيراً، لكن تبقى أحكام الإسلام سليمة، وتارةً ينحرف الناس ويفسد الحكم والعلماء ومبلغو الدين. ففي الأساس لا يصدر الدين الصحيح عن قوم فاسدين - فيُحرفون القرآن والحقائق، وتبدل الحسنات سيئات والسيئات حسنات، ويصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ويُحرف الإسلام ١٨٠ درجة عن الاتجاه الذي رُسم له. فماذا يكون التكليف فيما لو ابتلي النظام والمجتمع الإسلامي بمثل هذا الأمر؟ لقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدّد القرآن التكليف ﴿مَنْ يَزِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^{١١٠}، إضافة إلى آيات وروايات كثيرة أخرى. وأنقل منها هذه الرواية عن الإمام الحسين. لقد ذكر الإمام الحسين عليه السلام هذه الرواية النبوية للناس، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد حدّث بها، لكن هل كان النبي ليقدّر على العمل بهذا

^{١١٠} سورة المائدة، الآية ٥٤.



الحكم الإلهي؟ كلاً، لأنّ هذا الحكم الإسلاميّ يُطبّق في عصر ينحرف فيه المجتمع الإسلاميّ ويبلغ حدّاً يُخاف فيه من ضياع أصل الإسلام. والمجتمع الإسلاميّ لم ينحرف في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينحرف في عهد أمير المؤمنين عليه السلام بتلك الصّورة، وكذا في عهد الإمام الحسن عليه السلام عندما كان معاوية على رأس السّلطة، وإن ظهرت الكثير من علائم ذلك الانحراف، لكنّه لم يبلغ الحدّ الذي يُخاف فيه على أصل الإسلام. نعم، يُمكن أن يُقال بأنّه بلغ الحدّ في برهة من الزمن، لكن في تلك الفترة لم تُنح الفرصة ولم يكن الوقت مناسباً للقيام بهذا الأمر. إنّ هذا الحكم الذي يُعتبر من الأحكام الإسلاميّة لا يقلّ أهميّة عن الحكومة ذاتها، لأنّ الحكومة تعني إدارة المجتمع. فلو خرج المجتمع بالتدريج عن مساره وخُرب وفسد وتبدّل حكم الله ولم يوجد عندنا حكم وجوب تغيير الوضع وتجديد الحياة أو بتعبير اليوم (الثورة)، فماذا تكون الفائدة من الحكومة عندها؟ فالحكم الذي يرتبط بإرجاع المجتمع المنحرف إلى الخطّ الصّحيح لا يقلّ أهميّة عن الحكومة ذاتها، ويُمكن أن يُقال إنّ أكثر أهميّة من جهاد الكفّار ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العاديين في المجتمع الإسلاميّ، بل وحتى من العبادات الإلهيّة العظيمة كالحجّ. لماذا؟ لأنّ هذا الحكم في الحقيقة . يضمن إحياء الإسلام بعد أن أشرف على الموت أو مات وانتهى.



الأرضية الممهدة للثورة

إنّه خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقع في عصره هذا الانحراف بشرط أن يكون الوقت مناسباً للقيام بذلك، لأنّ الله لا يُكلّف بشيء لا فائدة فيه. بالطبع، الوقت المناسب لا يعني عدم وجود الخطر، كلاً، ليس هذا هو المقصود، فمعنى هذه العبارة، هو أن يعلم الإنسان أنّ هذا العمل الذي يقوم به تترتب عليه نتيجة، أي إبلاغ النداء إلى الناس وإفهامهم وعدم بقائهم على خطئهم. وربما أنّ الإسلام في عصر الإمام الحسين عليه السلام قد تعرّض للتحريف وكان الوقت مناسباً والأرضية ممهّدة، لذا وجب على الحسين عليه السلام أن يثور. فالشخص الذي تولّى السلطة بعد معاوية لم يُراعِ حتّى ظواهر الإسلام. وكان منغمساً في الخمر والمجون والتهكّم على القرآن وترويج الشّعور المخالف للقرآن والذي يتهجّم على الدّين ويُجاهر بمخالفة الإسلام، غاية الأمر، لأنّ اسمه رئيس المسلمين لم يُرد أن يحذف اسم الإسلام. فهو لم يكن عاملاً بالإسلام ولا محبّاً له، وكان بعمله هذا



كنبع الماء الآسن الذي يُفسد ما حوله ويعمّ المجتمع الإسلامي. هكذا يكون الحاكم الفاسد، فيما أنّه يترّبع على قمة المرتفع، فما يصدر عنه لا يبقى في مكانه، بل ينتشر ليملاً ما حوله، خلافاً للناس العاديين حيث يبقى فسادهم لأنفسهم أو لبعضٍ ممن حولهم. وكلّ من شغل مقاماً ومنصباً أرفع في المجتمع الإسلامي كان ضرره وفساده أكبر. لكن لو فسد من يقع على رأس السلطة لانتشر فسادُه وشمل كلّ الأرض، كما أنّه لو كان صالحاً، لامتدّ الصّلاح إلى كلّ مكان. فشخصٌ مفسدٌ كهذا أصبح خليفة المسلمين بعد معاوية، وخليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ! فهل هناك انحرافٌ أكبر من هذا؟

هل أنّ معناه عدم وجود الخطر؟ كلاً، فالخطر موجود. فلا معنى أن يبقى من هو على رأس السلطة ساكناً أمام معارضيه ولا يخلق لهم المخاطر، بل من البديهي أن يوجّه لهم الضربات، فعندما نقول الوقت المناسب، فمعناه أنّ الظروف في المجتمع الإسلامي مؤاتية لأن يُبلغ الإمام الحسين عليه السلام نداءه إلى الناس في ذلك العصر وعلى مرّ التاريخ.

فلو أراد الإمام الحسين عليه السلام الثّورة في عصر معاوية لدُفن نداءه، وذلك لأنّ وضع الحكم في زمن معاوية والسياسات كانت بحيث لا يُمكن للناس معها سماع قول الحقّ، لذلك لم يقل الإمام الحسين عليه السلام شيئاً طيلة السّنوات العشر التي كان فيها إماماً في زمن معاوية، فهو لم يفعل شيئاً ولم يُقدم ولم يثر لأنّ الظروف لم تكن مؤاتية. الإمام الحسن عليه السلام كان قبله ولم يثر لأنّ الظروف لم تكن مؤاتية أيضاً، لا أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يكن أهلاً لذلك. فلا فرق بين الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام، ولا بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام السّجّاد عليه السلام،



ولا بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام علي النقي عليه السلام أو الإمام الحسن العسكري عليه السلام. بالطبع، فإنّ منزلة الإمام الحسين عليه السلام - الذي أدّى هذا الجهاد - هي أرفع من الذين لم يؤدّوه، لكنّهم سواء في منصب الإمامة. ولو وقع هذا الأمر في عصر أيّ إمام، لثار ذلك الإمام ونال تلك المنزلة. فالإمام الحسين عليه السلام واجه مثل هذا الانحراف وكانت الظروف مؤاتية، فلا محيص له عليه السلام من تأدية هذا التكليف، فلم يبقَ هناك أيّ عذر. لهذا، عندما قال له عبد الله بن جعفر، ومحمد ابن الحنفية، وعبد الله بن عباس - الذين كانوا من العلماء والعارفين بأحكام الدين ولم يكونوا من عامّة الناس - إنّ تحركك فيه خطرٌ فلا تذهب، أرادوا أن يقولوا: إنّ التكليف قد سقط عنك لوجود الخطر، لكنّهم لم يدركوا أنّ هذا التكليف ليس بالتكليف الذي يسقط بوجود الخطر، لأنّ مثل هذا التكليف فيه خطر دوماً، فهل يمكن لإنسان أن يثور ضدّ سلطة مقتدرة في الظاهر ولا يواجه خطراً؟!

إنّ العمل الذي جرى في زمن الإمام الحسين عليه السلام كانت نسخته المصعّرة في عصر إمامنا الخميني قدّس سره، غاية الأمر أنّه هناك انتهى إلى الشّهادة وهنا انتهى إلى الحكم، فهما أمرٌ واحدٌ ولا فرق بينهما. فقد كان هدف الإمام الحسين عليه السلام وهدف إمامنا الجليل واحداً، وهذا الأمر يُشكّل أساس معارف الإمام الحسين عليه السلام، وإنّ المعارف الحسينيّة تُمثّل قسمًا عظيمًا من معارف الشيعة. فهذا أصلٌ مهمّ وهو نفسه من أركان الإسلام.

فالهدف كان عبارة عن إرجاع الإسلام والمجتمع الإسلاميّ إلى



الصراط المستقيم والخطّ الصحيح. ففي أيّ زمان؟ في الوقت الذي تبدّل الطّريق، وانحرف المسلمون نتيجة جهل وظلم واستبداد وخيانة بعض القوم. بالطبع، إنّ التاريخ يمرّ بمراحل مختلفة، فأحياناً تكون الظروف مؤاتية وأحياناً لا تكون. وفي زمن الإمام الحسين عليه السلام كانت الظروف مؤاتية وفي زمننا كذلك، فأقدم الإمام على العمل نفسه، وكان الهدف واحداً. غاية الأمر، عندما يكون الإنسان متّجهاً نحو هذا الهدف ويريد الثورة على الحكومة ومركز الباطل من أجل إرجاع الإسلام والمجتمع والنظام الإسلامي إلى موقعه الصحيح، تارةً يصل إلى الحكومة، وأخرى لا يصل إلى الحكومة بل يصل إلى الشهادة، ألا يكون القيام في هذه الصّورة واجباً؟ فلو وصل إلى الشهادة لكان واجباً أيضاً. فهل أنّه في هذه الصّورة التي وصل فيها إلى الشهادة، لا يكون للقيام فائدة؟ لم لا، فلا يوجد أيّ فرق. فهذا القيام وهذا التحرك مفيدٌ في كلا الحالتين، سواءً وصل إلى الشّهادة أم وصل إلى الحكومة، غاية الأمر أنّ لكلّ منهما نوعاً خاصّاً من الفوائد يجب القيام به والتحرك نحوه.

فهذا هو العمل الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام. غاية الأمر، أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو أول من قام بهذا التحرك، ولم يقم به أحدٌ قبله، لأنّه في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام ما كانت مثل هذه الأرضيّة والانحراف موجودين، أو إذا كان هناك انحراف في بعض الموارد فلم تكن الأرضيّة مناسبة ولا المقتضى موجوداً (للتّورة)، أمّا في زمن الإمام الحسين عليه السلام، فكلّا الأمرين قد وُجدا، فهذا هو أساس القضيّة في مورد نهضة الإمام الحسين عليه السلام.



الثورة تكليف وواجب

يُمكننا أن نُلَخِّص القضية بهذه الصورة: إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت لتأدية واجبٍ عظيمٍ وهو إعادة الإسلام والمجتمع الإسلاميّ إلى الخطّ الصحيح أو الثورة ضدّ الانحرافات الخطيرة في المجتمع الإسلاميّ. وهذا ما يتمّ عن طريق الثورة وعن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو مصداقٌ عظيم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بالطبع، فقد تكون نتيجتها إقامة الحكومة، وقد تكون الشهادة، وقد كان الإمام الحسين عليه السلام مستعدّاً لكلتا النتيجتين. والدليل على ذلك هو ما يُستنتج من أقوال الإمام الحسين عليه السلام. وهذه بعض أقوال أبي عبد الله عليه السلام وكلّها تشير إلى هذا المعنى:

أ- عندما طلب الوليد، والي المدينة، الإمام الحسين عليه السلام ليلاً وقال له: إنّ معاوية قد مات وعليك مبايعة يزيد، ردّ عليه الإمام عليه السلام: "نُصِّح وتُصَبِّحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة"^{١١١}. وعند الصباح عندما لقي مروان أبا عبد الله عليه السلام طلب منه مبايعة يزيد وعدم تعريض نفسه للقتل، فأجابه الإمام عليه السلام: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام إذ قد بُليت الأُمّة براعٍ مثل يزيد"^{١١٢}. فالقضية ليست شخص يزيد، بل أيّ شخصٍ مثل يزيد، فما يريد الإمام الحسين عليه السلام قوله هو: لقد تحمّلنا كلّ ما مضى، أمّا الآن فإنّ أصل الدين والإسلام والنظام الإسلاميّ في

^{١١١} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٢٥.
^{١١٢} م.ن، ص ٣٢٦.



خطر، إشارة إلى أنّ الانحراف خطرٌ جدّي، والقضيّة هي الخطر على أصل الإسلام.

ب - إنّ أبا عبد الله عليه السلام قد أوصى أخاه محمّد ابن الحنفية، مرّتين: الأولى عند خروجه من المدينة، والثانية عند خروجه من مكّة. ولعلّ هذه الوصيّة كانت عند خروجه من مكّة في شهر ذي الحجة - فبعد الشّهادة بوحداية الله ورسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول الإمام عليه السلام : "وإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي صلى الله عليه وآله وسلم" ^{١١٣}، أي أريد الثّورة لأجل الإصلاح لا للوصول إلى الحكم حتماً أو للشّهادة حتماً. والإصلاح ليس بالأمر الهين، فقد تكون الظروف بحيث يصل الإنسان إلى سدة الحكم ويمسك بزمام السّلطة وقد لا يمكنه ذلك ويستشهد، وفي كلتا الحالتين تكون الثّورة لأجل الإصلاح. ثمّ يقول عليه السلام: "أريد أن أمر بالمعروف وأنهي عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾" ^{١١٤}... ^{١١٥}. والإصلاح يتمّ عن هذا الطّريق، وهو ما قلنا أنّه مصداق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

^{١١٣} م.س، ص ٣٢٩.

^{١١٤} سورة الأعراف، الآية ٨٧.

^{١١٥} بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٣٠.



ج- عندما كان الإمام عليه السلام في مكة، بعث بكتابين، الأول إلى رؤساء البصرة، والثاني إلى رؤساء الكوفة، جاء في كتابه إلى رؤساء البصرة: "وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، فإن السنة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي وتُجيبوا دعوتي وتُطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد"^{١١٦}. أي يريد الإمام الحسين عليه السلام تأدية ذلك التكليف العظيم وهو إحياء الإسلام وسنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتّظام الإسلامي. وجاء في كتابه إلى أهل الكوفة: "فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائر بالحقّ والحاسب نفسه عن ذات الله، والسلام"^{١١٧}. الإمام ورئيس المجتمع الإسلامي لا يمكن أن يكون فاجرًا خائنًا مفسدًا بعيدًا عن الله، بل يجب أن يكون عاملاً بكتاب الله، وذلك بالطّبع على مستوى المجتمع، لا أن يجلس نفسه في غرفة الخلوة للصّلاة، بل أن يحيي العمل بالكتاب على مستوى المجتمع، ويأخذ بالقسط والعدل ويجعل الحقّ قانون المجتمع. ولعلّ معنى الجملة الأخيرة هو أنّه يثبّت نفسه على الصّراط الإلهيّ المستقيم بأيّ نحوٍ حتّى لا يقع أسير الإغراءات الشّيطانيّة والماديّة. أي إنّ الإمام عليه السلام قد بيّن هدفه من الخروج.

^{١١٦} أبو مخنف الكوفي، وقعة الطف، تحقيق وتصحيح محمد هادي اليوسفي الغروي، نشر جماعة المدرسين، الطبعة الثالثة، ١٤١٧ هـ، قم - إيران، ص ١٠٧.
^{١١٧} م. ن، ص ٩٦.



د- كان الإمام عليه السلام بعد خروجه من مكة يُخاطب النَّاسَ في كلِّ منزل ينزل فيه، عندما (واجه الحسين عليه السلام جيش الحرّ) وسار بأصحابه في ناحية، والحرّ ومن معه في ناحية، حتّى بلغ "البيضة" خاطب الإمام عليه السلام أصحاب الحرّ، فقال: "أيُّها النَّاسُ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا بقول، كان حقاً على الله أن يُدخله مدخله"^{١١٨}. فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بيّن ما يجب عمله إذا انحرف النظام الإسلاميّ، وقد استند الإمام الحسين عليه السلام إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذا.

فالتكليف هو أن "يُغيّر بفعل أو قول"، فإذا واجه الإنسان مثل هذه الظروف، وكان الظرف مؤثّياً كما تقدّم، وجب عليه أن يثور ضدّ هذا الأمر ولو بلغ ما بلغ، سواء أدّى ذلك لأنّ يُقتل، أو أن يبقى حيّاً، أو أن ينجح في الظاهر أو لا ينجح، يجب على كلّ مسلم في مثل هذه الحال أن يثور. وهذا تكليفٌ قال به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ثمّ قال عليه السلام: "وإنّي أحقّ بهذا"^{١١٩}، لأنّي سبط النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد أوجب هذا الأمر على المسلمين فردّاً فردّاً، فإنّ سبط النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ووارث علمه وحكمته الحسين بن علي عليه السلام سيكون أحقّ بالثّورة، "فإنّي خرجت لهذا الأمر"، فيعلن عن سبب وهدف ثورته وهو لأجل "التغيير" أي الثّورة ضدّ هذا الوضع السّائد.

^{١١٨} م.س، ص ١٧٢.
^{١١٩} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٨٢.

هـ- كان للإمام الحسين في منزل عُذيب، - حيث التحق به أربعة نفر: بيانٌ آخر، قال لهم الإمام عليه السلام : "أما والله إنِّي لأرجو أن يكون خيرًا ما أراد الله بنا قُتلنا أم ظفرنا"^{١٢٠}. وهذا دليل على ما تقدّم أنّه لا فرق سواء انتصر أم قُتل، يجب أداء التكليف.

وفي أوّل خطبة له عليه السلام عند نزوله كربلاء، يقول عليه السلام : "وإنه قد نزل من الأمر ما قد ترون" إلى أن يقول: "ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء ربّه حقًّا..."^{١٢١} إلى آخر الخطبة.

إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام، إذًا، كانت تأديّةً لواجب، وهذا الواجب يتوجّه إلى كلّ فرد من المسلمين عبر التاريخ، وهو أنّه على كلّ مسلم لزوم الثّورة حال رؤية تفسّتي الفساد في جذور المجتمع الإسلاميّ بحيث يُخاف من تغييرٍ كلّّي في أحكام الإسلام، بالطبع، بشرط أن تكون الظروف مؤاتية، وعُلم بأنّ لهذه الثورة نتيجة، أمّا مسألة البقاء على قيد الحياة وعدم القتل وعدم التعرّض للتعذيب والأذى والمعاناة، فهذه الأمور ليست من الشّروط. فالحسين عليه السلام قد ثار وأدّى هذا الواجب عملياً ليكون درساً للجميع.

(١٩٩٥/٠٦/٠٩)

لقد قام الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام وأيقظ وجدان النَّاس. لهذا ظهرت تلك التّهضبات الإسلاميّة التي بدأت واحدة تلو الأخرى، بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، والتي جرى قمعها حتّمًا. ولكن ليس المهمّ أن

^{١٢٠} وقعة الطف، ص ١٧٤.
^{١٢١} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣٨١.



يجري قمع التحرك من قبل العدو وإن كان بالطبع مرًا، ولكن ما هو أمرٌ هو أن يصل المجتمع إلى حيث لا يظهر أي ردّة فعل مقابل العدو، هذا هو الخطر الأكبر.

الثمار الطيبة للثورة الحسينية

لقد قام الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام بعملٍ، أدّى إلى ظهور أشخاصٍ في جميع عهود الحكومات الطاغوتية، ورغم أنهم كانوا أبعد عن عصر صدر الإسلام إلّا أنّ إرادتهم للقتال والجهاد ضدّ جهاز الظلم والفساد كانت أكبر من عصر الإمام الحسن المجتبي عليه السلام. كما كان يُقضى عليهم جميعًا، فبدءًا من قضية قيام أهل المدينة المعروفة بالحرّة، إلى الأحداث اللاحقة وقضايا التّوابين والمختار الثقفي إلى عصر بني العبّاس، ففي الداخل هناك شعوبٌ دائميًا ما تنور. فمن ذا الذي أوجد مثل هذه الثّورات؟ إنّه الحسين بن علي عليه السلام. فلو لم يثر الإمام الحسين عليه السلام هل كانت لتبدّل هذه الروحية الكسولة والمتهرّبة من المسؤولية إلى روحية مواجهة للظلم وتحمل المسؤولية؟ لماذا نقول إنّ روحية تحمّل المسؤولية كانت ميّنة؟ إنّه بسبب أنّ الإمام الحسين عليه السلام ذهب من المدينة، التي كانت مهد الرجال العظام في الإسلام، إلى مكّة. وكان أبناء العبّاس والزيير وعمر وأبناء خلفاء صدر الإسلام قد اجتمعوا جميعهم في المدينة، ولم يكن أيّ منهم حاضرًا أو مستعدًّا لمساعدة الإمام الحسين عليه السلام في هذه الثّورة الدموية والتاريخية. إذًا، فإلى ما قبل بدء ثورة الإمام الحسين عليه السلام، لم يكن الخواصّ مستعدين ليخطوا خطوة واحدة. أمّا



بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام فقد أُحييت هذه الروحانية. وهذا درسٌ كبيرٌ ينبغي أن تُضيفه إلى الدروس الأخرى في واقعة عاشوراء. عظمة هذه الواقعة هي هذه. هذا الذي يُقال: "الموعد بشهادته قبل استهلاله وولادته، (هذا الذي) بكته السماء ومن فيها والأرض ومن عليها"^{١٢٢} قبل ولادته، إنّه الحسين بن عليّ عليه السلام الذي له ذلك العزاء الكبير ونحن نُعظّمه. وبحسب هذا الدعاء أو الزيارة فإنّ البكاء عليه هو من أجل ذلك. لهذا، عندما ننظر اليوم نرى أنّ الذي أحى الإسلام وحفظه هو الحسين بن علي عليه السلام.

(١٩٩٣/٠١/٢٦)

^{١٢٢} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ٣٤٧.

الفصل السابع: حركة السيدة زينب الكبرى عليها السلام وأحداث ما بعد كربلاء

- ملحمة زينب الكبرى عليها السلام
- حركة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر
- الشيعة بعد حادثة كربلاء

ملحمة زينب الكبرى عليها السلام

إنّ زينب الكبرى عليها السلام امرأة عظيمة. فمن أين تنبع هذه العظمة التي تحملها هذه المرأة الجلييلة في أعين الشّعب الإسلاميّة؟ لا يصحّ القول بأنّها نابعة من كونها كانت ابنة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أو أخت الحسين بن عليّ والحسن بن عليّ عليهما السلام، فالنسب لا يُمكنه دومًا أن يخلق مثل هذه العظمة، لقد كان لجميع أئمتنا بناتٍ وأمّهاتٍ وأخوات ولكن من منهنّ كانت كزينب الكبرى عليها السلام؟! فإنّ قيمة وعظمة زينب الكبرى إنّما تنبع من موقفها وحركتها الإنسانيّة والإسلاميّة العظيمة على أساس التكليف الإلهي. فعملها وقرارها ونوعيّة حركتها، كلّ ذلك منحها هذه العظمة. وكلّ من تقوم بمثل هذا العمل، حتّى ولو لم تكن بنت أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّها ستحصل على مثل هذه العظمة. فمنشأ هذه العظمة هو من هنا، أولًا من تشخيصها للموقف، سواءً قبل تحرّك الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء، أم في لحظات المحنة في يوم عاشوراء، أم في الأحداث القاصمة التي تلت شهادة الإمام الحسين عليه السلام، وثانيًا من اختيارها لما يتناسب مع كلّ موقف، فهذه الخيارات التي صنعت زينب عليها السلام.



فقبل التحرك إلى كربلاء، نجد أنّ وجهاء، كابن عباس وابن جعفر وشخصيات معروفة في صدر الإسلام، ممن يدّعي الفقه والفهم والرئاسة قد تحيروا ولم يكونوا يعلمون ما يفعلون، ولكنّ زينب الكبرى لم تُصب بالحيرة، وأدركت أيّ طريق ينبغي أن تسلكه، ولم تترك إمامها وحيداً وتذهب. فهي لم تُدرك صعوبة الطريق فحسب، بل شعرت به أكثر من غيرها. لقد كانت امرأة حاضرة لأن تُضحّي بأسرها لأجل أداء المهمة، ولهذا أحضرت أطفالها وأبناءها معها. كانت تشعر بكيفية الواقعة. في تلك الساعات العصيبة حيث لا يقدر أقوى الناس على إدراك ما ينبغي عليه فعله، لقد أدركت (السيدة زينب عليها السلام) ذلك ودعمت إمامها وجهزته لمذبح الشهادة. وبعد شهادة الحسين بن عليّ عليه السلام، وحين أظلمت الدنيا وتكدّرت القلوب والنفوس وآفاق العالم، أضحت هذه السيدة الكبرى نوراً ومناراً. لقد وصلت زينب عليها السلام إلى حيث لا يصل سوى أعظم الناس في تاريخ البشرية - أيّ الأنبياء.

(١٩٩١/١١/١٣)

في الواقع إنّ كربلاء من دون زينب عليها السلام ما كانت لتكون كربلاء. وما كانت عاشوراء من دون زينب الكبرى عليها السلام لتكون تلك الحادثة التاريخية الخالدة. لقد برزت هذه الشخصية لابنة عليّ عليه السلام من أول الحادثة إلى آخرها، بحيث يشعر المرء أنّ حسيناً ثانياً كان في لباس امرأة وفي ثوب ابنة عليّ. وفي غير ذلك، ماذا كان سيحدث بعد عاشوراء؟ لعلّ الإمام السجّاد عليه السلام كان ليُقتل، ولعلّ نداء الإمام الحسين عليه السلام ما كان ليصل إلى أحد. في تلك المرحلة، وقبل شهادة الإمام الحسين بن

عليّ عليه السلام أيضًا، كانت زينب كمواسٍ وصديقٍ وشخصٍ لم يشعر الإمام الحسين عليه السلام مع وجوده بالوحدة أو بالتعب. إنّ المرء ليُشاهد مثل هذا الدور في وجه زينب عليها السلام وفي كلماتها وفي حركاتها.

لقد شعرت زينب عليها السلام بالاضطراب مرّتين، وكانت قد ذكرت هذا الاضطراب للإمام الحسين عليه السلام. أحدها، كان بعد مجيء خبر شهادة مسلم، عندما جاء الإمام ونقل بعض المسائل ووصلت الأخبار المختلفة. فحضرة زينب عليها السلام هي في النهاية امرأة ذات عواطف جيّاشة وتمتلك مشاعر المرأة المهفة، كما أنّ مظهر هذا الغليان في الشعور هم آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ففي عين الصّلاية والقدرة والشجاعة والمقاومة إزاء المصائب، نجد مرّة أخرى أنّ هذه الأسرة نفسها هي مظهر التّبع الفوّار والزلال للرّهافة الإنسانيّة والرّحمة البشريّة. ولو ضربت الحسين بن علي عليه السلام مثلاً على ذلك، فهذا الذي كان يقف أمام العالم كلّهُ، أمام بيداء الدّئاب المفترسة، ويقاوم وحده ولا يهتزّ، لكنّه يضطرب أمام الأشياء الصغيرة. مثلما حدث عندما صرّع ذلك الغلام الحبشيّ الأسود، فجاء الإمام عليه السلام ووقف على رأسه. كان هذا غلاماً أسود ومن المخلصين والمحبتين، لعلّه جون، غلام أبي ذر، ولكن بلحاظ الوضع الاجتماعيّ والثّقافة الاجتماعيّة التي كانت سائدة آنذاك. وإن لم يكن بين المسلمين في التّهاية طبقة رفيعة جداً. فإنّه لم يكن صاحب مرتبة شريفة ورفيعة. فعندما يُقتل. حسنٌ، هناك الكثيرون ممّن كانوا قد قُتلوا من أشرف الكوفة والوجهاء والمشهورين فيها، كحبيب بن مظاهر وزهير بن القين وغيرهم، من الذين يُعدّون من الكبراء



والمشهورين فيها، لقد استشهدوا بجانب الإمام الحسين عليه السلام، وعندما سقطوا لم يُظهر حضرة (الإمام) مثل هذه الحركة (التي أظهرها تجاه هذا الغلام)، بل خاطب أمثال مسلم بن عوسجة قائلاً: إن شاء الله تَوَجَّر من الله . فعندما يُقتل هذا الغلام الأسود الذي ليس له أحد ولا ولد ولا أسرة تنتظره لتبكي عليه، يأتي الحسين بن علي عليه السلام ويقوم تجاهه بنفس تلك الحركة التي قام بها تجاه علي الأكبر، فيقف على رأسه ويضع رأسه المدمى في حجره لكنه لا يهدأ، فقد رآه الجميع كيف أنه انحنى ووضع وجهه على وجه هذا الغلام الأسود. هكذا هي العاطفة الإنسانية الفوّارة!

لهذا، فإنّ زينب هي امرأة ذات عواطف ومشاعر حيّاشة، فلم تكن في ذلك الوقت امرأة عادية، فهي أخت الإمام الحسين عليه السلام، أخت تُحِبُّ الإمام الحسين عليه السلام إلى درجة العشق، أخت تركت زوجها وعائلتها وأنت مع الإمام الحسين عليه السلام، لكنّها لم تأت وحدها، بل أحضرت معها ابنيها عوناً ومحمّداً، من أجل أن يكونا معها على طريق الله، ولو اقتضى الأمر التضحية فليستشهدا. لقد أحسّت بالخطر في إحدى المحطّات أثناء الطريق، فذهبت وعرضت الأمر على الإمام الحسين عليه السلام: أخي! إنني أشعر بالخطر وأرى الوضع خطيراً. لقد كانت تعلم أنّ القضية هي قضية شهادة وأسر، لكنّها شعرت بالضّغط في ظلّ تلك الأحداث التي كانت تغلي لهذا راجعت الإمام الحسين عليه السلام، وهنا لم يقل لها الإمام الحسين عليه السلام شيئاً كثيراً، لقد قال لا يوجد شيء، والذي يريد الله سوف



يحدث، ما يقرب من هذا المضمون، "ما شاء الله كان" ^{١٢٣}. ولا نرى زينب الكبرى سلام الله عليها بعد ذلك أنها قالت شيئاً للإمام الحسين عليه السلام أو سألته عن شيء أو أنها شعرت بانقباضٍ نفسيٍّ وقامت بنقله إليه، سوى في ليلة عاشوراء.

وأول ليلة عاشوراء، هناك حيث يُمكن أن يُقال إنَّ زينب الكبرى عليها السلام قد فقدت صبرها من شدة الغم، يقول الإمام السَّجَّاد عليه السلام الذي كان مريضاً: كنت نائماً في الخيمة وكانت عمّتي زينب عليها السلام جالسةً قربي تدويني، وكانت الخيمة المجاورة لنا هي خيمة أبي عليه السلام، فقد كان جالساً، وكان جون غلام أبي ذر، مشغولاً بإعداد سيف حضرة الإمام عليه السلام، والجميع يُهيئ نفسه لأجل القتال في الغد، يقول: رأيت فجأةً أبي يدندن ويقرأ أشعاراً كان مضمونها بأنَّ الدُّنيا قد أدبرت والدَّهر غدار والموت قد أقبل:

"يا دهر أف لك من خليل كم لك في الإشراف والأصيل" ^{١٢٤}.

فعندما كان ينشد شخصٌ هذا الشعر فقد كان هذا دليلاً على أنَّه أصبح واثقاً من أنَّه سوف يرتحل عن هذه الدنيا عمّا قريب. يقول الإمام السَّجَّاد عليه السلام: سمعت هذا الشعر وأدركت رسالته ومعناه وعلمت أنَّ الإمام الحسين عليه السلام ينعي نفسه، ولكنني تمالكته نفسي. نظرت لأرى عمّتي زينب عليها السلام فجأةً وقد غرقت في حزنٍ شديد، فنهضت وذهبت إلى

^{١٢٣} الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٥٣٠.
^{١٢٤} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٤، ص ٣١٦.

خيمة أحييها وقالت له: أخي! أراك تنعى نفسك. لقد كنّا إلى اليوم نأنس بك، وعندما رحل أبونا عن هذه الدّنيا قلنا يوجد إخوة لنا، وعندما استشهد أخي الإمام الحسن عليه السلام، قُلت ما زال لديّ الإمام الحسين عليه السلام، ولقد استأنست بك طيلة هذه السنوات، واعتمدت عليك وأنا اليوم أراك تنعى نفسك.

لزينب عليها السلام الحق في أن تتألم. ولعلّ الحالة الّتي كانت عليها زينب عليها السلام في ذلك اليوم كانت حالة غير عادية. أنا أتصوّر أنّ الوضع الذي كان موجودًا في ذلك اليوم (العاشر) بالنّسبة لزينب كان وضعًا استثنائيًا. فلا يُمكننا مقارنة وضعها بوضع أيّ من النّساء، ولا حتّى بالإمام السّجّاد عليه السلام. لقد كان وضع زينب عليها السلام وضعًا صعبًا ومرهقًا إلى حدّ بعيد. فجميع الرجال قد استشهدوا في يوم عاشوراء. ولم يبقَ في عصر عاشوراء رجل واحد في كلّ المخيم سوى الإمام السّجّاد عليه السلام الّذي كان أيضًا مريضًا وكان قد سقط هناك ولعلّه كان في حالة من الإغماء. الآن إذا نظر المرء إلى هذا الوضع، مخيم فيه ما يُقارب الثمانين أو الأربعة وثمانين نفرًا ما بين طفلٍ وامرأة، محاصرون في وسط بحرٍ من الأعداء، فكم يحتاجون من العمل والجهد؟! والبعض عطشى، والبعض جوعى، بل لعلّه يُمكن القول بأنّ الجميع كانوا عطشى وجوعى، وجميع القلوب مضطّربة وخائفة، وأجساد الشهداء مقطّعة إربًا إربًا وقد سقطت على الأرض، بعضهم إخوانهم، وبعضهم أبناءهم. وعلى كلّ حال لقد كانت حادثة مرّة جدًا ومهولة، وكان ينبغي لشخصٍ ما أن يجمع كلّ هؤلاء، وهذا الشخص هو زينب عليها السلام.



لم تكن زينب عليها السلام مجرد شخصٍ قد فقد أخاه أو ولديه أو إخوته الآخرين أو كل هؤلاء الأعزّاء، ثمانية عشر شاباً من شباب بني هاشم والأصحاب الأوفياء، لقد كان هناك شيءٌ آخر لا يقلُّ أهميّةً عمّا جرى وهو أنّها كانت، بين كلِّ هؤلاء الأعداء، مسؤولة عن هذا الحمل الثقيل لإدارة وحراسة هذه البقيّة من النساء والأطفال الذين تفرّقوا وتشتّتوا، كما كان عليها أن ترعى الإمام السجّاد عليه السلام أيضاً. لذا، الله وحده يعلم في بضع السّاعات تلك التي تلت وقوع الحادثة، وإلى حين حلول وقت التحرك والرحيل، وتحديد الأعداء ما الذي سيفعلونه بهم، في بضع الساعات تلك التي ضمت تلك الليلة المظلمة والحالكة والعصيبة، الله وحده يعلم ما الذي جرى على زينب الكبرى عليها السلام. لهذا كانت زينب عليها السلام طوال هذه الساعات في حركةٍ دائمة تركّز ناحية هذا الطفل، وناحية تلك المرأة، وناحية تلك الأمّ الثكلى، وناحية تلك الأخت المفجوعة بأخيها، وناحية ذلك الطفل الرضيع، تقوم بحركةٍ دائمة بين الأفراد وتجمعهم وتواسيهم وتعطف عليهم. لكن في لحظة من اللحظات، كان صبرها يفيض، فتبدأ بمخاطبة أخيها، وتذهب إلى أخيها الشهيد، ملاذها الوحيد وملجأها. لدينا في الروايات أنّ زينب الكبرى جاءت إلى جسد أخيها المقطّع ونادت من أعماق قلبها: "يا محمّداه. صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء مرمّلاً بالدماء"^{١٢٥}.

(١٩٨٤/١٠/١٢)

^{١٢٥} وقعة الطف، ص ٢٥٩.



عندما يُقال أنّ الدّم انتصر على السيّف في عاشوراء وفي واقعة كربلاء، وهو كذلك، فإنّ عامل هذا الانتصار هو زينب عليها السلام، وإلا فإنّ الدّم في كربلاء قد انتهى. واقعةٌ عسكرية انتهت بهزيمةٍ ظاهرية لقوى الحقّ في ميدان عاشوراء. أما ذلك الشيء الذي أدّى إلى تبديل هذه الهزيمة العسكريّة الظاهريّة إلى انتصارٍ قطعيٍّ دائمٍ هو شخصيّة زينب الكبرى عليها السلام. فالدور الذي قامت به زينب عليها السلام، هو أمرٌ في غاية الأهميّة. وقد دلّت هذه الواقعة على أنّ المرأة ليست موجودةً على هامش التاريخ، بل هي في صلب الأحداث التاريخيّة المهمّة. القرآن أيضاً ناطقٌ بهذه المسألة في مواردٍ متعدّدة، لكنّ هذه (الحادثة) مرتبطة بالتاريخ القريب وليست مرتبطة بالأُمم الماضية، إنّها حادثةٌ حيّةٌ ومحسوسةٌ يُشاهد فيها الإنسان زينب الكبرى عليها السلام تظهر بهذه العظمة المحيِّرة والسّاطعة في الميدان، وتقوم بعملٍ يذلّ العدوَّ ويُحقِّره، عدوٌّ قد انتصر في المعركة العسكريّة بحسب الظّاهر، واقتلع المعارضين وقمعهم وجلس على عرش التّصرّ في مقرّ سلطته وفي قصر رئاسته، فتسّم جبينه بوصمة العار الأبديّ وتبدّل انتصاره إلى هزيمة. هذا هو عمل زينب الكبرى. لقد أظهرت زينب سلام الله عليها أنّه يُمكنها أن تُبدّل الحجاب وعفاف المرأة إلى العزّة الجهاديّة، إلى جهادٍ عظيم.

وما بقي من خُطب زينب الكبرى عليها السلام، ممّا هو في متناول الأيدي، يظهر عظمة حركة زينب الكبرى عليها السلام. فخطبتها التي لا تُنسى في أسواق الكوفة لم تكن كلاماً عادياً، ولا موقفاً عادياً لشخصيّة كبرى، بل بيّنت



بتحليلٍ عظيمٍ أوضاع المجتمع الإسلامي في ذلك العصر بأجل الكلمات وأعمق وأغنى المفاهيم في مثل تلك الظروف. انظروا إلى قوة الشخصية تلك، يا لها من شخصية قوية.

فقبل يومين، كانت قد فقدت أحباها وقائدها وإمامها في تلك الصحراء، فقدته مع كلِّ الأعرّاء والشباب والأبناء، وهذا الجمع المؤلّف من بضعة عشرات من النساء والأطفال قد أُسروا وأحضروا على مرأى من أعين النَّاس وحُمِلوا على نياق الأسر، وجاء النَّاس للمشاهدة، وبعضهم كان يُهلّل وبعضهم كان يبكي، ففي خضمِّ هذه المحنة، تسطع فجأة شمس العظمة، فتستعمل نفس اللهجة التي كان يستعملها أبوها أمير المؤمنين عليه السلام وهو على منبر الخلافة مخاطباً أمته، فتتطرق بالطريقة نفسها، وباللهجة والفصاحة والبلاغة نفسها، وبذلك السمو في المضمون والمعنى نفسه: "يا أهل الكوفة، يا أهل النخل والغدر"، أيها المخادعون، أيها المتظاهرون، لعلكم صدقتكم أنكم أتباع الإسلام وأهل البيت، ولكن سقطتم في الامتحان وصرتم في الفتنة عمياء، "ألا وهل فيكم إلّا الصّلف والتّطف وملك الإماء، وغمز الأعداء؟"^{١٢٦}، فتصرفكم وكلامكم لا ينسجم مع قلوبكم. لقد غرّتكم أنفسكم وظننتم أنكم مؤمنون، وتصوّرتكم أنكم ما زلتم ثوريين، ظننتم أنكم ما زلتم أتباع أمير المؤمنين عليه السلام، في حين أنّ واقع الأمر لم يكن كذلك. لم تتمكّنوا من الصّمود والتّجّاح في الفتنة، ولم تتمكّنوا من النّجاة بأنفسكم،

^{١٢٦} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١٠٩.



"... إنما مثلكم كمثل التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾" ١٢٧، ١٢٨ فقد أصبحتم كالتي بدلت الحرير أو القطن إلى خيوط، ثم أرجعت تلك الخيوط ونقضتها إلى قطن أو حرير، فمن غير بصيرة ووعي للظروف، ومن غير تمييز بين الحق والباطل، أبطلتم أعمالكم وأحببتم سوابقكم. فالظاهر ظاهر الإيمان، واللسان يطفح بالادعاءات الثورية، أما الباطن فهو باطن أجوف خالٍ من المقاومة أمام العواصف المعارضة. فهذا يُعدّ من الآفات.

فبهذا البيان القوي والكلمات البليغة، وفي ظل تلك الظروف الصعبة، تحدّث زينب الكبرى عليها السلام. فلم يكن الأمر بحيث نرى مجموعة من المستمعين يجلسون أمام زينب ويستمعون إليها وهي تتحدّث معهم كخطيب عاديّ، كلا، بل كان هناك عددٌ من الأعداء، وحملة الرماح يُحيطون بهم، وكان هناك أناسٌ مذنبون أمثال أولئك الذين سلّموا مسلّمًا إلى ابن زياد، وأولئك الذين كتبوا الرسائل للإمام الحسين عليه السلام وتخلّفوا عنه، وأمثال أولئك الذين كان ينبغي لهم أن يواجهوا ابن زياد في ذلك اليوم، ولكنهم احتبّؤوا في بيوتهم، هؤلاء كانوا في سوق الكوفة. وكان هناك عددٌ من الأشخاص الذين أظهروا ضعف النفس، وهم الآن يشاهدون ابنة أمير المؤمنين عليها السلام ويكونون.

١٢٧ سورة النحل، الآية ٩٢.
١٢٨ وقعة الطف، ص ٢٥٩.



فكانت زينب الكبرى في مواجهة هذه الجماعات المتفاوتة التي لا يُمكن الثّقة بها، ولكنّها كانت تتحدّث بهذه الطّريقة المحكّمة. فهي امرأة التّاريخ، وهذه المرأة لم تعد ضعيفة. ولا يصحّ اعتبارها امرأةً ضعيفة. فهذا جوهر المرأة المؤمنة حيث تُظهر نفسها في مثل هذه الطّروف الصّعبة. هذه هي المرأة التي تُعدّ قدوةً لكلّ الرّجال العظماء والنّساء العظيمات في العالم. فهي تُبيّن علل الثّورة النّبويّة والثّورة العلويّة، وتقول إنكم لم تتمكّنوا من معرفة الحقّ في الفتنّة، ولم تستطيعوا أن تعملوا بتكليفكم، وكانت النّتيجة أن يُرفع رأس فلذة كبد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على الرّماح. من هنا يمكن فهم عظمة زينب.

(٢٠١٠/١٠/٢١)

حركة الإمام السّجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر

لقد كان الوضع بعد عاشوراء بالنسبة للشيعة والمعتقدين بخطّ الإمامة وضعاً مذهلاً. فوحشية عملاء وجلاوزة الأمويين وما فعلوه بآل النبي، سواءً في كربلاء أم في الكوفة أم في الشام، أربع كلّ من كان على اتّصال بخطّ الإمامة. بالطبع، أنتم تعلمون أنّ زبدة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام قد استشهدوا في كربلاء أو في واقعة التّوابين، أمّا الذين بقوا فلم يمتلكوا الجرأة التي تخوّلهم الوقوف وقول كلمة الحقّ مقابل سلطة يزيد المتجبر، وفيما بعد مروان. جمع مؤمن، لكنّه مشّت وغير منظم ومرعوب، وقد انصرف من النّاحية العمليّة عن طريق الإمامة. هذا هو الإرث الذي بقي للإمام السّجّاد من جمع الشيعة، القمع الكثير والجماعة المناصرة الضّعيفة جدّاً. فكان على الإمام السّجّاد عليه السلام، من أجل حفظ تيّار الإسلام الأصيل والمذهبي والواقعي، أن ينهض للجهد ويجمع كلّ هذا الشّتات ويتّجه بهم نحو الحكومة العلويّة، أي نحو الحكومة الإسلاميّة الواقعية. لقد عمل الإمام السّجّاد عليه السلام في ظلّ هذه الظروف طيلة ٣٤ سنة وسأكتفي بذكر بعض المقاطع البارزة من حياة الإمام



السَّجَّاد عليه السلام. القسم الأول من حياة الإمام الرابع المليئة بالمفاخر، هو القسم المتعلّق بأسره.

لقد أُسر الإمام الرابع مرّتين، وسيق إلى الشّام بالسّلاسل والأغلال مرّتين، كانت المرّة الأولى من كربلاء، والمرّة الثانية من المدينة في زمن عبد الملك بن مروان. لقد كان الإمام السّجّاد عليه السلام تحسّيداً للقرآن والإسلام حين أُسر من كربلاء مع قافلة الأسرى الحسينيّين. ولحظة سقوط الشّهداء على رمال كربلاء، بدأت ملحمة عليّ بن الحسين عليه السلام. كان الأطفال، صبيّةً وإنثاءً، والنساء الفاقداً للمعين يُحيطون بالإمام السّجّاد عليه السلام في قافلةٍ لا يوجد فيها رجلٌ واحد، وكان على الإمام السّجّاد عليه السلام أن يقودهم جميعاً، وطوال الطّريق إلى الشّام، لم يسمح لهذا الجمع الذي تربطه رابطة الإيمان أن يُصاب بالترّد والتزلزل. عندما دخلوا الكوفة، أمر عبيد الله بن زياد بقتل كلّ رجال آل البيت، فشاهد من بين الأسرى رجلاً، فسأله: من أنت؟ فقال: أنا عليّ بن الحسين، فهدّده بالقتل، وهنا كان أوّل ظهورٍ وتحلّلٍ للإمامة والمعنويّات والقيادة، فقال: "أبِالْقَتْلِ تُهَدِّدُنِي"^{١٢٩} في حين أنّ كرامتنا من الله الشّهادة، وافتخارنا هو في أن نُقتل في سبيل الله، وإنّا لا نخاف الموت. فتراجع جهاز عبيد الله بن زياد أمام هذه الصّلابة.

وفي أحداث الشّام، وبعد الاحتفاظ بالإمام السّجّاد عليه السلام وباقي الأسرى في وضعٍ مشتّت ووخيم جدّاً، وفي وضعٍ من الاستعباد الكامل،

^{١٢٩} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج. ٤٥، ص ١١٨.

لأَيَّامٍ متوالية، لقد بدا لـ (يزيد) أن يحضر الإمام السَّجَّاد عليه السلام معه إلى المسجد وأن يعمل على توهينه أمام النَّاس من النَّاحية المعنويَّة، خشية أن يؤثِّر إعلام معارضيهِ ومؤيِّدي الإمام عليه السلام المنتشرين في كلِّ مكان، على وضع الحكومة. فتوجَّه الإمام السَّجَّاد عليه السلام في ذلك المسجد إلى يزيد قائلاً: أُريد أن أصعد هذه الخشبات وأتحدَّث إلى النَّاس. فلم يخطر ببال يزيد أنَّه يُمكن لابن النِّبيِّ، الَّذي كان شابًّا أسيِّراً ومريضاً، والَّذي كان من المفترض أن يكون طيلة هذه المدة قد انهمز من النَّاحية النَّفسية، أن يُشكِّل خطراً عليه، فسمح له بذلك. فصعد الإمام السَّجَّاد عليه السلام المنبر وأعلن على الملأ فلسفة الإمامة وحادثة الشَّهادة، وحركة الحكومة الأمويَّة الطَّاغوتيَّة في قلب هذه الحكومة. لقد قام بعملٍ هَيَّج أهالي الشَّام، أي أنَّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام كان له مثل هذه الشَّخصية العظيمة الَّتِي تقف مقابل عبيد الله بن زياد ومقابل كلِّ هذا الحشد المخدوع في الشَّام وفي عمق الجهاز الأمويِّ وفي مقابل جلاوزة يزيد من دون أن يخاف، فينطق بكلمة الحقِّ ويبيِّن، دون أن يرى لحياته قيمةً أو قدراً.

(١٩٨٠/١٢/٠٥)

لقد كان الإمام السَّجَّاد عليه السلام يرسم ملحمة طويلة عظيمة كبطلٍ عظيم بأقواله وأفعاله خلال فترة الأسر والمرض هذه، والَّتِي تُعتبر فترةً مختلفةً تماماً عن المرحلة الأساس من حياته، حيث بدأ يعمل على البنية التحتيّة باعتدالٍ ودقَّة وهدوء، حتَّى أنَّه كان يجلس أحياناً مع عبد الملك بن مروان في مجلسٍ واحدٍ ويتصرَّف معه تصرُّفاً معتدلاً وعادياً. أمَّا في هذا المرحلة فإنَّنا نُشاهد الإمام بصورةٍ ثائرٍ هادرٍ لا يسكت على أيِّ كلمة.

وكان أمام الملاء يردّ بأجوبة تزلزل أركان أعدائه المقتدرين.

في الكوفة نراه يخطب مقابل عبيد الله بن زياد . ذلك الوحش الدمويّ الذي يقطر سيفه دمًا، وقد أسكره شراب قتل ابن التّبيّ وكأس الانتصار . بحيث يأمر بقتل الإمام عليه السلام . ولو لم تنهض زينب عليها السلام بالأمر في وقته، وترمي بنفسها على الإمام وتقول لا أدعكم تقتلونني حتى تقتلوني قبله وأنا امرأة، فكان على ابن زياد أن يبعثهم كأسرى إلى الشام، لو لم يكن كلّ ذلك لكان هناك احتمال كبير أن يُقتل الإمام السجّاد عليه السلام.

وفي سوق الكوفة أيضًا، وبصوت واحدٍ وزمانٍ واحدٍ، يخطب الإمام عليه السلام هو وعمّته زينب عليها السلام وأخته سكينه، فيجيشون النفوس ويفشون الحقائق.

وفي الشام، سواء في مجلس يزيد أم في المسجد، وأمام حشدٍ كبيرٍ من النّاس، يُبيّن الإمام عليه السلام الحقائق بأبلغ بيان . وقد تضمّنت خطبه وكلماته حقّانية أهل البيت بالخلافة، وفضحت جرائم النظام الحاكم، وحذّر النّاس الغافلين الجاهلين بأسلوبٍ شديدٍ وبلغٍ^{١٣٠}.

لماذا يلجأ الإمام السجّاد عليه السلام، في مرحلة ما بعد الأسر، إلى المهادنة والتقية ويُغطّي على التّحرّكات الثورية والشديدة بالدّعاء واستخدام اللين، بينما يتصرّف في مرحلة الأسر بشدّة وقوّة ووضوح؟

^{١٣٠} ذكر الخطبة وإمالة الستار عن عمقها يتطلّب عملاً مستقلاً عن موضوعنا، ولكن ينبغي لكلّ من يريد أن يفهم هذه الخطبة أن يدرسها كلمة كلمة مع الالتفات إلى هذه الأصول. تلك كانت حالة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر الملحميّة (الكاتب).



والجواب هو أنّ مرحلة الأسر كانت فصلاً استثنائياً، حيث كان على الإمام السّجّاد عليه السلام، وبمعزل عن كونه إماماً، أن يُهيئ أرضية التحرك المستقبلي لإقامة الحكومة الإلهية والإسلامية، وقد كان اللسان الناطق للدّماء المسفوكة في عاشوراء. فالإمام السّجّاد عليه السلام لم يكن هنا بحقيقته، بل كان لسان الحسين عليه السلام الصّامت الذي تجلّى في هذا الشّاب الثوريّ في الشّام والكوفة. فلو لم يكن الإمام السّجّاد عليه السلام شديداً وحاداً وصريحاً في بيان القضايا فإنّه لن يبقى في الحقيقة مجال لعمله المستقبلي. لأنّ مجال عمله المستقبلي ينطلق من دم الحسين بن علي عليه السلام الهادر. كما أنّ دم الحسين عليه السلام كان أيضاً أرضيةً للنّهضات الشّيعيّة على طول التاريخ. وهكذا ينبغي أن يبدأ العمل، أولاً بتحذير النّاس، ثمّ في ظلّ هذا التحذير تبدأ المعارضة الأصوليّة والعميقة والبعيدة المدى، ولا يُمكن أن يتحقّق هذا التحذير إلّا باللهجة الحادّة والشّديدة.

لذلك كان دور الإمام السّجّاد عليه السلام في هذا السّفر، ودور زينب عليها السلام حمل نداء ورسالة ثورة الحسين بن عليّ عليه السلام. إذ إنّ معرفة النّاس بقتل الحسين عليه السلام، ولماذا قُتل، وكيف قُتل، سوف تؤثّر على مستقبل الإسلام ومستقبل دعوة أهل البيت عليهم السلام، بنحوٍ، ولو لم يعلموا لسوف تؤثّر بنحوٍ آخر. وكان ينبغي بذل الجهود الكبيرة لأجل نشر هذه الحقائق على مستوى المجتمع، وكان على الإمام أن يستخدم كلّ ما لديه من ذخائر ومضي يمثل هذا العمل إلى أبعد الحدود. لهذا تحرّك الإمام السّجّاد عليه السلام في هذا الاتجاه مثل سكينه وفاطمة الصغرى ومثل زينب نفسها ومثل كلّ أسير (كلّ بقدر استطاعته) كحملة لرسالة. لقد اجتمعت كلّ هذه الطّاقات حتّى تنشر



دم الحسين عليه السلام المسفوك في الغربة في كل المناطق الإسلامية التي مرّوا بها من كربلاء إلى المدينة. وحين دخل الإمام السّجاد عليه السلام إلى المدينة كان عليه أن يُبيّن الحقائق أمام العيون والأنظار لحظة وصوله، فكان هذا الفصل القصير مقطعاً استثنائياً في حياته. المقطع التّالي يبدأ حين يُباشر الإمام السّجاد عليه السلام حياته في المدينة كإنسانٍ ذي قدرٍ وشأن، ويبدأ عمله من بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحرمة. ولأجل بيان برنامج الإمام الرابع نحتاج إلى دراسة الأوضاع التي كانت سائدة وظروف زمانه أيضاً.

(مجلة باسدار إسلام، ٦)

الشَّيعة بعد حادثة كربلاء

بداية الحراك الشيعي

عندما جرت واقعة كربلاء سيطرت على كافّة العالم الإسلاميّ، وخاصّة عندما وصل الخبر إلى الحجاز والعراق، حالة من الرعب والخوف الشديدين بين الشَّيعة وأتباع الأئمّة، لأنّهم شعروا أنّ حكومة يزيد لا تتورّع عن ارتكاب أيّ شيء لإحكام قبضتها على كلّ شيء، حتّى ولو كان قتل الحسين بن علي عليه السلام، سبط الرّسول المعروف بالعظمة والاعتبار والقداسة في كافّة أنحاء العالم الإسلاميّ. هذا الرعب الذي ظهرت آثاره في الكوفة والمدينة بلغ ذروته بعد مرور زمان معيّن، إثر وقوع عدّة حوادث أخرى - إحداها حادثة الحرّة - فسيطر جوّ القمع الشّديد في منطقة نفوذ أهل البيت عليهم السلام في الحجاز (وخاصّة المدينة) وفي العراق (وخاصّة الكوفة). فضعفت الاتّصالات وصار أتباع الأئمّة المعارضون لنظام بني أميّة أقلّيّة وفي حالة ضعف وعدم ثبات.

ونُقل رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في الحديث عن أوضاع



الأئمة الذين سبقوه: "ارتدّ الناس بعد الحسين عليه السلام إلا ثلاثة..."^{١٣١} ودُكر في رواية أخرى أنّهم خمسة وفي بعضها أنّهم سبعة. وفي رواية عن الإمام السجّاد عليه السلام - يرويها أبو عمر النهديّ - يقول سمعت عن الإمام أنّه قال: "ما بمكة والمدينة عشرون رجلاً يُحبّنا"^{١٣٢}.

وقد نقلت هذين الحديثين في هذا المجال، حتّى يتّضح الوضع العامّ لعالم الإسلام بالنسبة للأئمة وأتباعهم. فهذا القمع الذي حدث أوجد مثل تلك الحالة التي صار فيها أتباع الأئمة عليهم السلام متفرّقين آيسين خائفين لا يملكون القدرة على التحرك الجماعيّ. ولكن في تلك الرواية يُكمل الإمام الصادق عليه السلام القول: "ثم إنّ الناس لحقوا وكثروا"^{١٣٣}.

وتفصيل القضية المذكورة هو: بعد واقعة شهادة الإمام الحسين عليه السلام صار الناس في خوفٍ ورعب لكن ليس إلى درجة زوال تشكيلات أتباع أهل البيت. ودليل ذلك أنّه في الوقت الذي جاؤوا بأسرى كربلاء إلى الكوفة، شوهدت التحركات التي تدلّ على وجود التنظيمات الشيعيّة.

وعند الحديث عن "التنظيمات الشيعيّة السريّة" لا نقصد نط التنظيمات الموجود في هذا العصر، بل المقصود تلك الروابط العقائديّة التي كانت تصل الناس بعضهم ببعض وتحملهم على التضحية والأعمال السريّة، والتي تؤلّف في أذهاننا مجموعة واحدة.

^{١٣١} بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٤٤.

^{١٣٢} م.ن، ص ١٤٣.

^{١٣٣} م.ن، ص ١٤٤.



في تلك الأيَّام الَّتِي كان فيها أهل البيت عليهم السلام في الكوفة، يسقط في إحدى الليالي حجرٌ في السجن الَّذي كانوا فيه، وإذ بالحجر ورقةٌ كُتِبَ عليها: "لقد أرسل حاكم الكوفة رجلاً إلى يزيد في الشَّام حتَّى يعلم ماذا يفعل بكم. فإذا سمعتم غداً ليلاً صوت تكبير فاعلموا أنكم ستقتلون ها هنا، وإذا لم تسمعوا فاعلموا أنَّ الوضع سيتحسن"١٣٤. عندما نسمع بمثل هذه القصَّة نُدرك جيِّداً وجود شخص من الأصدقاء وأعضاء هذه التَّنظيمات داخل الجهاز الحاكم لابن زياد، يعلم القضايا وتطال يده السَّجن ويعلم ما هي الإجراءات بحقِّ المعتقلين وما سيجري عليهم، ويُمكنه بالتَّكبير أن يوصل الأخبار، وبالرغم من كلِّ القمع والتَّشديد كانت تُشاهد مثل هذه الأمور.

مثال آخر: عبد الله بن عفيف الأزديّ، الرَّجل الأعمى الَّذي قام برَدَّة الفعل الأولى عند ورود الأسرى إلى الكوفة، وأدَّى ذلك إلى استشهاده. وكذلك ما رأيناه في الشَّام أو في الكوفة عندما التقى النَّاس بأهل البيت بالبكاء والتلاوم وقد تكرَّرت هذه الحوادث في مجلس يزيد وفي مجلس ابن زياد أيضاً.

بناءً على هذا، ومع فرض جوِّ من القمع الشَّدِيد بعد هذه الحادثة، لم ينهدم نظام عمل أتباع أهل البيت عليهم السلام ولم يحصل لهم التَّشتُّت والضياع. ولكن بعد مرور مدَّة وقعت حوادث أخرى، ازداد معها جوُّ القمع. ومن هنا يُمكن فهم الحديث "ارتدَّ النَّاس بعد الحسين" بأنَّه يرتبط بمرحلة تلك

١٣٤ نقل ابن الأثير هذه القصَّة في تاريخه الكامل (الكاتب).

الأحداث أو ما بعدها، أو مرتبطاً بالمقاطع الزمنية التي حصلت في هذا المجال.

وخلال هذه المرحلة - قبل وقوع تلك الحادثة المهمة والمفجعة - قام الشيعة بترتيب وتنظيم أعمالهم واستعادة انسجامهم السابق. وينقل الطبري قائلاً: "فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال"^{١٣٥}، وهو يقصد الشيعة في طلب الثأر لدماء الحسين بن علي عليه السلام. وكانوا يدعون الناس من الشيعة وغيرهم ويستجيب لهم الناس جماعات، جماعات، وقد استمر هذا الوضع إلى أن هلك يزيد بن معاوية.

ولهذا نجد مع كل هذا الضغط والقمع الشديد استمرار التحركات - كما ينقل الطبري - ولعلّه لهذا السبب تقول مؤلفة كتاب "جهاد الشيعة" (وهي كاتبة غير شيعية ولا تمتلك رؤية واقعية تجاه الإمام السجاد عليه السلام ولكنها أدركت هذه الحقيقة): "أصبح الشيعة بعد شهادة الحسين عليه السلام كتنظيم واحد تجمعهم الاعتقادات والروابط السياسية ويعقدون الاجتماعات ولهم القادة والقوى العسكرية. وكان التوابون أول مظهر لهذه التنظيمات"^{١٣٦}.

وهكذا شعرنا مع تسلل الضعف إلى التنظيمات الشيعية إثر حادثة عاشوراء أنّ هذه التحركات في مقابل هذا الوضع استمرت بنشاط لإعادة هذا التنظيم إلى سابق عهده، إلى أن جرت "واقعة الحرّة". وبرأيي فإنّ واقعة الحرّة كانت مفصلاً عظيماً في تاريخ التشيع وضربة كبيرة جداً له.

^{١٣٥} بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٥٦، نقلاً عن تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٥٨.
^{١٣٦} سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة، ص ٢٧.

واقعة الحرة

لقد جرت هذه الواقعة سنة ٦٣ للهجرة. وتفصيلها باختصار، أنه في سنة ٦٢ هـ وُلِّيَ أحد شباب بني أمية قليلي الخبرة، على المدينة ففكر ومن أجل استمالة قلوب الشيعة في المدينة، أن يدعو بعضهم إلى ملاقاته يزيد. فدعا بعض أشراف المسلمين والصحابة ووجهاء المدينة - الذين كانوا في معظمهم من محبي الإمام السجّاد عليه السلام - إلى الشام للقاء يزيد والاستئناس به وللحدّ من الخلافات. فذهبوا إلى الشام والتقوا به ومكثوا عدّة أيّام، وأعطاهم يزيد مبالغ كبيرة من المال (بمقدار ٥٠ ألف درهم أو مئة ألف) ثمّ رجعوا إلى المدينة.

عندما عادوا إلى المدينة . ولأنهم رأوا الفجائع في بلاط يزيد . بدؤوا بانتقاده والتهجّم عليه. وانقلبت القضية، فبدلاً من مدحه والثناء عليه بدؤوا بالتشهير به وقالوا للنّاس: كيف يمكن أن يكون يزيد خليفة وهو شاربٌ للخمر، ويلاعب الكلاب والقرود، ويمارس أنواع الفسق والفجور؟ إنّنا نخلعه عن الخلافة. وكان على رأس هؤلاء، عبد الله بن حنظلة^{١٣٧} الذي دعا النّاس إلى القيام على يزيد وخلعه.

فأدّت هذه الحركة إلى أن يأمر يزيد أحد القادة الكهول والمخضرمين لبني أمية، ويدعى "مسلم بن عقبة"، بالإسراع إلى المدينة وإخماد الثّورة فيها. فقدم ابن عقبة وحاصرها عدّة أيّام ثمّ دخلها وارتكب فيها أبشع وأفجع الجرائم الّتي لم يحدث مثلاً في

^{١٣٧} حنظلة هو الشاب الذي قيل أن يطلع فجر ليلة عرسه التحق بجيش رسول الله واستشهد في غزوة أحد وغسلته الملائكة ولهذا عُرف بـ "حنظلة غسل الملائكة".

تاريخ الإسلام. وقد عُرف بعد هذه الحادثة المفجعة باسم "مسرف بن عقبة".

إنَّ مجريات وتفاصيل هذه الحادثة كثيرة ولا يمكن أن أشرح كلَّ الأحداث فيها، ولكن يكفي أنَّها أصبحت أكبر وسيلة لإرهاب محبِّي وأتباع أهل البيت، خاصَّة في المدينة التي هرب منها من هرب وقُتل آخرون، بعضهم من أصحاب أهل البيت الخيِّرين كعبد الله بن حنظلة. لقد وصل هذا الخبر إلى كافَّة أقطار العالم وعُلم أنَّ التَّظام الحاكم سوف يقف بقوة أمام أيَّة حركة من هذا القبيل، ولن يسمح بأيِّ نحو من التحركات.

المختار ومصعب وحركة التَّوَّابين

الحادثة الأخرى التي أدَّت إلى إضعاف الشَّيعة، هي حادثة شهادة المختار في الكوفة، وتسَلَّط عبد الملك بن مروان على كامل العالم الإسلامي.

فبعد موت يزيد، تبعه خلفاء أحدهم معاوية بن يزيد الذي لم يحكم لأكثر من ثلاثة أشهر، ثمَّ مروان بن الحكم الذي حكم لمدة سنتين أو أقل، ثمَّ وصل الأمر إلى عبد الملك الذي كان أكثر خلفاء بني أميَّة حنكةً كما جاء بشأنه: "كان عبد الملك أشدهم شكيمة وأمضاهم عزيمة" ^{١٣٨}.

^{١٣٨} البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ج ٧، ص ٢٠٩.

فاستطاع عبد الملك أن يقبض على زمام أمور العالم الإسلامي بيده، وأن يوجد نظامًا إرهابيًا وقمعياً، وكان إمساكه بزمام الأمور متوقفاً على القضاء على خصومه. فالمختار الشيعي قد صُفّي قبل مجيئه على يد مصعب بن الزبير. ولكن عبد الملك أراد أن يضع نهايةً لاستمرار حركة المختار وغيره والحركات الشيعية الأخرى. وبالفعل قام بذلك، حتى عانى الشيعة في العراق، وخاصة الكوفة التي كانت في ذلك الوقت أهم مراكزهم، أشدّ معاناة.

(مجلة باسدار إسلام، ٨)

وإن كانت حركة التوابين التي حدثت عام ٦٤ أو ٦٥ للهجرة - حيث على الظاهر كانت شهادتهم عام ٦٥ - قد أوجدت جوًا جديدًا في أجواء العراق المكبوتة، لكنّ استشهادهم جميعًا عن بكرة أبيهم أعاد جوّ الرعب والقمع إلى الكوفة والعراق. وبعد أن توفّي أعداء الجهاز الأمويّ، أي المختار ومصعب بن الزبير، ولم يكن عبد الله بن الزبير في مكة قادراً على أن يتحمّل المختار التابع لأهل البيت عليهم السلام، فقتله بيد مصعب، وتجدّد هذا الرعب والخوف أكثر وضعفت الآمال. حتى جاء في نهاية المطاف عبد الملك على رأس السّلطة، ولم تمرّ مدّة قصيرة حتى صار كلّ العالم الإسلاميّ تحت سلطة بني أميّة المنحوسة بكلّ اقتدارهم، وتمكّن عبد الملك من أن يحكم طيلة ٢٠ سنة بكلّ اقتدار.

(١٩٨٦/٠٧/١٩)

وفي كلّ الأحوال فقد بدأت هذه الأحداث من واقعة عاشوراء، وكان لها تبعات من قبيل واقعة الحرّة وقمع حركة التّوابين^{١٣٩} في العراق، وشهادة المختار، وشهادة إبراهيم بن مالك الأشتر النخعي، وآخرين من وجهاء الشّيعه حيث إنّّه بعد شهادتهم تمّ قمع حركات التحرّر سواء في المدينة أم في الكوفة - اللتين كانتا المركز الأساس للتّشيع - وأصيب التّشيع في العالم الإسلاميّ بحالة من القمع الشديد وغاص أتباع الأئمة في منتهى الغربة والوحدة.

عصر الانحطاط الفكريّ والاخلاقيّ

هناك عاملٌ آخر إلى جانب هذا الرّعب وهو الانحطاط الفكريّ للنّاس، في كلّ أطراف العالم الإسلاميّ وأكنافه، وهو الذي نشأ من عدم الاهتمام بتعاليم الدّين في مرحلة العشرين سنة الماضية. وفيما بعد هُجر التّعليم الدينيّ وتعليم الإيمان وتفسير الآيات وبيان الحقائق منذ زمن النّبيّ. في مرحلة العشرين سنة بعد عام ٤٠ للهجرة وإلى ذاك الوقت. فابتلي

^{١٣٩} كانت حركة التّوابين أوّل ردّة فعل على عاشوراء وقد جرت في الكوفة. فبعد استشهاد الإمام الحسين بدأ بعض الشّيعه يتلاومون فيما بينهم ويتعاطبون لأنّهم لم يستجيبوا لدعوة الإمام ويسرعوا إلى نصرته، ورأوا أنّه لن يغسل هذه المعصية سوى الانتقام لأبي عبد الله من قاتليه وأعدائه، ولهذا جاؤوا إلى الكوفة واجتمعوا بخمسة أعيان وزعماء للشّيعه وتباحثوا. وفي النهاية جعلوا سليمان بن صرد الخزاعي قائدهم وبدؤوا بتحريك عسكريّ علنيّ.

وفي ليلة الجمعة، في الخامس والعشرين من ربيع الثّاني لسنة ٦٥ للهجرة جاؤوا إلى مرقد الإمام الحسين المطهر وبكوا وضجّوا بحيث لم يُرَ حتى يومنا هذا مثل ذلك اليوم. ثمّ ودّعوا القبر وأنّجّوها إلى الشام للقتال والتحموا بالجيش الأموي حتى قُتلوا عن بكرة أبيهم. النقطة الملفتة في حركة التّوابين هي أنّه رغم أنّهم في الكوفة لكنّهم اتّجهوا نحو الشام وحاربوا النّظام من أجل أن يثبتوا أنّ قاتل الإمام الحسين ليس شخصاً أو بضعة أشخاص بل إنّ نظام بأسره. (الكاتب).



الناس بلحاظ الاعتقاد والأصول الإيمانية بالخواء والفراغ. عندما يضع المرء حياة الناس في ذلك العهد تحت المجهر يتّضح هذا الأمر من خلال التواريخ والتّرايات المختلفة الموجودة. بالطبع، كان هناك علماء وقراء ومحدّثون، سيأتي التعرّض لهم، لكنّ عامة الناس ابتلوا بعدم الإيمان وضعف الاعتقاد ضعفاً كبيراً. وقد وصل الأمر إلى حيث إنّ بعض أيادي جهاز الخلافة يُشكّكون في النبوة! ذُكر في الكتب أنّ خالد بن عبد الله القسري، ويُعدّ من عمّال بني أميّة المنحطّين جدّاً والسيّئين، كان يُفضّل الخلافة على النبوة ويقول: "إنّ الخلافة أفضل من النبوة"، ثمّ يستدل قائلاً: "أخلفتك في أهلك أحب إليك وآثر عندك أم رسولك"^{١٤٠}، أي لو أنّك تركت في أهلك شخصاً يخلفك في غيبتك فهل هو أفضل وأقرب إليك أم ذاك الذي يأتيك برسالةٍ ما من مكانٍ معيّن؟ فمن الواضح أنّ ذاك الذي جعلته في بيتك خليفةً لك سيكون أقرب إليك. فخليفة الله - وهنا لا يقول خليفة رسول الله - هو أفضل من رسول الله!

إنّ ما كان يقوله خالد بن عبد الله القسريّ كان يجري على لسان الآخرين.

وعندما نظرت في أشعار شعراء العصر الأمويّ وجدت أنّه منذ زمان عبد الملك قد تكرّر تعبير خليفة الله في الأشعار إلى درجة أنّه ينسى المرء أنّ الخليفة هو خليفة النبي! فقد استمرّ هذا الأمر إلى زمن بني العبّاس.

^{١٤٠} ابن قتيبة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، نشر دار إحياء الكتب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م، القاهرة، ص ٣٤٦.

بني أمية هبوا طال نومكم
إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا
خليفة الله بين الرق والعود^{١٤١}

حتى عندما كانوا يريدون هجاء الخليفة كانوا يقولون خليفة الله! وأينما كان الشعراء المعروفون في ذلك الزمان كجرير والفرزدق وكثير وغيرهم، ومئات الشعراء المعروفين والكبار، عندما يريدون مدح الخليفة كانوا يُطلقون عليه لقب خليفة الله، لا خليفة رسول الله. وهذا نموذج واحد. لقد ضعفت عقائد الناس بهذا الشكل حتى فيما يتعلق بأصول الدين. أما أخلاقهم فقد انحطت بشدة.

هناك نقطة لفتت نظري أثناء مطالعتي لكتاب الأغاني لأبي الفرج، وهو أنه في سنوات الـ ٧٠ والـ ٨٠ والـ ٩٠ والمئة إلى ١٥٠، ١٦٠ تقريباً، فإن أشهر المغنين والمطربين واللاعبين والعابثين في العالم الإسلامي كانوا في المدينة أو في مكة، وكلما كان يضيق صدر الخليفة في الشام شوقاً للغناء، ويُطالب بمغنٍ أو مطرب، كانوا يرسلون له من المدينة أو مكة أحد المطربين المعروفين أو المغنين. فأسوأ الشعراء والماجنين كانوا في مكة والمدينة. فمهبط وحي النبي ومنشأ الإسلام أضحى مركزاً للفحشاء والفساد. ومن الجيد أن نعرف هذه الأمور بشأن تاريخ المدينة ومكة.

^{١٤١} السيد المرتضى علم الهدى، علي بن الحسين، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق وتصحيح محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، القاهرة، ج ١، ص ١٤١.

وللأسف في الآثار التي لدينا، لا يوجد مثل هذه الأشياء، وهي أمور واقعية حدثت. وأنا العبد أعرض لنموذج من رواج الفساد والفحشاء.

كان في مكة شاعرٌ يُدعى عمر بن أبي ربيعة، وهو من شعراء التعري والمجون، وقد مات في أوج قدرته وفته الشعري. ولو أردنا ذكر قصص هذا الشاعر وماذا كان يفعل في مكة لاحتاج الأمر إلى فصلٍ مشبّع بالتاريخ المؤسف لذلك العصر، في مكة والطواف ورمي الجمرات. وهذا البيت مذكور في كتاب المغني:

بدا لي منها معصمٌ حينما جَمَرْتُ وكفَّ خضيبٌ زُيْتِ ببنان^{١٤٢}
فوالله ما أدري وإن كنت دارياً بسبعٍ رميتُ الجمر أم بثمانٍ^{١٤٣}

وعندما مات عمر بن أبي ربيعة، ينقل الراوي أنه أقيم في المدينة عزاءٌ عام وكان الناس ييكون في أزقة المدينة. ويقول إنني أينما ذهبت كنت أجد مجموعة من الشباب، نساءً ورجالاً، واقفين ويكون عمر بن أبي ربيعة في مكة، فشاهدت جارية تسعى في عملها وتحمل دلواً لتحضر الماء، وكانت دموعها تنهمر على خديها بكاءً على عمر بن أبي ربيعة غمماً وأسفاً، وعندما وصلت إلى مجموعة من الشباب سألوها لماذا تبكين لهذا الحد؟ فقالت لأنّ هذا الرجل قد مات وخسرنا، فقال لها أحدهم، لا تحزني هناك شاعرٌ

^{١٤٢} ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ج ١، ص ١٤.

^{١٤٣} ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري، طبع ونشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ج ٦٩، ص ٢٦٠.

آخر في المدينة هو خالد المخزومي، والذي كان لمدة حاكمًا على مكة من طرف علماء الشام، وقد كان من شعراء التعري والجون، كعمر بن أبي ربيعة، فذكروا لها ذاك البيت وأرادوا أن يذكروا لها بعض الأبيات الشعرية لهذا الشاعر، فاستمعت هذه الجارية قليلاً - وقد ذكر في "الأغاني" هذا الشعر وخصائصه - فمسحت دموعها وقالت: "الحمد لله الذي لم يخل حرمه". فإذا فقد شاعرٌ جاء آخر، هذا نموذج من الوضع الأخلاقي لأهل المدينة.

والقصص كثيرة عن سهرات مكة والمدينة. ولم تكن المسألة منحصرة بالأفراد المنحطين، بل شملت الجميع في المدينة، بدءاً من ذاك المتسول المسكين كأشعب الطماع المعروف الذي كان شاعراً ومهزّجاً ومروّزاً بالأفراد العاديين وأبناء السوق وأمثال هذه الجارية إلى أبناء المعروفين من قريش وحتى بني هاشم، كانوا من هؤلاء الذي غرقوا في هذه الفحشاء.

وفي زمن أمارة هذا الشخص المخزومي، جاءت عائشة بنت طلحة وكانت تطوف، وكان يُحبّها، وعندما حان وقت الأذان أرسلت هذه المرأة رسالة أن لا تؤذّنوا حتى أنهي طوافي، فأمر بعدم رفع أذان العصر! فقبل له أنت تؤخّر الأذان من أجل شخص واحد وامرأة تطوف: أو تؤخّر صلاة الناس؟! فقال: والله لو أنّ طوافها بقي إلى الصبح لقلت لهم أن يؤخّروا الأذان إلى الصبح! هذا كان حال ذلك الزمن.

(١٩٨٦/٠٧/١٩)





أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة
www.islamicoa.com/ims
+989217854824

الفصل الثامن: الإمام السجّاد عليه السلام

- الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة
- أهداف حركة الإمام السجّاد عليه السلام
- الإمام السجّاد عليه السلام وتجلّيات المواجهة السياسيّة
- تحذير الخواص من الدنيا والرفاهية
- تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمّة عليهم السلام
- مواجهة الإمام عليه السلام مع علماء البلاط



الظروف الاجتماعية والسياسية

إنّ الحديث عن الإمام السّجّاد عليه السلام وكتابة سيرته عملٌ صعب، لأنّ أساس تعرّف الناس إلى هذا الإمام تمّ في أجواء غير مساعدة إطلاقاً. ففي ذهن أغلب كتّاب السّيرة والمحلّلين أنّ هذا الإنسان العظيم قد انزوى للعبادة ولم يكن له أيّ تدخل في السياسة. حتّى أنّ بعض المؤرّخين وكتّاب السّيرة ذكروا هذه المسألة ذكرًا صريحًا. أمّا الذين لم يقولوا هذا الأمر بصراحة فإنّ مفهومهم عن حياة الإمام السّجّاد عليه السلام ليس سوى هذا الأمر. وهذا المعنى موجودٌ في الألقاب التي تُنسب إليه والتّعبير التي يُطلقها الناس عليه: كما يُطلق عليه بعض الناس لقب "العليل"، في حين أنّ مرضه لم يستغرق أكثر من عدّة أيّام في واقعة عاشوراء. ومن الطّبيعيّ أنّ كلّ إنسان يمرض في حياته عدّة أيّام، وإن كان مرض الإمام للمصلحة الإلهية حتّى لا يُكلّف هذا العظيم بالدّفاع والجهاد في سبيل الله في تلك الأيّام، ليستطيع في المستقبل أن يحمل الحمل الثّقل للأمانة والإمامة على عاتقه، ويبقى حيًّا بعد والده مدّة ٣٤ أو ٣٥ سنة، تُعدّ أصعب مراحل عصور الإمامة عند الشيعة. أنتم عندما تنظرون إلى ماضي حياة الإمام



السَّجَاد عليه السلام سوف يتحدثون حوادث متنوّعة ولافتة جدًّا، كما حدث لبقية أئمّتنا، وربّما إذا جمعنا سير الأئمّة عليهم السلام معًا فلن نجد مثل سيرة السَّجَاد عليه السلام.

إنّ سيرة كلّ إنسان بالمعنى الواقعيّ للكلمة تتّضح عندما نعرف التّوجّه العامّ الذي سار عليه، ومن بعدها نقوم بملاحظة الحوادث الجزئية في حياته. فإذا عُرف التّوجّه العامّ، فإنّ الحوادث الجزئية سوف تُصبح ذات معنى، أمّا إذا لم يُعرف ذلك التّوجّه أو فهم خطأ، فإنّ تلك الحوادث الجزئية سوف تُصبح دون معنى أو ذات معيٍّ خاطئ. وهذا لا يختصّ بالإمام السَّجَاد عليه السلام أو باقي أئمّتنا عليهم السلام فقط، بل إنّ هذا يصدق وينطبق على سيرة الجميع.

مثلاً بخصوص الإمام السَّجَاد عليه السلام نجد أنّ رسالته إلى محمّد بن شهاب الزهريّ تُعتبر نموذجاً لأحد الحوادث في حياته. فلو أخذنا هذه الحادثة بنفسها، وبمعزل عن بقية الحوادث في تلك المرحلة، لا يُمكن أن نفهم شيئاً. فقد تُفهم هذه الرّسالة على أنّها من أحد الذين ينتسبون إلى آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأحد العلماء المعروفين في ذلك الزّمان، في هذا المجال توجد عدّة آراء: هذه الرّسالة يُمكن أن تكون جزءاً من جهادٍ واسعٍ وأساس، ويمكن أن تكون فهمًا بسيطاً عن منكر، ويُمكن أن تكون اعتراضاً شخصيّةً على شخصيّةٍ أخرى كالاقتراضات التي تُشاهد كثيراً على طول التاريخ بين شخصيّتين أو عدّة أشخاص. ولا يُمكن فهم شيءٍ من هذه القضية فهمًا تلقائيًّا وبمعزل عن بقية أحداث تلك المرحلة. والهدف من هذه المسألة هو أنّنا إذا التفتنا إلى الحوادث الجزئية وقطعنا النّظر عن



التَّوَجُّهَ العامَّ في حياة الإمام فلن تُفهم سيرته، لذلك لا بدَّ من أن نعرف التَّوجُّهَ العامَّ في سيرته.

إنَّ بحثنا الأوَّل هو حول التَّوجُّهَ العامَّ للإمام السَّجَّاد عليه السلام في الحياة ونقرنه بكلماته، وأيضاً بالمفهوم العامَّ لحياة الأئمَّة عليهم السلام ثمَّ نوضحه.

نحن نُشاهد بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، الَّذي وقع في السَّنة الأربعين للهجرة، أنَّ أهل البيت لم يلتزموا البقاء داخل البيت والاختصار على بيان الأحكام الإلهية كما يفهمونها فقط، بل نجد منذ أوَّل أَيْام الصَّلح أنَّ برنامج كلِّ الأئمَّة عليهم السلام كان يقوم على تهيئة المقدَّمات لإقامة الحكومة الإسلامية بحسب التَّهيج الَّذي يرونه. وهذا ما نُلاحظه بوضوح في حياة الإمام المجتبي عليه السلام وكلماته.

من هذه الجُهة كان عمل الإمام الحسن عليه السلام عملاً عميقاً جدًّا وتأسيسياً. لقد عاش الإمام الحسن عليه السلام مع كلِّ تلك التَّحوُّلات عشر سنوات، اجتمع حوله، في هذه المدة، أفراد وتربَّوا على يديه. توزَّع قسَمٌ منهم في كلِّ زاوية لمواجهة نظام معاوية وإضعافه بشهادتهم واعتراضاتهم وصرخاتهم.

وفيما بعد وصل الدَّور إلى الإمام الحسين عليه السلام. وقد تابع هذا العظيم ذلك التَّهيج نفسه في المدينة ومكَّة ومناطق أخرى حتَّى هلك معاوية وجرت واقعة كربلاء. وإنَّ كانت واقعة كربلاء ثورة مفيدة جدًّا ومثمرة لمستقبل الإسلام، لكنَّ ذاك الهدف الَّذي كان الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام يسعيان لأجله تأخَّر، لأنَّ النَّاس قد أُرعبوا وجرت تصفية الأتباع المقربين للإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، وتسَلَّط الأعداء فكان وقوع ذلك



الحادث طبيعيًا. فلو لم تجرِ نهضة الإمام الحسين عليه السلام على هذا النحو، فإنّ التّحمين هو أنّه كان هناك مجال، فيما بعد (الإمام الحسين عليه السلام) وفي المستقبل القريب، لتحركٍ ينتهي إلى تسليم الحكومة للشّيعية. ولا يعني هذا الكلام أنّه لم يكن النهوض واجبًا على الإمام الحسين عليه السلام، بل إنّ الظروف الّتي كانت في هذه الثّورة كانت تفرض أن تحدث في ذلك الوقت ولا شكّ في ذلك أبدًا. لكن لو لم تكن تلك الظروف، ولو لم يستشهد الإمام الحسين عليه السلام في تلك الواقعة، فالاحتمال الأكبر أنّ المستقبل الّذي تطلّع إليه الإمام الحسن عليه السلام كان سيتحقّق بسرعة.

لقد كان الأئمّة عليهم السلام في سعيٍ وراء هذا الخطّ وهذا الهدف، وكانوا يسعون دائمًا لتشكيل الحكومة الإسلاميّة. وعندما استشهد الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء، وأسر الإمام السّجّاد عليه السّلام وهو في تلك الحالة من المرض، فمئذ تلك اللحظة، بدأت في الحقيقة مسؤولية الإمام السّجّاد عليه السلام. ولو قدّر في ذلك التاريخ أن ينجح الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام في تأمين ذلك المستقبل لقام الإمام السّجّاد عليه السلام في ذلك الوقت بالتحديد بهذا الأمر ومن بعده الأئمّة الباقيون عليهم السلام.

بناءً عليه، ينبغي أن نبحث في مجمل حياة الإمام السّجّاد عليه السلام عن هذا الهدف الكلّي والمنهج الأصليّ، وأن نعرف دون شكّ أنّ الإمام السّجّاد عليه السلام كان يسعى لأجل تحقيق ذلك الهدف الّذي كان يسعى لأجله الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

كان الإمام السّجّاد عليه السلام، في الفترة ما بين تسلّمه للإمامة منذ عاشوراء ٦١ هـ. واستشهاده مسمومًا عام ٩٤ هـ، يُتابع مسؤوليّة تحقّق ذلك



الهدف. لذلك ينبغي أن تُفسّر جزئيات عمل الإمام والمراحل التي مرّ بها والأساليب التي استعملها، والتّوفيقات التي حصلت، وكلّ الأمور التي بينها، وكلّ التحركات التي قام بها، والأدعية والمناجاة التي جمعت في الصحيفة السجّادية... كلّ هذا ينبغي أن يُفسّر على ضوء الخطّ العام. ومن المواقف التي اتّخذها طوال مدّة الإمامة:

- ١ - موقفه أمام عبيد الله بن زياد ويزيد، الذي تميّز بالبطولة والشّجاعة والفداء.
- ٢ - موقفه من "مسرف بن عقبة" الذي تميّز بالهدوء، هذا الرجل الذي قام بتدمير المدينة واستباح أموالها بأمر من يزيد في السّنة الثالثة من حكمه.
- ٣ - حركة الإمام أمام عبد الملك بن مروان، أقوى خلفاء بني أميّة وأمكرهم، حيث تميّز موقفه بالشّدّة حيناً واللين حيناً آخر.

٤ - تعامل الإمام عليه السلام مع عمر بن عبد العزيز.

٥ - تعامل الإمام مع أصحابه وأتباعه ووصاياه لأصحابه.

٦ - موقف الإمام من وُعاظ السّلاطين وأعوان الظلمة.

كل هذه المواقف والتحركات ينبغي أن تُدرس بدقّة. ووفق تصوّري أرى أنّه بالالتفات إلى النّهج العام، فإنّ كل هذه الجزئيات والحوادث سوف تكتسب معانٍ مناسبة وواضحة. وسوف نجد عندها أنّ هذا الإنسان العظيم قد قضى كلّ حياته وسعيه في طريق الهدف المقدّس وهو عبارة عن إقامة حكومة الله على الأرض وتطبيق الإسلام، وقد استفاد من أنضج وأفضل الوسائل، وتقدّم بالقافلة الإسلاميّة، التي كانت بعد واقعة عاشوراء في تشرذمٍ وتفرّقٍ مهول،



وأُنجز مهمته العظمى ومسؤوليته الأصلية (التي سوف نشير إليها بالتفصيل لاحقاً)، والتي قام بها كلُّ أئمتنا وجميع الأنبياء والصالحين، مراعيًا أصول السياسة والشجاعة والدقة في الأعمال. وبعد ٣٥ سنة من الجهاد المستمر، الذي لم يعرف الراحة أبداً، رحل عن الدنيا كريماً مرفوع الرأس موكلاً حمل ثقل الرسالة من بعده إلى الإمام الباقر عليه السلام.

إنَّ انتقال الإمامة إلى الإمام الباقر عليه السلام، وهي تحمل مهمة إقامة حكومة الله على الأرض، تظهر بصورة واضحة في الروايات. ففي رواية، نجد أنَّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام يجمع أبناءه مشيراً إلى مُحَمَّد بن علي الباقر عليه السلام ويقول: "... احمل هذا الصندوق وخذ هذا السلاح وهذه الأمانة بيدك"، وحينما فتح الصندوق كان فيه القرآن والكتاب^{١٤٤}.

لعلَّ ذلك السلاح يرمز إلى القيادة التَّوريَّة، وذلك الكتاب يرمز إلى الفكر والعقيدة الإسلاميَّة، وقد أودعهما الإمام السَّجَّاد عليه السلام الإمام الذي سيأتي من بعده مودعاً الدُّنيا، راحلاً إلى جوار الرَّحمة الإلهيَّة بنفسٍ مطمئنَّة ووجدانٍ هادئٍ ورأسٍ مرفوع. كانت هذه هي الصُّورة العامَّة لحياة الإمام السَّجَّاد عليه السلام.

ولكن إذا أردنا أن ندرس تفاصيل الأحداث، علينا أولاً أن نُمهِّد لها بالوضع السابق لها، إذ يوجد في حياة الإمام السَّجَّاد فصلٌ قصيرٌ ومحدَّد

^{١٤٤} بصائر الدرجات، ج ١، ص ١٨٠. عن الإمام الباقر عليه السلام قال: "لما حضرت علي بن الحسين الوفاة قبل ذلك أخرج سِفْطاً أو صندوقاً عنده فقال: يا محمد احمل هذا الصندوق، قال فحمل بين أربعة، قال فلما توفي جاء إخوته يدعون في الصندوق، فقالوا اعطنا نصيبنا من الصندوق، فقال: والله ما لكم فيه شيء ولو كان لكم فيه شيء ما دفعه إلي وكان في الصندوق سلاح رسول الله وكتبه صلى الله عليه وآله وسلم".



نذكره أولاً، ثم نقوم بعدها بشرح المسير العادي لحياة الإمام وتفصيل الأوضاع وأحوال الزمان والظروف التي كانت سائدة.

(مجلة باسدار اسلام، ٦)

لقد بدأت حياة الإمام السَّجَّاد بمرحلة مليئة بالصَّعاب، حيث جرت حادثة كربلاء، التي لم تمزَّ كيان الشَّيعة فحسب، بل هزَّت الأُمَّة الإسلاميَّة بأكملها. ومع أنَّ القتل والأسر والتَّعذيب كان شائعاً آنذاك، لكنَّ قتل أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأسر العائلة النبوِّية ووضع رؤوس آل محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم على الرِّماح والاستهانة بمن كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يُقبِّل ثنياه، كلُّ هذا قد زلزل العالم الإسلاميَّ وصعقه. فلم يكن أحد يتوقَّع أنَّ الأمر سوف يصل إلى هذه المرحلة. ولا أدري مدى صحَّة الشَّعر المنسوب للسيدة زينب عليها السلام: "ما توهَّمت يا شقيق فؤادي كان هذا مقدِّراً مكتوباً"^{١٤٥}، فقد كان يشير إلى هذه النقطة، وهذا كان استنتاج جميع النَّاس. ففجأة انتشر الشَّعور بأنَّ السياسة أضحت سياسة مختلفة، والتَّشديد الذي كان يشعر به الجميع أصبح أشدَّ. فهذا البيت يُشير بلا شكَّ إلى أنَّ هذا الحدث كان غير متوقَّع آنذاك. فلهذا أخذ الهول والفزع ينتاب الأُمَّة الإسلاميَّة حيث شاهدت ورأت ما لم تكن تتوقَّعه من التَّنكيل والتَّعذيب.

لذا، فقد عمَّ الخوف والرَّعب كافَّة المناطق الإسلاميَّة. وباستثناء الكوفة، وذلك بفضل التَّوايين وبعدها بفضل المختار، فإنَّ الرَّعب الذي ساد المدينة وغيرها من المناطق، وحتى مَكَّة المكرمة مع وجود عبد الله

^{١٤٥} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ١١٥.

بن الزَّهْرِيّ الَّذِي ثَارَ بَعْدَ مَدَّةٍ، بِسَبَبِ حَادِثَةِ كَرْبَلَاءِ الْمَفْجَعَةِ، كَانَ رَعْبًا غَيْرَ مَسْبُوقٍ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ.

.. بناءً عليه، فإنَّ الوضعَ الفكريَّ، وهذا الوضعَ من الفساد الأخلاقيَّ، والفساد السياسيَّ كان عاملاً آخر. فأغلب الشخصيات الكبار قد تشبَّهوا بفضلات الحياة المادية لرجال الحكومة آنذاك. شخصيات كبيرة مثل محمد بن شهاب الزهري، الذي كان في مرحلة من المراحل، من تلامذة الإمام السَّجَّاد عليه السلام، فقد أصبح تابعاً للجهاز الحاكم. وتلك الرسالة المعروفة للإمام السَّجَّاد إلى محمد بن شهاب الزَّهْرِيّ، التي هي رسالة تاريخية وموثقة في كتاب "تحف العقول" وأماكن أخرى، تبين أي نوع من الروابط والانتماءات لأمثال هذه الشخصيات الكبيرة. وأمثال هؤلاء أيضاً، محمد بن شهاب، حيث نقل العلامة المجلسي في البحار على ما يبدو عن جابر بن عبد الله أنَّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام قال: "ما ندري كيف نصنع بالناس، إن حدثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضحكوا"، فهم لا يكتفون بالرَّفْض بل يضحكون استهزاءً، "وإن سكتنا لم يسعنا"^{١٤٦}. ومن ثمَّ يذكر حادثةً حيث نقل الإمام حديثاً لجماعةٍ كان فيها شخصٌ استهزأ ورفض ذلك الحديث. ثمَّ يذكر بشأن سعيد بن مسيبٍ والزَّهْرِيّ أنَّهم كانوا منحرفين، وبالطَّبع أنا العبد، لا أقبل ذلك بشأن سعيد بن مسيبٍ، فهناك شواهد عديدة على أنَّه كان من حوارِي الإمام، لكن ما يتعلَّق بالزَّهْرِيّ وكثيرون غيره كان الأمر كذلك. ويُعَدُّ ابن أبي الحديد أسماء

^{١٤٦} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٥٩.

عدد من الشخصيات ورجال ذلك الزمان من الذين كانوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام ثم انحرفوا فيما بعد.

.. كان يجب إصلاح دين الناس، وإصلاح أخلاق الناس، وإخراج الناس من مستنقع الفساد، كما كان يجب إعادة إحياء التوجه إلى المعنويات، المعنويات التي هي لب لباب الدين وروحه الأصلي. لذا ترون أنّ أكثر الكلام المنقول عن الإمام السجّاد عليه السلام هو في الزهد: "إنّ علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين عنها في الآخرة... إلخ" ^{١٤٧}. هذه الجملة هي بداية حديث طويل مفصّل. وإنّ كان في هذا الحديث مفاهيم وإشارة إلى تلك الأهداف التي ذكرناها. أو "أولا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة ألا فلا تبيعوها بغيرها" ^{١٤٨}.

إنّ أكثر كلمات الإمام السجّاد عليه السلام كانت حول الزهد والمعارف الإسلامية، إلّا أنّ الإمام كان يطرح المعارف الإسلامية ويبيّننها من خلال الدّعاء، وذلك لأنّ الظروف في ذلك العهد، وكما كنّا قد ذكرنا، كان يسودها القمع، ولم يكن الوضع ملائمًا بحيث يسمح للإمام السجّاد عليه السلام بأن يتكلّم إلى الناس ويطرح آراءه بصورة صريحة وواضحة، لم تكن الأجهزة فقط هي المانع بل الناس أيضًا كانوا يرفضون ذلك. أساسًا، فإنّ المجتمع كان قد أصبح مجتمعًا فاسدًا ضائعًا فاقدًا للاستعداد، وكان يجب إعادة بنائه من جديد.

^{١٤٧} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٢٨.
^{١٤٨} تحف الحقول، ص ٣٩١.



كانت حياة الإمام السَّجَّاد عليه السلام لمدة ٣٤ أو ٣٥ سنة، من عام ٦١ هـ إلى ٩٥ هـ، على هذا النَّحو. وكلَّما كان يمضي الوقت كان الوضع يتحسن، حتَّى قال الإمام الصادق عليه السلام، كما ذكرناه سابقاً، "ارتدَّ النَّاس بعد الحسين..." إلى أن قال "ثم إنَّ النَّاس لحقوا وكثروا". وفي زمن الإمام الباقر عليه السلام تحسَّن الوضع عمَّا كان عليه في زمن السَّجَّاد عليه السلام وهذا بفضل ما بذله الإمام السَّجَّاد من جهد خلال ٣٥ سنة.

(١٩٨٦/٠٧/١٩)

يظنُّ بعض النَّاس أنَّه لو أراد الإمام أن يقاوم نظام بني أميَّة لكان ينبغي أن يرفع راية المقاومة العسكريَّة، أو أن يلتحق بالمختار، أو عبد الله بن حنظلة، أو أن يقودهما معلناً بذلك المقاومة المسلَّحة بكلِّ وضوح. لكن بالنَّظر إلى ظروف زمن الإمام السَّجَّاد عليه السلام، وبالاتفات إلى هدف الأئمَّة عليهم السلام، نفهم أنَّ هذا النوع من التفكير هو تفكير خاطئ.

فلو قام الأئمَّة عليهم السلام، ومن جملتهم الإمام السَّجَّاد عليه السلام، في تلك الظروف بمثل هذه التَّحرَّكات العلنيَّة والسَّليبيَّة، فباليقين لما بقي للشَّيعة باقية، ولما بقيت الأرضيَّة أو فُسح المجال لاستمرار ونمو مدرسة أهل البيت ونظام الولاية والإمامة فيما بعد. لهذا نجد أنَّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام في قضيَّة المختار، لم يُعلن التعاون معه، ورغم ما جاء في بعض الروايات عن ارتباط سريِّ بينهما، إلَّا أنَّه ودون شكٍّ، لم يكن ارتباطاً علنياً، حتَّى قيل في بعض الروايات إنَّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام كان يذمُّ المختار، ويبدو هذا الأمر طبيعياً جداً من ناحية التَّقيَّة، وذلك حتَّى لا يُستشعر وجود أيِّ ارتباط بينهما، مع العلم بأنَّ المختار فيما لو انتصر فإنَّه بالتَّأكيد كان



سيُعطي الحكومة لأهل البيت عليهم السلام، ولكن في حال هزيمته، ومع وجود أدنى ارتباط واضحٍ وعلنيٍّ، لكانت التَّقمة شملت وبشكل قطعيّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام وشيعة المدينة واجتثَّت جذور التشييع أيضًا. لأجل ذلك لم يُظهر الإمام عليه السلام أيَّ نوعٍ من الارتباط العلنيّ به.

ورد في رواية أنّه عندما دخل مسلم بن عقبة إلى المدينة في واقعة الحرّة، لم يشكّ أحدٌ على الإطلاق في أنّ أوّل شخص سيقع ضحيّة نغمته هو عليّ بن الحسين عليه السلام، لكنّ الإمام السَّجَّاد عليه السلام بتدبيره الحكيم تصرّف بحيث دفع البلاء عنه، وبذلك حافظ على استمرار المحور الأصليّ للشيعة.

وهناك روايات في بعض الكتب . من جملتها "بحار الأنوار" . تحكي عن إظهار التذلل من قِبَل السَّجَّاد عليه السلام عند مسلم بن عقبة، ولكن هذه الروايات كاذبة قطعاً وذلك للأسباب التالية:
أولاً: هذه الروايات لا تستند إلى أيّ سندٍ صحيح.
ثانياً: توجد روايات أخرى تُكذِّبها وتدفعها من حيث المضمون.

توجد روايات عديدة بخصوص لقاء الإمام عليه السلام مع مسلم بن عقبة لا تنسجم أيّ واحدة منها مع الأخرى، ولأنّ بعض تلك الروايات ينطبق وينسجم أكثر مع نهج الأئمة وسيرتهم، فنحن بصورة طبيعيّة نقبلها.

على كلّ حال، مع أنّنا لا نقبل تلك الروايات التي تتحدّث عن صدور مثل هذه الأفعال عن الإمام، لكنّنا لا نشكّ أيضاً في أنّ الإمام لم يُقابل مسلم بن عقبة بتصرّفٍ معادٍ، لأنّ أيّ تصرّف من هذا القبيل سوف يؤدّي إلى قتل الإمام، وهذا سيؤدّي بدوره إلى خسارة عظيمة لا تُجبر بلحاظ



الدّور الذي ينبغي أن يقوم به الإمام السّجّاد عليه السلام بالنسبة لثورة الإمام الحسين عليه السلام وتبليغ حقيقتها. لهذا يبقى الإمام عليه السلام . وكما قرأنا في رواية الإمام الصادق عليه السلام . ويلحق النّاس به شيئاً فشيئاً ويزداد عددهم. وفي ظلّ تلك الظروف الصّعبة وغير المساعدة يبدأ عمل الإمام السّجّاد عليه السلام.

بالطّبع، كان جهاز عبد الملك . حيث إنّ معظم عهد إمارة الإمام السّجّاد، البالغة ثلاثين سنة وتيّف، كانت في ظلّ هذه الحكومة . يقوم بالرّصد التام والمراقبة الدائمة لحياة الإمام السّجّاد عليه السلام، ويستخدم الجواسيس والعيون الكثيرة الّتي كانت تنقل إليه أدقّ التفاصيل حتّى المسائل الداخلية والخاصّة بالإمام عليه السلام.



أهداف حركة الإمام السجاد عليه السلام

بعد أن اتّضحت ساحة عمل الإمام السّجّاد عليه السلام أُشير بشكلٍ مختصر إلى الهدف والنّهج الذي اعتمده الأئمّة عليهم السلام. وبعد ذلك نقوم بدراسة جزئيات حياة هذا الإمام فيما يتعلّق بهذا النّهج.

مما لا شكّ فيه أنّ الهدف النهائيّ للسّجاد عليه السلام كان إيجاد الحكومة الإسلاميّة، وكما جاء في كلام الصادق عليه السلام فإنّ الله تعالى وقّت عام ٧٠ لقيام الحكومة الإسلاميّة، ثمّ بسبب قتل الإمام الحسين عليه السلام سنة ٦٠ فإنّ الله أخرها إلى سنة ١٤٧ - ١٤٨ هـ، فهذا يحكي بوضوح عن أنّ الهدف النهائيّ للإمام السّجاد عليه السلام وسائر الأئمّة كان إيجاد الحكومة الإسلاميّة. ولكن كيف يمكن أن تُقام الحكومة الإسلاميّة في مثل تلك الظروف؟ إنّ هذا يحتاج إلى عدّة أمور:

١ - ينبغي أن تدوّن وتُدرس وتُنشر المدرسة الإسلاميّة الحقيقيّة، التي يحمل علمها الأئمّة عليهم السلام، هذه المدرسة التي هي أيضاً المبنى الأساس للحكومة الإسلاميّة. بعد أن انفصل المجتمع الإسلاميّ ولمدّة طويلة من الزّمن عن الفكر الإسلاميّ الصّحيح، كيف يمكن إقامة حكومة



على أسس الفكر الإسلامي الأصيل في حين أنّ الأرضيّة الفكرية لم يتمّ تحقيقها بين الناس، ولم تدوّن تلك الأحكام الأصيلية؟

إنّ أعظم الأدوار التي مارسها الإمام السجّاد عليه السلام هي أنّه دوّن الفكر الأصيل للإسلام: كالتوحيد، والنبوة، وحقيقة المقام المعنوي للإنسان، وارتباطه بالله. وأهمّ دور أدته الصّحيفة السجّادية هو في هذا المجال. فانظروا إلى هذه الصّحيفة، ثمّ جولوا ببصركم في أوضاع الناس على صعيد الفكر الإسلامي في ذلك الزّمن ستجدون مدى المسافة التي تفصل بين الاثنين.

ففي ذلك الزّمن الذي كان يسير فيه المسلمون في كلّ أنحاء العالم الإسلامي نحو الحياة الماديّة والملذّات، بدءاً من شخص الخليفة عبد الملك بن مروان، إلى العلماء المحيطين به (ومن جملتهم محمّد بن شهاب الزهريّ، وسوف أذكر أسماء علماء البلاط فيما بعد)، نزولاً إلى جميع الذين كانوا يغوصون في بحر الدنيا والماديات، يقف الإمام السجّاد عليه السلام ويقول مخاطباً الناس: "أولا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها؟"^{١٤٩}.

ففي هذه الجملة يوضح الإمام أنّ الفكر الإسلامي الأصيل كان عبارة عن جعل الهدف للمعنويّات، والتحرّك للوصول إلى الأهداف المعنوية والإسلاميّة، وجعل الإنسان يرتبط بالله عبر التكليف. وهذا هو الموقف المقابل تماماً لحركة الناس الماديّة في ذلك الزّمن. كان على الإمام السجّاد عليه السلام أن يقوم بعملٍ كبيرٍ لأجل أن يحفظ الفكر الأصيل للإسلام



في فضاء المجتمع الإسلامي. وكانت هذه الحادثة بداية أعمال الإمام السجّاد عليه السلام.

٢- تعريف الناس إلى أحقية أولئك الذين ينبغي أن يتسلّموا زمام الحكم. إذ كيف يُمكن لأهل البيت تشكيل حكومة في الوقت الذي كان الإعلام والتبليغ ضدّ آل الرسول قد ملأ العالم الإسلاميّ طوال عشرات السنين حتّى عصر الإمام السجّاد عليه السلام، وفيه ظهرت الأحاديث الموضوعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي تُخالف حركة أهل البيت بل إنّها في بعض الموارد تشتمل على سبّهم ولعنهم، وقد نُشرت بين أناس لم يكن لديهم أيّ اطلاع على المقام المعنويّ والواقعيّ لأهل البيت.

لهذا، فإنّ أحد الأهداف والتحركات المهمّة للإمام السجّاد عليه السلام كان يرتبط بتعريف الناس إلى أحقية أهل البيت، وأنّ مقام الولاية والإمامة والحكومة حقٌّ ثابت لهم وهم الخلفاء الواقعيّون للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الأمر، إلى جانب أهميّته العقائدية والفكرية، فإنّ له ماهيّة سياسيّة وهي الارتباط بالحركة السياسيّة المناهضة للنظام الحاكم.

٣- كان على الإمام السجّاد عليه السلام أن يؤسّس الأجهزة والتشكيلات التي يُمكن أن تكون منطلقاً أصليّاً للتحركات السياسيّة المستقبلية، ففي مجتمع ممزّق، يعيش تحت أنواع القمع والفقر والتضييق الماليّ والمعنويّ، حتّى أنّ الشيعة عاشوا من الرعب والتضييق إلى درجة أنّ تشكيلاتهم تلاشت، فكيف يُمكن للإمام السجّاد عليه السلام أن يبدأ عمله وحيداً أو مع مجموعة قليلة وغير منظمّة؟ لهذا كان همّ الإمام السجّاد عليه السلام أن يبدأ بتشكيل هذه التنظيمات التي كانت، برأينا،



موجودة منذ أيام أمير المؤمنين عليه السلام غير أنّها ضعفت وتلاشت إثر واقعة عاشوراء والحرة وثورة المختار.
بالنتيجة نجد كان للإمام السّجّاد ثلاثة أعمال أساس:
الأول: تدوين الفكر الإسلامي بصورة صحيحة وطبق ما أنزل الله، بعد مرور أزمنة من التحريف والنسيان عليه.
الثاني: إثبات أحقية أهل البيت في الخلافة والولاية والإمامة.
الثالث: إيجاد التشكيلات المنسجمة لأتباع أهل البيت عليهم السلام وأتباع التشيع.

هذه الأعمال الثلاثة الأساس هي التي ينبغي أن ندرسها ونبحث فيها لنرى أي واحد منها قد تحقّق في حياة الإمام السّجّاد عليه السلام.

إلى جانب هذه الأعمال، كان هناك أعمال أخرى هامشية أو ضمنية وتحركات قام بها الإمام وأتباعه لأجل اختراق ذلك الجوّ المرعب والقمعي. ففي ظلّ الإجراءات الأمنية المشدّدة التي كان يفرضها الحكم، نلاحظ مواقف عديدة للإمام عليه السلام أو أتباعه كان الهدف منها كسر حواجز القمع وصناعة بعض الأجواء الملائمة واللطيفة، خاصّة مع الأجهزة الحاكمة أو التابعة لها، مثل المواقف التي حدثت بين الإمام عليه السلام وعبد الملك عدّة مرات، أو الأمور التي جرت مع العلماء المنحرفين والتابعين لعبد الملك (من قبيل محمد بن شهاب الزهري) كلّ ذلك لأجل خرق ذلك الجوّ المتشدّد.

إنّ الباحث عندما يستعرض الروايات، سواء الأخلاقية منها أم المواعظ أم الرسائل التي نقلت عن الإمام أو المواقف التي صدرت عنه،



وذلك على أساس ما بيناه، فإنّه سوف يجد لها المعاني المناسبة، وتعبير آخر سوف يرى أنّ جميع تلك التحوّلات والأقوال كانت ضمن الخطوط الثلاثة التي أشرنا إليها والتي كانت تصبّ جميعاً في دائرة إقامة الحكومة الإسلامية. وبالتأكيد لم يكن الإمام يُفكّر في إيجاد حكومة إسلاميّة في زمانه لأنّه كان يعلم أنّ وقتها في المستقبل، أي في الحقيقة في عصر الإمام الصادق عليه السلام.

(مجلة باسدار اسلام، ٨)

وبهذه الأعمال الثلاثة سوف تنهتياً أرضيّة إقامة الحكومة الإسلاميّة والنظام العلويّ. لقد ذكرتُ سابقاً، وأؤكد على ذلك الآن أيضاً، أنّ الإمام السجّاد عليه السلام لم يكن يرى أنّه سيتمّ تحقيق الحكومة الإسلاميّة في زمانه (وهذا بخلاف ما عمل لأجله الإمام الصادق عليه السلام في زمانه)، فقد كان معلوماً بأنّ الأرضيّة في عصر الإمام السجّاد عليه السلام لم تكن معدّة لذلك، وكان حجم الظلم والقمع والجهل كبيراً إلى درجة يصعب معها إزالتهم خلال هذه السنوات الثلاثين. فكان الإمام السجّاد عليه السلام يعمل للمستقبل. ومن خلال القرائن العديدة، نفهم أيضاً أنّ الإمام الباقر عليه السلام لم يكن يهدف إلى إقامة حكومة إسلاميّة في زمانه، أي أنّه منذ سنة ٦١ وحتى ٩٥ هـ (شهادة الإمام السجّاد عليه السلام)، ومنذ سنة ٩٥ وحتى ١١٤ هـ (شهادة الإمام الباقر عليه السلام)، لم يكن في تصوّر أيّ منهما أنّه ستقام هذه الحكومة في زمانه، ولهذا كانا يعملان على المدى البعيد.

وسوف نستشهد على هذه الفكرة بكلمات الإمام السجّاد عليه السلام، لأنّها أفضل المصادر وأكثرها أصالة للتعرف إلى سيرة حياته عليه السلام، بل على



حياة كل الأئمة عليهم السلام. غاية الأمر - وكما أشرنا إليه سابقاً - أننا نفهم هذه البيانات بصورة صحيحة عندما نطلع على حركة الأئمة ومقصدهم من الجهاد والمواجهة والسعي والسير، وبغير هذه الصورة قد نفهم معاني هذه الكلمات - التي سوف أبيتها - مغلوطة. وبعد أن اطلعنا على بعض تلك الحوادث، والتي استفدناها ببركة كلمات الأئمة عليهم السلام، سوف نعتمد على نفس المصادر وسنرى أي استنتاجات صحيحة نحصلها.

قبل أن ندخل في صلب البحث ينبغي أن نذكر بنقطة موجزة وهي أنه بسبب مرحلة القمع الشديد التي كان يعيشها الإمام السجّاد عليه السلام، لم يستطع أن يبين لنا تلك المفاهيم بصورة واضحة ولذلك كان يستفيد من أسلوب الموعظة والدعاء (خاصة أدعية الصحيفة السجّادية التي سوف نتعرض لها فيما بعد والبيانات والروايات التي نُقلت عن الإمام عليه السلام والتي كانت تطغى عليها حالة الموعظة)، حيث كان الإمام ضمن بيان الموعظة والنصيحة يبين ما أشرنا إليه سابقاً، وبهذا اتبع الإمام السجّاد عليه السلام منهجاً حكيماً وشديداً الحذاقة. وبذلك الأسلوب الذي ظهره موعظة الناس ونصحهم، أدخل الإمام عليه السلام إلى أذهانهم ما يُريده، وهذا من أفضل أشكال التعاطي الأيديولوجي والفكري الصحيح.



الإمام السجّاد عليه السلام وتجلّيات المواجهة السياسيّة

ما سنقوم بدراسته هنا هو كلمات الإمام السجّاد عليه السلام الواردة في كتاب "تحف العقول" حيث نُشاهد عدّة أنواع من الأسلوب المذكور والتي تُشير إلى طبيعة الجهات المخاطبة.

أحد تلك الأنواع هو الكلمات الموجهة إلى عامّة النّاس، والتي يظهر فيها أنّ المستمع ليس من الجماعة المقرّبة والخاصّة للإمام أو من الكوادر التابعين له. وفي هذه الخطابات يستند الإمام عليه السلام دائماً إلى الآيات القرآنية، لماذا؟ لأنّ عامّة النّاس لا ينظرون إلى الإمام السجّاد عليه السلام كإمام، بل يطلبون الدليل في كلماته، ولهذا كان الإمام يستدلّ إمّا بالآيات أو بالاستعارة من الآيات. ولعلّه في هذه التّروايات، قد استخدم في ٥٠ مورداً أو أكثر آيات قرآنيّة إمّا بصورة مباشرة أو بطريق الاستعارة.

أمّا في الخطاب الموجه إلى المؤمنين نجد الأمر يختلف، لأنّ هؤلاء المؤمنين يعرفون الإمام السجّاد عليه السلام وقوله مقبول عندهم، لهذا لم يكن يستند في كلامه إلى الآيات القرآنية. ولو أحصينا كلّ كلامه الموجه



إليهم لوجدنا أنّ استخدام الآيات القرآنية فيه قليل جدًا.

في رواية مفصّلة من كتاب "تحف العقول" تحت عنوان: "موعظته لسائر أصحابه وشيعته وتذكيره إياهم كل يوم جمعة"^{١٥٠}، نجد أنّ دائرة المستمعين واسعة وهذا ما نستنتجه من القرائن المفصّلة الواردة فيها. فلم يستخدم الإمام عليه السلام في هذه الرواية كلمة "أيّها المؤمنون" أو "أيّها الإخوة"، وأمّثالها، حتّى نعلم أنّ خطابه موجّه إلى جماعة خاصّة، ولكنّه قال "أيّها النّاس" وهذا يُشير إلى عموميّة الخطاب. في حين أنّه في بعض الروايات الأخرى كان الخطاب موجّهًا بصورة خاصّة إلى المؤمنين.

ثانيًا، لا يوجد في هذه الرواية تصريحٌ بشيء معارض للجهاز الحاكم، بل انصرف كلّ الخطاب لبيان العقائد وما ينبغي أن يعرفه الإنسان، وذلك بلسان الموعظة. فالخطاب يبدأ هكذا: "أيّها النّاس، اتّقوا الله واعلموا أنّكم إليه راجعون...". ثمّ يتطرّق الإمام عليه السلام إلى العقائد الإسلاميّة ويوجّه النّاس إلى ضرورة فهم الإسلام الصّحيح. وهذا يدلّ على أنّهم لا يعرفون الإسلام الصحيح، وهو يريد بذلك إيقاظهم من غفلة الجهل إلى معرفة الإسلام وتعاليمه.

فانظروا مثلاً كيف يستفيد الإمام السّجاد عليه السلام من الأسلوب الجذّاب، حيث يقول هنا: "ألا وإنّ أوّل ما يسألنك عن ربّك الذي كُنْتَ تعبده"^{١٥١} ويمضي على هذا المنوال ناصحًا، ومُخوِّف من ذلك الوقت الذي يوضع المرء في قبره ويأتي منكر ونكير لمساءلته. وبهذا يريد أن يوقظ

^{١٥٠} تحف العقول، ص ٢٤٩.

^{١٥١} م.ن.



ففيهم الدّافع لمعرفة الله وفهم التوحيد، "وعن نبيّك الذي أرسل إليك"، ثمّ الدافع لفهم النبوة، "وعن دينك الذي كنت تدين به، وعن كتابك الذي كنت تتلوّه...١٥٢".

وأثناء عرضه لهذه العقائد الأصيلة والمطالب الأساس للإسلام، كالتوحيد والنبوة والقرآن والدين، يُبيّن هذه النقطة الأساس بقوله عليه السلام: "وعن إمامك الذي كنت تتولّاه"١٥٣، فهو هنا يطرح موضوع الإمامة. وقضية الإمامة عند الأئمة تعني قضية الحكومة أيضاً، إذ لا يوجد فرق بين الولاية والإمامة على لسان الأئمة عليهم السلام. وإن كان للولي والإمام معانٍ مختلفة عند بعض الناس ولكن هاتين القضيتين - الولاية والإمامة - على لسان الأئمة أمرٌ واحدٌ والمراد منهما واحد. وكلمة "الإمام" المقصودة هنا تعني ذلك الإنسان المتكفل بإرشاد الناس وهدايتهم من الناحية الدينيّة، والمتكفل أيضاً بإدارة أمور حياتهم من الناحية الدنيويّة، أي خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم الإمام هو قائد المجتمع، أي ذلك الإنسان الذي نتعلّم منه ديننا وتكون بيده إدارة ديانا أيضاً، بحيث تكون إطاغته في أمور الدين والدنيا واجبة علينا.

في عالم التشيّع تعرّضت هذه القضية (دور الإمام) إلى فهمٍ خاطئٍ طيلة قرونٍ متتالية. ففي السابق، كان الناس يتصوّرون أنّ الإمام يتفرّد بحكم المجتمع، وهو الذي ينبغي أن يُدير أمور الحياة بيده وبجهدِهِ الذاتي: فيُحارب ويُصالح ويعمل ويُنفذ كلّ طلب بنفسه، فهو يأمر الناس وينهاهم من جهة، وفي نفس الوقت هو الذي يُنفذ هذه الأمور وحده لإصلاح دينهم!

واليوم أيضًا لقد تعرّضت هذه القضية للفهم الخاطئ بحيث أصبحنا نعتبر أنّ الإمام في عصر الغيبة ليس سوى عالما دينيًا، وهذا بالطبع تصوّر خاطئ. لفظة "الإمام" تعني المتقدّم والقائد. فالإمام الصادق عليه السلام عندما كان يُخاطب الناس في منى أو عرفات بقوله: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ الْإِمَامَ"^{١٥٤}، كان يُشير إلى أنّ الإمام هو الذي يتولّى أمور الناس الدينية والدنيوية.

لقد كان هذا المعنى يُفهم فهمًا خاطئًا في المجتمع الإسلاميّ، أيّام حكم عبد الملك بن مروان وفي عصر الإمام السجّاد عليه السلام، وذلك لأنّ إمامة المجتمع، وهي إدارة شؤون حياة الناس وبسط نظام العيش الذي يُمثّل قسمًا مهمًّا من الإمامة، قد سُلبت من أهلها وأُعطيت إلى من لا أهليّة لهم بها، حيث كانوا يُلقَّبون أنفسهم بالأئمّة ويعرفهم الناس بذلك. فالناس كانوا يُطلقون لقب الإمام على عبد الملك بن مروان، ومن قبله أبيه وقبلهما يزيد وغيره. وقد قبلوهم على أساس أنّهم قادة المجتمع والحكّام على النظام الاجتماعيّ للناس. وقد ترسّخ ذلك في أذهان الناس.

وهكذا عندما كان الإمام السجّاد عليه السلام يقول إنّك ستُسأل عن إمامك في القبر، كان يُشير إلى أنّك هل انتخبت الإمام المناسب والصّحيح؟ وهل أنّ ذلك الشّخص الذي كان يحكمك، ويقود المجتمع الذي تعيش فيه هو حقًّا إمام؟ وهل هو ممّن رضي الله عنه؟ لقد كان الإمام بهذا الكلام يوقظ الناس ليجعل هذه القضية حسّاسة في نفوسهم.

ب هذه الطريقة كان الإمام يحبي قضية الإمامة، فلما لم يكن الجهاز الأموي الحاكم يرضى بأن يتم الحديث عنها، استخدم الإمام أسلوب الموعظة. (كانت هذه من إحدى الوسائل الهادئة التي استخدمها الإمام في هذا المجال، وسوف نُشير لاحقاً إلى أساليب أكثر تشدداً).

بناءً على هذا، ففي البيان العام الموجه إلى عامة الناس نجد أن إيماننا، وبلغة الموعظة، يُحيي المعارف الإسلامية، وخاصة تلك المعارف الحساسة في ذهن الناس، ويسعى لأجل أن يتعرف الناس إليها ويتذكروها. ويمكن الالتفات في هذا النوع من الخطاب إلى نقطتين اثنتين:

الأولى: أن هذا الأسلوب البياني للإمام لم يكن تعليمياً، بل هو من نوع التذكير. أي إن الإمام لم يكن يجلس ليُبين للناس دقائق التوحيد، أو يُفسّر لهم مسألة النبوة، وإنما يُذكرهم بها. لماذا؟ لأن المجتمع الذي كان يعيش فيه الإمام السجّاد عليه السلام لم تكن تفصله عن مرحلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مسافة زمنية كبيرة حتى ينحرف كلياً عن العقائد الإسلامية. بل كان هناك الكثير من الأشخاص الذين عايشوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومُرت عليهم مرحلة الخلفاء الراشدين، وقد عاصروا أئمتنا العظام من أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام الحسن عليه السلام وإلى الإمام الحسين عليه السلام. ومن الناحية الاجتماعية لم يكن الوضع قد وصل إلى مرحلة يُعاني فيها المجتمع الإسلامي من الانحراف العقائدي والأصولي.

بالنسبة لمسألة التوحيد والنبوة والمعاد والقرآن. نعم، كانت هذه المسائل تدريجياً تخرج من ذاكرتهم، وكانت الحياة المادية تُحيط بهم إلى درجة تُنسيهم الفكر الإسلامي والعقيدة الإلهية.



كانت الحياة الدنيوية والمادية تسري في المجتمع بحيث لا تُبقي في أذهان الناس أيّ توجه للمسابقة في مضمار المعنويات والخيرات. وإذا وُجد هذا الأمر فإنه لم يكن ليتعدّى القشور والسطوح. أمّا بالنسبة للمفهوم الذي كان يحمله الناس في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والعصر المتّصل به، عن التوحيد والحساسية المتميّزة تجاهه، فقد كانوا يفتقدونه في عصر الإمام. وهذا ما كان يستدعي التذكير حتّى يرجع الأمر إلى سابق عهده، لا أنّ هناك أشياء محرّفة ينبغي أن تُصحّح.

وهذا بخلاف المراحل اللاحقة، كمرحلة الإمام الصادق عليه السلام، لأنّ المسألة حينها لم تكن على هذه الشّكلة. فقد ظهر في ذلك الوقت الكثير من المتكلّمين والمتفلسفين والمفكرين، وتحت عناوين متعدّدة كانوا يجلسون في المساجد الكبرى، مثل مسجد المدينة وحتّى المسجد الحرام ومسجد الشام، ويُدرّسون العقائد المنحرفة والباطلة. لقد برز حينها أناس مثل "ابن أبي العوجاء" يُدرّسون عقائد الزنادقة والإلحاد. لهذا، بالتأمّل بأحاديث وكلمات الإمام الصادق عليه السلام نجد بيان التوحيد والنبوة وأمثالها بصورة استدلالية^{١٥٥}. فالحاجة إلى الاستدلال ضروريّة لمواجهة استدلال الخصم، وهذا ما لا نجد في كلمات الإمام السجّاد عليه السلام، التي كانت تعتمد على الحالة الشعوريّة والوجدانيّة التي تُذكر بالقضايا الأساس.

وباختصار، لم يكن عصر الإمام السجّاد عليه السلام يحكي عن خروج عن الفكر الإسلاميّ، حتّى عند الحكماء، إلّا في بعض الموارد التي يظهر فيها

^{١٥٥} مجموعة رسائل في شرح الأحاديث، الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ٥٦٥.

مثل هذا الأمر. وذلك عندما ألقى يزيد اللعين تلك الأبيات الشعرية في حالة السكر عندما أُحضر أسرى أهل البيت عليهم السلام فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل^{١٥٦}

ولكننا نستطيع أن نقول إنّ هذا الكلام كان تحت تأثير السكر. فحتى أمثال عبد الملك أو الحجاج لم يكونوا يجروون على إعلان مخالفتهم لفكرة التوحيد أو النبوة. لقد كان عبد الملك بن مروان يقرأ القرآن إلى درجة أنّه عُرف كأحد قراء القرآن. ثمّ عندما وصل إليه خبر تنصيبه خليفة قبل القرآن وقال: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾^{١٥٧، ١٥٨} إنّ هذا ما حدث فعلاً. والحجاج بن يوسف الذي سمعتم عن ظلمه (وبالقيين إنّ الذي سمعتموه هو أقلّ بكثير ممّا فعله) كان عندما يخطب في الناس يأمرهم بالتقوى. وهكذا نفهم سبب اعتماد الإمام السجاد عليه السلام على التذكير بالأفكار الإسلامية لإخراج الناس من مستنقع الدنيا والأهواء المادية إلى ساحة معرفة الله والدين والقرآن.

الثانية: وهي ما أشرنا إليه سابقاً، من أنّ الإمام كان يأتي على ذكر مسألة الإمامة من خلال بيانه العام بصورة مفاجئة. أي أنّه أثناء ذكره للقضايا الإسلامية مثلما كان يحدث في عهد النظام الشاهنشاهي السابق عندما كان أحدٌ يتحدث معكم فيقول: أيّها السادة توجّهوا إلى الله وفكّروا

^{١٥٦} الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٣٠٧.

^{١٥٧} سورة الكهف، الآية ٧٨.

^{١٥٨} محمد تقي النقوي النائيني الخراساني، مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، ج ٢، ص ٢٣٩.



بقضية التوحيد وبقضية الإمامة واهتموا بقضية الحكومة، فانظروا إنّ ما لدينا من إمامة هنا نفهمها دون بيان الإمام السجّاد. نرى أنّ كلمة الحكومة هذه في عصر النظام السابق كانت كما تعلمون شيئاً خطيراً، فلو أراد أحد أن يجعل الناس يهتمون بقضية الحكومة ما كانت أجهزة السلطة لتمرّ على هذا الكلام بسهولة. لكن إذا جاء ذلك بلغة الوعظ وعلى لسان رجل زاهد وعابد فإنه يمكن أن يُقبل لدى أجهزة السلطة، ويتعبّر آخر لن يُثير الحساسيات. هذا نوع من بيانات الإمام السجّاد عليه السلام.

(مجلة باسدار إسلام، ٩).

تحذير الخواص من الدنيا والرفاهية

أما النوع الثاني فهو ذلك الخطاب الموجّه إلى مجموعة خاصّة لا تُعرف هويّتها. ولكن من الواضح أنّه كان موجّهًا إلى مجموعة من الذين يُخالقون النظام الحاكم. فمن يُمكن أن يكون هؤلاء؟ هذه الخطابات وإن لم يُعلم منها بالتحديد من هي تلك الفئة المخاطبة، ولكن من الواضح أنّها لفئة مخالفة للنظام الحاكم، وأفرادها هم في الواقع من أتباع الإمام عليه السلام ومن المعتقدين بحكومة أهل البيت عليهم السلام.

ولحسن الحظّ، إنّنا نجد في كتاب تحف العقول نموذجًا لهذا النوع من الكلمات الصادرة عن الإمام السجّاد عليه السلام (وذلك لأنّنا لا نجد في غيره من الكتب موارد أخرى من هذا النوع رغم أنّ هناك الكثير في حياة الإمام السجّاد عليه السلام، ولكن على أثر الحوادث المختلفة التي جرت في ذلك العصر من القمع والتنكيل والاضطهاد وقتل الأصحاب زالت تلك الآثار وبقي القليل منها).

يبدأ الخطاب التّابع لهذا النوع الثاني هكذا: "كفانا الله وإياكم كيد الظالمين وبغي الحاسدين وبطش الجبارين"^{١٥٩}. ويُعلم من هذا البيان

^{١٥٩} الكافي، ج ٨، ص ١٥.



أنَّ الإمام والجمع الحاضر مهَّدون من قِبَل السلطات الحاكمة، وأنَّ المسألة ترتبط بمجموعة خاصَّة: المؤمنين بأهل البيت عليهم السلام، ولذلك جاء الخطاب بصيغة "يا أيُّها المؤمنون"، خلافاً للنوع الأوَّل حيث يستعمل "يا أيُّها النَّاس" أو "يا ابن آدم"، وذلك لأنَّ الخطاب موجَّه إلى المؤمنين في الحقيقة بأهل البيت وأفكار أهل البيت عليهم السلام.

والدَّلِيل الآخر الواضح جدًّا هو عندما يقول عليه السلام: "أيُّها المؤمنون لا يفتننكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا، المائلون إليها المفتونون بها، المقبلون عليها"^{١٦٠}.

فالمقصد الأصلي من الكلام هو حفظ هؤلاء المؤمنين وبناء الكادر اللازم للمستقبل. ومن الواضح أنَّه على أثر الصِّراع الشَّدِيد في الخفاء، ما بين أتباع الأئمة عليهم السلام وأتباع الطواغيت، فإنَّ أتباع الأئمة عانوا من الحرمان الكبير والخطر الأكبر الَّذي يُهدِّد المجاهدين وهو التوجُّه إلى الرفاهية، هذه الرفاهية الَّتِي لن تجرَّهم سوى إلى ترك الجهاد.

لقد كان الإمام عليه السلام يوكِّد كثيرًا على هذه النقطة، ويحذِّر النَّاس من حياة التَّرف في هذه الدنيا المتألفة الكاذبة الخداعة الَّتِي لن تؤدِّي سوى إلى التقرُّب من الطواغيت. لهذا نجد في هذا البيان، وفي العديد من كلمات الإمام السَّجَّاد عليه السلام، وفي الروايات القصيرة الَّتِي نُقلت عنه، تأكيدًا على هذا الأمر.

ماذا يعني التحذير من الدنيا؟ إنَّه يعني حفظ النَّاس من الانجذاب

نحو المترفين والإيمان بهم وتمييزهم بحيث تقلّ حدة مواجهة الناس لهم. وهذا النوع من الخطابات موجه للمؤمنين، أما في الخطاب المتوجه إلى عامة الناس، فقلّما نجد مثل هذا النوع. ففي خطاب عامة الناس، كثيراً ما يظهر: أيها الناس التفتوا إلى الله، إلى القبر والقيامة، إلى أنفسكم والغد. فما هو هدف الإمام عليه السلام من هذا النوع الثاني من الخطاب؟ المقصود هو بناء الكادر.

فهو عليه السلام يريد أن يصنع من المؤمنين كوادراً ملائمة للمرحلة، ولهذا يُحذّرهم من الانجذاب نحو أقطاب القدرة والرّفاة الكاذبة. ويُكرّر ذكر النظام الحاكم خلافاً للنوع الأول من الكلمات، كما يقول مثلاً: "وإنّ الأمور الواردة عليكم في كلّ يوم وليلة من مظلمات الفتن وحوادث البدع وسنن الجور وبوائق الزمان وهيبة السلطان ووسوسة الشيطان"^{١٦١}.

وهنا نجد أنّ الإمام مباشرة بعد ذكر هيبة السلطان وقدرته يذكر وسوسة الشيطان، يريد بذلك أن يلفت، وبكلّ صراحة، النظر إلى حاكم ذلك الزّمان ويضعه إلى جانب الشيطان. وفي تتمة الكلام جملة لافتة ومهمّة جدّاً لذلك أنقلها، فهي تحكي عن مطلب كُنْتُ قد ذكرته سابقاً: "لشَبَطُ القلوب عن تنبّوها وتذهلها عن موجود الهدى ومعرفة أهل الحق"^{١٦٢}. تلك الهداية الموجودة الآن في المجتمع. فهذه الأحداث التي ترد على الإنسان في حياته في الليل والنّهار. في عصر القمع. تمنع القلوب من تلك النّيّة والتوجّه والدافع والنشاط المطلوب للجهاد.

^{١٦١} الشيخ الكليني، الكافي، ج ٨، ص ١٥.

^{١٦٢} م. ن، ص ١٥.



فالإمام السَّجَّاد عليه السلام يعظهم بالأسلوب السَّابق نفسه، "وإياكم وصحبة العاصين ومعونة الظَّالمين" فهو يُحذِّرهم من مجالسة أهل المعاصي. من هم أهل المعاصي؟ أولئك الذين جُذِبوا لنظام عبد الملك الظالم. الآن، حاولوا أن تتصوَّروا شخصية الإمام السَّجَّاد وأن تكونوا تصوِّراً عنه عليه السلام. هل ما زال ذلك الإمام المظلوم الصَّامت المريض الَّذي لا شأن له بالحياة؟ كلاً، فالإمام هو الَّذي كان يدعو مجموعة من المؤمنين والأصحاب ويُحذِّرهم، بهذه الصَّورة الَّتِي ذكرناها من التَّقرُّب إلى الظَّلمة ونسيان المجاهدة، ويمنعهم من الانحراف عن هذا الطريق، وكان يحفِّزهم ويُشحنهم بالنشاط، ويدفعهم من أجل أن يكونوا مؤثِّرين في إيجاد الحكومة الإسلاميَّة.

من جملة الأشياء الَّتِي أراها جليَّة وشديدة الأهميَّة في هذا القسم من كلمات الإمام السَّجَّاد عليه السلام، تلك الكلمات الَّتِي يُذَكِّر فيها بتجارب أهل البيت عليهم السلام الماضية. ففي هذا القسم يُشير الإمام عليه السلام إلى تلك الأيَّام الَّتِي مرَّت على النَّاس من قِبَل الحُكَّام الجائرين، مثل معاوية ويزيد مروان، ووقائع مثل الحرَّة وعاشوراء، وشهادة حجر بن عدِي ورشيد المجرِّي، وعشرات الحوادث المهمَّة والمعروفة الَّتِي مرَّت على أتباع أهل البيت طيلة الأزمان الماضية واستقرَّت في أذهانهم. ويريد الإمام عليه السلام أن يَحِثَّ أولئك المخاطَبين من خلال ذكر تلك الحوادث الشَّديدة، على التَّحرُّك والثَّورة. والتفتوا الآن إلى هذه الجملة: "فقد لعمري استدبرتم من الأمور الماضية في الأيَّام الخالية من الفتن المتراكمة والانهماك فيها ما تستدلُّون به على تجنُّب الغواية"^{١٦٣}.

أي إنَّكم تستحضرون تلك التَّجارب وتعلمون ماذا سيفعل بكم أهل البغي



والفساد . وهم حكام الجور . عندما يتسلطون عليكم . ولذلك يجب عليكم أن تتجنبوهم وتواجهوهم . وفي هذا الخطاب يطرح الإمام مسألة الإمامة بصورة صريحة، أي قضية الخلافة والولاية على المسلمين والحكومة على الناس وإدارة النظام الإسلامي . هنا يُبين الإمام السجّاد عليه السلام قضية الإمامة بالصراحة، في حين أنه في ذلك الزمن لم يكن ممكناً طرح مثل هذه المطالب على العامة . ثم يقول عليه السلام : "فقدّموا أمر الله وطاعته وطاعة من أوجب الله طاعته".

وهنا يُعين الإمام فلسفة الإمامة عند الشيعة والإنسان الذي يجب أن يُطاع بعد الله . ولو فكّر الناس في ذلك الوقت بهذه المسألة لعلّموا بوضوح أنه لا يجب طاعة عبد الملك، لأنه من غير الجائز أن يوجب الله طاعة عبد الملك، ذلك الحاكم الجائر بكلّ فساده وبغيه . وبعد أن يُقدّم الإمام هذه المسألة يتعرّض لردّ شبهة مقدّرة فيقول: "ولا تقدّموا الأمور الواردة عليكم من طاعة الطواغيت وفتنة زهرة الدنيا بين يدي أمر الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم"^{١٦٤} . فالإمام عليه السلام في هذا القسم من كلمته يعرض بصراحة لقضية الإمامة .

ففي هذا الخطاب والخطاب السابق يُركّز الإمام عليه السلام على مسألتين أساسيتين من المسائل الثلاث التي أشرنا إليها سابقاً .

الأولى: إعادة تدوين وتجديد الفكر الإسلامي والمعتقدات الإسلامية وإحيائها في أذهان الناس والحثّ على تعلّمها .

والأخرى: البعد السياسي لولاية الأمر أي قضية الحكومة وقيادة

النّظام الإسلاميّ.

وعندما يُعرّف الإمام هاتين المسألتين للنّاس في ذلك الزّمن فإنّه يقوم في الواقع بتعريف النّظام العلويّ والنّظام الإسلاميّ الإلهيّ.

نوع آخر من كلمات الإمام السّجّاد عليه السلام وهو أهمّ من الكلمتين السابقتين. ومن خلاله يدعو الإمام بصراحة النّاس إلى ضرورة إيجاد التشكيلات الإسلاميّة الخاصّة. وبالطبع فإنّ هذه الدعوة موجهة إلى أولئك الذين يتبعون أهل البيت عليهم السلام، وإلا لو كانت إلى غيرهم من عامّة النّاس لأُفشيت وأدّت إلى إيذاء الإمام عليه السلام وتعرّضه للضغوط الصعبة، وبحمد الله فإنّنا نجد نموذجاً لهذا النوع من الكلمات في "تحف العقول" ^{١٦٥}.

يبدأ الإمام بهذه العبارة: "إنّ علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، تركهم كلّ خليط وخليل ورفضهم كلّ صاحب لا يريد ما يريدون" ^{١٦٦}. وهذا تصريح بالدعوة إلى إيجاد تشكيلات شيعيّة.

^{١٦٥} للأسف الشديد ينبغي أن نقول إنّّه لا يوجد في جميع العناوين المتعلّقة بمثل هذه الكلمات الصادرة عن الإمام السّجّاد عليه السلام – والتي اختارها المحذّثون – أي نوع من الإشارة إلى ذلك المحتوى الذي أشرنا إليه. فعلى الأغلب، جعلوا ذيل العنوان هو الزهد. بالطبع إنّ الزهد الواقعيّ هو هذا، لكنّ ذلك الفهم السائد حول الزهد لا يُمكن أن يُستنبط من هذه الكلمات وكان ينبغي أن يُشار إلى أنّ الإمام عليه السلام في هذه الكلمات كان بصدد الإشارة إلى القضايا السياسيّة (الكاتب).
^{١٦٦} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٢٨.



فهو عليه السلام يُعلّمهم بأنّ عليهم الابتعاد عن أولئك الذين يُخالفونهم في الدافع ولا يتبعون الحكومة العلويّة وحكومة الحق...^{١٦٧}.

وهناك نوعٌ آخر من كلمات الإمام عليه السلام لا توجد فيه تلك المطالب الكليّة التي أشرنا إليها، مثل رسالة الحقوق. للإمام السّجّاد عليه السلام رسالة مفصّلة هي بحجم رسالةٍ حقيقية بحسب اصطلاحنا، وهي رسالة كتبها الإمام لأحد أصحابه يذكر فيها حقوق الأفراد والإخوان على بعضهم بعضاً، ويذكر فيها أيضاً حقّ الله عليك، وحقّ أعضائك وجوارحك، وحقّ العين واللسان واليد والأذن... كما يذكر حقّ حاكم المجتمع الإسلاميّ وحقّك عليه، وحقّك على جيرانك، وحقّك على أسرتك. لقد ذكر كلّ هذه الأنواع من الحقوق التي تُنظّم العلاقات بين الأفراد في النظام الإسلاميّ. فالإمام وبهدوء تامّ ومن دون أن يأتي على ذكر الحكومة والجهاد والنظام المستقبليّ، قد ذكر في هذه الرسالة أسس علاقات النظام المقبل بحيث إنّ لو جاء يوم وتحقّق نظام الحكومة الإسلاميّة في عصر الإمام السّجّاد نفسه. وهو بالطبع احتمالٌ بعيد. أو في العصور اللاحقة فهو يُعرّف الناس إلى الإسلام الذي ستُحقّق حكومته في المستقبل، ليلقي في أذهانهم مسبقاً طبيعة العلاقات التي تربط بينهم في ذلك النظام. هذا نوعٌ آخر من كلمات الإمام السّجّاد التي تلفت الأنظار كثيراً.

ونوع آخر نجد في الصحيفة السّجّادية، وهذا الأمر يتطلّب بحثاً مفصّلاً ربّما هو عمل أولئك الذين يعملون في هذا المجال. فالصحيفة السّجّادية تتضمّن مجموعة من الأدعية في كافّة المجالات التي ينبغي أن يلتفت إليها الإنسان اليقظ والفظن. وأكثرها في الروابط والعلاقات القلبية والمعنوية للإنسان. في هذه الأدعية والمناجاة، توجد مطالب معنوية وتكاملية كثيرة لا حصر لها. والإمام عليه السلام في ثانيا هذه الأدعية،

^{١٦٧} برأيي يمكن أن نجد من قبيل هذا البيان في كلمات الإمام السّجّاد وكذلك في كلمات سائر الأئمة وهو في كلماتهم كثير. وقد وجدت في حياة الإمام الصادق صلوات الله عليه، وكذلك في حياة الإمام الباقر عليه السلام وأيضاً في حياة أربعة من الأئمة اللاحقين بحثاً أدنى. حتى أنّ علامة تشكيل المنظّمة والتشكيلات الإسلاميّة قد وجدت أصولها في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام، وليس هنا المجال للبحث والتفصيل فيه (الكاتب).



وبلسان الدّعاء، يُجيب في أذهان التّاس الدوافع نحو حياة إسلاميّة ويوقظها. إحدى النتائج الّتي يُمكن أن تحصل من الأدعية، وقد ذكرناها مراراً، هي إحياء الدوافع السليمة والصحيحة في القلوب. فعندما ندعو: "اللهم اجعل عواقب أمورنا خيراً".

فإنّ هذا الدّعاء يُجيب في القلوب ذكر العاقبة ويدفع أصحابها للتفكّر في المصير. فقد يغفل الإنسان أحياناً عن عاقبته، ويعيش ولا يلتفت إلى مصيره. فإذا تلا هذا الدعاء يستيقظ فجأة إلى ضرورة تحسين عاقبته. أمّا كيف يتمّ ذلك فهذا بحثٌ آخر. فقط أردت أن أضرب مثلاً حول الدور الصادق للدعاء. وهذا الكتاب المليء بالدوافع الشريفة للأدعية كافٍ لإيقاظ المجتمع وتوجيهه نحو الصلاح. وإذا تجاوزنا ذلك، وجدنا روايات قصيرة وعديدة نُقلت عن الإمام السجّاد عليه السلام. منها ما ذكرته سابقاً: "أولاً حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها"^{١٦٨}. انظروا كم هو مهمّ هذا الحديث. فالزخارف الدنيويّة والزباج كلّها ما هي سوى بقايا لعاب الكلب التي لا يتركها إلا الحرّ. وكلّ أولئك الّذين يدورون في فلك عبد الملك إنّما يريدون تلك اللماظة. وأنتم أيها المؤمنون لا تنجذبوا إليها. ونجد الكثير من مثل هذه الكلمات الثورية والملفتة في خطب الإمام السجّاد عليه السلام. وسوف نصل إليها فيما بعد إن شاء الله. لقد كان الإمام السجّاد عليه السلام شاعراً. وشعره يحتوي على معاني مهمّة سوف نذكرها لاحقاً إن شاء الله.

(مجلة باسدار اسلام، ١٠)

تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمة عليهم السلام

من المقاطع المهمة في حياة الإمام السّجّاد عليه السلام طريقة تصرّفه مع جهاز الخلافة، فهل كان يتصرّف معه بطريقة اعتراضية عدائيّة، أم لا؟ لقد أشرت باختصار في الأبحاث السابقة إلى هذا الموضوع وهنا سوف أوضح أكثر.

بالقدر الذي اطلّعت فيه على حياة الإمام السّجّاد عليه السلام والذي ما زلت أذكره، أنّه لا توجد مواجهة صريحة وقاطعة ضدّ الحكم أو تعريض به، من قبيل ما تُشاهده في حياة بعض الأئمة الآخرين، كالإمام الصادق عليه السلام في عصر بني أميّة، أو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، وسببه واضح، وهو أنّ مثل هذا التحرك الشديد الذي كان في بداية حركة الأئمة عليهم السلام والذي كان في المرحلة الثالثة من المراحل الأربع للإمامة، والتي تبدأ في حياة الإمام السّجّاد عليه السلام، سوف يُعرّض قافلة أهل البيت عليهم السلام التي تحمل أعباء مسؤولية الرسالة للخطر الذي لا يؤدّي إلى تحقيق المقصد. ففي ذلك الوقت لم يكن بستان أهل البيت الذي تعهّد الإمام السّجّاد عليه السلام بتربيته ورعايته وسقايته قد استحكمت غصونه وأشجاره، بحيث يقدر



على تحمّل الأعاصير الشديدة. وكما أشرت في بداية هذا البحث، فقد كان عدد المحبّين والموالين لأهل البيت عليهم السلام ممّن يُحيطون بالإمام السّجّاد عليه السلام قليلاً جدّاً، وفي ذلك العصر لم يكن من الممكن لأولئك الذين سيتحمّلون مسؤولية التنظيمات الشّيعيّة أن يواجهوا خطر العدوّ الجائر والذي هدّدهم بالإبادة.

وإذا أردنا أن نمثّل، ينبغي أن نُشبّه عصر الإمام السّجّاد عليه السلام هذا، بمرحلة بدء الدّعوة الإسلاميّة في مكّة وهي المرحلة السّريّة. ولعلّه يُمكن تشبيه عصر الإمام الباقر عليه السلام بالمرحلة الثّانية في مكّة، حين أصبحت الدّعوة علنيّة. والمرحل الّتي أتت من بعدها يُمكن تشبيهها بالمراحل اللاحقة للدّعوة. ولهذا، فإنّ المواجهة في تلك المرحلة لن تكون صحيحة.

ومما لا شكّ فيه هو أنّه لو كانت قد صدرت عن الإمام السّجّاد عليه السلام المواجهات الحادّة الّتي تُلاحظها في بعض كلمات الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا عليهم السلام، لاستطاع عبد الملك بن مروان، الّذي كان في أوج قدرته، وبكلّ سهولة أن يطوي بساط تعاليم أهل البيت عليهم السلام ليبدأ العمل من جديد، فهذا لا يُعدّ عملاً عقلائيّاً يقطع به العقل. لكن على كلّ حال، يُمكن أن نُشاهد في ثنايا كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام، والّتي ترجع على وجه الاحتمال إلى أواخر حياته الشريفة وطيلة مدّة إمامته، إشارات أو مظاهر لتعرّضه ومواجهته لنظام الحكم^{١٦٩}.

^{١٦٩} أشير هنا إلى أنّ ما بحثناه في هذا الفصل هو غير ذلك التعامل المعارض للإمام السّجّاد مع يزيد وجهاز خلافة آل أبي سفيان والذي له بحث آخر وقد بحثت بشأته في السابق (الكاتب).

كانت تلك المواجهات تظهر بعدة أشكال. وأحد أشكالها هو ما لاحظناه في تعامل الإمام السجّاد عليه السلام مع محمّد بن شهاب الزهريّ. والشكل الآخر، يظهر من خلال بيان موقف ومكانة الخلفاء الأمويّين على ضوء التعاليم والإرشادات الدينيّة العاديّة. ويوجد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: "إنّ بني أميّة أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يُطلقوا تعليم الشّرك حتّى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه"^{١٧٠}. فبنو أميّة كانوا يسمحون للعلماء وأهل الدين، ومن جملتهم الأئمّة عليهم السلام، بالتحدّث حول الصلاة والحجّ والزّكاة والصّيام والعبادات، وكذلك حول التّوحيد والنبوة والأحكام الإلهيّة. لكنّهم لم يسمحوا بالبحث في مفهوم الشّرك ومصاديقه وأمثله في المجتمع.

فلو كانت تلك التعاليم المرتبطة بالشّرك دُرّست للناس، لفهموا مباشرة من هم المشركون، وإنّ ما يحملهم عليه بنو أميّة ليس سوى الشّرك. ولعلموا فوراً أنّ عبد الملك والخلفاء الباقين من بني أميّة هم طواغيت يُبارزون الله، وأنّ إطاعتهم تُعدّ شركاً بالله. ولهذا لم يكونوا يسمحوا بتعلّم هذه المفاهيم.

نحن عندما نبحث حول التّوحيد في الدّين الإسلاميّ، فإنّ قسمًا مهمًّا من هذا البحث يرتبط بمعرفة الشّرك والمشرّك، ما هو الصّنم ومن هو الذي يعبد الأصنام.

^{١٧٠} الشيخ الكليني، الكافي، ج ٢، ص ٤١٥.



وللمرحوم العلامة المجلسي رحمه الله في بحار الأنوار نصٌّ رائع يقول فيه: "إنَّ آيات الشَّرك ظاهرها في الأصنام الظَّاهرة، وباطنها في خلفاء الجور الذين أشركوا مع أئمة الحقّ ونصّبوا مكانهم". فأئمة الحقّ هم خلفاء الله وهم ينطقون عن الله، ولأنّ خلفاء الجور قد نصّبوا أنفسهم مكانهم وادّعوا الإمامة، فقد أصبحوا أصنامًا وطواغيت، فكلّ من يُطيعهم يُعدّ مشركًا بالله.

وللعلامة بعد هذا شرحٌ قيّم. فهو يُبيّن أنّ الآيات القرآنية ليست مختصّة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي سارية وجارية في كلّ العصور والأزمان: "فهو يجري في أقوام تركوا طاعة أئمة الحقّ، واتّبعوا أئمة الجور لعدولهم عن الأدلّة العقلية والنقلية واتّباعهم الأهواء، وعدولهم عن النصوص الجليلة"^{١٧١}. مثل أنّه لا يمكن لعبد الملك أن يكون حاكمًا على المسلمين وخليفة لهم، فالتّاس كانوا يرون أنّ الحياة الوادعة بعيدًا عن التعرّض للحاكم هي الحياة المريحة لهم، لهذا سلكوا هذه الحياة واتّبعوا أئمة الجور. ولهذا كانوا مشركين.

ومن هنا نرى أنّ الأئمة عليهم السلام إذا أرادوا أن يُبينوا حقيقة الشَّرك فإنّهم بذلك يقومون بما يُشبه المواجهة مع نظام الحكم. وهذا ما يظهر في كلمات الإمام السّجاد عليه السلام.

ونموذج آخر من تلك الأمثلة في المواجهة: ما تُشاهده في المكاتبات والرسائل بين الإمام السّجاد عليه السلام وعبد الملك (الخليفة الأمويّ المتحجّر)، أُشير إلى اثنين منهما هنا:

^{١٧١} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ٩٦.

١ - (النموذج الأول): في إحدى المرات يكتب عبد الملك رسالة إلى الإمام السَّجَّاد عليه السلام يلومه فيها على زواجه من إحدى جواريه. وكان للإمام عليه السلام جارية أعتقها ثم تزوّجها. فشمت به عبد الملك. وكان عمل الإمام عليه السلام عملاً إنسانياً وإسلامياً صرفاً. ولكنّ دافع عبد الملك من تلك الرسالة كان التعرّض للإمام عليه السلام، وإفهامه بأنّه مطّلع على مسأله الخاصّة موجّهاً له بذلك تهديداً ضمنياً. فأجابه الإمام عليه السلام برسالة بدأها بتوجيه أمر الزواج وأنّ العظام يفعلون مثل هذا الأمر، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قام به: "فلا لؤم على امرئ مسلم إنّما اللؤم لؤم الجاهليّة"^{١٧٢}. وهو يريد أن يُذكّره بسوابق أجداده في الجاهليّة (من كفرهم وعنادهم)...

عندما وصلت الرسالة إلى عبد الملك، كان ابنه سليمان حاضراً، وعندما قرأها سمعه، وسمع ذمّ الإمام وأحسنّ به مثل أبيه، فالتفت إليه قائلاً: يا أمير المؤمنين! أترى كيف يتفاخر عليك عليّ بن الحسين؟ يريد بذلك أن يُحرّض والده على ردّ فعل شديد. ولكنّ عبد الملك كان أعقل من ولده فقال له: لا تقل شيئاً يا ولدي! فهذا لسان بني هاشم الذي يفلق الصخر. (أي أنّ استدلالهم قويّ وقاسٍ).

٢. (النموذج الثاني): المراسلة الأخرى التي تمّت بين الإمام السجّاد عليه السلام وعبد الملك، حيث علم عبد الملك أنّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موجود عند الإمام عليه السلام. وكان هذا أمراً ملفتاً لأنّه تذكّار التّبيّ وباعثٌ على

^{١٧٢} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٤٦، ص ١٠٥.

التفاخر. وكذلك فإنَّ وجوده يُعدّ خطراً على الخليفة، لأنَّه يجلب أنظار النَّاس إليه، فكتب إليه يطلب منه تسليم السَّيف، ووعدته بإنجاز ما يريد أيَّ أنَّه مستعدُّ أن يهبه ما يحتاج.

ردَّ الإمام عليه السلام طلبه، فأعاد عبد الملك مرَّةً ثانية تهديده بوقف حصَّة الإمام من بيت المال إن لم يُرسل السَّيف^{١٧٣}. فأجابه الإمام عليه السلام: "أما بعد فإنَّ الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون والرزق من حيث لا يحتسبون وقال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^{١٧٤} فانظر أيُّنا أولى بهذه الآية"^{١٧٥}.

وهذه لهجة قاسية جدًّا تجاه الخليفة، لأنَّ تلك الرِّسالة إذا وقعت بيد أيِّ إنسان فسوف يعلم أوَّلاً: أنَّ الإمام عليه السلام لا يعدّ نفسه خَوَّاناً. ثانياً: لا يتصوَّر أحد هذا الأمر بحقِّ هذا الإنسان الجليل الذي تَرَى في بيت النبوة. وهذا يعني أنَّك أنت أيُّها الخليفة خَوَّان وكفور. وإلى هذا الحدِّ كان الإمام شديداً مقابل التهديد.

كان هذان نموذجين من نماذج مواجهة الإمام لجهاز الحكم الأمويّ.

وإذا أردنا أن نُضيف نموذجاً آخر ينبغي أن ننظر إلى الأشعار التي نُقلت عن أصحاب الإمام السَّجاد عليه السلام ومحبيّه، فهي تُمثِّل نوعاً آخر من المواجهة. مواجهة أصحاب الإمام السَّجاد عليه السلام ومحبيّه من قبيل الفرزدق ويحيى بن أمّ الطويل للنَّظام الحاكم كان يُعدّ نوعاً من مواجهة

^{١٧٣} في ذلك الزمان كان النَّاس جميعاً يأخذون حصَّتهم من بيت المال وكان الإمام يأخذ حصَّته أيضاً مثل غيره. (الكاتب)

^{١٧٤} سورة الحج، الآية ٣٨.

^{١٧٥} مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ١٦٥.



الإمام للحكم ويُمكن اعتبار شعر الفرزدق نموذجًا آخرًا. فقد نقل المؤرّخون والمحدّثون قصّة الفرزدق (ما ملخصها):
عندما قدم هشام بن عبد الملك قبل فترة خلافته إلى الحجّ، وأثناء الطّواف أراد أن يتقدّم لاستلام الحجر الأسود، ولكنّ الحشد الهائل والازدحام الكبير منعه من الوصول، رغم محاولاته المتكرّرة مع أنّه كان ابن الخليفة ومحاطًا بالمرافقين والحراس والحواشي، ولكنّ النّاس كانوا يمرّون من حوله دون اكتراث. فيئس من استلام الحجر، وقعد جانبًا منتظرًا انصراف النّاس، وكان أصحابه جالسين حوله. وفي هذه الأثناء يأتي رجلٌ يعلوه الوقار والهيبة، سيماؤه سيماؤه الزاهدين ووجهه وجه الملكوتيين، يسطع من بين الحجاج كالشمس فتتّحى النّاس له جانبًا ليمرّ من بينهم ويصل إلى الحجر الأسود فيقبله ثمّ يرجع للطواف مجددًا.

فصعب ذلك على هشام كثيرًا، وهو يرى نفسه ابن الخليفة ولا أحد يُعطيه أيّة قيمة، بل يُعدونه بالركل والمطاحنة، ثمّ من جانبٍ آخر يظهر رجل يصل إلى الحجر الأسود بكلّ هدوء. فسأل غاضبًا: من هذا؟ وكان حواشيه يعرفون أنّه عليّ بن الحسين عليه السلام ولكن لئلا يغضب منهم لم يقولوا شيئًا لأنّهم يعلمون بوجود العداء المتجدّد بين بني أميّة وبني هاشم، فلم يريدوا أن يقولوا إنّ هذا كبير العائلة المعادية لكم، والنّاس يُظهرون له كلّ هذا الحبّ والاحترام لأنّهم اعتبروا ذلك نوعًا من الإهانة لهشام.

كان الشاعر الفرزدق، من المحبّين لأهل البيت، حاضرًا هناك وقد رأى تجاهلهم وإنكارهم لعليّ بن الحسين عليه السلام فتقدّم قائلاً: أيّها الأمير، هل تسمح لي بأن أعرفك به.

فقال هشام: قل، فانطلق لسان الفرزدق بقصيدة من أشهر القصائد الشعرية التي قيلت بحق أهل البيت، وبدأها بهذا البيت:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم^{١٧٦}

وكانت أبيات هذه القصيدة كوقع السيوف على قلب هشام فغضب منه وطرده. من جانب آخر أرسل إليه الإمام عليه السلام مألًا فلم يقبله وقال: "ما قُلتَه لله لا أريد عليه مألًا".

وهكذا نُشاهد مثل هذه المواجهات عند أصحاب الإمام. ونموزج آخر ما قام به يحيى بن أم الطويل. كان يحيى بن أم الطويل من الشباب ذوي البأس الشديد والشجاعة الفائقة وأحد المخلصين لأهل البيت عليهم السلام، وكان يذهب إلى الكوفة دومًا ويجمع الناس ويصرخ فيهم: "أيها الناس، إنني كافر بكم ولا أقبل بكم حتى تؤمنوا بالله"، وهو يقصد أولئك الذين كانوا يتبعون بني أمية. ومثل هذه الاعتراضات المتجلية في حياة الإمام السجّاد عليه السلام وأصحابه كان مشهودًا.

(مجلة باسدار اسلام، ١٢)

^{١٧٦} عندما نقول "العلماء" فإننا نقصد علماء الدين في ذلك الزمان والذين كانوا عبارة عن المحدثين والمفسرين والقراء والقضاة والزهاد. (الكاتب)



مواجهة الإمام عليه السلام مع علماء البلاط

في تنمّة بحثنا حول القضايا المرتبطة بسيرة الإمام السّجّاد عليه السلام وأساليبه وخططه لإيجاد الأرضيّة المساعدة للحركة الإسلاميّة العظيمة، الّتي يُمكن أن تنتهي بإقامة الحكومة العلويّة والحكومة الإسلاميّة:

ذكرنا ما ملخصه أنّ هذه التحركات كانت تتّجه إلى التّبيين والتّوضيح بالنّسبة للبعض وإلى التشكيلات والتنظيم بالنسبة لبعضهم الآخر، وإلى الهداية والإرشاد بالنسبة لآخرين. وهكذا يُتخيّل الإمام السّجّاد، من خلال هذه الصّورة الّتي قدّمناها، إنساناً صبوراً سعى خلال ٣٠ أو ٣٥ سنة متواصلة إلى جعل تلك الأرضيّة غير المساعدة بتأثّر في العالم الإسلاميّ، تتّجه نحو الظروف الّتي يُمكن له عليه السلام أو خلفائه أن يُحقّقوا من خلالها المجتمع الإسلاميّ، والحكومة الإسلاميّة.

ولو اقتطعنا تلك السّنات الخمس والثلاثين لسعي الإمام السّجّاد عليه السلام من حياة الأئمة، لجزمنا بعدم وصول الأمر إلى الإمام الصادق عليه السلام بتلك الحال الّتي تمكّن معها من التصرّف والتّعاطي الصّريح والواضح مع الحكم الأمويّ، والعباسيّ فيما بعد.



وعليه، فلأجل إقامة وتحقيق المجتمع الإسلامي، لا بدّ من الأرضيّة الفكرية والذهنيّة. وهذا ما يُعتبر أهمّ من أيّ شيء آخر. وقد تطلّب إيجاد هذه الأرضيّة الفكرية والذهنية في تلك الظروف التي كانت موجودة في ذلك العصر من العالم الإسلاميّ، سنواتٍ مديدة. ذلك العمل الذي نهض به الإمام السّجاد عليه السلام متحمّلاً أعباءه الجسيمة وتكاليفه الباهظة.

إلى جانب هذا، نجد في حياة الإمام السّجاد عليه السلام بعض المساعي الأخرى التي تدلّ في الواقع على مدى تقدّم الإمام عليه السلام في المجال المذكور. والقسم الأعظم من هذه المساعي، سياسيّ، وأحياناً شديد القساوة، وأحد نماذجها التي نستطيع أن نجدّها هو مواجهة الإمام السّجاد للعلماء التّابعين والمحدّثين الكبار العاملين لدى الجهاز الحاكم. هذا بحثٌ في مجال هذا التعامل. وأحد أكثر الأبحاث إثارةً في حياة الأئمّة عليهم السلام هو بحث مواجهة هؤلاء العظام لحملة الفكر والثقافة في المجتمع الإسلاميّ، أي العلماء^{١٧٧} والشعراء. فقد كان الأئمّة عليهم السلام يتحمّلون مسؤولية هداية النّاس في أفكارهم وأذهانهم، وأولئك كانوا يوجهون النّاس إلى الوضع الذي يريده خلفاء بني أميّة وبني العبّاس، ليكون حاكماً على المجتمع ويجعل النّاس مطيعين ومستسلمين.

كما نعلم، لقد كان الحكّام الظّالمين والجائرين يرون أنّ جذب قلوب النّاس إليهم هو أهمّ عامل في بقاء ملكهم وسلطانهم. فالفاصل الزمنيّ بين النّاس وبين صدر الإسلام لم يكن كبيراً، لذا فإنّ إيمان النّاس

^{١٧٧} كان كعب الأحبار يهودياً أسلم في عهد الخليفة الثّاني. ويوجد شكوك كثيرة في الأحاديث المنسوبة إليه، ليس فقط بين الشّيعّة بل حتّى بين الكثير من أهل السنّة، باعتبار أنّه قد اختلق أحاديث انطلافاً من عدائه للإسلام. ويوجد من أهل السنّة من يقبل به.

بالإسلام كان ما يزال قويًا. فلو أدرك النَّاس أنَّ البيعة الَّتِي قَدَّموها للحكَّام ليست صحيحة، وأنَّ هذا الظَّالم لا يجوز أن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّهم لما رضوا بتسليمه قيادتهم بتأتًا، وحتَّى لو قلنا بأنَّ هذا الأمر لا يشمل جميع النَّاس، فعلى الأقلِّ نقول بأنَّ القدر المسلَّم به هو أنَّ الكثيرين في المجتمع كانوا يتحمَّلون الوضع المناهض للإسلام في الجهاز الحاكم نتيجة الإيمان القلبيِّ بمعنى أنَّهم كانوا يتصوِّرون بأنَّ هذا الوضع هو وضعٌ إسلاميٌّ. ولإبقاء هذه الضبايئة في أذهان النَّاس، كان حَكَّام الجور يستغلُّون المحدثين وعلماء الدين قدر الإمكان ويُجرِّكونهم طبقًا لمصالحهم، فيطلبون منهم وضع الأحاديث واختلاقها ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصَّحابة الكبار بما يوافق ميولهم وأهواءهم.

في هذا المجال توجد موارد تقشعرُّ منها الأبدان، ونحن ننقل بعضًا منها كمثال:

في زمن معاوية التقى شخص بكعب الأحبار^{١٧٨}. ولأنَّه كان لكعب روابط حميمة مع معاوية وزعماء الشَّام، سأل كعبُ ذلك الشَّخص: من أين أنت؟

- من أهل الشام.

- لعلَّكَ من ذلك الجيش الَّذي يدخل منه ٧٠ ألف جندي إلى الجَنَّة دون حساب.

- من هم هؤلاء؟

^{١٧٨} كان كعب الأحبار يهوديًا أسلم في عهد الخليفة الثاني. ويوجد شكوك كثيرة في الأحاديث المنسوبة إليه، ليس فقط بين الشيعة بل حتَّى بين الكثير من أهل السنة، باعتبار أنَّه قد اختلق أحاديث انطلاقاً من عداوته للإسلام. ويوجد من أهل السنة من يقبل به.

- إثم أهل دمشق.
- كلا، لست من أهل دمشق.
- إذًا، لعلك من ذلك الجيش الذي ينظر الله إليه كل يوم مرتين!
- من هم هؤلاء؟
- أهل فلسطين!

ولربما لو قال ذلك الشخص: إنني لست من أهل فلسطين، لنقل له كعب الأحبار أحاديث عن كل أهالي بعلبك وطرابلس وبقية مدن الشام تحكي عن أن أهل الشام هم الأفضل، وأنهم أهل الجنة. وكان كعب الأحبار يخلق هذه الأحاديث ويصفها لأمرأ الشام إفا تملقًا، حتى يكون نصيبه أكثر ومنزله في قلوبهم أعلى، وإفا بسبب العدا المتجدر في نفسه للإسلام وحتى يصعب الوصول إلى أقوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ويوجد في كتب التذكرة والرجال والحديث الكثير من أمثال هذه القصص. منها قصة ذلك الأمير الذي أرسل ابنه إلى المدرسة (الكتاب) فضربه المدرس. وعندما رجع الابن باكيًا إلى أبيه وأخبره، غضب الأب وقال: سأذهب وأضع حديثًا على هذه المدرسة حتى لا يكرروا فعلتهم هذه.

ونعلم من هذه القصة كم كان اختلاق الأحاديث عندهم سهلاً، حتى ولو كان بدافع العصبية أو الشفقة على دموع طفل. وعلى أي حال فقد كان لهذا الوضع أثر واضح في إيجاد ذهنية وثقافة منحرفة وبعيدة عن الإسلام. كل ذلك كان بسبب أولئك المحدثين والعلماء العاملين في خدمة السلاطين والأقوياء. وفي مثل هذا الوضع تعتبر مواجهة هؤلاء عملاً في غاية الأهمية.



يوجد هنا نموذج يُبين كيفية مواجهة الإمام السجّاد عليه السلام لهذا الوضع، وذلك في تعامله مع محمّد بن شهاب الزهريّ:

كان محمّد بن شهاب الزهريّ^{١٧٩} في البداية أحد تلامذة الإمام السجّاد عليه السلام المقرّبين، أي أنّه من جملة الذين تعلّموا علومهم ونقلوا الأحاديث عن الإمام عليه السلام، ولكن بالتدريج - بسبب التجرؤ الذي كان فيه - اقترب من نظام الحكم حتّى صار أحد أعوانه وتحوّل إلى واحدٍ من زمرة العلماء والمحدّثين الذين وقف الأئمّة عليهم السلام في قباهم.

ولأجل أن نطلّع أكثر على وضع الزهريّ ننقل عدّة أحاديث بشأنه:

أحد هذه الأحاديث، ما جاء عنه: "كنا نكره كتابة العلم، حتّى أكرهنا عليه السلطان فكرهنا أن نمنعه أحدًا"^{١٨٠}. ويُفهم من هذا الحديث، أنّه حتّى ذلك الزمن، لم يكن متعارفًا بين هذه الطائفة من المحدّثين أنّ كلّ ما يعلمونه من الأحاديث ينبغي أن يكتبوه، وكذلك يتّضح أنّ محمد بن شهاب الزهريّ كان في خدمة الأمراء وأنّه كان يُحمل على كتابة الأحاديث التي تُناسبهم.

كان أحدهم ويدعى معمّرًا يقول: "كنا نظنّ أنّنا قد نقلنا من الزهريّ أحاديث كثيرةً إلى أن قُتل الوليد"^{١٨١}. فعندها رأينا كتبًا كثيرة تُحمل على ظهور الدوابّ وتُخرج من خزائن الوليد ويُقال: هذا علم الزهريّ!^{١٨٢} أي

^{١٧٩} وقد يُدعى بمحمد بن مسلم الزهري أيضًا، فأحياناً يُذكر اسمه تحت عنوان شهاب وأحياناً مسلم، ولعلّ الأول اسم والده والآخر لقبه. (الكاتب)

^{١٨٠} سنن الدارمي، ج ١، ص ١١٠.

^{١٨١} الوليد هو الولد البكر لعبد الملك بن مروان والذي تسلم الخلافة بعده. (الكاتب)

^{١٨٢} "... فإذا بالدفاتر قد حُمِلت على الدواب من خزائنه ويُقال هذا من علم الزهري!" (الكاتب)



أنّ الزهريّ وضع من الأحاديث التي تُناسب الوليد وأهواءه ما عجزت عن حمله الرجال. فما حال تلك الأحاديث؟ ممّا لا شكّ فيه أنّها لا تُدين الوليد وإنّما تؤيّد أعمال الوليد وأمثاله وتُصحّحها.

ويوجد حديث آخر يتعلّق بفترة ارتباط الزهريّ بالنظام الحاكم. فقد روى اليعقوبيّ في تاريخه: "إنّ الزهريّ يُحدّثكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى وإنّ الصخرة التي وضع رسول الله قدمه عليها تقوم مقام الكعبة"^{١٨٣}.

ويعود هذا الحديث إلى ذلك الزمن الذي كان عبد الله بن الزبير حاكمًا فيه على مكّة. وبطبيعة الحال، فإنّه كان لا بدّ للناس الذين يريدون الحجّ أن يدخلوا مكّة. التي كانت تحت نفوذ ابن الزبير. وكانت تلك الأيام فرصة مناسبة له للتبليغ ضدّ أعدائه. وخاصّة عبد الملك بن مروان. ومن جانبٍ آخر بما أنّ عبد الملك كان يُدرك خطورة هذا الأمر، ولكي يمنع الناس من الذهاب إلى مكّة رأى أنّ أفضل الطّرق هو وضع أحاديث تُبيّن أنّ شرف القدس بمنزلة شرف مكّة. ونحن نعلم. في العرف والثّقافة الإسلاميّة. أنّه لا توجد منطقة في العالم توازي الكعبة شرفًا ومكانةً ولا يوجد حجر في الدّنيا يُضاهي الحجر الأسود. فكانت تلك الأحاديث المختلقة وسيلة لعبد الملك لكي يدفع الناس للذهاب إلى فلسطين، لأنّ فلسطين جزءٌ من الشّام وتحت نفوذ عبد الملك. فإلى أيّ مدى كان لهذه الأحاديث تأثيرٌ في نفوس

^{١٨٣} تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦١.



النّاس وأفعالهم؟ وهل حدث في زمن ما أنّ النّاس حجّوا إلى بيت المقدس بدلاً من مكّة أم لا؟ ولو حدث ذلك لكان ينبغي أن نعدّ المجرم الأصليّ أو أحد المجرمين هو محمد بن شهاب الزهريّ الذي حرّف الأمر في أذهان النّاس لأجل مآرب عبد الملك السّياسيّة.

وعندما يُصبح الزهريّ تابعاً لجهاز الخلافة، فلن يمنعه شيء من وضع الأحاديث ضدّ الإمام السّجّاد عليه السلام والتنظيّمات العلويّة - منها ما وجدته في كتاب "أجوبة مسائل جابر الله". تأليف المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين . حيث يدّعي الزهريّ في رواية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان جبريّاً، وينسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال في معنى الإنسان في الآية ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^{١٨٤} أنّه أمير المؤمنين عليه السلام (والعياذ

في رواية أخرى ينقل أنّ حمزة سيّد الشهداء كان شارب خمر. وإتّما جعل هاتين الروايتين لدعم الجبهة السّياسيّة المتسلّطة - لعبد الملك وبني أميّة - مقابل أئمّة الهدى عليهم السلام، وبالتالي لنسف عنرة النّبيّ وسلالته . الذين كانوا يواجهون الأمويين . بعنوان أنّهم مسلمون من الطّراز الأوّل، ويُعرّفهم على أنّهم مثل غيرهم من العوامّ والمقصّرين في تطبيق أحكام الدّين!

بالنسبة للزهريّ وأمثاله، فقد وقف الإمام السّجّاد عليه السلام موقفاً حازماً وقاسياً جدّاً حيث يُلاحظ هذا من خلال الرّسالة الّتي وجهها إليه.

^{١٨٤} سورة الكهف، الآية ٥٤.



بالطبع، قد يتساءل بعض الناس إلى أي مدى يُمكن أن تعكس "الرسالة" هذا الموقف الشديد؟ ولكن بالالتفات إلى شدة اللهجة في مضمون هذه الرسالة الموجهة إلى الزهري، وكذلك بالنسبة للجهاز الحاكم، وأنها لا تنحصر بمحمد بن شهاب، بل كانت تقع في أيدي الآخرين وتنتقل بالتدريج عبر الألسن والأفواه وتبقى عبر التاريخ (كما أننا اليوم وبعد أكثر من ١٣٠٠ سنة نتناولها بالبحث)، بالالتفات إلى كل هذه الأمور، يُمكن أن ندرك حجم الضربة التي وُجّهت إلى القداسة الشيطانية والمصطنعة لمثل أولئك العلماء. لقد كانت الرسالة خطاباً لمحمد بن شهاب، ولكنها نالت من أشخاص آخرين على شاكلته. ومن المعلوم أنّ هذه الرسالة عندما تقع بأيدي المسلمين، وبالأخصّ شيعة ذلك العصر، وتنتقل عبر الأيدي فأَيّ سقوط لهيبة هؤلاء ومكانتهم ستحدثه في الأعين؟! وهنا ننقل مقاطع من هذه الرسالة:

في البداية يقول عليه السلام: **"كفانا الله وإياك من الفتن ورحمك من النار"**^{١٨٥}. في الجزء الثاني من هذه الجملة، يخصّه بالخطاب، لماذا؟ لأنّ كلّ إنسان يتعرّض للفتن، حتّى الإمام السّجّاد عليه السلام ولكن دون أن يسقط فيها. ومحمد بن شهاب يتعرّض للفتنة ولكنّه سقط. أمّا بالنسبة لنار جهنّم فإنّها لا تقترب من الإمام زين العابدين عليه السلام، ولهذا خصّ الكلام هنا بالزهري. وابتداء الرسالة بمثل هذه اللهجة دليل على تعامل الإمام عليه السلام معه بطريقة تحقير ومعاداة. ثمّ يقول عليه السلام: **"فقد"**



أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك". دققوا، لمن الخطاب (موجه) في هذه الجملة؟ إنه موجه لشخص يغبطه الجميع على حاله، فهو أحد العلماء الكبار المقربين من النظام الحاكم، بينما نجد أنّ الإمام عليه السلام يُبينه ضعيفاً ووضيغاً.

بعد ذلك يُشير الإمام عليه السلام إلى النعم التي حباه الله بها والحجج التي أتمّها عليه، ثمّ يقول إنّه مع وجود تلك النعم من الله، هل تستطيع أن تقول كيف قد أدّيت شكرها؟

ويذكر جملة من آيات القرآن ويقول إنّ الله تعالى لن يرضى أبداً عن قصورك وتقصيرك، لأنّه سبحانه قد أمر العلماء بتبيين الحقائق للناس: ﴿لَتَبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^{١٨٦}.

وبعد هذه المقدمة يحمل عليه بطريقة قاسية جداً بقوله عليه السلام: "واعلم، إنّ أدنى ما كتمت، وأخفّ ما احتملت، أن آنست وحشة الظالم، وسهّلت له طريق الغيّ بدنوك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دُعيت". ويظهر هذا الكلام، الذي يطرحه الإمام، بوضوح ارتباطه بجهاز السلطة. "إنّك أخذت ما ليس لك ممّن أعطاك". "ودنوت ممّن لم يردّ على أحدٍ حقاً ولم تردّ باطلاً حين أدناك"، (وهو الخليفة الظالم) فبأيّ عذرٍ تُبرّر عدم إرجاعك الحقوق الضائعة وإزالة المظالم الكثيرة؟ "وأحببت من حادّ الله".

^{١٨٦} سورة آل عمران، الآية ١٨٧.



والجملة المؤثرة جداً في هذه الفقرة عندما يقول عليه السلام: "أوليس بدعائه إيتاك، حين دعاك، جعلوك قطباً أداروا بك رحي مظالمهم، وجسراً يعبرون عليه إلى بلاياهم، وسلماً إلى ضلالتهم داعياً إلى غيهم سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهال إليهم؟". ثم يقول: "فلم يبلغ أخصّ وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلّا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم"^{١٨٧}.

وفي هذه الرسالة الشديدة اللهجة والبلغية يفضح الإمام السجّاد هذا التيار الفكري والعلمي التابع للسلطة والحكم والذي يتحرّك بدعمٍ سياسيٍّ وحكوميٍّ اجتماعيٍّ. فأولئك الذين قبلوا مهادنة النظام، أصبحوا مطالبين بالإجابة عن السؤال الذي بقي في المجتمع الإسلامي في ذلك الزمان وسوف يبقى عبر التاريخ.

إنني أعتبر هذه إحدى المقاطع المهمة من حياة الإمام السجّاد عليه السلام، وأشعر بأنّه عليه السلام لم يكتفِ بتحرّك علميٍّ وتربويٍّ محدود بين جماعة خاصّة، بل قام بحركة سياسيّة.

(مجلة باسدار اسلام، ١١)

كان هذا مختصراً لحياة الإمام السجّاد عليه السلام. وهنا بالطبع أُشير إلى هذه النقطة أيضاً: رغم أنّ مرحلة إمامة الإمام السجّاد عليه السلام، التي امتدّت إلى أكثر من ٣٤ سنة، كانت بعيدة عن المواجهة المباشرة للنظام الحاكم، إلّا أنّ نشر بساط الإمامة الواسع وتعليم وتربية العديد

^{١٨٧} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٣٢.

من الأفراد المؤمنين والمخلصين ونشر دعوة أهل البيت عليهم السلام كان من أعظم إنجازاته. وهذا ما جعل بني أمية يمتقنون الإمام ويتعرضون له. وكانوا من قبل قد جرّوه بالأصفاة والأغلال من المدينة إلى الشام - ولم يحدث هذا في كربلاء فقط وإنما تكرّر في زمنٍ آخر أيضًا - وقد تعرّضوا له في موارد عديدة، وأذاه أعوانهم حتّى وصل بهم الأمر، سنة ٩٥ للهجرة في زمن الوليد بن عبد الملك، إلى تسميمه فارتفع إلى جوار ربّه شهيداً.

(مجلة باسدار اسلام، ١٢)





أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة
www.islamicooa.com/ims
+989217854824

الفصل التاسع: الإمام الباقر عليه السلام ٣٠٩

- مرحلة البناء الفكري والتنظيمي
- إحصار الإمام الباقر عليه السلام إلى الشَّام



أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة
www.islamicoa.com/ims
+989217854824

مرحلة البناء الفكري والتنظيمي

المواجهة الفكرية والثقافية

إنّ مرحلة حياة الإمام الخامس، الإمام الباقر عليه السلام، هي استمرارٌ منطقيّ لحياة الإمام السجّاد عليه السلام. فيها هم الشيعة مرّة أخرى يُصبحون جماعةً ويشعرون بوجودهم وشخصيّتهم. إنّ الدعوة الشيعيّة التي توقّفت لعدّة سنوات على أثر حادثة كربلاء والأحداث الدموية التي تلتها - كواقعة الحرة وثورة التّوابين - وبسبب بطش الأمويين، لم تكن تظهر نفسها إلّا تحت الأستار السّميكة، ها هي اليوم في العديد من الأقطار الإسلاميّة، خاصّة في العراق والحجاز وخراسان، تتجدّر وتستقطب شرائح كبيرة حتّى أنّها في الدوائر المحدودة أضحت رابطةً فكريّة وعمليةً يُمكن التعبير عنها بالتشكيلات الحزبيّة. وولّت تلك الأيّام التي قال عنها الإمام السجّاد عليه السلام إنّ أتباعه ما كانوا يزدون فيها على عشرين شخصًا في كلّ الحجاز^{١٨٨}. وأضحى الإمام

^{١٨٨} شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص ١٠٤، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٤٣.



الباقر عليه السلام يدخل مسجد النبي في المدينة فيلتفت حوله جمع غفير من أهل خراسان وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي، يسألونه عن القضايا الفقهية، ويفد عليه أمثال طاووس اليماني، وقتادة بن دعامة، وأبو حنيفة، وآخرون من المشهورين بالمعارف الدينية. وبالطبع، ممن يُعتبرون خارج التوجه الإمامي والشيعة. وقد سمعوا صدى علم الإمام الذائع وأقبلوا عليه للتعلّم أو للاحتجاج والمجادلة. وبرز شاعر كالكُميت الأسديّ بذلك اللسان الفصيح والفرنّ العابق، ليترك أهم آثاره الفنية وهي القصائد التي عُرفت بالهاشميات وأضحت تنتقل من يدٍ إلى يد ومن لسانٍ إلى لسان، لتُعرف الناس على حقّ آل محمّد وفضل علمهم ومقاماتهم المعنوية. من جهةٍ أخرى، فإنّ خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوعٍ من الطمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان - تويّ سنة ٨٦ هـ - خلال فترة حكمه، التي استمرّت عشرين عامًا، أن يجمع كلّ المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان إلى أنّ الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الذين كدحوا من أجلها ممّا أدّى إلى انشغالهم باللهو والملذات التي تُصاحب الشعور بالافتقار والجاه والجلال. مهما يكن الأمر، فإنّ حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلّت في هذا العصر، وأصبح الإمام عليه السلام وأتباعه في مأمن تقريبًا من مطاردة الجهاز الحاكم.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٣٢ - ٣٣)



كان من الطَّبيعي أن يقطع الإمام عليه السلام خطوة رحبة في ظلّ هذه الظروف على تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيع نحو مرحلة جديدة. وهذا ما يُميّز حياة الإمام الباقر عليه السلام.

لقد قيل الكثير بشأن الإمام الباقر عليه الصلاة والسلام، غاية الأمر أنّي سأكتفي بنقطتين من حياته. إحداهما، عبارة عن مواجهته لتحريف المعارف الإسلامية والأحكام، هذا الشيء الذي حدث في عصر الإمام الباقر عليه السلام بصورةٍ أوسع وأكثر تفصيلاً من أيّ زمانٍ آخر، فماذا تعني مواجهة التحريف؟ المقصود من مواجهة التحريف هو أنّ دين الإسلام المقدّس، بالمعارف والأحكام التي لديه، وبآيات القرآن التي حدّدت للمجتمع الإسلامي، بل لكلّ عالم الإنسان والبشريّة، خصائص وشروط، بحيث لو عرفها الناس وتمسّكوا بها لما أمكنهم تحمّل بعض الأشياء الموجودة في مجتمعٍ معروف بالمجتمع الإسلامي. فلا يُمكنهم تحمّل حكومة الظالمين مثلاً، أو حكومة الفسّاق والفسّاج، أو حكومة الجاهلين. كما لا يُمكنهم حتّى تحمّل التمييز والتقسيم غير العادل للثروة في المجتمع، والكثير من هذه المفاسد الموجودة في المجتمعات الإسلامية والتي لا يُمكن أن تنسجم مع الأحكام الإسلامية والنظام الإسلامي.

بعض السلاطين والحكّام الذين أمسكوا بزمام السّلطة تحت عنوان خلافة النبيّ - كبنّي أميّة وآل مروان - هؤلاء لم يكونوا لائقين بأيّ شكل لكي يحكموا المجتمع الإسلامي، ولقد أوجدوا في عهد حكومتهم كلّ أنواع الفسق والظلم والفساد والتمييز والجهل، وباختصار الانحرافات المختلفة. فلو كان من المقرّر تبيان الأحكام الإسلامية والآيات القرآنية كما هي



للناس، لما كان ممكناً لهؤلاء أن يستمرّوا في الحكم والإمساك بالسلطة، لهذا قاموا بعملية التحريف، وقد فعلوا ذلك من عدّة طرق. أحدها، هو أن يخذعوا بعض الفقهاء والحكماء والمحدثين والقراء والوجهاء وأمثالهم ويجعلوهم إلى جانبهم، يعطوهم المال أو يُخَوّفوهم. فحملوا البعض طمعاً أو خوفاً لترويج ما يخلو لهم بين الناس. لهذا، لو نظرتم إلى تاريخ القرنين الأولين للإسلام، لرأيتم مشهداً عجيباً، لرأيتم من الشخصيات المعروفة بالقداسة والتقوى والعلم الكثير ممّن صاروا في خدمة الحكّام وأمراء الجور، ممّن كانوا يفتنون الناس بأحكام عجيبة وغريبة تحت عنوان الإسلام. انظروا الآن من باب النموذج، أيّ حكمٍ هذا الذي ينطق به عالمٌ بهذا الشكل، حيث يعتبر أنّ أولي الأمر، الذين أمرنا الله تعالى والقرآن بطاعتهم، هم أيّ شخص يتسلّط على الناس بأيّ وسيلة، حتّى ولو كان ذلك بالمركر والحيلة والسيف والقهر والقتل، فإنّه يستطيع أن يحكم الناس. لقد أصبح هذا هو معنى "أولي الأمر".

إنّ هذا الفهم بعيدٌ عن العقل، وغير صحيح، بحيث لو لم يتمّ ربطه بالإسلام وبأصل اعتقاديّ وإيمانيّ عند الناس لما قبل به أحد. لكنّ هؤلاء جاؤوا وربطوه بالإسلام وذكروا الكثير من هذه الأمور التي نجد منها الكثير في تاريخ القرنين الأولين للإسلام. ولقد كان هؤلاء الحكّام يصحبون هذه الشخصيات اللامعة أينما ذهبوا في مكّة والمدينة ويعرضوهم على الناس في الاجتماعات العامة ويجعلوهم وسيلة لتأييدهم... لقد كان هذا من طرق تحريف الدين. لقد كان أمثال هؤلاء المتظاهرين بالعلم والفقاهة والقداسة والزهد في خدمة الحكّام الذين كانوا يُقدّمون كلّ ما يخلو لهم



أن يعتقد به الناس تحت عنوان الدين. وبعض هذه الأمور ما زالت موجودة في الكتب اليوم، وللأسف إن الكثير من المسلمين ما زالوا يعتقدون بهذه الأشياء.

كانت هذه أحد طرق التحريف، حيث إنَّ الحُكَّام أنفسهم عندما كانوا يجلسون على مسند السُّلطة، وكانوا يشعرون بأنَّه يجب على الناس أن يقبلوا بكلِّ ما يقولونه، فأَيُّ كلمةٍ أو فكرةٍ أو مَبْنًى كانوا يعرضونه تحت عنوان الإسلام، كانوا يُحوِّلونه إلى ثقافةٍ رائجةٍ وينشرونه على مستوى العالم الإسلامي، لِيُنشَر ويَتكرَّر ويُنقل من لسانٍ إلى لسانٍ حتَّى يُشكِّل الذهنية العامة. مثلما كان بعض زعماء جهاز عبد الملك، كالحجَّاج وأمثاله يعتقدون، أو هكذا يظهرون، بأنَّ الخلافة أرفع من النبوة، فهؤلاء لم يكونوا قانعين بأن يكون عبد الملك بن مروان وأولاده وأولئك الفسقة والفجرة خلفاء للنبي - حيث إنَّ هذه العمامة كانت أوسع بكثير من رؤوسهم، وذاك اللباس لم يكن ملائماً لقاماتهم - وأن يكونوا غاصبيين لهذا العنوان، لكنَّهم لم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يدَّعوا أنَّ الخلافة أفضل من النبوة... لقد وقعت تلك التحريفات في الدين، وقد كان العامل الأساس لاستمرار سلطة بني أمية وبني العباس والمانع الأساس لحكومة الإسلام الحقَّة هو تلك الثقافة الخاطئة التي سيطرت على أذهان الناس.

ها هنا يريد الأئمة عليهم السلام أن يُقيموا الحكومة الإسلامية الصحيحة وأن يُبَنِّتوا النَّظام العلويَّ، فماذا يفعلون؟ إنَّ أوَّل خطوة هي تبديل الذهنية العامة للناس، وأن ينتزعوا تلك الثقافة التي يُصطلح عليها

بأنّها إسلامية ضدّ الإسلام والتي كانت قد رسخت في أذهان النَّاس، ويضعوا مكانها ثقافةً صحيحةً وقرآنًا حقيقيًا وتوحيدًا واقعيًا، هذه هي المواجهة الثقافية. فالمواجهة الثقافية لا تعني فقط الجلوس وبيان بعض الأشياء من أحكام الإسلام، من دون توجّه ومن دون مسارٍ ثوريٍّ وجهاديٍّ، فهذه ليست مواجهة، بل المواجهة الثقافية تعني السعي لتبديل الذهنيّة العامّة والثّقافة الحاكمة على عقول النَّاس، من أجل أن يتمّ تعبيد الطّريق بأنّجاه الحكومة الإلهيّة، وقطع الطّريق على حكومة الطّاغوت والشّيطان. لقد بدأ الإمام الباقر عليه السلام هذا العمل. هذا هو باقر علم الأوّلين، فهو باقر وفتح الحقائق القرآنية، فهو من يقرر ويشقّ طرائق الحقائق القرآنية والعلوم الإسلاميّة. وكان يُبيّن القرآن للنّاس. لهذا، كان كلّ من يحتكّ بنفس الإمام الباقر عليه الصّلاة والسّلام، ولم يكن تابعًا ولا خاضعًا ولا مشاركا لمعلفهم، كان حتّى يُبدّل رأيه بشأن وضع حاكميّة الزّمان. لهذا، نجد أنّ الكثير من النّاس ممّن هم من الطّبقة الوسطى، في زمن الإمام الباقر عليه السّلام، كانوا يُقبلون على مدرسة أهل البيت ومذهب الإمامة، وما هو رائجٌ في عرف اليوم تحت عنوان التشيع. التشيع هو هذا، أي اتّباع مدرسة أهل البيت من أجل إقامة السّيادة الحقيقيّة للإسلام، والإعلاء الحقيقيّ لكلمة القرآن، وتوضيح وتثبيت المعارف القرآنية بين النّاس. وكلّ من كان الإمام الباقر عليه السّلام يتّصل به ويبيّن له المسائل كان يُبدّل تفكيره. لقد كان هذا هو العمل الأوّل للإمام الباقر عليه السّلام الذي يُعدّ عملاً مهمًّا جدًّا وأساسًا وهو أهمّ ما قام به عليه السّلام.



بناء التشكيلات السريّة

العمل الآخر في حياة هذا الإمام، كان عبارة عن تنظيم التشكيلات، فماذا يعني هذا؟ أي أنّ المرء يقوم بنشر تلك المعارف وذلك التغيير الثقافي والمواجهة الثقافية داخل المجتمع كبذر ينشره الإنسان في الأرض هنا وهناك. حسنٌ، فإنّ بعض هذا البذر سيُنبت وبعضه سيموت، وبعض ما ينبت سيُداس عليه ويزول، ولعلّ بعضه لن يُثمر كثيرًا، هذا هو حال البذر. وبعض الأحيان، كلا، فذلك المزارع الماهر الخبير والعاقل، بالإضافة إلى أنّه يبذر الحبوب، فإنّه يُحافظ عليها، فكيف يفعل ذلك؟ من خلال تجهيز أشخاصٍ وبثّهم في أرجاء العالم الإسلاميّ من أجل القضاء على الشبهات التي وقع فيها أولئك الذين تأثّروا بذلك الإعلام والتّعاليم، فيحصلون على المزيد من المعرفة ولا يقعون تحت تأثير إلقاءات العدو، فلا يُشتبه عليهم الأمر ويُحافظون على روابطهم فيما بينهم، فيكون ذلك ضماناً كافيةً لأجل أن ينمو ذلك الحبّ سالمًا في أرضٍ مستعدّة وخصبة.

وقد كان هذا الأمر من أعمال الإمام الباقر عليه السلام، حيث كان يُربّي أشخاصًا ويُعدّهم ويخصّهم بالناية . التلامذة الخواص . ثم يربطهم ببعضهم، ويبتّهم في أرجاء العالم الإسلاميّ كأقطابٍ وأركانٍ ووكلاء ونوّاب ليتابعوا ما قام به، ويتحمّلوا أعباء التّبليغ والتّعليم الذي قام به. وهذا التّنظيم السريّ للإمام الباقر عليه السلام، كان قد بدأ قبل عصره لكنّه تفاقم وازداد في زمانه، وبالطّبع، فقد وصل في زمن الإمام الصادق والإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى أوجه، لقد كان هذا عملاً آخرًا وهو شديد الخطورة.



لهذا ترون في الروايات كيف أنّ بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، يُعرفون بأصحاب السرّ، كجابر بن يزيد الجعفيّ، فجابر الجعفيّ كان من أصحاب السرّ، فماذا يعني ذلك؟ إنّه من أولئك الذين كانوا يتواجدون في أرجاء العالم الإسلامي وفي كلّ الأماكن ممّن يتحمّلون مسؤولية هداية المستعدّين والمحجّبين والأخذ بأيديهم وإشباع أذهانهم. وكان الجهاز الحاكم أينما وجد هؤلاء يُعرضهم لكلّ أشكال الضّغط والقمع.

(١٩٨٧/٠٧/٣١)

بمطالعة مختصرة يُمكن تلخيص كلّ مرحلة إمامة الإمام الباقر، التي امتدّت إلى تسعة عشرة سنة من عام ٩٥ للهجرة وإلى عام ١١٤، على الشّكل التّالي: لقد اختاره^{١٨٩} أبوه الإمام السّجّاد عليه السلام في آخر لحظات عمره، كيأمر الشّيعيّة وخليفته له، وقد سجّل هذا التنصيب في محضر سائر أبنائه وأقاربه. وأراه صندوقًا بحسب الروايات مليئًا بالعلم^{١٩٠} أو حاويًا لسلاح رسول الله وقال: "يا محمّد احمل هذا الصندوق إلى بيتك"، ثمّ يتوجّه بالخطاب إلى الآخرين: "لا يوجد في هذا الصندوق من الدرهم والدينار شيء، بل هو مليءٌ بالعلم"^{١٩١}، وكأنّه بهذا الموقف، ويمثّل هذا التعبير، عزّف الحاضرين على إرث القيادة العلميّة والفكريّة - العلم - والقيادة الثوريّة. سلاح النّبّيّ.

^{١٨٩} الاختيار هنا بمعنى إيصائه بالتصدّي لمهام الإمامة، وتأكيد الحجّية على الناس، لأنّ تنصيب الإمام اختيار إلهي واقعي.

^{١٩٠} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٢٩.

^{١٩١} م. ن.



من اللحظات الأولى، اتخذ السَّعي الواسع والشَّامل للإمام وأتباعه المخلصين مطلقاً جديداً في إشاعة دعوة التشييع المهادنة والبنويّة. إنّ اتّساع نطاق هذه الدّعوة كان، بالإضافة إلى المناطق التي يسكنها الشيعة - كالمدينة والكوفة - يشمل مناطق جديدة وخصوصاً تلك القطاعات من الدّولة الإسلاميّة التي كانت بعيدة عن مركز حكومة بني أميّة، لئضاف بذلك إلى نطاق طراز الفكر الشّيعي، ويُمكن ذكر خراسان في هذا المجال أكثر من غيرها، حيث تُشاهد في الروايات العديدة نفوذ التبليغ والدّعوة الشيعيّة في أهل تلك المناطق^{١٩٢}.

إنّ ما يدفع الإمام وأتباعه نحو هذه الحركة التي لا تعرف السّكون، في كلّ هذا السّعي المجهد ويدعوهم للقيام بهذا التّكليف الإلهي هو الواقع الاجتماعيّ والذهنيّ المؤسف. فهم كانوا من جهة يشاهدون أمام أعينهم كيف أنّ النّاس، واثراً للتّربية المضلّة والمخرّبة، كانوا يزدادون سقوطاً وغرقاً في التّيّار العام الفاسد للمجتمع يوماً بعد يوم، ووصل الأمر شيئاً فشيئاً إلى حيث أنّ عامّة النّاس لم يعودوا يستمعون إلى الدّعوة المنجية للإمامة، كحال الرّعماء والمسؤولين. "إنّ دعوناهم لم يستجيبوا لنا"^{١٩٣}. ومن جانبٍ آخر لم يعد هناك في هذا التّيّار الانحرافيّ، الذي أصبح كلّ شيء فيه، حتّى الدّرس والبحث والفقه والكلام والحديث والتفسير، من أجل تلبية أمنيّ ورغبات الطواغيت الأمويين، أيّ طاقة أمل مفتوحة

^{١٩٢} ومنها رواية أبي حمزة الثمالي: "حتى أقبل أبو جعفر عليه السلام وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج" (العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٣٧)، وينقل رواية تذكر ما جرى بين أحد علماء خراسان مع عمر بن عبد العزيز وفيها عبرة بالغة. (الكاتب)
^{١٩٣} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٨.

عليهم، ولو لم ينهض التشييع لأجل دعوتهم وهدايتهم لأغلق عليهم طريق الهداية كلياً، "وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا" ١٩٤.

على أساس الإدراك العميق لهذا الواقع الاجتماعي السيئ، يعلن الإمام موقفه العدائي تجاه القوى الفكرية والثقافية، أي الشعراء والعلماء الذين باعوا أنفسهم - الذين هم مختلقو الأجواء غير السليمة على صعيد فكر المجتمع - وبإنزاله أسواط توبيخه على رؤوس هؤلاء، أحدث أمواجاً من التنبيه واليقظة، إن لم يكن على مستوى وجدانهم الميّت، ففي أذهان وقلوب أتباعهم الغافلين. وبلهجته المعترضة على كثير الشعاع يقول: أمدحت عبد الملك؟! فيجيب بسذاجة أو غفلة وهو بصدد تبرير معصيته، قائلاً: لم أحاطبه بإمام الهدى، بل مدحته بكلمات الأسد والشمس والبحر والأفاعي والجمال، والأسد كلب، والشمس جسم جامد، والبحر جسم بلا روح، والأفاعي حشرات، والجبل صخرة صماء. وهنا يتبسّم الإمام أمام هذا العذر والتبرير غير الوجيه، بطريقة ذات مغزى، وهنا ينهض الكميّ - الشاعر الثوري والمهادف - ويُنشئ واحدة من قصائده الهاشمية ١٩٥ ليضع في أذهان الحاضرين معنى المقارنة بين هذين النوعين من العمل الفني، ويوصل ذلك إلى كلّ الذين سمعوا بهذه الواقعة ١٩٦.

١٩٤ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٥٣.

١٩٥ القصيدة التي بدأت بهذا البيت الشعري:

من لقلب متيم مُستهام غير ما صبوة ولا أحلام

ووصلت إلى هذا البيت البليغ والقاصم والمليء بالمعرفة: ساسة لا كمن يرى الناس سواء ورعية الأنعام (الكاتب)



عكرمة، التلميذ المعروف لابن عباس والذي كان يتمتع بشأئية ومقام عظيم بين الناس، يذهب لرؤية الإمام عليه السلام ويقع تحت تأثير وقاره ومعنوياته وشخصيته الروحية والعلمية، بحيث يرمي نفسه بدون إرادة بين يدي الإمام عليه السلام ويقول بذهول: لقد جالست عظماء كابن عباس، ولم يحدث أن جرى ما جرى معي الآن بين أيديهم. فقال الإمام في جوابه: "ويلك يا عبيد أهل الشام إنك بين يدي بيوتِ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه" ١٩٧.

وكان الإمام عليه السلام يستغل كل فرصة مناسبة لتحريك مشاعر الناس الغافلين وعواطفهم من خلال بيان زاوية من الوقائع المرة لحياة الشيعة، وذكر الضغوط وأنواع العنف والتشديد التي كانت تُمارس على الإمام وأتباعه من قبل القوى المهيمنة، وبذلك كان يهز عروقهم الميتة والراكدة، ويزلزل قلوبهم الفاترة أي إنه كان يُعدهم لتلك المواقف المتشددة والتحركات الثورية.

وقد أجاب رجلاً، سأله ذات يوم كيف أصبحت يا ابن رسول الله، يروي المنهال بن عمرو تلك الرواية فيقول: "كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر عليهما السلام إذ جاءه رجل فسلم عليه فردّ عليه السلام، قال الرجل: كيف أنتم؟ فقال له محمد عليه السلام: أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن، إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني إسرائيل، كان يُذبح أبناءهم وتُستحيى نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا" ١٩٨.

١٩٧ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٥٨.
١٩٨ م.ن، ج ٤٦، ص ٣٦٠.



(وبعد هذا البيان البليغ والمحرك يجزّ الكلام إلى القضية الأساس - أي أولوية الدّعوة الشيعيّة وحكومة أهل البيت عليهم السلام).

"زعمت العرب أنّ لهم فضلاً على العجم، فقالت العجم: وبماذا؟ قالوا: كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم عربياً. قالوا لهم: صدقتم، وزعمت قريش أنّ لها فضلاً على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم قرشياً. قالوا لهم: صدقتم؟ فإن كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس، لأنّا ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته خاصة وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرنا فقال له الرجل: والله إنّني لأحبكم أهل البيت عليهم السلام. قال: فاتخذ للبلاء جلباباً، فوالله إنّّه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدأ البلاء ثمّ بكم، وبنا يبدأ الرّخاء ثمّ بكم" ^{١٩٩}.

وعلى نطاقٍ أضيق وأكثر وثاقه، تمتعت علاقة الإمام بشيعته بخصائص أخرى. ففي هذه العلاقات تُشاهد الإمام وكعقلٍ مفكّرٍ في جسمٍ حيٍّ فيما يرتبط بالأعضاء والجوارح، وكقلبٍ نابضٍ في عمل تغذية الأجهزة والأعضاء.

إنّ التّماذج الموجودة بين أيدينا بشأن علاقات الإمام عليه السلام مع هذه المجموعة تُشير من ناحيةٍ إلى الصّراحة في مجال التّعاليم الفكرية، ومن جهةٍ أخرى تُشير إلى الروابط والتشكيلات المدروسة بين هؤلاء والإمام.

ونجد التّفضيل بن يسار ^{٢٠٠}، الذي هو من أقرب أصحاب الإمام وأصحاب

^{١٩٩} الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ١٥٤.
^{٢٠٠} راجع تفصيل مدح الإمام لفضيل في قاموس الرجال، ج ٩٧، ص ٣٤٥-٣٤٣ (الكتاب).

سرّه، يُرافقه في مراسم الحج، فينظر الإمام إلى الحجاج وهم يطوفون حول الكعبة، ويقول: هكذا كانوا يطوفون في الجاهليّة! إنّما أمروا أن يطوفوا بها، ثمّ ينفروا إلينا ويعلنون لنا ولاءهم ومحبتهم، ويعرضون علينا نصرتهم! ثم قرأ هذه الآية ﴿فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^{٢٠١}. أي لم يقل: إليها! ويوصي جابر الجعفيّ في أوّل لقاء له مع الإمام عليه السلام أن لا يُخبر أحداً أنّه من الكوفة بل أن يتظاهر أنّه من أهل المدينة. وبهذه الطّريقة يُعلّم الإمام عليه السلام مثل هذا التلميذ الحديث -الذي ربّما لديه قابليّات عالية لتحمل أسرار الإمام عليه السلام والتشيع، التي كانت قد ظهرت عليه من البداية - دروس كتمان السرّ، وهذا التلميذ المستعدّ نفسه والذي أصبح يُعرف فيما بعد بعنوان صاحب سرّ الإمام عليه السلام، يصل به الأمر إلى أن يكون داخل جهاز الخلافة.

يقول النعمان بن بشير: "كُنْتُ ملازماً لجابر بن يزيد الجعفيّ. فلَمّا أن كُنّا بالمدينة، دخل على أبي جعفر - الإمام الباقر عليه السلام - فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حيث وردنا الأخيرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فضلّينا الزوال فلَمّا نهض بنا البعير إذا أنا برجل طويل آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقَبّله ووضع على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي (الباقر) إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. فقال: ففكّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتّى

^{٢٠١} سورة إبراهيم، ص ٣٧.



أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكاً ولا مسروراً، حتى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلما وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفيّ إعظاماً له، فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير مأمور، وأبياتاً على هذا النحو، فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً ولم أقل له شيئاً، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والنّاس، وجاء حتى دخل الرّحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، والنّاس يقولون: جُنّ جابر بن يزيد. فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إليّ وإليه أن انظر رجلاً يُقال له: جابر بن يزيد الجعفيّ، فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفيّ؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث، وحجّ فجنّ وهو ذا في الرّحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه، فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب. فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله^{٢٠٢}.

هذا أنموذج من كيفية تعامل الإمام وارتباطه مع أصحابه المقربين وشاهد على وجود العلفة والرابطة المحسوبة بدقّة والتشكيلات، كما أنّه نموذج حول موقف الحكومة تجاه هؤلاء الأصحاب. من الواضح أنّ أيادي الحكومة. والتي لا تُفكر بأكثر من الحفاظ على نفسها وسلطتها، وترسيخ

^{٢٠٢} قاموس الرجال، ج ٢، ص ٣٢٩-٣٣٠، وبحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢٨٢-٢٨٣ (الكاتب).

موقعيتها . لا تبقى في غفلة مطبقة عن علاقات الإمام عليه السلام مع أصحابه المقربين وأنشطتهم، ولا شك بأنهم سيستمون رائحة مثل هذا الموضوع وسيسعون لكشفه ومواجهته^{٢٠٣}. وبالتدرج يبرز نهج الاعتراض في حياة هذا الإمام عليه السلام وكذلك في الجوّ الشيعي العام، ويُبشّر ببداية فصلٍ جديد في تاريخ حياة أئمة الشيعة.

هذا وإن لم يكن في متون التواريخ الإسلامية وكذلك في كتب الأحاديث وغيرها، حديثٌ صريحٌ عن أنشطة الإمام الباقر عليه السلام الاعتراضية والحادة نسيئاً - وبالطبع إنّ هذا نفسه ناشئٌ من أسبابٍ وعوامل عدّة، أهمّها القمع المسيطر على الأجواء وضرورة التقية من قِبَل أصحاب الإمام عليه السلام الذين كانوا المراجعين المطلقين على مجريات الحياة السياسية للإمام عليه السلام . ولكن يُمكن دومًا اكتشاف عمق أداء أيّ إنسان من خلال ردود الفعل المحسوبة بدقّة من قبل أعدائه المتيقّظين. فإنّ مواجهة جهازٍ مقتدرٍ ومدبّرٍ، كجهاز هشام بن عبد الملك، الذي عدّه المؤرّخ أكثر الخلفاء الأمويّين اقتدارًا، للإمام الباقر عليه السلام أو لأيّ

^{٢٠٣} والذي يؤيّد هذه الحقيقة بالصرامة، غير حادثة جابر والحوادث الأخرى المشابهة لتلك الرواية، أن عبد الله بن معاوية الجعفري ينقل أيضاً رسالة تهديد حاكم المدينة للإمام الباقر عليه السلام، "روي عن عبد الله بن معاوية الجعفري قال: سأحدّثكم بما سمعته أناني ورائته عينايا من أبي جعفر عليه السلام أنه كان على المدينة رجل من آل مروان وإنه أرسل إليّ يوماً فأتيتّه وما عنده أحد من الناس، فقال: يا معاوية إنّما دعوتك لثقتي بك، وإنّي قد علمت أنه لا يبلغ عني غيرك، فأجبت (فأحببت) أن تلقى عميك محمد بن علي وزيد بن الحسن عليهما السلام ونقول لهما: يقول لكما الأمير لتكفان عما يبلغني عنكما، أو لتنكران، فخرجت متوجّهاً إلى أبي جعفر فاستقبلته متوجّهاً إلى المسجد فلما دنوت منه تبسم ضاحكاً فقال: بعث إليك هذا الطاغية ودعاك وقال: الق عميك وقل لهما كذا؟ قال: فأخبرني أبو جعفر بمقالته كأنه كان حاضراً ثم قال: يا ابن عم قد كفينا أمره بعد غد، فإنه معزول ومنفي إلى بلاد مصر والله ما أنا بساحر ولا كاهن، ولكني أتيت وحدثت، قال: فوالله ما أتى عليه اليوم الثاني حتى ورد عليه عزله ونفيه إلى مصر وولى المدينة غيره". الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٥٥٩.

شخص آخر بذلك الوجه العنيف، هو لا شك ناشئ من رؤيته تهديدًا لنفسه في أدائه وعمله، وعدم قدرته على تحمّل وجوده. فلا شك أنّه لو كان الإمام الباقر عليه السلام مشغولًا بالحياة العلميّة فحسب، دون البناء الفكريّ والتنظيميّ، لما كان الخليفة ورؤوس نظام الخليفة ليروا أنه من مصلحتهم ونفعهم أن يتصرّفوا بشدّة وعنف، أولًا، لأنّهم بذلك سوف يستفزون الإمام عليه السلام لمواجهتهم بشدّة - لأنّهم كانوا قد شاهدوا أتمّوزًا لهذه التجربة، في زمن قريب، منها قيام حسين بن عليّ "شهيد الفخ" ٢٠٤، وثانيًا، فإنّ مجموعة أنصار الإمام والمعتقدين به . الذين لم يكن عددهم قليلًا . كانوا سيغضبون ويسخطون على جهازهم الحاكم. خلاصة الحديث، يمكن الاستنباط من ردّ فعل نظام الخلافة الحادّ نسبيًا في أواخر عمر الإمام الباقر، شدّة عمل الإمام عليه السلام وحدّته.

٢٠٤ حسين بن علي - حسين الفخ - ابن علي بن الحسين بن الحسن بن الحسن بن علي، وأمه زينب بنت عبد الله بن الحسن الذي خرج في زمن موسى الهادي حفيد المنصور، وفتح اسم بئر يبعد فرسخًا عن مكة.



إحضار الإمام الباقر عليه السلام إلى الشّام

من الحوادث المهمّة في أواخر حياة الإمام وأكثرها شهرةً حادثة إحضاره إلى الشّام، الّتي كانت عاصمة الحكم الأمويّ. فالأجل معرفة موقف الإمام تجاه جهاز الخلافة، أمر الخليفة الأمويّ باعتقال الإمام الباقر - وطبق بعض الروايات، مع ابنه الإمام الصادق أيضًا، الّذي كان شابًا مساعدًا وملازمًا لأبيه - ونقلهما إلى الشّام. فأحضر الإمام إلى قصر الخليفة في الشّام. وقد أُملي هشام قبل ذلك على حضّار مجلسه وحاشيته ليقوموا بالإجراءات اللازمة عند لقائهم بالإمام وجّهًا لوجه. فكان من المقرّر أن يبدأ الخليفة نفسه، ومن بعدها حضّار المجلس - الّذين كانوا جميعًا من الرّجال والرّعاء - وينهالون عليه بالطّعن والشّماتة. وقد أراد بهذا العمل تحقيق هدفين:

الأول: أن يُضعِف بهذه التصرّفات الشديدة والمسيئة معنويّات الإمام، وليُهيئ بذلك الأرضيّة للقيام بأيّ عملٍ يراه لازمًا. والآخر أن يُدين الخصم في لقاءٍ بين أعلى قيادات الجبهتين المتعاديتين، فينتزع بهذه الوسيلة سلاح جميع أفراد جبهته من خلال نشر خبر هذه



الإدانة، والتي ستحصل بفضل الأبواق الجاهزة دومًا لخدمة الخليفة كالخطباء والعمال والجواسيس.

يدخل الإمام، وبخلاف الرسوم والعادات المتعارفة التي تقتضي أن كل من يدخل إلى المجلس يجب أن يُسلم على الخليفة بذلك اللقب المخصوص بأمر المؤمنين، فإنه يتوجه إلى جميع الحاضرين، ويُخاطبهم مشيرًا بيده، وقائلًا: السلام عليكم. ويجلس دون انتظار الإذن بذلك. وبهذا التصرف يُشعل نيران الحقد والحسد في قلب هشام، ويبدأ برناجه. "أنتم يا أبناء علي، كنتم دومًا تشقون عصا المسلمين، وبدعوهم إلى أنفسكم كنتم تنشرون بينهم الشقاق والتفاق، وتدعون الإمامة لأنفسكم بجهلكم وسفاهتكم". يتفوه بأمثال هذه الترهات ويسكت. ثم بعد ذلك، كل واحد من عبيده وأصحاب معلقه، ينهضون ويتفوهون بمثل هذه الكلمات، ويتوجهون بألستهم للطعن بالإمام عليه السلام وتوبيخه.

أما الإمام عليه السلام، فقد كان يجلس طيلة هذا الوقت ساكنًا وهادئًا. وعندما يسكت الجميع، ينهض الإمام ويقف ويتوجه إلى الحاضرين، وبعد الحمد والثناء على الله تعالى والسلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يردّ بكلماته المختصرة والمزلزلة كيد أولئك إلى نحرهم، وكأنه يوجه لهم بهذه الكلمات صفعًا قاضية، ويبيّن موقعه وأصول عائلته المفتخرة، التي تنطبق مع أعلى المعايير الإسلامية - وهي الهداية - وفي النهاية يبيّن عاقبة طريقهم بحسب السنن الإلهية التاريخية ويُرزل لهم معنوياتهم أكثر مما كانت متزلزلة: "أيّها النّاس! أين تذهبون؟ وأين يُراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجل، فإن لنا ملكاً مؤجلاً،



وليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة، يقول الله عزّ وجلّ: والعاقبة للمتقين ٢٠٥٦٠٥.

في هذا البيان المختصر والمليء بالمعنى - الذي تضمّن التظلم والبشارة والتهديد والإثبات والردّ - تحقّق التأثير والحادّيّة إلى درجة أنّه لو أذيع ووصل إلى أسماع النّاس لكان من الممكن أن يجعل كلّ من يسمعه معتقداً بحقانيّة قائله. ولأجل الردّ على هذا الكلام، كان المطلوب وجود خطيب متفوّه مقنع ومنطقيّ، إلّا أنّ هذا لم يكن حال أيّ من مخاطبي الإمام، ولهذا لم يعد أمامهم سوى استخدام العنف والقهر.

فيأمر هشام بإلقاء الإمام في السّجن، وهو بذلك يكون عملياً قد اعترف بضعف معنويّاته وعجز منطقته. وفي السّجن، يقوم الإمام ببيان الحقائق، ليؤثّر بالسّجناء الذين معه، بحيث أنّه لا يبقى أيّ واحدٍ منهم لا يعتقد من أعماق قلبه، بما قاله. فينقل مأمورو السّجن مجريات الأحداث إلى هشام. وقد كان هذا الموضوع بالنّسبة للجهاز الحاكم، الذي كان قد مضى عليه عشرات السّنين بعيداً عن الخطاب العلويّ، لا سيّما في الشّام، غير قابلٍ للتحمّل على الإطلاق. فيأمر هشام بإخراج الإمام عليه السلام ومن معه من السّجن، ولم يكن هناك من مكانٍ أنسب لهم من المدينة المنوّرة، تلك المدينة التي كانوا يعيشون فيها، وبالطّبع، مع وضعهم تحت المراقبة

٢٠٥ قوله "أيّها النّاس" موجّه الخطاب إلى مجموعة أصحاب الرّتب العالية في الحكومة الذين اجتمعوا في مجلس يمثل هذه الحساسيّة والهيبة، حول الخليفة وأرادوا الدّفاع عنه، وفي الواقع هو نفي لكلّ القيم التي كانت تفصل، في ذلك المجتمع الطّاغوتي، هؤلاء المستكبرين عن عامّة النّاس وتميّزهم عنهم. وأرادوا بذلك أن يُميّزوا أنفسهم عنهم. إنّها مواجهة أصوليّة وعميقة في قالب خطابٍ بسيط (الكاتب).

٢٠٦ الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٧١.



وكل أنواع التشدد المستمر وأكثر. وعند الضرورة، إنزال الضربة الأخيرة وإبادة الخصم من دون ضجيج في بيته، والتنصل من وبال تهمة قتل الإمام عليه السلام ووضعه في رقبته. لهذا، وُضعوا بأمرٍ من هشام على مراكب سريعة - كان عليها أن تقطع كل الطريق من دون توقّف - ويحملونهم إلى المدينة. وكانوا قبل ذلك قد منعوا أيّ إنسان في كلّ المدن التي تقع على الطريق من أن يتعامل مع هذه القافلة المغضوب عليها، أو أن يبيعهم الماء والخبز^{٢٠٧}. وبقوا على هذا الحال طيلة الطريق، ثلاثة أيّامٍ بلياليها، فنفذ ما كان لديهم من خبزٍ وماء.

ووصلوا "مدين". وأغلق أهل المدينة بحسب ما لديهم من أوامر، بوابات مدينتهم، وامتنعوا عن بيع المتاع. اشتدّ على أتباع الإمام عليه السلام الجوع والعطش، فصعد الإمام عليه السلام على مرتفع يطلّ على المدينة ونادى

^{٢٠٧} وطبق بعض الروايات فقد أشيع بين أهل المدن الواقعة على الطريق أنّ محمد بن علي وجعفر بن محمد أصبحا نصرانيين وارتدّا عن الإسلام، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٠٦. وشيئة بهذه الواقعة حدث في حركة تحرير الهند وفي عقود منتصف التاسع عشر: (فمولانا) الذي كان من علماء الدين المعروفين والمعتبرين في الهند وأول قادة المقاومة لمسلمي الهند - وهم من رواد حركة تحرير شبه القارة - قد ذكر من جانب مجموعة من العلماء المعارضين للجهاد كشخص وهابي. ولم يكن من حاجة لأي تبرير أو مناسبة من أجل إشاعة هذه التهمة، فكان يكفي لأجل إسقاط مثل هذه الوجوه المحبوبة والمعروفة والمجاهدة من أعين عامة الناس الجاهلين والغافلين حتى يتهم أي شخص بالوهابية. لم يكن عوام الناس يعلمون ولم يكونوا قادرين أن يعلموا ما هي الوهابية، وما هو منشؤها، وماذا تقول، وماذا تريد أن تفعل، وهل أنّه من الممكن أن يكون العلماء المنزّهون الذين قضوا حياتهم في النضال ضد الاستعمار الإنكليزي وهابيين - أي أداة بيد الإنكليز؟ الشيء الوحيد الذي كانوا يعلمونه، هو أنّ الوهابية هي عبارة عن مذهب خاطئ وانحرافي، وها هم يسمعون أنّ هؤلاء العلماء المناضلين وهابيون ويكفي مثل هذا. (راجع كتاب المسلمون في حركة تحرير الهند، "طباعة آسيا"). وأنا عندما أطبق قصة إحضار الإمام الباقر والإمام الصادق عليه السلام إلى الشام واتهماهما بالتنصّر على المئة سنة ونيف في الهند في العصر الحديث ثم ألقى نظرة على الأوضاع والأحوال الجارية في زماننا ومكاننا أسترجع في ذاكرتي هذا المصراع للبيت الشعري العربي بكلّ حيرة مؤسفة، "الناس كالنّاس والأيام واحدة". (الكتب)



بأعلى صوته: "يا أهل المدينة الظّالم أهلها، أنا بقيّة الله. يقول الله: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾^{٢٠٨}.

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخٌ كبير، فأتاهم فقال: "يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام. والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذنّ من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصّدقوني وأطيعوني.. فإني لكم ناصح. استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا إلى أبي جعفر وأصحابه الأسواق"^{٢٠٩}.

والقسم الأخير من هذه الرواية التاريخية - والذي يمكنه أن يكون من جهاتٍ عدّة عرضاً للوضع السياسيّ والقمع وكذلك الاستخفاف الشامل بجميع الأذهان في ذلك الزمان، وأن يكون من جانبٍ توضيحاً لموقف الإمام الباقر عليه السلام الخاصّ من جهاز حكم بني أميّة - على هذا النحو: عندما وصل خبر المدينة إلى هشام أمر قبل أيّ شيء بمعاينة ذلك الرّجل المتمرد على خيانتته لأنّه تجرّأ على الإعراب عن مخالفته لخطّة زعماء نظام الخلافة وجنّب الناس غفلةً كبرى. وقد أخذ هذا الرّجل وقُتل بأمرٍ من الخليفة.

ومع كلّ ذلك، يتجنّب الإمام أيّ مواجهة حادّة ومواجهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد إلى سيف، ولا يسمح للأيدي المتسرّعة أن تمتدّ إلى السلاح وتشهره، ويحملها على المزيد من حدّة النّظر ومعرفة الموقف المناسب ويمتنع عن شهر سيف اللسان كذلك، ما لم يتطلّب عمله التغييريّ

^{٢٠٨} سورة هود، الآية ٨٦.
^{٢٠٩} الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٧٢.



الأساس الجذريّ ذلك. كما أنّه لا يُرخص لأخيه زيد، الذي بلغ به الغضب مبلغه وثارَت عواطفه أيّما ثورة، أن يخرج (يشور)، بل أن يُركّز نشاطه العام على التّوجيه الثّقافيّ والفكريّ. وهو بناء أساس أيديولوجيّ في إطار مراعاة التّقية السّيّاسيّة.

ولكن هذا الأسلوب لم يكن يمنع الإمام عليه السلام، كما أشرنا، من توضيح "حركة الإمامة" لأتباعه الخلّص، وإذكاء أمل الشّيعة الكبير، وهو إقامة النّظام السّيّاسيّ بمعناه العلويّ الصّحيح في قلوب هؤلاء، بل يعتمد أحياناً إلى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطّريق.

التّلويح بمستقبل مشرق هو أحد السبل الّتي مارسها الإمام الباقر عليه السلام مع أتباعه. وهو يشير أيضاً إلى تقوم الإمام عليه السلام للمرحلة الّتي يعيشها من الحركة. يقول الحكم بن عيينة: بينما أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخٌ يتوكأ على عنزة (عكازة) له، حتّى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثمّ سكت، فقال أبو جعفر: "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته". ثمّ أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت عليهم السلام وقال: السلام عليكم، ثمّ سكت حتّى أجابه القوم جميعاً، وردّوا عليه السلام. ثمّ أقبل بوجهه على الإمام عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله ادني مني فإني أدركك. فوالله إنّني لأحبّكم وأحبّ من يُحبّكم، ووالله ما أحبّكم وأحبّ من يُحبّكم لطمع في دنيا، وإنّي لأبغض عدوّكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لو ترّكان بيني وبينه. والله إنّني لأحلّ حلالكم وأحرّم حرامكم، وأنْتَظر أمركم، فهل ترجو لي، جعلني الله فداك؟ فقال الإمام عليه السلام: "إلّٰي إلّٰي" حتّى أفعده إلى جنبه،



ثم قال: "أيها الشيخ! إنَّ أبي عليَّ بن الحسين عليه السلام، أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه فقال له أبي عليه السلام: إن تُمُت وأنت في هذا الحال من الانتظار، ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليَّ والحسن والحسين وعليَّ بن الحسين، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقرَّ عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين... وإن تعش ترى ما يقرُّ الله به عينك، وتكون معنا في السنام الأعلى". قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشري: كيف يا أبا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: الله أكبر يا أبا جعفر، إن أنا متَّ أرد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليَّ بن الحسين والحسن والحسين وتقرَّ عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا. وإن أعش أرى ما يقرُّ الله به عيني، فأكون معكم في السنام الأعلى؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتَّى لصق بالأرض. وأقبل أهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ. ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الإمام عليه السلام أن يناوله يده فقبَّلها ووضعها على عينه وخدَّه، ثم ضمَّها إلى صدره وقام فودَّع وخرج والإمام عليه السلام ينظر إليه ويقول: "من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فليُنظر إلى هذا"^{٢١٠}.

حتَّى أنَّه أحياناً كان يتعدَّى ذلك ويُحدِّد سنة النَّصر ويجعل الأمل الشيعي القديم أمراً واقعاً، عن أبي حمزة الثمالي قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "إنَّ الله كان قد وقَّت هذا الأمر في السبعين، فلمَّا قُتل

^{٢١٠} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٣٦١-٣٦٢.

الحسين عليه السلام اشتدَّ غضب الله تعالى على أهل الأرض فأخّره إلى الأربعين ومائة سنة فحدّثناكم فأذعنتم الحديث، وكشفتم القناع قناع السرّ فأخّره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتًا عند الله، ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^{٢١١}. قال أبو حمزة: قد قلت لأبي عبد الله عليه السلام ذلك فقال: "قد كان ذلك"^{٢١٢}.

مثل هذه التصريحات، تُركّي روح الأمل في قلوبٍ تعيش جوّ الاضطهاد والكبت، فتكسبها زخمًا ودفعًا نحو الهدف المنشود المتمثّل في إقامة النظام الإسلاميّ العادل.

تسعة عشر عامًا من قيادة الإمام الباقر عليه السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح. تسعة عشر عامًا من التعليم الأيديولوجي، والبناء، والتكتيك النضاليّ، والتنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقوية وإذكاء روح الأمل. تسعة عشر عامًا من مسيرٍ شائكٍ ووعرٍ، يتطلّب كثيرًا من الجِدِّ والجهد في الطرقات الشديدة الوعورة. وفي النهاية، عندما أشرف هذا العمر القصير والمليء بالعطاء على الانتهاء، وعندما ظنّ أعداء النهضة العلويّة الألداء أنّهم يستطيعون أن يتنفّسوا الصّعداء برحيل محرّك هذه النهضة وسوف يخلو بالهم من التحركات الدّعائيّة النضاليّة للشيعة، وسوف يتفرّغون لمشاكلهم وأزماتهم التي لا تنتهي داخل البلاد وعلى الحدود، أنزل الرّماد الحامي والمشتعل لهذه الشّعلة آخر صعقةٍ مهلكةٍ له على بنيان النظام الأمويّ. فقد قضى عمرًا بفضح وتبيين

^{٢١١} سورة الرعد، الآية ٣٩.

^{٢١٢} بحار الأنوار، ج ٤٢، ص ٢٢٣.



الحقائق، وها هو يتابع بعد موته ما كان يقوم به. بحياته كان بيت الوعي، وموته أيضًا استمرّ في مسعاه هذا. لقد كان يُرسل لأتباعه وللجماهير الغافلة التي كانت عطشى للمعرفة والفهم والتفكير درسًا جديدًا ورسالةً جديدة. وقد كانت هذه الرسالة هادئة وعميقة مثل الخطّة العامة لحياته. نفع الأصدقاء والمحتاجين، لكنّه سلب النّوم من عيون الأعداء. كان هذا نموذجًا من تقية الإمام الباقر عليه السلام ومظهرًا للوضع العام لنهجه وسلوكه في تلك المرحلة الزمنية الخاصة.

أولئك الذين دوّنوا فيما بعد تاريخ حياة الإمام، مرّوا غافلين أو متغافلين على هذا الإجراء العظيم الذي أُدرج في حديثٍ مختصر. يمكن القول أنّهم لم يروه؟ هكذا نقصّر. وظاهر القضية هو أنّ الإمام قد أمر ابنه الإمام جعفر بن محمد أن ينفق قسمًا من مدخوله - ٨٠٠ درهم - من أجل العزاء والنيّاح عليه لمدة عشر سنوات. مكان العزاء هو صحراء منى، وزمانه موسم الحجّ، هكذا ولا شيء آخر. إنّ موسم الحجّ هو ميعاد الإخوة المتباعدين وغير المتعارفين. فآلاف الأشخاص يعيشون تجربة إمكانيّة الاجتماع وتحقّقه في ذلك الزّمان والمكان، وأصحاب القلوب المتقاربة والألسن المتباعدة يدعون ربّهم في هذا المكان بلسانٍ واحدٍ ويشاهدون معجزة اجتماع الملل والشّعوب تحت رايةٍ واحدة. وإذا كان من رسالةٍ ينبغي أن تصل إلى جميع أرجاء عالم الإسلام فلا يوجد من فرصةٍ أنسب من هذه الفرصة. هناك حيث تُنجز أعمال الحجّ، في عدّة أيّام متوالية وفي نقاطٍ محدّدة فأية أيّام ستكون أنسب من هذه الأيام؟! وأيّة أماكن ستكون أنسب من تلك الأمكنة؟! مكّة مدينةٌ والنّاس منتشرون في مدينةٍ واحدة



ومشغولون. بالإضافة إلى ذلك، فالجميع فيها مشغولون بأعمال الحجّ، الطّواف، السّعي، الصّلاة و... والمشعر محلّ التوقّف الليليّ فرصته قليلة ولا يوجد فيه إمكانيّة، فلا يوجد أكثر من هذه المخطّة على طريق منى. عرفات موقفٌ وإن كان في النّهار، ولكنّه قصير المدّة: فقط يومٌ واحد يبدأ بصباحٍ متعب، من الحركة وينتهي بعصرٍ يُستعدّ فيه للانطلاق. فمَنْ هي الأنسب من بين الجميع: فالحجّاج يُخيّمون هناك لثلاثة ليالٍ بعد رجوعهم من سفر عرفات، وتسنع الفرصة أكثر من أيّ مكانٍ آخر لأجل التعارف والتّحاور وبثّ الشّجون. فمن هو الذي يتحمّل متاعب الدّهاب والرجوع من مكّة؟! فالبقاء وزيارة كلّ تجمّع ومحفّل وجمع يحقّق الزّمان والمكان المناسبين. فكلّ واحدٍ سوف يمرّ بشكلٍ طبيعيّ على مجلس العزاء الذي يُقام لثلاثة أيّامٍ من كلّ سنة في هذه البادية. وشيئاً فشيئاً سيّتعرف النّاس الوافدون من مختلف الآفاق عليه. وسوف يُقيم أهل المدينة لسنواتٍ عديدة في هذا المكان وفي هذه الأيّام تجمّعاً، وأهل المدينة هم من مركز الإسلام ومقرّ الصّحابة والفقهاء والمحدّثين الكبار، ولمن هذا المجلس، إنّه لأحد وجوه عالم الإسلام، إنّه لمحمّد بن عليّ بن الحسين، رجلٌ عظيمٌ من سلالة النّبيّ، زعيم الفقهاء والمحدّثين، أستاذ جميع المشهورين في الفقه والحديث، فلماذا يأتون إلى هذا المكان من بين جميع الأماكن ويقولون فيه ما يقولون؟! وفي الأساس لماذا يُقال هذا؟ ألم يكن موته طبيعيّاً فمن الذي قتله أو دسّ له السّم؟ ولماذا؟ وما الذي فعله؟ وما الذي قاله؟ هل كان يدّعي شيئاً؟ أو كانت له دعوة؟ هل كان يُشكّل خطراً على الخليفة؟ وهل؟ وهل؟.. أسئلةٌ كثيرة وإبهاماتٌ أكثر، ووراؤها عشرات الأسئلة والتّساؤلات،

وعندها سيأتي سيلٌ من الأجوبة من أصحاب العزاء وأيضًا من أهل الاطلاع المنتشرين هنا وهناك بين الجموع المحتشدة، أولئك الذين أسرعوا من المدينة أو الكوفة إلى هذا المكان، وفي الأساس إنما جاؤوا لكي يُجيبوا عن هذه الأسئلة. لقد جاؤوا ليبيّنوا للناس، الوافدين من أرجاء عالم الإسلام إلى هذا المكان، القضايا في هذه الفرصة الفريدة وفي هذا المكان. وبالطبع، أيضًا، ليلتقوا بالإخوة والموالين من أجل أن يخبروهم ويأخذوا المطالب والأوامر منهم. كانت أعظم شبكة إعلامية تبليغية بين آلاف القنوات الإعلامية في ذلك العصر. وهذه هي الخطّة النّاجحة للإمام الباقر عليه السلام - خطّة جهاده بعد الموت - وهذا هو الوجود الذي تتفجّر منه البركات الذي جعل حياته ومماته لله وفي سبيل الله. "وجعله مباركا أينما كان، وسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيًّا"^{٢١٣}.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٣٣ - ٥٤)

الظروف السياسيّة عند شهادة الإمام الباقر عليه السلام

توفي الإمام الباقر عليه السلام وهو في السّابعة والخمسين من عمره، على عهد هشام بن عبد الملك، وهو من أكثر ملوك بني أميّة اقتدارًا. ورغم ما كانت تُحيط بالحكومة الأموية آنذاك من مشاكل ومتاعب، فإنّ ذلك لم يصرفها عن التّأمر على القلب النابض للشيعة، أي الإمام الباقر عليه السلام، فأوعز هشام إلى عملائه أن يدسّوا السمّ للإمام عليه السلام، وحقق بذلك

^{٢١٣} هذا الدعاء مقتبس من الآيات القرآنية الواردة في حق نبي الله عيسى عليه السلام، (سورة مريم، الآيات ٣١ - ٣٣)

انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.

كان نظام بني أمية في السنوات الأخيرة لحياة الإمام الباقر عليه السلام، وفي سنوات بدايات إمامة ولده الإمام الصادق عليه السلام، يمرّ بأحد أكثر فصوله المليئة بالأحداث والمتغيّرات. فالتحدّيات العسكريّة في الحدود الشمالية الشرقية . تركستان وخراسان، وفي الشمال . آسيا الصغرى وأذربايجان، والمغرب . وأفريقيا والأندلس وأوروبا، هذا من جانب، والثورات والانتفاضات المتلاحقة في أنحاء العراق العربيّة وخراسان وشمال أفريقيا، الّتي كانت تنطلق بالأغلب بواسطة السكّان المحليّين الساخطين الّذين يئنّون من الظّلم، وكانت أحياناً بتحريك أو مساعدة القادة العسكريّين المغول الأمويّين^{٢١٤}، من جانبٍ آخر، وكذلك الوضع الصّعب الداخليّ في كلّ الأماكن وخصوصاً في العراق - مقرّ الدهاقين الكبار لبني أمية وموقع الأراضي الخصبة الّتي كانت في الأغلب من ممتلكات الخليفة أو أحد رجاله - وكلّ الظلم والحيف الهائل لهشام وواليه المتجبر في العراق . خالد بن عبد الله القسري^{٢١٥}، وفي النهاية القحط والطاعون في مختلف المناطق، ومنها خراسان والعراق والشام،

^{٢١٤} وقد نسب المؤرّخ جميع هؤلاء ودون استثناء إلى الخوارج، وهذا بذاته مؤشّر على أنّ جهاز الخلافة كان هو المقصود بهذه الثورات والنهضات الّتي كان أغلبها أو بعضها على الأقلّ محقاً. (الكاتب)

^{٢١٥} اتّهم خالد بن عبد الله القسري أنّ دخله السنوي بلغ ١٣ مليوناً وكتب هشام بن عبد الملك إليه: لا يبيعنّ أحدٌ غلّته حتى تُباع غلّة أمير المؤمنين! وقد قال خالد هذا (والذي لم يكن على صبيغة واحدة مع الخليفة) في خطبة له: يظنّ النّاس أنّني أرفع الأسعار. ألا لعنة الله على كلّ من يرفع الأسعار. (وكان يريد أن يقول أن هذا من عمل الخليفة). كان لهشام امرأة لباسها من الذهب وقد علّقت فيه الجواهر النفيسة وكان ثقيلاً إلى درجة أنّها لم تقدر على المسير به. ولم يتمكّن أحدٌ من تحديد قيمته. وكان له سجّادة بطول مئة ذراع وعرض خمسين ذراعاً حيكت من الحرير والذهب. (ابن الأثير، ج ٥، ص ٢٢٠ و بين الخفاء والخلفاء، ص ٢٨ و ٥٦) (الكاتب).



كلّ هذا جعل البلاد المترامية للمسلمين في حالةٍ عجيبةٍ بسبب نظام بني أميّة وعلى يد أشهر الولاة. وينبغي أن نُضيف أنّ أكبر خسارة حلّت في العالم الإسلامي هي الخسارة المعنوية والفكرية والروحية.

في الأجواء الكثيفة للدولة الإسلامية، التي كان فيها الفقر والحرب والأمراض مثل صاعقةٍ نزلت من أصحاب السلطة والمستبدين الأمويين على رؤوس الناس المساكين تحرق وتذر رمادًا، أضحت تربية غرسة الفضيلة والتقوى والأخلاق والمعنويات في عداد المستحيلات. فالعلماء والقضاة والمحدثون والمفسرون الذين كان ينبغي أن يكونوا ملجأ وملاذ الناس المساكين والمظلومين صاروا في الأغلب سببًا لزيادة مشاكل الناس بطريقةٍ أشدّ خطرًا من رجال السياسة. فقد أصبح المشاهير والشخصيات المعروفة في الفقه والكلام والحديث والتصوّف بيد جهاز الخلافة الكبير، والأعيب بيد الأمراء والحكّام.

من المؤسف القول بأنّ دراسة أحوال هذه الشخصيات الوجيعة وأصحاب السمعة تجعلهم يتجسّدون، في ذهن كلّ من يُطالع، بصورة رجال يشتركون في معلن الأمانى المنحطّة كالسعي لنيل السلطة والسمعة والشهرة، أو جنّاء ومنحطّين وطلاب راحة، أو زهاد مرائين وحمقى، أو متظاهرين بالعلم، مشغولين بالأبحاث الدموية الكلامية والاعتقادية.

فقد تبدّل القرآن والحديث الذي ينبغي لكلّ منهما أن يصبح سببًا لرشد ونموّ غرسات المعرفة والخصال الحسنة، إلى أدوات بيد أصحاب السلطة، أو للانشغال بالأمور التي لا فائدة منها.

في هذه الأجواء السامة والخائقة والمظلمة وفي ذلك الزمن المحفوف



بالبلاء والمصائب، حمل الإمام الصادق عليه السلام ثقل الأمانة الإلهية على عاتقه. وحققاً، كم كان ضرورياً وحيوياً أن نتعرف على الإمامة بذلك المفهوم الرافعي الموجود في الثقافة الشيعية. وبالنسبة للأمة الدليلة والخانة والمخدوعة والجاهلة في ذلك الزمان المظلم والمليء بالمصائب، رأينا سابقاً أن الإمامة منبعٌ لتيارين حياتيين: الفكر الإسلامي الصحيح، والنظام التوحيدي العادل، والإمام مكلفٌ بماتين الوظيفتين: الأولى، تبيين الدين وتطبيقه وتفسيره. وبما يتضمن مواجهة التحريفات، والاختلاقات الجاهلة والمغرضة - ومن ثم التخطيط وإيجاد الأرضية لنظام التوحيد العادل والحقيقي، وفي حال وجود مثل هذا النظام، منحه الدوام والاستمرارية. والآن في مثل هذه الأوضاع والأحوال السيئة، يتحمل الإمام الصادق عليه السلام ثقل هذه الأمانة، ويصبح مسؤولاً عن هذين التكليفين. ففي آن واحد، تصبح هاتان الوظيفتان أمام ناظره، فماذا يقدم منهما؟ صحيح أن العمل السياسي له مصاعبه الكثيرة، ولا يوجد شيء يمكن لهشام الأموي مع كل مشاغله ومتاعبه أن يغفره، أو لا ينتقم منه بشدة، ولكن العمل الفكري - أي مواجهة التحريف - في الحقيقة عبارة عن اقتلاع وريد الجهاز الحاكم، جهاز لا قدرة له على البقاء إلا بالاعتماد على الدين الانحرافي^{٢١٦}.

^{٢١٦} هذه النقطة جديرة بالتأمل والتدقيق الكثير وهي أنه بالرغم من كل هذه الانحرافات التي هيمنت على سلوك المجتمع ووجوده من ناحية الفكر الإسلامي الصحيح، فإن الاعتقادات الدينية في ذهن العامة وحتى الكثير من الزعماء كان له دور حساس في عملهم وحياتهم. وعن طريق هذا الاعتقاد العام - والذي كان للأسف اعتقاداً بمنسوجات تُسمى إسلاماً لا الإسلام الصحيح - تمكن نظام الخلافة من الإبقاء على حياته. ونموذج من هذا التمسك بالاعتقادات الدينية يمكن مشاهدته في أداء هؤلاء الزعماء والوجهاء في قضية البيعة. ما أكثر الناس الذين كانوا يطيعون الخليفة احتراماً للعهد وحرمة نقده - وخاصة عهد البيعة - وبالرغم من كل المعاصي والجرائم التي كانوا يرونها منه. وما أكثر الموارد التي أظهرت الوصية والبيعة بدورها القاطع إمكان بقاء نظام الخلافة وأعطت المناعة لهذا النظام مقابل أي سعي. (الكاتب)



لهذا، فإنهم أيضاً لن يغفروا هذا العمل أو يمرّوا عليه مرور الكرام، هشام، ولا غيره من علماء العصر، العلماء الذين يسعون لترويج المجتمع المنحط والمنحرف، يتحرّكون بفعاليّة من أجل ذلك.

ومن جانبٍ آخر، فقد تهيّأت الظروف من أجل نشر وتعميم الفكر الثوريّ الشيعيّ. فقد كان هناك حربٌ وفقرٌ واستبداد، عوامل ثلاثة مهيّئة ومعدّة للثورة، وتهيّأت الأرضيّة من قبل الإمام السابق، والذي جعل أجواء المناطق القريبة وحتى البعيدة مهيّأة إلى حدٍّ ما.

إنّ الاستراتيجية العامّة للإمامة هي إيجاد الثورة التوحيدية والعلوية، ففي أجواء سيكون فيها جماعة مطلوبة من الناس تعرف أيديولوجيّة الإمامة وتؤمن بها وتتشوّق انتظاراً لتحقيقها، وجماعة أخرى مطلوبة ينبغي أن تنضم إلى تلك التشكيلات المناضلة والعازمة. فاللازم المنطقي لهذا التحرك العام والنهج الكلّي هو دعوة شاملة في كلّ العالم الإسلامي من أجل تهيئة الأجواء لإشاعة الفكر الشيعي في كلّ الأقطار، ودعوة أخرى من أجل إعداد الأفراد المستعدين وأعضاء "التشكيلات الشيعيّة السريّة" المضخّين. إنّ صعوبة عمل دعوة الإمامة الحقّة كامنٌ في هذه النقطة. فهناك دعوة مسلكية كاملة تريد أن تبعد كلّ أنواع التسلّط والاعتداء على حقّ الناس بالحرية ورعاية الأصول والموازن الإسلامية الأساس، وهي مضطّرة للاعتماد على مشاعر وفهم الناس وأن تنمو وتتقدّم في مجال إدراك مشاعرهم وحاجاتهم الأساس. وعلى العكس كان هناك أنواع من النضال تشبّث بالشعارات المسلكية والدينيّة لبدء عملها، ولكنّها في التطبيق وعلى الأرض تتوسّل بكلّ أنواع السعي للسلطة ككلّ المتسلّطين



الذين يغضون الطرف عن الأصول الأخلاقية والاجتماعية ولا يعبؤون بمثل هذه الصعوبات، وهذا هو سرّ إطالة أمد تيّار نهضة الإمامة، وأيضاً سرّ تقدّم النهضات الموازية لنهضة الإمامة - كبنّي العباس - والفشل النسبيّ لهذه النهضة. وهذا الطلب سوف نعرضه في المستقبل وبمزيد من الشرح بالاعتماد على الوثائق التاريخية.

إنّ الأوضاع والأحوال المساعدة والأرضيات التي أمتها الإمام السابق في عمله، كانت تؤدّي إلى أن يظهر الإمام الصادق عليه السلام كتجلّ للأمل الصادق الذي عاشه الشيعة لسنوات وهم بانتظاره، وذلك بالالتفات إلى الطريق الطويل والملبّي بالمشقّات لنهضة التشيع، وهو نفس القائم (الإمام الصادق عليه السلام) الذي سوف يوصل كلّ الجهاد المرير لأسلافه إلى ثمرته وسوف يقيم الثورة الشيعية على مستوى العالم الإسلامي المتراكم. فالإشارات، وأحياناً التصريحات المباشرة للإمام الباقر عليه السلام، كانت مؤثرة أيضاً في ترعرع ونموّ غرسة الأمل هذه.

يقول جابر بن يزيد: سأل رجل الإمام الباقر عليه السلام عن القائم الذي يكون من بعده، فوضع الإمام يده على كتف أبي عبد الله وقال: "إنّ هذا هو قائم آل محمّد" ^{٢١٧}.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٥٤-٦١)

^{٢١٧} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ١٣١.

الفصل العاشر: الإمام الصادق عليه السلام

- الغموض الذي لفَّ حياة الإمام الصادق عليه السلام
- دعوة الإمام الصادق عليه السلام للإمامة
- المواجهة السياسيّة عند الإمام الصّادق عليه السلام
- التشكيّلات السريّة الأيديولوجية والسياسيّة



الغموض الذي لفَّ حياة الإمام الصادق عليه السلام

من اللازم هنا أن نشير إلى أنّ إحدى الأشياء المؤسفة جدًّا، والتي يُمكن أن تواجه الباحث حول حياة الإمام الصادق عليه السلام، هي أنّ تفاصيل حياة هذا الإمام، لا سيّما في السنوات الأولى من إمامته، والتي تزامنت مع نهاية حكم بني أميّة، محاطة بمالة من الغموض. فهذه الحياة المليئة بالأحداث والمؤثّرة في أحداثٍ كثيرة، والتي يُشاهد فيها الاضطرابات والتحوّلات الكبرى من طيّات مئات الروايات التّاريخيّة، (فهذه الحياة المليئة بالأحداث، والتي هي منشأ للأحداث، والتي يُمكن مشاهدة كفاحاتها وصعودها وهبوطها في طيّات مئات الروايات التّاريخيّة)، نجد أنّها لم تنعكس، لا في التّاريخ، ولا في أقوال المحدثين وكتّاب التذكرة، بنحوٍ منظمٍ ومتربط على الإطلاق، وإنّ زمن وخصوصيّات أكثر الأحداث لم يتمّ تحديدها. فعلى الباحث أن يعتمد على القرائن وملاحظة الأحداث العامّة في ذلك الزمان، ويُقارن كلّ رواية مع ما لديه من معلومات بشأن الأشخاص أو الأحداث المذكورة بالمصادر الأخرى ليكشف عن زمان ومكان وخصائص تلك الحادثة. ولعلّه ينبغي البحث عن أسباب هذا



الغموض والإبهام لا سيّما فيما يتعلّق بالأنشطة التنظيميّة للإمام مع أتباعه في ماهيّة هذه الأعمال.

الأعمال السريّة والتنظيميّة في العادة، إذا تلازمت مع الأصول الصحيحة للعمل السريّ يجب أن تبقى سرّيّة ومخفّيّة دائماً. فهي تكون خفيّة في ذلك الزمان، وينبغي أن تبقى كذلك فيما بعد، وإنّ تكتّم وسريّة أصحابها لا يسمحان لأيّ غريبٍ أن يصل إليها. حتّى إذا وصلت هذه الأعمال إلى الثمرة المطلوبة، وتمكّن المنفّذون والعاملون من الإمساك بالسلطة فإنّهم سوف يكشفون دقائق هذا العمل السريّ للملأ، لذا نجد اليوم أنّ الكثير من الدقائق، بما في ذلك التوجيهات الخاصّة والاتّصالات السريّة لزعماء بني العباس مع عناصر منظّمتهم التابعين لهم، في مرحلة الدعوة العباسية قد تمّ توثيقها في التاريخ وهي معروفة من قبل الجميع.

ولا شكّ أنّه لو كانت التّهضة العلويّة قد وصلت إلى ثمرتها وصارت السلطنة والحكومة بأيدي أئمة الشيعة أو من اختاروهم، لكنّا اليوم على اطلاعٍ على جميع الأسرار المختومة لدعوتهم العلويّة وتشكيلاتهم المنتشرة في كلّ الأماكن والتي كانت فائقة السريّة.

ينبغي البحث عن السبب الآخر في خصال كُتّاب التاريخ وكتابة التاريخ. فلو كان لجماعة مدانة ومظلومة ذكر في التاريخ الرسميّ وتوثيق لذكرياتها، فلا شكّ بأن ذلك كان ليكون بطلب وقول وإيعاز من الحاكم والظالم. إنّ توثيق الجريات والأحداث الخاصّة بالمحكومين، فضلاً عن أنّها مدمية للقلب، فهي بالنسبة لمؤرخ التاريخ، تتطلّب الكثير من الجهد



والسَّعي والبحث هنا وهناك مصاحب مع الكثير من الخوف، بينما يوجد الكثير من الأخبار والمجريات بين أيدي الحكّام والتي يُمكن الحصول عليها من دون أيّ عناء أو اضطراب أو خطر ويُمكن تقاضي الأجر عليها!

ولنضع الآن هذه الحقيقة الواضحة إلى جانب الوقائع الأخرى. إنّ جميع التّواريخ المعروفة والمعتبرة، والتي تُشكّل وثائق ومصادر أكثر التّحقيقات والدّراسات اللاحقة، والتي دُوّنت وبقيت إلى ما بعد حياة الإمام الصادق عليه السلام بخمسائة سنة، كانت ذات صبغة عبّاسية، لأنّه وكما نعلم، فإنّ حكومة العبّاسيين قد استمرّت إلى منتصف القرن السابع الهجري، وجميع التّواريخ القديمة المعروفة قد كُتبت وأُلّفت في مرحلة زعامة وسلطنة هذه السلالة المتجبرّة. وبناءً عليه، يُمكن تخمين التّنتيجة. فمن غير المتوقّع على الإطلاق، من أيّ مؤرّخٍ من مؤرّخي العصر العبّاسي أن يستطيع أو أن يطلب تحصيل المعلومات الصّحيحة والمنظّمة حول حياة الإمام الصّادق، أو أيّ من أئمّة الشّيعّة الآخرين عليهم السلام، وأن يوثّقها في كتابه.

وهذا هو سرّ الكثير من التّحريفات والمبهمات في حياة الإمام الصّادق عليه السلام. والطّريق الوحيد الذي يُمكننا من التّعريف على الخطّ العام لحياته هو أن نجد نماذج مهمّة لحياة هذا الإمام في ثنايا كل هذا الإهمام والغموض، بالاستمداد ممّا نعرفه من الأصول العامّة لفكر هذا الإمام وأخلاقه فنرسم الخطوط الأساس لحياته، بعدها نبقي بانتظار القرائن التاريخية المتفرّقة وغير التاريخية لتحديد الخصوصيّات والدقائق.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٦٥-٦٨)



عندما انتقل الإمام الباقر عليه السلام من هذه الدنيا، كانت الأوضاع والأحوال قد تغيّرت كثيراً لمصلحة أهل البيت عليهم السلام، إثر التّشاطات المكثّفة التي جرت طيلة مدّة إمامته وإمامة الإمام السّجّاد عليهما السلام. وأبيّن لكم بكلمتين خطّة الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام التي كانت بالطّبع من الأسرار في ذلك الزّمان. أسرار، مثل أن يُقال مثلاً، وكما تسمعون، إنّ جابر بن يزيد الجعفيّ كان من أصحاب السرّ، فكلّ من ينشر سرّاً فسوف تحلّ عليه لعنة الله وغيرها وغيرها، تلك الأسرار التي لو أُذيعت في ذلك الزمان، حلّت لعنة الله على من يُذيعها، هي نفسها التي أريد الآن أن أكشفها، لكن غاية الأمر أنّه لا يوجد اليوم أيّ مشكلة في إظهارها، لا بل هو أمر واجب أن يعلم النّاس ماذا كان يريد الإمام عليه السلام أن يفعل. كانت خطّة الإمام الصادق عليه السلام هي أن يجمع الأمور بعد رحيل الإمام الباقر عليه السلام وينهض بثورة علنيّة ويسقط حكومة بني أميّة - التي كانت في كلّ يومٍ تبدّل حكومة، ما يحكي عن منتهى ضعف هذا الجهاز، وأن يأتي بالجيوش من خراسان والريّ وأصفهان والعراق والحجاز ومصر والمغرب وكلّ المناطق الإسلاميّة، التي كان فيها شبكات حزبيّة للإمام الصادق عليه السلام، أي الشّيعة، وأن يحضر كلّ القوّات إلى المدينة ليزحف نحو الشّام ويسقط حكومتها ويرفع بيده راية الخلافة، وأن يأتي إلى المدينة ويعيد حكومة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إليها، هذه كانت خطّة الإمام الصادق عليه السلام. لهذا، عندما كان يجري الحديث عند الإمام الباقر عليه السلام في أيّام عمره الأخيرة ويُسأل من هو قائم آل محمّد، كان ينظر إلى الإمام الصادق عليه السلام ويقول كأني أنظر إلى قائم آل محمد هذا. بالطبع، أنتم تعلمون أنّ قائم آل محمّد هو

اسم عام وليس اسمًا خاصًا، فليس هو اسم وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف. فوليّ العصر هو قائم آل محمد النهائي، لكن كلّ الذين نحضوا من آل محمد على مرّ الزمان . سواءً انتصروا أم لا . كلّ واحدٍ منهم هو قائم آل محمد. وتلك الروايات التي تقول أنّه عندما يقوم قائمنا يفعل هذا ويفعل ذاك ويُحقّق ذلك الرّفاه ويُقيم ذلك العدل، لم يكن المقصود منها حضرة وليّ العصر في ذلك الزّمن، بل كان المقصود أنّ ذاك الرّجل من آل محمد الذي من المقرّر أن يُقيم حكومة الحقّ والعدل، فإنّه عندما يقوم سوف يفعل هذه الأمور وهذا أمرٌ صحيحٌ. وقد كان من المقرّر للإمام الصادق عليه السلام أن يكون قائم آل محمد في ذلك الزمان. لقد وصل الإمام الصادق عليه السلام إلى الإمامة في مثل هذه الحالة.

لقد كان الإمام الصّادق عليه السلام رجل الجهاد والمواجهة ورجل العلم والمعرفة ورجل التنظيم والتشكيلات. لقد سمعتم جميعًا الكثير عن علمه، فمحافل دراسته وميادين تعليمه التي أوجدها لم يكن لها نظير لا قبله ولا بعده في تاريخ حياة أئمة الشيعة، فلقد بيّن الإمام الصّادق عليه السلام كلّ ما ينبغي أن يُقال بشأن المفاهيم الإسلامية الصّحيحة والقرآنية الأصيلة التي تعرّضت للتّحريف طيلة قرنٍ وتيّف من الزمان بواسطة المغرضين والمفسدين أو الجاهلين، وهذا الأمر هو الذي أدّى إلى أن يشعر العدوّ بخطرهِ، لكنكم قليلًا ما سمعتم عن جهاده. لقد كان الإمام الصادق صلوات الله عليه، مشغولًا بجهادٍ واسع النّطاق من أجل الإمساك بالحكومة والسّلطة وإيجاد حكومة إسلاميّة وعلويّة. أي إنّ الإمام الصادق سلام الله عليه، كان يُهيئ الأرضيّة للقضاء على بني أميّة والمجيء بحكومة علويّة أي



حكومة العدل الإسلاميّ. فهذا ما يتّضح من حياة الإمام الصادق عليه السلام لكلّ من يُطالع ويُدقّق.

أمّا ذاك البعد الثالث الذي لم يُسمع عنه من الأساس، فهو أنّه كان رجل التنظيم والتشكيلات. لقد أوجد الإمام الصادق صلوات الله عليه، تشكيلات عظيمة من المؤمنين به ومن أتباع تيّار الحكومة العلويّة في مختلف أرجاء العالم الإسلاميّ، من أقصى خراسان وما وراء النهر إلى شمال أفريقيا. فماذا تعني التشكيلات؟ إنّها تعني أنّه عندما يريد الإمام الصّادق عليه السلام أن يُعلم النّاس بأيّ شيءٍ فإنّه يفعل ذلك من خلال وكلائه المتواجدين في مختلف آفاق العالم الإسلاميّ، كما إنّها تعني جمع كلّ الحقوق الشرعيّة والميزانيّة المطلوبة لإدارة مواجهة سياسيّة عظيمة لآل عليّ، كما تعني رجوع أتباع الإمام الصّادق عليه السلام إلى وكلائه وممثليه المتواجدين في جميع المدن لمعرفة تكليفهم الدينيّ والسياسيّ من الإمام. التكليف السياسيّ هو كالتكليف الدينيّ من حيث الوجوب. فإنّ الفتوى الدينيّة والإسلاميّة في باب الصلاة والزكاة والصيام وباقي الواجبات لذك الذي يكون بالنسبة لنا واجب الطّاعة ووليّ الأمر، لا تختلف عن فتواه وأوامره السياسيّة في مجال الجهاد والعلاقات السياسيّة والعلاقات الداخلية وجميع القضايا، فكلّ ذلك يجب تنفيذه. لقد أوجد الإمام الصادق عليه السلام مثل هذه التشكيلات العظيمة، وبهذه التشكيلات وبمساعدة من كان داخلًا فيها من النّاس، كان (الإمام) يواجه جهاز بني أميّة. وبالطبع، إنّ ما جرى على الإمام الصادق عليه السلام هو أمرٌ مهمٌّ جدًّا ومليءٌ بالعبر، فقد كان يواجه بني أميّة لمُدّة عشر سنوات وكذلك بني



العبّاس (فقد واجههم) لمدة طويلة، وعندما كان انتصاره على بني أمية حتمياً جاء بنو العبّاس كتيّارٍ انتهزيٍّ ونزلوا إلى الميدان ومن بعدها صار الإمام الصادق عليه السلام يواجه بني أمية وبني العبّاس أيضاً.

وقد تُقلّ عن الطّبريّ - المؤرّخ المعروف - أمورٌ تتعلّق بمحاربة الإمام عليه السلام لبني أمية في مطلع السنوات العشر لإمامته. كانت مواجهة الإمام الصادق عليه السلام في هذه المرحلة قد أضحت علنيّة، فلم يكن يحتاج إلى التقيّة والكتمان وذلك بسبب أنّ خلفاء بني أمية كانوا مشغولين إلى درجة أنّه لم تُتَح لهم الفرصة ليلاحقوا الإمام الصادق وشيعته، كما لم يكن لديهم القدرة على قمعهم، لذا لم يحتج الإمام الصادق عليه السلام إلى إخفاء عمله.. كان الإمام الصادق عليه السلام يذهب يوم عرفة إلى عرفات ويقف بين هذه التجمّعات الكبيرة - والتي جاءت من جميع نقاط العالم الإسلامي، من أفريقيا والشرق الأوسط والحجاز والعراق، ومن إيران ذلك اليوم، ومن خراسان وأفغانستان ذلك اليوم، وتركستان الشرقية. فقد توافدت النّاس من جميع الأقطار، بحيث لو فجّرت قنبلة في هذا المكان تكون وكأنّك فجّرتها في كلّ العالم الإسلامي، وإذا قُلت شيئاً في هذا المحفل والتجمّع، تكون وكأنّك نشرته عبر شبكة إعلاميّة عالميّة. فكان الإمام الصادق عليه السلام يأتي إلى داخل هذا التجمّع الكبير ويُعلن بصراحة وبشكلٍ رسميٍّ للنّاس أنّ الإمام والحاكم بحق في هذا اليوم هو جعفر بن محمد وليس أبي جعفر المنصور، وكان يأتي بالدليل على ذلك، لا الاستدلال الكلامي والعقلاني لأنّه لم يكن لدى النّاس في ذلك الوقت الاستعداد للاستماع إلى مثل هذا التّوع من الاستدلال، فهو لم يكن واضحاً في مثل ذاك المجتمع، بل كان استدلالاً من نوعٍ آخر، لأنّ المنصور العبّاسي



وأمثاله، ولأجل أن يقنعوا أذهان النَّاس ويتظاهروا بأنَّهم خلفاء النبيّ، قد جعلوا سلسلة نسبية لأنفسهم، وكانوا يقولون إنَّنا نحن أبناء العباس، فقد كان لهم سلسلتان من النَّسب، وكانوا في كلّ مرّة يُصرِّحون عن واحدة منها.

كان أحدها أنَّهم كانوا يقولون نحن أبناء العباس عمّ النبيّ، وبعد رحيله أضحت الخلافة لبني هاشم، وبين بني هاشم فإنَّ الأكبر سنًّا وكما يُقال الأنسب، هو العباس عمّ النبيّ. فالخلافة بعد النبيّ كانت للعباس ولأنَّنا نحن أبناؤه فإنَّها تصل إلينا. كان هذا نحو من كلامهم. وكانوا يتحدثون عن سلسلةٍ نسبِيَّةٍ أخرى، فيقولون نحن أبناء عليّ العباسي، أي عليّ بن عبد الله بن عباس، وحقًّا كانوا يقولون لأنَّهم كانوا أحفاد عليّ العباسي أو أبناؤه، وهو تلميذ محمد بن الحنفية، ومحمد بن الحنفية هو ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الَّذي هو صهر النبيّ. فالخلافة انتقلت من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ عليه السلام ومن عليّ عليه السلام إلى محمد بن الحنفية. لا إلى الحسن والحسين. ومنه وصلت إلى ابن عبد الله بن العباس. الَّذي هو جدُّنا. ومنه وصلت إلينا، فنحن إذاً خلفاؤه.

فكانوا يؤلِّفون سلسلةً نسبِيَّةً على هذا النَّحو، وكان هذا الأمر مقنعًا لأذهان النَّاس في ذاك الزمان، لأنَّ مستواهم الفكريّ كان متدنّيًّا، لهذا كان الإمام يقف وسط هذا التجمُّع الكبير، ويُبيِّن السلسلة الصحيحة للإمامة: "أيُّها النَّاس إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان الإمام، ثمَّ كان علي بن أبي طالب"^{٢١٨}، وهو منطق الشَّيعة المعروف ومن بعده الحسن ثمَّ الحسين ومن بعده عليّ بن الحسين، ومن بعده محمد بن عليّ، ومن بعده أنا. فيعرِّف نفسه كإمامٍ



ومثل هذا كان يتطلب شجاعة كبيرة، ولم يكن بالكلام العادي البسيط، بل كان ذلك أكبر إعلان للمخالفة والمعارضة. كان الإمام الصادق عليه السلام يقوم بمثل هذا العمل في أواخر عصر بني أمية. أمّا في عهد بني العباس فلم يعد الأمر كذلك، بل كان يجري بالتقية والكتمان، وسبب ذلك أنّ بني العباس كانوا يرفعون شعارات آل عليّ ومواقفهم باللسان فكان ظاهريهم ظاهر آل عليّ، وعملهم عمل بني أمية.

لقد كانت المواجهة في عصر حكومة بني أمية على هذا الشكل، وفي عصر بني العباس . الذي دام لمدة أطول - أضحت (المواجهة) أكثر خفاءً، حيث كان بنو العباس يُمثلون ذلك التيار الانحراقيّ الذي انتهز الفرصة، وحزف الثورة التي كان الإمام الصادق عليه السلام بصدددها، وهذا هو الخطر الدائم لكلّ الثورات، حيث يتم أحياناً استبدال الخطّ الصحيح للثورة الذي يتطابق مع معاييرها وضوابطها الأساس، بخطّ بديلٍ منحرفٍ فاسدٍ باطلٍ تحت شعارات الحقّ. من هنا على الإنسان أن يكون حذراً وواعياً. ولم يكن أهل ذلك الزمان يمتلكون مثل هذا الوعي، فبعد سنوات، لعلّه بعد ثلاثين أو عشرين سنة، كان سكّان المناطق النائية ما زالوا يظنون - بعد مجيء بني العباس إلى الحكومة - بأنّ هذا الأمر حصل نتيجة جهادهم من أجل آل عليّ، لقد كانوا يتصوّرون بأنّ هذه هي نفسها حكومة آل عليّ، فلم يكن لديهم علم بأنّهم غاصبون (للخلافة).

(١٩٨٠/٠٩/٠٥)

لقد عاصر الإمام الصادق مرحلتين في هذه الفترة. الأولى تمتدّ من عام ١١٤ هـ إلى ١٣٢ هـ أو ١٣٥ هـ. أي إلى سنة انتصار بني العباس



واستلام المنصور للخلافة، وقد تميّزت هذه المرحلة بالهدوء والانفتاح، وذلك بسبب النزاع الذي كان دائراً بين بني أمية وبني العباس، فوجد الأئمة عليهم السلام في تلك الفترة فرصة لنشر العلوم الإسلامية. ولم يمرّ الإمام الباقر عليه السلام بمثل هذه الظروف لأنها كانت خاصّة بعصر الإمام الصادق عليه السلام. ففي عهد الإمام الباقر عليه السلام كانت الفترة فترة غطوسة بني أمية. وكان هشام بن عبد الملك - الذي قيل فيه كان هشام رجلهم، حيث كان أكبر شخصيّة بعد عبد الملك - في سدة الحكم وكانت فترة حكمه في عهد الإمام الباقر عليه السلام. بناءً عليه، لم يكن في عهد الإمام الباقر عليه السلام أيّ اختلاف بين شخصٍ وآخر، حتّى يتمكّن الأئمة عليهم السلام بموجبها من الاستفادة من الفرصة. أمّا زمن الإمام الصادق عليه السلام، فقد مثّل بداية انتشار دعوة بني العباس، التي كانت تنتشر شيئاً فشيئاً، وزمن وصول الدعوة الشيعيّة العلويّة إلى أوجها في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ.

.. ومع وصول المنصور إلى سدة الحكم والخلافة، فبالطبع، لقد أصبح الوضع صعباً، وعادت حياة الإمام الصادق عليه السلام لتكون كحياة الإمام الباقر عليه السلام في زمانه، تتسم بالقمع وممارسة الضغوطات على الإمام، وفي الوقت نفسه لقد تمّ نفي الإمام عليه السلام عدّة مرّاتٍ إلى الحيرة، والزُميلة، وإلى هذا المكان، وذاك المكان. لقد استحضر المنصور الإمام عدّة مرّات. وفي إحدى المرّات قال له: "قتلني الله إن لم أقتلك"^{٢١٩}، وفي إحدى المرّات، قام بإرسال كتاب إلى والي المدينة قائلاً: "أن أحرّق على

^{٢١٩} الاحتجاج على أهل اللجاج، الطبرسي، ج ١، ص ١٦٣.



جعفر بن محمد داره"، وعندما أُحرق داره، جاء الإمام وأظهر غريته وسط هذا الحريق: "أنا ابن أعراق الثرى"^{٢٢٠}. مما أدى إلى زيادة سخط أعدائه أكثر. فمعاملة المنصور للإمام الصادق عليه السلام كانت معاملة شديدة جدًا. فقد قام بتهديد الإمام عدّة مرّات.

بالطبع فإنّ تلك الروايات التي تنقل أنّ الإمام عليه السلام كان يتذلّل ويظهر الخضوع للمنصور، لا أساس لها من الصحة. فأنا قد بحثت حول هذه الروايات ولم يكن لأيّ واحد منها أيّ أساس أو سند صحيح ومعتبر. وغالبًا ما تنتهي في سندها إلى ربيع الحاجب هذا المقطوع بفسقه، الذي كان من المقرّبين للمنصور. كان البعض قد نقل بسذاجة أنّ الربيع كان شيعيًا. الربيع، من أين له التشييع؟! لقد بحثنا في حياة الربيع بن يونس، إنّ الربيع بن يونس هو من الأشخاص الذين وُلدوا في منزل أسيادهم، وأتى إلى جهاز حكم بني العباس وكان عبدًا لهم وحاجب المنصور وكان قد قدّم لهم الخدمات الكثيرة، وعندما كان المنصور يحتضر، كانت الخلافة لتذهب من أيدي عائلته لولا الربيع.

كان أعمامه موجودين، فقام الربيع بتزوير الوصيّة لتصبح الخلافة للمهديّ بن المنصور، وهكذا أوصل المهديّ إلى الخلافة، فهذه العائلة هي من العوائل الوفيّة والمخلصة لبني العباس، ولم يكن لهم أيّ ولاء لأهل البيت عليهم السلام. وكل ما وُضع (عن الربيع حول الإمام) فهو تلفيق وكذب،

^{٢٢٠} الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ٤٧٣، وجّه المنصور إلى حسن بن زيد وهو واليه على الحرمين أن أحرق على جعفر بن محمد داره فألقى النار في دار أبي عبد الله فأخذت النار في الباب والدهليز، فخرج أبو عبد الله يتخطى النار ويمشي فيها ويقول: "أنا ابن أعراق الثرى، أنا ابن إبراهيم خليل الله".



من أجل إظهار الإمام عليه السلام للمسلمين آنذاك بالإنسان المتدلل والخاضع أمام الخليفة حتى يعتبر الآخرون أنّ هذا هو تكليفهم أيضاً. على كلّ حال، فإنّ معاملة المنصور للإمام الصادق عليه السلام كانت معاملة قاسية جداً، إلى أن انتهت بشهادة الإمام عليه السلام وذلك في عام ١٤٨ هـ.

(١٩٨٦/٠٧/١٩)

فيما يلي سوف أُبين المعالم الهامة والبارزة في حياة الإمام الصادق عليه السلام من وجهة النظر الخاصة ببحثنا:

- ١- تبيان وتبليغ مسألة الإمامة.
 - ٢- تبليغ وبيان أحكام الدّين وفق منهج الفقه الشيعي وأيضاً تفسير القرآن على أساس الرؤية الشيعية.
 - ٣- إقامة تنظيم سري أيديولوجي . سياسي.
- (قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٦٧)

دعوة الإمام الصادق عليه السلام للإمامة

نرجع الآن إلى الحديث الأساس، أي أنّ ما كان يُشكّل بيت القصيد لدعوة الإمام الصادق عليه السلام، كغيره من أئمة الشيعة الآخرين، وهو موضوع الإمامة. ومن أجل إثبات هذه الحقيقة التاريخية فإنّ أكثر الوثائق قاطعيةً هي الروايات الكثيرة التي نُقل فيها دعوى الإمامة عن لسان الإمام الصادق عليه السلام بوضوحٍ وصراحةٍ تامةٍ.

وكما سوف نُبَيّن، كان الإمام عليه السلام أثناء ترويجه وتبليغ هذا الأمر يرى نفسه في مرحلةٍ من الجهاد، حيث كان عليه أن يتبرأ بشكل مباشر وصريح من حكام زمانه، وأن يُعرّف الناس على نفسه كصاحب حقٍّ واقعيٍّ للولاية والإمامة، وإنّ هذا العمل في الأساس لا يُمكن أن يتحقّق إلّا إذا طُوّيت المراحل السابقة للجهاد والنضال بنجاح، فتبرز مظاهر الوعي السياسي والاجتماعي في شريحةٍ واسعةٍ، ويتمّ استشعار الجهوزيّة والاستعداد الكامن في كلّ الأماكن، وتكون قد أُسست الأرضيّة الأيديولوجيّة في جماعةٍ معتدّةٍ بها، ويكون قد ثبت لعددٍ كبيرٍ من الناس ضرورة حكومة الحق والعدل، وفي النهاية يتخذ القائد قراره الراسخ من أجل المواجهة النهائيّة. فمن دون



كل هذه الأمور، يُصبح طرح اسم شخصٍ معيّن كإمامٍ وقائدٍ محقّق للمجتمع هو عملٌ متهوّرٌ لا فائدة منه.

النقطة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها هي أنّ الإمام عليه السلام لا يكتفي في العديد من الموارد بأن يثبت الإمامة لنفسه، بل يذكر أسماء أئمة الحقّ الذين سبقوه إلى جانب اسمه أيضاً، وفي الحقيقة، فإنّه يطرح سلالة إمامة أهل البيت المتصلة والتي لا يمكن تفكيكها. ومثل هذا العمل، بالالتفات إلى أنّه وفق الفكر الشيعيّ يدين كلّ الحكّام السابقين الجائرين ويعدهم طواغيت، ويمكن أن يكون إشارة إلى ارتباط جهاد الشيعة في هذا الزّمان بالأزمنة الماضية. وفي الواقع، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام بهذا البيان، يعدّ إمامته كنتيجة حتميّة لإمامة من سبقه، وبهذه الطريقة يُخرجها من تلك الحالة المنقطعة والفاقدة للجذور والأصول، ويوصل سلالته بتلك القناة الموثوقة والثابتة للنبيّ محمد صلى الله عليه وآله وسلم. والآن، التفتوا إلى عدّة نماذج من كيفيّة دعوة الإمام عليه السلام:

إنّ أكثر رواية لفتت نظري في هذا الباب هي رواية عمرو بن أبي المقدام والتي ترسم لنا مشهداً عجيّباً. ففي التاسع من ذي الحجة . يوم عرفة . اجتمع عددٌ كبيرٌ من الخلائق في عرفات من أجل أداء مراسم ذلك اليوم الخاصّ، ومن الطّبيعيّ أن يجتمع فيه ممثّلون عن كلّ المناطق التي يسكنها مسلمون من أقصى خراسان إلى ساحل البحر المتوسّط. ومن الممكن لكلمةٍ واحدةٍ في غير موضعها في هذا المكان، أن تستأصل عمل أكثر الشّبكات الإعلاميّة العامّة انتشاراً في ذلك الزّمان. فيوصل الإمام عليه السلام نفسه إلى هذا الجمع، ويحمل له رسالةً. ويقول الراوي:



رأيت الإمام عليه السلام يقف بين النَّاس ويعلن ندائه ثلاث مرَّات ويرفع صوته بأقصى ما يقدر عليه، بنداؤه ينبغي أن يطرق أسمع الجميع في كلِّ الأماكن وليصل عبرهم إلى كلِّ أنحاء العالم الإسلامي. فنجدته يتلقَّت إلى كلِّ الجهات، ويُكرَّر كلامه ثلاث مرَّات، وهكذا يفعل حتَّى يبلغ تكرار كلام هذا الإمام اثنا عشرة مرَّة. وقد أطلق ندائه هذا بمثل هذه العبارات: "أيُّها النَّاس إنَّ رسول الله كان الإمام، ثمَّ كان علي بن أبي طالب، ثمَّ الحسن، ثمَّ الحسين، ثمَّ علي بن الحسين، ثمَّ محمَّد بن علي، ثمَّ..."^{٢٢١}.

وحديث آخر، عن أبي الصَّباح الكنائي، يصف فيه الإمام الصادق عليه السلام نفسه وباقي أئمة الشيعة بمثل هذه العبارات: "نحن قومٌ فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال..."^{٢٢٢}. وصفو المال هي الأموال المصطفاة التي يخصَّ الطواغيت المتجبرون أنفسهم بها، ويقطعون أيدي المستحقين عنها، وعندما تخرج هذه الأموال المغصوبة بفضل انتصار المقاتلين المسلمين من أيدي الظالمين المهزومين، فإنَّها لا تُقسَّم كغيرها من الغنائم لتكون في اختيار شخصٍ ما، فتمنحه مقامًا كاذبًا وفخرًا مزيفًا، بل إنَّها تودع بيد الحاكم الإسلامي الذي عليه أن يستعملها في جهة مصالح المسلمين العامة. فالإمام عليه السلام في هذه الرواية يُعرِّف نفسه على أنَّه صاحب صفو المال وكذلك الأنفال. التي هي أيضًا من متعلقات الإمام. وبهذا البيان يوضَّح أنَّه هو الحاكم الحالي للمجتمع الإسلامي، وأنَّه يجب أن تصل إليه كل هذه الأموال وأن تكون بيده

^{٢٢١} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٥٨.
^{٢٢٢} الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ٥٤٦.



وأن تُستعمل بحسب رأيه في مواردها الصحيحة.

وفي حديث آخر، يُسمّى الأئمة السابقين واحداً واحداً، ويشهد على إمامتهم ولزوم طاعتهم وأتباعهم، وعندما يصل إلى اسمه يسكت. والذين كانوا يسمعون حديث الإمام عليه السلام يعلمون جيّداً أنّ ميراث العلم والحكومة بعد الإمام الباقر عليه السلام هو بيد الإمام الصادق عليه السلام. وبهذا الإجراء يطرح حقّه في قيادة وحكومة المجتمع مثلما أنّه يُبيّن بأسلوب استدلائيّ علاقته واتّصاله بجده الأكبر، عليّ بن أبي طالب^{٢٢٣}. ويُمكن أن نجد الكثير من الشواهد، في أبواب كتاب الحجّة من الكافي، وكذلك في المجلّد السابع والأربعين من بحار الأنوار، على مثل هذا الحديث الذي يُعلن فيه الإمام دعوى الإمامة بالتصريح أو الكناية.

الوثيقة القاطعة الأخرى، تذكر شواهد على الشبّكة التبليغيّة الواسعة للإمام عليه السلام في كلّ أنحاء الدّولة الإسلاميّة، وتجعل وجود مثل هذه الشبّكة أمراً مسلّماً. هذه الشّواهد، من الكثرة والثّبوت بحيث إنّّه لو لم يكن هناك حديث واحد صريح فإنّ ذلك لا يخلّش بحتميّة الموضوع. فمن يُطالع حياة الأئمة عليهم السلام غير المدوّنة، يتساءل في نفسه: ألم يكن لأئمة الشيعة في نهايات عصر بني أمّية من الدّعاة والمبلّغين في أطراف وأكناف الدّولة الإسلاميّة، الذين يبلّغون بإمامتهم ويأخذون من النّاس الطاعة والدّعم لهم؟ في هذه الحالة، إذا كيف يمكن تفسير هذه العلائم والروابط التنظيميّة التي تُشاهد بوضوح والتي تظهر في العلاقات الماليّة

^{٢٢٣} الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ١٨٦.



والفكرية، بين الأئمة والشيعة؟ فما معنى حمل هذه الحقوق الشرعية والأموال من مختلف أطراف العالم إلى المدينة؟ وكل هذه الأسئلة حول القضايا الدينية؟ وهذه الدعوة الواسعة المنتشرة للتشيع؟ وأيضا هذا الشرف والمحبة التي لا نظير لها، لآل علي في مناطق مهمة من الدولة الإسلامية؟ وهذا الجمع الغفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين الذين اجتمعوا حول الإمام عليه السلام؟ فأية يدٍ مقتدرة أوجدت كل هؤلاء؟ فهل يمكن أن نعتبر الصدفة أو الحدث التلقائي عاملاً أساساً وراء كل هذه الظواهر المنسجمة والمتراصة؟

فمع وجود كل هذا الإعلام المخالف، الذي كان يُبث من جانب الأبواق الهائلة لنظام الخلافة الأموية إلى مختلف المناطق، ويذكر اسم علي بن أبي طالب كأكثر الوجوه الإسلامية المدانة، وذلك على المنابر وفي الخطب، فهل يمكن ومن دون وجود شبكة إعلامية قوية أن يصبح آل علي يمثل هذه المحبوبة والجاذبية في تلك المناطق البعيدة والمجهولة، بحيث يطوي أولئك الناس كل هذه المسافات الواسعة ويأتون إلى الحجاز والمدينة لمجرد اللقاء والاستفادة وعرض المحبة والعلاقة، ويتلقون معارف الدين، والتي هي بحسب عقيدة الشيعة كالسياسة والحكومة، ويطلبون في بعض الموارد، لفقدانهم الصبر، الإقدام على التحرك العسكري، وبحسب لسان الروايات القيام والخروج؟! فلو كان سلاح الشيعة منحصراً في إثبات علم الأئمة وزهدهم فماذا سيكون معنى المطالبة بالثورة العسكرية؟!

من الممكن أن يُسأل أنه لو كان هناك مثل هذه الشبكة الإعلامية



الوسيلة والفعالة، فلماذا لا يوجد ذكر لها في التاريخ، أو لماذا لا يُنقل ما يتعلّق بوقائعها بصراحة؟ والجواب . كما أُشير سابقاً . وباختصار، هو أنّه يجب البحث أولاً عن سبب عدم هذا الظهور في البداية، في تمسك أصحاب الإمام عليه السلام الشّدِيد بأصل التّقِيّة المُعْتَبَر والراقي، والذي يمنع نفوذ أيّ دخيل إلى تشكيلات الإمام عليه السلام، ويؤدّي في النهاية إلى فشل جهاد الشّيعة في هذه المرحلة وعدم وصولهم إلى السّلطة والذي هو أيضاً بذاته معلولاً لعوامل عدّة. لو لم يصل العبّاسيون إلى السّلطة، لبقيت مساعيهم ونشاطاتهم السّريّة وذكرياتهم المرّة والحلوة من نشاطاتهم الإعلاميّة بلا شك في الصدور، ولما عرف أيّ أحدٍ شيئاً عنهم ولما سجّلها التاريخ.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٧٤-٨٠)

عندما نتحدّث عن التّقِيّة من الممكن أن نقولوا أنّ التّقِيّة ترتبط بذلك الزّمان الذي كانت فيه الحكومة الجائرة ممسكة بزمام السّلطة ونحن كنّا متحقّقين ولا نقول شيئاً بسبب الخوف منها. كلا، في ذلك الوقت لم تكن التّقِيّة قضيّة خوف. "التّقِيّة ترس المؤمن"^{٢٢٤} فأين يُستعمل التّرس؟ إنّه يُستخدم في ميدان الحرب وأثناء القتال. إذًا، التّقِيّة تكون في مورد المواجهة والقتال، حيث الترس والحرز والخندق والرمح.

^{٢٢٤} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٣٩٤.

وقد كان الأمر هكذا في ذلك الزمان. عندما كُنَّا نستعمل التقيّة لم يكن معنى ذلك أنّنا كُنَّا ننزل ضربة السيف على جسد العدو المنحوس، لكنّه كان بطريقةٍ لا يرى فيها ولا يُدرك أنّ هناك سيفًا ويدًا تحمل السيف، أو ترفعه وتضرب به، بل كان يشعر بالألم فقط. هكذا كانت التقيّة. أولئك الذين كانوا يستعملون التقيّة في تلك الأيام هكذا كانوا يفعلون، فقد كانوا على سبيل المثال، يعدّون المنشورات بعيدًا عن أعين العدو وفي البيوت السريّة رغم المراقبة الشديدة، وعندما توزّع كانت تهتك سمعة النظام. هذا العمل، كان كضربة السيف عندما يُرفع فإنّه ينزل على رأس العدو وعاتقه. وبناءً عليه، كُنّا نتقي أي إنّا لم نكن نسمح للعدو أن يُدرك ماذا يجري. فالتقيّة ترسّ والمتقي يجتبي خلف الترس. هذا هو معنى التقيّة وهي الآن تُعطي هذا المعنى نفسه.

(١٩٩٠/٠١/٢٩)

المواجهة السياسيّة عند الإمام الصادق عليه السلام

هذا أيضًا يُعدّ خطأ واضحًا في حياة الإمام الصادق عليه السلام، بحيث إنّنا يُمكن أن نراه بشكلٍ أكثر تميّزًا وصراحةً وصحّةً ممّا نراه في حياة الأئمّة الآخرين. فحتّى لو حصل الاختلاف على تسمية فقه الشيعة بالفقه الجعفريّ، أو وجدنا من ينكر النشاط السياسيّ للإمام عليه السلام أو يغضّ النظر عنه، فإنّ الجميع متفقون على أنّ الإمام الصادق كان له أوسع الحوزات العلميّة والفقهية في زمانه، أو إحدى أوسعها. في هذا المجال، إنّ ما بقي مخفيًا عن أعين أكثر الباحثين حول حياة الإمام عليه السلام هو المفهوم السياسيّ والبعد المعارض لهذا العمل، ونحن نقوم الآن بتناوله.

كمقدمة، ينبغي معرفة أنّ جهاز الخلافة في الإسلام يختلف عن جميع الأجهزة الأخرى للحكم من جهة أنّه ليس مجرد تشكيلٍ سياسيّ، بل إنّهُ يمثّل قيادةً سياسيّةً دينيّة. فاسم الخليفة ولقب الخليفة للحاكم الإسلاميّ يدلّ على هذه الحقيقة وهي أنّه أكبر من القائد السياسيّ، فهو خليفة النبيّ، والنبيّ هو من جاء بالدين والتعاليم الأخلاقية، وبالطّبع، فهو في الوقت نفسه يكون قائدًا وحاكمًا سياسيًا. فالخليفة في الإسلام، بالإضافة إلى السياسة، يتكفّل بالأمر الدينيّة للنّاس ويُعدّ إمامهم الدينيّ.



هذه الحقيقة المسلّمة أدّت إلى أن يقوم من جاء من الحكّام . بعد السّلسلة الأولى للخلفاء الإسلاميين، والّذين كانوا، (أي الحكّام اللاحقين) لا يتمتّعون بالمعرفة الدينيّة أو كانوا ذوي معرفة محدودة جدّاً في هذا المجال . لجرّان هذا النقص من خلال علماء الدّين المرتبطين بهم وإلحاق الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين المأجورين بجهاز حكمهم، وذلك من أجل أن يجعلوا هذا الجهاز مرّكباً من الدّين والسّياسة.

والاستفادة الأخرى من وجود هؤلاء الممثّلين للشّريعة في جهاز الحكم، هي أنّهم كانوا يستطيعون بسهولة أن يُبدّلوا أحكام الدين بحسب ما تقتضيه المصالح، وذلك تحت غطاء الاستنباط والاجتهاد - والّذي لم يكن للنّاس العاديين وعوائهم القدرة على تحديد معاييرهم - فكانوا يُبدّلون حكم الله من أجل السّلاطين والأمراء.

لقد ذكر الكتاب ومؤرّخو القرون السّابقة، نماذج مرعبة من اختلاق الأحاديث، والتفسير بالرأي والّذي كان في معظم الأحوال مؤشّراً على تدخّل السّلطات السّياسيّة. ذلك العمل الّذي كان في العصور الأولى - وحتى أواخر القرن الهجريّ الأوّل - يتّخذ شكل الرواية والحديث، تحوّل شيئاً فشيئاً إلى شكل الإفتاء، ولهذا نجد في أواخر العصر الأمويّ وبدايات العصر العبّاسي الكثير من الفقهاء الّذين يُصدرون الأحكام الإسلاميّة بحسب آرائهم - والّتي كانت في الواقع آراء وتوجّهات القوى الحاكمة . باستخدام الأساليب المبتدعة كالقياس والاستحسان. وقد حصل مثل هذا أيضاً فيما يتعلّق بتفسير القرآن. فتفسير القرآن بالرأي كان من الأعمال الّتي يُمكن بسهولة أن تنجرّ إلى تبديل حكم الله أمام أعين النّاس، وجعلهم



يعتقدون بما يُريده المفسر، والذي كان في الغالب ما يُمثّل إرادة الحاكم.

وبهذه الطريقة فإنّ الفقه والحديث والتفسير قد انقسم إلى تيارين عاقلين منذ بدايات العصور الإسلامية: التيار الأول هو المرتبط بأجهزة الحكم الغاصبية، والذي كان في الكثير من الحالات يجعل الحقيقة فدائاً لمصالح تلك الأجهزة ويُحرّف أحكام الله لقاء أثمانٍ بخسة، والتيار الآخر هو التيار الأصيل والأمين الذي ما كان ليُقدّم أيّ مصلحة على مصلحة تبين الأحكام الإلهية الصحيحة، ومن الطبيعي أن يكون في مواجهة مباشرة مع أجهزة الحكم وفقهاء السلطة مع كل خطوة يخطوها، ومنذ ذلك اليوم كان يتخذ في أغلب الأوقات شكل العمل السري وغير الرسمي.

وبهذا الوعي يُمكن بوضوح أن نعلم أنّ الفقه الجعفري لم يكن مجرد خلاف عقائدي ديني بسيط مع فقه فقهاء ذلك الزمان الرسميين في زمان الإمام الصادق عليه السلام، بل كان هذا الخلاف في نفس الوقت يحمل مضمونين للمواجهة أيضاً، الأول والأهم هو إثبات عدم تمتع جهاز الحكم بالوعي الديني والمعرفة وعجزه عن إدارة الأمور الفكرية للناس، وهذا في الواقع يعني عدم صلاحية التصدي لمقام الخلافة، والآخر هو تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي والناشئ عن المصلحة والمنفعة للفقهاء في بيان الأحكام الفقهية ومداراتهم لما يُمارسه ويرغب به أرباب السلطة والحكم. فالإمام الصادق، وبنشره لبساط العلم والمعارف الإسلامية وتفسير القرآن بمنهج مخالف لمنهج علماء البلاط، يكون في الواقع العملي قد نهض لمعارضة ذلك الجهاز. فهو عليه السلام بهذه الوسيلة كان يُخطئ جميع التشكيلات المذهبية والفقهية الرسمية، والتي كانت تُعدّ ضلعاً مهماً لحكومة



الخلفاء، ويعتبر جهاز الحكم خالوياً من ناحية البعد الديني.

أما إلى أي مدى التفت جهاز حكم بني أمية إلى بعد المواجهة في النشاط العلمي والفقهّي للإمام الصادق عليه السلام فلا يوجد لدينا سندٌ أو وثيقة واضحة وقاطعة، ولكن أغلب الظنّ هو أنّه في زمان بني العباس، وخصوصاً المنصور الذي كان يتمتع بدهاء وحنكة كبيرة، ولأنّه كان قد أمضى كلّ حياته السابقة على خلافته، في بيئة النضال والمواجهة ضدّ الأمويين، فإنّه كان مطلّعا على التّكات الدقيقة في مجال مواجهات وجهاد العلويين، وكان يوجّه زعماء ومسؤولي جهازه إلى الدّور المؤثّر لهذه المواجهة غير المباشرة.

إنّ التّهديدات والضّغوط والشّدائد اللاحقة للمنصور تجاه النّشاطات التّعليميّة والفقهيّة للإمام عليه السلام، قد ذُكرت ودوّنت في العديد من الرّوايات التّاريخيّة، ومنها ما نشأ من هذا التّوجّه والشّعور، وأيضاً تأكيداً وإصراره الكبير على جمع الفقهاء المعروفين في الحجاز والعراق في مقرّ حكومته - وهو ما يُستنتج من مضمون العديد من الرّوايات التّاريخيّة - فكلّ ذلك ناشئ من شعوره بذلك الاحتياج. ففي مباحثات الإمام ووصاياه إلى أصحابه والمقرّبين يُشاهد بوضوح استفادته من عامل "أن لا نصيب للخلفاء من العلم"، كدليل على أنّه لا يحقّ لهم الحكم بالمنظار الإسلاميّ، أي إنّ الإمام كان يطرح بصراحة ذاك المضمون الاعتراضيّ الذي كان موجوداً في تدريسه للفقه والقرآن.

ويُنقل في حديثٍ عنه: "نحن قومٌ فرض الله طاعتنا وأنتم تأتمّون بمن



لا يُعذر النَّاسُ بجهالة^{٢٢٥}، أي إنّ النَّاسَ وبسبب جهالة الحُكَّام والقادة غير المؤهَّلين ابتلوا بالانحراف والضَّلالة وسلكوا طريقًا غير طريق الله، وهم لذلك لا يمكنهم أن يكونوا معذورين عند الله كأن يقولوا إنّنا أخطأنا في تشخيصنا للطريق، وهؤلاء الزعماء وقادتنا قد جرّونا إلى هذا الطريق بسبب الجهالة. لأنّ طاعة أمثال هؤلاء القادة هو بحمد ذاته عملٌ خلاقيّ ومعصية فلا يمكن عندها تبرير المعاصي اللاحقة^{٢٢٦}.

هذا المفهوم المتعلّق بالقيادة السِّياسيّة في مجتمع الإسلام الثوريّ، أي القيادة الثوريّة، والتي ينبغي أن تكون متلازمة بالضرورة مع القيادة الفكرية والأيدولوجيّة، موجودٌ بوضوح في تعاليم الأئمة الذي جاؤوا قبل الإمام الصادق عليه السلام وبعده. ففي رواية عن الإمام عليّ بن موسى عن جدّه الأكبر الإمام محمّد الباقر عليه السلام، يساوي ما بين "السَّلاح" في سلالة الإمامة والتابوت الذي كان عند بني إسرائيل السابقين: "السَّلاح فينا كالتابوت الذي كان عند بني إسرائيل، فمن كان عنده كانت النبوة (وفي رواية الحكومة) له. ومن كان عنده السَّلاح كانت القيادة والزعامة له"^{٢٢٧}. وبالالتفات إلى الشكل الرمزيّ والمفهوم العميق جدًّا لهذا التعبير يسأل الرواي هنا: "أفيكون

^{٢٢٥} الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ١٨٦.

^{٢٢٦} وقد كرّر القرآن المضمون ذاته في العديد من المواطن وبألفاظ مختلفة، فذكر التخاصم بين الذين اتَّبَعُوا والذين اتَّبَعُوا على طريق الضلالة، وشكايّة الذين اتَّبَعُوا من الذين أضلّوهم.. وفي النهاية يذكر أنّ هذا العذر لا يُقبل من أحد وأنّ كلنا الفتنين لهما نصيبهما من العذاب. يُراجع الآية ١٦٧ من سورة البقرة والآية ٩١ - ١٠٢ من سورة الشعراء، والآية ٣١-٣٣ من سورة سبأ، والآية ٩٧ من سورة النساء.

^{٢٢٧} راجع: الكافي، ج ١، ص ٢٣٣.



السّلاح مزايلاً للعلم"^{٢٢٨} والإمام يُجيب قائلاً: كلا. أي إنّ قيادة المجتمع والقيادة الثّوريّة للأمة المسلمة تكون لمن يكون عنده السّلاح مع العلم.

فالإمام من جهةٍ، يعتبر شرط الإمامة هو معرفة الدّين والفهم الصّحيح للقرآن، ومن جانبٍ آخر، فإنّه من خلال نشر صروح العلم وجمع عددٍ كبيرٍ من التّأقّقين لمعارف الدّين حول نفسه وتعليم الدّين بأسلوبٍ خاصٍّ مخالفٍ للمنهج المعتمد في الفقه والحديث والتفسير، بل المغاير بشكل تامّ للمعرفة الدينيّة الرائجة عند العلماء والمحدّثين والمفسّرين المرتبطين بالبلاط، يكون عليه السلام قد أثبت معرفته الدينيّة وعدم معرفة جهاز الخلافة بالدّين، مع كلّ ما عنده من علماء تابعين وأصحاب شهرةٍ ومقام. وهو بهذه الطريقة، يكون قد أضفى بعداً جديداً على معارضته المستمرة والعميقة والمهادنة في المواجهة.

وكما أشير من قبل، فإنّ الحكّام الأوائل من بني العبّاس، والدّين كانوا، قبل وصولهم إلى السّلطة، متواجدين في البيعة الجهاديّة للعلويّين وإلى جنب أتباع وأنصار آل علي، ولديهم البصيرة والاطّلاع على الكثير من أسرار تفاصيلهم وتشعّباتهم، فقد أدركوا الدور الاعتراضيّ لهذه الدّروس والمباحث والأحاديث والتفسير، أكثر من أسلافهم الأمويين. ولعلّه لأجل هذا، قام المنصور العبّاسي، أثناء مواجهته الشرّيرة للإمام الصادق عليه السلام، بمنعه لمُدّة من الجلوس مع النّاس وتعليمهم الدّين والتّواصل معهم والإجابة عن أسئلتهم، إلى أن وصل الأمر بحسب نقل المفضّل بن عمر. هذا الوجه الشيعيّ اللامع والمعروف. أنّ كلّ من كان

^{٢٢٨} وقد أخذنا هذا المعنى لكلمة مزايلاً من كلامٍ للمحدّث المعروف العلامة المجلسي في كتاب مرآة العقول. (الكاتب)

لديه مسألة في باب التّوَجّ والطلاق وأمثالها لم يكن يستطيع بسهولة أن يصل إلى الإمام الصادق لِجِيبِهِ^{٢٢٩}.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٨٨-٩٥)

^{٢٢٩} المناقب، ابن شهر آشوب، ج ٤، ص ٢٣٨.





أكاديمية الحضارة الإسلامية المفتوحة
www.islamicooa.com/ims
+989217854824

التشكيلات السريّة الأيديولوجية والسياسيّة

لقد استطاع الإمام الصادق عليه السلام وبمساعدة آبائه الواسعة - أي الإمام السجّاد والإمام الباقر وخصوصًا في أواخر حياة الإمام الباقر عليه السلام - ومن ثمّ هو نفسه من خلال هذا السعي، إعداد عدّة مؤمنة ومسلمة ومذهبيّة وأصيلة وثوريّة ومضحّية ومستعدّة للمخاطرة في كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ. ولم يكن هؤلاء أشخاصًا عاديّين، لا يعني ذلك أنّهم كانوا من طبقات مميّزة، كلا، فكان منهم التاجر والكاسب والغلام وأمّثالها، ولكن من ناحية الرّكيزة المعنويّة لم يكونوا يشبهون الأشخاص العاديّين بأيّ شكلٍ من الأشكال. فقد كانوا أشخاصًا تُختصر حياتهم في هدفهم وفي مذهبهم، وكانوا منتشرين في كلّ الأماكن. من المدهش أنّ أتباع الإمام الصادق عليه السلام كانوا منتشرين في كلّ مكان، فلا ينبغي تصوّر أنّهم كانوا يتواجدون في المدينة فحسب، بل كانوا يتواجدون في الكوفة أكثر من المدينة، لا بل كان البعض منهم في الشام نفسها. فهؤلاء كانوا يُمثّلون الشّبكة العظيمة لتشكيلات الإمام الصادق عليه السلام. الحزب العلويّ وحزب التشيع، وما ذكرته هنا بشأن تلك الشّبكة هو التشيع نفسه،



أي إنَّ ما ذكرته حول تلك الشبّكة الواسعة للتشكيلات هو التشيّع نفسه. وهذا من الفصول الّتي لم تُعرف من حياة الإمام الصادق، إنّّه من الأمور الّتي أوّكد عليها أنا العبد وأصرّ عليها، كان هناك شبكة تنظيميّة عظيمة وحزبٌ كاملٌ يُدار من قِبَل الإمام الصّادق عليه السلام في كلّ أرجاء العالم الإسلاميّ وكانت هذه من نقاط القوة.

(١٩٨٠/٠٩/٠٥)

كان هناك شبكة هي الّتي كانت تتحمّل مسؤوليّة الأنشطة الواسعة والمثمرة المتعلّقة بقضية الإمامة في الكثير من المناطق النائية لدولة المسلمين، وخصوصاً في نواحي العراق العربيّ وخراسان. ولكن هذا أحد وجوه القضية وجزءٌ صغيرٌ جدّاً منها. إنّ موضوع التشكيلات السريّة في ساحة الحياة السياسيّة للإمام الصادق عليه السلام وللأئمة الآخرين أيضاً، هو من أهمّ فصول هذه الحياة والسيرة الجيّاشة، والوقت نفسه من أكثرها غموضاً وإبهاماً.

وكما قلنا سابقاً، من أجل إثبات وجود مثل هذه المنظّمة، لا يمكن ولا ينبغي أن نتوقّع وجود ذلك صراحةً في الوثائق. لا ينبغي توقّع أن يعترف أحد الأئمة أو أحد أصحابهم المقرّبين بصراحة بوجود تشكيلات سياسيّة فكريّة شيعيّة، فمثل هذ الشّيء لا يمكن الاعتراف به. ففي حال جاء يومٌ واطّلع العدو على وجود مثل هذه التشكيلات، وسأل الإمام عليه السلام أو أحد أصحابه حوله، فإنّ التّوقّع المعقول هو التّنكّر التام لوجود مثل هذا الشّيء، بل ينبغي اعتبار ذلك ظناً سيّئاً أو تهمّةً باطلة. فمثل هذا الأمر هو من الخصائص الدائمة للعمل السريّ. بالطّبع، من خلال التبحّر في تاريخ



حياة الأئمة، لا يمكن أن ننتظر أيضاً القبول بمثل هذه التشكيلات من دون شاهد أو وثيقة أو دليل مقنع. فيجب السعي للوصول إلى القرائن والشواهد وبواطن الحوادث التي تبدو بالظاهر بسيطة، وإن لم تلفت نظر المشاهد العادي، ولكن بالدقة والتأمل تنبئ عن أحداث سرية كثيرة. لو إننا نظرنا من هذا المنظار إلى كل مرحلة حياة الأئمة التي استغرقت قرنين ونصف، فسوف يصبح مسلماً تقريباً، وجود مثل هذه التشكيلات السرية التي تعمل تحت إمرة الأئمة.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٩٦-٩٧)

ماهية التشكيلات السرية ودورها

ما هو المقصود من التشكيلات؟ من البديهي أنه لم يكن المقصود حزباً منظماً وبمفهوم اليوم. أي مجموعة من الكوادر المنظمين وقادة منطقة ومدينة وغيرها - لا يمكن أن يكون كذلك. التشكيلات هي مجموعة من الناس، ذوو هدف مشترك، يقومون بأعمال ومسؤوليات مختلفة بالارتباط بمركز واحد وقلب نابض وعقل حاكم، ويشعرون فيما بينهم بنوع من الروابط والإحساسات والمشاعر القوية والمتألفة.

وهذا الجمع في زمن علي عليه السلام. أي في المدة الفاصلة بين السقيفة والخلافة، والتي امتدت لخمس وعشرين سنة. هم خواص الصحابة أنفسهم الذين كانوا، بالرغم من كل تظاهر جهاز الخلافة بالحقانية والشعبية، كانوا يعتقدون أن الحكومة هي حق أفضل المسلمين وأكثرهم تضحية. أي علي بن أبي طالب عليه السلام. ولم ينسوا النص الصريح للنبي



بخلافة عليّ عليه السلام، وقد أعلنوا بصراحة، منذ الأيّام الأولى بعد السّقيفة مخالفتهم للذين حصلوا على الخلافة ووفاءهم للإمام عليه السلام. وفيما بعد، ورغم أنّ المصلحة الكبرى حملت الإمام عليه السلام على السّكوت وحتّى التعاون مع الخلفاء الأوائل، فقد سلكوا المسار العاديّ للمجتمع الإسلاميّ، لكنّهم لم يُضَيّعوا أبداً رأيهم وتشخيصهم ونظرهم الصّحيحة، وبقوا على اتّباع عليّ عليه السلام، ولهذا السبب تُنمّوا بحقّ شيعة عليّ، وقد اشتهروا بهذا التوجّه الفكريّ والعملّي. ويُعدّ من هؤلاء شخصيّاتٌ معروفة ومفتخرة كسلمان وأبي ذرّ وأبيّ بن كعب والمقداد وعمّار وحذيفة ...و

وتؤيّد الشّواهد التاريخيّة أنّ هذه الجماعة كانت تنشر الفكر الشيعيّ - أي الاعتقاد بضرورة اتّباع الإمام كقائدٍ فكريّ وسياسيّ أيضاً - بين النّاس، ملتزمةً بأساليب المصلحة والحكمة، وكانوا يزدادون يوماً بعد يوم، وكان كلّ عملٍ لأجل تشكيل الحكومة العلويّة يُعدّ بمنزلة مقدّمة للواجب.

بعد أن وصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحكومة في العام ٣٥ للهجرة، فإنّ الأشخاص الوحيدين الذين قبلوا وأدعّوا للإمام عليه السلام على أساس المعايير الشيعيّة في مجال الحكومة والإمامة وبإيمانٍ راسخٍ هي هذه الجماعة الشيعيّة نفسها، أي أولئك الذين تربّوا بصورة مباشرة وغير مباشرة على يد الإمام عليه السلام في مرحلة الـ ٢٥ سنة الماضية. الآخرون - أي أكثر النّاس - وإن كانوا يعيشون في دائرة قيادة الإمام عليه السلام وكانوا يتحرّكون من النّاحية العمليّة في اتجاه الفكر الشيعيّ لكنّهم لم يكونوا يتمتّعون بتلك العلقّة الروحيّة والفكريّة الّتي جعلتهم ضمن مجموعة التشكيلات الشيعيّة.

وبالالتفات إلى وجود هذين الصنفين بين أتباع الإمام عليه السلام، يمكن تفسير هذا التفاوت الكبير في تعامل مسلمي ذلك الزمان مع الإمام عليه السلام، فهناك أمثال عمّار ومالك الأشتر وحجر بن عدي وسهل بن حنيف وقيس بن سعد، وإلى جانبهم يوجد أشخاص كأبي موسى الأشعريّ وزيد بن أبيه وسعد بن أبي وقاص. يجب أن نقبل أنه لو كان قد حصل أول إقدام على إيجاد التشكيلات الشيعيّة في هذا اللقاء، فإنّ طرح وأرضيّة ذلك كانت موجودةً ومرسومةً قبل مدّة طويلةٍ في كلام الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في مخاطبة أصحابه المقرّبين.

كانت الإجراءات المهمّة جدًّا التي حصلت بعد حادثة صلح الإمام الحسن عليه السلام قد أدّت إلى انتشار الفكر الشيعيّ وتوجيه هذه المجموعة المترابطة والمتألّفة، التي كانت تستطيع أن تتمتع بالمزيد من التحرك والديناميّة إثر السّلطة الظالمّة للسلطان الأمويّ والضغط الذي كان يمارسه عليها، فكان القمع والضغط يؤدّي دومًا إلى المزيد من تماسك ورسوخ وانتشار القوى المنسجمة الواقعة تحت هذا القمع، بدل أن يكون عاملاً لتشتتها.

إنّ تجميع الطاقات الشيعيّة الأصيلة والموثوقة وحمايتهم من شرّ المؤامرات الغادرة للجهاز الأمويّ ضدّ الشيعيّة، ونشر الفكر الإسلاميّ الأصيل في دائرة ضيّقة ولكنّها عميقة جدًّا، واستقطاب الطاقات المستعدّة وإضافتهم إلى مجموع الشيعيّة، وانتظار الفرصة المناسبة وفي النهاية الثّورة والتحرك في الوقت المناسب الذي يُدمّر التّظام الجاهلي لبني أميّة، سيُعيد التّظام الإسلاميّ والعلويّ إلى موقعه، هكذا كانت استراتيجيّة



الإمام الحسن وآخر الأسباب التي جعلت قبوله للصّلى غير قابلٍ للاجتناوب.

ولعلّه لأجل هذه الجهة، وبعد حادثه الصّلى، عندما جاءت جماعة من الشيعة بزعامه المسيّب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي إلى المدينة - حيث كان الإمام عليه السلام قد رجع لتوّه من الكوفة وجعل هذه المدينة مجدداً مقراً فكرياً وسياسياً لنفسه - واقترحوا على الإمام عليه السلام إعادة بناء القوى العسكرية والسيطرة على الكوفة والهجوم على جيش الشام، فاختار الإمام عليه السلامهذين الرجلين من بين الجميع واختلى بهما، وبكلمات لم يصلنا منها أيّ خيرٍ لا من قريب ولا من بعيدٍ أقنعهما بعدم صوابية هذه الخطّة، بحيث إنّهما عندما رجعا إلى أتباعهم ورفقائهم أفهموهم بكلماتٍ قصيرة وبليغة انتفاء موضوع الثّورة العسكريّة وضرورة رجوعهم إلى الكوفة وانصرافهم إلى أعمالهم.

وباللتفات إلى هذه القرائن، كان حسين المؤرّخ العربيّ المعاصر الفدّ - يعتقد أنّ اللبنة الأولى لبناء التشكيلات السّياسيّة الشّيعيّة قد حصلت في ذلك اليوم، وأسست في ذلك المجلس الذي اجتمع فيه الإمام الحسن عليه السلام مع هاتين الشخصيتيّتين الشّيعيّتين المعروفتين وتباحث معهما.

وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : "... لو قد فقدتموني لرأيتكم بعدي أشياء يتمنّى أحدكم الموت ممّا يرى من الجور والعدوان والأثرة^{٢٣٠}، والاستخفاف بحقّ الله والخوف على نفسه، فإذا كان ذلك، فاعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، وعليكم بالصّبر والصّلاة والتّقية، واعلموا

^{٢٣٠} الأثرة: - بالتحريك - اسم من استأثر بالشيء إذا استبد به بمعنى الاختيار وحب النفس المفرط واختصاص الرجل نفسه بأحسن الشيء دون غيره.



أن الله عزَّ وجلَّ يُغض من عباده التلّون. لا تزولوا عن الحق وأهله فإنَّ من استبدل بنا هلك، وفاتته الدّنيا وخرج منها
أثمًا...^{٢٣١}. وهذا الخطاب الذي يرسم بوضوح أهم مساوئ العصر الأموي ويبيّن الأمر الدائر حول التشكيل والتنظيم
والانسجام، يُعدّ من أكثر الوثائق الملفتة المتعلّقة بحزب الشيعة. وهذا الطّرح نفسه هو الذي نُشاهده في لقاء الإمام
الحسن عليه السلام وهذين الرّجلين اللذين يُعتبران من أخلص الشيعة ذاتًا وعملاً. لا شك أنّه لم يكن جميع الأتباع
والشيعة مطّلعين على هذه الخطّة الفاتكة الذكاء، وهذا كان سرّ الاعتراضات والإشكالات التي كانت ترد من
الأصحاب على الإمام عليه السلام، ولكنّ الجواب الذي كانوا يسمعون دائمًا بهذا المضمون ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ
لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾^{٢٣٢، ٢٣٣} هو إشارةٌ خفيّة إلى هذه السّياسة والتّدير.

وطوال مدّة حكومة معاوية المتجبرّة التي دامت عشرين سنة، وبالتّفصيل المؤلم الذي دوّنه المؤرّخون حول كيفيّة عمل
إعلامه المعادي للعلويّين، في جميع أنحاء البلاد - إلى درجة الوصول إلى لعن أمير المؤمنين عليه السلام وجعله سنّة رائجةً
ومتداولة - ومع عدم ظهور التّشاطات البارزة من قِبَل الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، فإنّ وجود مثل
هذه الروابط والتّشكيلات كان الأمر الوحيد الذي جعل تطوّر الفكر الشيعيّ وازدياد عدد الشيعة في كلّ الحجاز
والعراق ممكنًا.

^{٢٣١} تحف العقول، ص ١١٥.

^{٢٣٢} سورة الأنبياء، الآية ١١١.

^{٢٣٣} هذا الوضع يمكن مقارنته وتشبيهه إلى حدّ ما ومن جهاتٍ عدّة مع النسيج الحالي للمجتمعات التي تُدار وتُحكم من قبل الأحزاب.
(الكاتب)



عشرون سنة بعد واقعة الصلح، فلنلقِ نظرةً على السّاحة الفكرية لهذه المناطق. ففي الكوفة، كان يوجد رجالٌ شيعة، هم من أكثر الشخصيات والوجوه شهرةً ومعروفةً. وفي مكّة والمدينة وحتى في بعض النواحي النائية، كان هناك شيعة كالحلقات المتصلة الذين يتناقلون أسرار بعضهم البعض. وعندما يُقتل أحد زعماء الشيعة - حُجر بن عُديّ - بعد عدّة سنوات، نسمع صرخات الاعتراض في مناطق عدّة من البلاد، بالرغم من القمع الشديد، ونجد أنّ شخصيّةً معروفةً في خراسان، وبعد هذا الاعتراض الشديد، تموت من شدّة الحزن والأسى^{٢٣٤}. وبعد موت معاوية، يكتب آلاف الأشخاص إلى الإمام الحسين عليه السلام ويُرسلون الكتب ويدعونه إلى الكوفة من أجل الثّورة. وبعد شهادة الإمام عليه السلام، ينضم عشرات الآلاف إلى جماعة الثّائرين ويثورون في واقعة التّوابين أو ينضمّون لجيش المختار وإبراهيم بن مالك ضدّ الحكومة الأمويّة.

التّأطر في تاريخ الإسلام يسأل نفسه: هل إنّ رواج الفكر والتّوجّهات الشّيعيّة إلى هذا الحدّ كان ليكون ممكناً ومعقولاً سوى في ظلّ نشاطٍ محسوبٍ بدقّة لتشكيلاتٍ شيعيّة متّحدة ومنسجمة ومترابطة وذات جهة واحدة - أي من جانب تلك التّشكيلات التي استشرّف الإمام الحسين ولادتها مباشرةً بعد صلح الإمام الحسن؟ لا شكّ بأنّ الجواب سلبيّ. فالإعلام المستمرّ والدّقيق للجهاز الأمويّ المتسلّط الذي كان يُدار بواسطة مئات القضاة والقراء والخطباء والرّؤساء، ما كان ليُجاب عليه، وفي بعض الموارد ليُحبط

^{٢٣٤} صلح الإمام الحسن، الشّيخ راضي آل ياسين، ترجمة آية الله السيّد علي خامنئي.



إلا بوجود إعلامٍ دقيقٍ آخر، يُدار من جانب مجموعة مترابطة ذات جهة واحدة وبالطبع سرّية.

على مشارف هلاك معاوية، أضحت نشاطات هذه المنظّمة أكثر ووتيرتها أسرع، إلى درجة أنّ والي المدينة كتب إلى معاوية، بعدما حصل على تقريرٍ حول نشاطات الإمام عليه السلام: "أما بعد فإنّ عمر بن عثمان - المسؤول المعنيّ، قد أبلغنا أنّ رجالاً من العراق وجماعةً من مشاهير الحجاز، يختلفون إلى الحسين، ومن المظنون أنّه سيقوم. لقد بحثت في هذا الأمر ووجدت أنّه - الحسين - بصدد رفع راية المخالفة. فأبلغونا أوامركم ورأيكم" ^{٢٣٥}.

بعد واقعة كربلاء وشهادة الإمام عليه السلام، أضحت الأنشطة المنظّمة للشيعة في العراق أكثر رسوخاً وتحركاً بدرجات، وهذا هو التأثير الذي أوجدته الحالات النفسيّة لشيعة الكوفة، حيث إنّ الكثير منهم كانوا قد أخذوا على حين غرة مقابل ضربة جهاز الخلافة ولم يتمكّنوا من إيصال أنفسهم إلى ساحة عاشوراء. وكانت حرقه أسفهم وألمهم واضحةً جليّة.

يكتب الطبريّ المؤرّخ المعروف في ذلك القرن: "تلك الجماعة - أي الشيعة - كانوا دائماً مشغولين بجمع السلاح وإعداد العدة للحرب ودعوة الناس في الخفاء - سواء كانوا شيعة أم غير شيعة - من أجل ثأر الحسين وقد استجابت لهم جماعة بعد أخرى، والتحقوا بهم، وكان الأمر على هذا المنوال حتّى مات يزيد بن معاوية" ^{٢٣٦}.

^{٢٣٥} ثورة الحسين، ص ١١٨، نقلاً عن أعيان الشيعة والأخبار الطوال.
^{٢٣٦} راجع بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٣٥٦، نقلاً عن تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٥٨.



إنّ مؤلّفة "جهاد الشيعة" تظهر رأيها بشكلٍ صحيحٍ حيث تقول: "ظهرت جماعة الشيعة بعد شهادة الحسين كجماعة منظمّة تجمعها الروابط السياسيّة والعقائدية الدينيّة ولديها قادة وقوّات مسلّحة وكانت جماعة التّوايين أوّل مظهر لوجود مثل هذه الجماعة"^{٢٣٧}.

وكما يُفهم من مطالعة الأحداث التاريخيّة، وكذلك آراء هؤلاء المؤرّخين في أحداث عهد معاوية وكذلك الأحداث التي تلت شهادة الإمام الحسين عليه السلام، أنّ المبادرات والمشاريع وقيادة هذه الأحداث كانت فقط بيد الشيعة ومنحصرة بهم، وإلا فقد كان هناك الكثير من النّاس العاديين، الذين بسبب دوافعهم الإنسانيّة أو سخطهم على جهاز الحكم الأموي أو لدوافع وأسبابٍ أخرى يشاركون الشيعة من النّاحية العمليّة وينضمّون إليهم في ميادين القتال أو في التحركات التي كانت ذات صبغة شيعيّة. لهذا، لا ينبغي أن يُصوّر أنّ جميع الذين شاركوا في هذه الأحداث المختلفة في ذلك المقطع التاريخيّ وكان لهم أدوار فعّالة أو عاديّة، كانوا في عداد الشيعة، أو في التشكيلات المنظمّة والدقيقة للأئمّة عليهم السلام.

النقطة التي أريد أن أوّكد عليها مع التّوضيح المذكور آنفًا، هي أنّه وإلى هذا العصر الذي نبحث بشأنه - أي بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام - فإنّ اسم ومصطلح الشيعة كان يُطلق فقط على أولئك الذين كان لديهم رابطة محكمة ومحدّدة مع الإمام الحقّ من النّاحية الفكرية والعملية مثل

^{٢٣٧} سميرة مختار اللّيثي، جهاد الشيعة، ص ٢٧.



عصر أمير المؤمنين عليه السلام. هذه الجماعة هي التي كانت بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام قد أوجدت، وبأمرٍ من هذا الإمام عليه السلام، تلك التشكيلات الشيعية المترابطة، وهؤلاء أنفسهم هم الذين استقطبوا، بواسطة إعلامهم وتبليغهم الواسع والعميق، أشخاصاً إلى داخل هذه التشكيلات وجروا إلى الأحداث الشيعية المزيد من أولئك الذين ما كانوا من ناحية الفكر والأيدولوجية منسجمين ومشابهين لهم. لا شك بأن الرواية التي نقلناها في البداية عن كلام الإمام الصادق عليه السلام - الذي جعل جماعة المؤمنين لا تعدو ثلاثة أو خمسة أنفار - ناظرة إلى هذا الصنف من الناس، أي الشيعة والأتباع الراسخين للأئمة، أولئك الذين كان لهم دورٌ واسعٌ ومصيريٌّ في حركة وسير الثورة العلوية والهاشمية التكاملية. فعلى أثر سعي الإمام السجّاد السري والهادئ بالظاهر، استعاد هذا الجمع عناصره المستعدة الكامنة وجذبها ووسّعها مثلما قال الإمام الصادق عليه السلام في تلك الرواية التي أشرنا إليها الآن، "إنّ الناس لحقوا وكثروا"^{٢٣٨}. وفي عصر الإمام السجّاد، والإمام الباقر، والإمام الصادق عليهم السلام، هذا الجمع هو الذي كان يُخيف زعماء نظام الخلافة دائماً بتحركاته المشبوهة، ويدفعهم أحياناً إلى القيام بردود فعلٍ عنيفة.

بعبارة موجزة، لم يكن يُطلق اسم الشيعة في الثقافة الشيعية وكذلك في الفهم والإدراك والذهنية غير الشيعية، في القرون الأولى للإسلام وفي زمان الأئمة عليهم السلام، على الشخص الذي يكتفي بمحبة عترة النبي أو

^{٢٣٨} بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٤٤.



يعتقد فقط بحقيقتهم وصدق دعوتهم - وإن لم يكونوا يشاركون في دائرة النشاط والتحريك الذي كان الإمام مركزه ومحوره - بل بالإضافة إلى ذلك كان التشيع يحمل شرطاً أساساً وحتمياً هو عبارة عن: "الارتباط الفكري والعملي مع الإمام والمشاركة في الأنشطة التي كان يبادر إليها الإمام ويقودها نحو استرجاع الحق المغصوب وتشكيل النظام العلوي والإسلامي على كافة المستويات الفكرية والسياسية وأحياناً العسكرية".

هذا الارتباط هو ذاك الذي يُسمى في الثقافة الشيعية بـ "الولاية". في الواقع، إن التشيع كان عنواناً لحزب الإمامة، حزبٌ يقوم بنشاطات معينة بقيادة الإمام ومثل كل الأحزاب والمنظمات المعارضة في عصور القمع يتحرك بالتيقن والاستتار. هذه عصارة النظر الدقيق إلى حياة الأئمة وخصوصاً الإمام الصادق عليه السلام. ومثلما قلنا سابقاً، إن هذا ليس بالأمر الذي يمكن الجلوس وانتظار الأدلة الصريحة لإثباته، لماذا؟ لأنه لا ينبغي ولا يمكن أن نتوقع أبداً أن يكتب على بيت سري يافطة: "هذا منزل سري". هذا وإن لم يكن اعتبار وجوده مسلماً من دون القرائن الحتمية. فمن الجدير، عندئذٍ أن نذهب للبحث عن القرائن والشواهد والإشارات.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص ٩٧-١٠٧)



الفصل الحادي عشر: الإمام الكاظم عليه السلام

- ظروف تولّي الإمام الكاظم عليه السلام للإمامة
- السّعي دون كلّ واعتماد أسلوب التّقية
- جهاد الإمام عليه السلام ومعارضته لحكم هارون

ظروف تولي الإمام الكاظم عليه السلام للإمامة

هذا المقطع الزمني الممتد لـ ٣٥ سنة - من العام ١٤٨ للهجرة إلى ١٨٣ - وهو مرحلة إمامة الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام، يُعدّ أهم (مقطع) في مسيرة حياة الأئمة عليهم السلام. ففيه حكّم اثنان من أكثر سلاطين بني العباس اقتدارًا - المنصور وهارون - واثنان من أكثرهم تجبرًا المهديّ والمهدي. ولقد تمّ القضاء على الكثير من الثورات والانتفاضات في خراسان وأفريقيا وجزيرة الموصل والديلم وجرجان والشّام ونصيبين ومصر وآذربايجان وأرمينيا وغيرها من الأقطار وتطويعها. وفي نواحي الشرق والغرب والشّمال، من النّطاق الإسلاميّ الواسع، أُضيفت فتوحات جديدة وأموال وغنائم وافرة فزادت من قدرة عرش العباسيين واستحكامه.

لقد وصلت بعض التيارات الفكرية والعقائدية في هذه المرحلة إلى أوجها، وتولّد بعضها وخلق جوًّا فكريًّا مليئًا بالشّبهات، وسلّم الحرية لأصحاب السّلطة، وأضحى هناك آفة في الوعي الإسلاميّ والسياسيّ للنّاس، وضُيقت السّاحة على أعلام مجال المعارف الإسلاميّة الأصيلة



وأصحاب الدعوة العلوية وصُعب عليهم الأمر.

وأصبح الشعر والفنّ والفقه والحديث، وحتى الزهد والورع في خدمة أصحاب السلطة، وأكمل لهم أدوات الهيمنة والتسلّط. في هذا العصر، لم يُعدّ الوضع كما كان عليه في نهاية عصر بني أمية، ولا كان شبيهاً بالسّنوات العشر الأولى لحكم العبّاسيين، ولا شبيهاً بمرحلة ما بعد هلاك هارون، حيث كان كلّ منها يُشكّل تهديداً للحكومة المتسلّطة في تلك الأزمنة، فأَيّ تهديدٍ جدّي، ما كان ليزلزل جهاز الحكومة وما كان ليُجعل الحاكم في هذا المقطع الزمّي غافلاً عن التّيار العميق والمستمرّ لدعوة أهل البيت عليهم السلام.

في هذا العصر، الشّيء الوحيد الذي كان من الممكن أن يمنح جهاد أهل البيت عليهم السلام وحرّكتهم الفكرية والسّياسية، هم وأتباعهم، مجالاً للاستمرار والتكامل، هو السعيّ دون هوادة والجهاد الخطير واعتماد أسلوب التقيّة الإلهية. وبهذا اللحاظ تتضح العظمة المدهشة لجهاد موسى بن جعفر عليه السلام.

يجب أن أقول أنّه عندما قام المحقّقون والمتعمّقون في التاريخ الإسلاميّ، بتتبّع ودراسة حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فإنّهم لم يُخصّصوا القدر اللازم من الالتفات والانتباه لتلك الحادثة العظيمة والتي لا نظير لها وهي "مدّة السّجن الطويلة" لهذا الإمام الهَمّام، ولهذا كانت النتيجة أن غفلوا عن جهاده الخطير.

وفي سيرة حياة هذا الإمام العالي المقام عليه السلام، فإنّ الحديث عن الوقائع المختلفة وغير المترابطة فيما بينها، والتأكيد على المقام العلميّ



والمعنوي والمقدس لسبيل النبوة، ونقل قضايا آل بيته وأصحابه وتلامذته ومناظراته العلمية والكلامية وأمثالها، من دون التوجه إلى خطّ الجهاد المستمرّ الذي شمل مدّة إمامته المباركة الممتدّة لـ ٣٥ سنة، كلّ ذلك يبقى ناقصاً وغير تام. فبشرح وتبيين هذا الخطّ، الذي يربط جميع أجزاء هذه الحياة المليئة بالبركة فيما بينها، ويتقدم صورة واضحة ومتكاملة وهادفة فيها، تتّضح معاني كلّ ظاهرة أو حادثة أو حركة.

فلماذا يقول الإمام الصادق عليه السلام للمفضّل: لا تُخبر أحداً عن أمر إمامة هذا الفتى إلا لمن تثق بهم؟ ولماذا يقول لعبد الرحمن بن الحجاج تلميحا لا تصرّحاً: هل كان الدرع على مقاسه؟ ولماذا يُعرّفه على شيعته المقربين كصفوان الجمال بالعلامة والصفّة؟ ولماذا في نهاية الأمر، يذكر في وصيّته اسم ابنه كوصيّ له بعد ذكر أربعة أسماء، أولهم المنصور العباسي ومن ثمّ حاكم المدينة ومن ثمّ امرأتين، بحيث أنّ جمعا من كبار الشيعة لا يعرفون بعد ارتحاله، أنّ خليفته هو هذا الفتى ابن العشرين سنة؟ ولماذا في حديثه مع هارون الذي خاطبه قائلاً: "خليفتان يجيء إليهما الخراج"^{٢٣٩} يتنكّر ويلاطف، في حين أنّه في بداية خطابه لذلك الرجل الزاهد صاحب الكلمة النافذة المدعوّ حسن بن عبد الله، ينجرّ الحديث إلى معرفة الإمام، ويعرّفه بعنوان الإمام المفترض الطاعة، أي صاحب المقام الذي كان في ذلك اليوم الخليفة العباسي قابضاً عليه؟؟

ولماذا يأمر علي بن يقطين . الذي كان صاحب منصبٍ رفيعٍ في جهاز

^{٢٣٩} الاحتجاج على أهل اللجاج، الطبرسي، ج ٢، ص ٣٨٩.

هارون وهو من محبي الإمام عليه السلام . بالعمل بالتقية، لكنه يوتخ صفوان الجمال على خدمته في ذلك الجهاز نفسه ويدعوه إلى قطع علاقته مع الخليفة؟ وكيف وبأي وسيلة يوجد تلك العلقه والرابطة على امتداد انتشار الإسلام بين أتباعه وشيعته فتمتد تلك الشبكة إلى الصين؟ لماذا يعزم كل من المنصور والمهدي وهارون والهادي، في مرحلة حكمه، على قتله وحبسه ونفيه؟ لماذا، كما يُعلم من بعض الروايات، يتخفى الإمام عليه السلام في مدّة من الزمن أثناء هذه الـ ٣٥ سنة، ويلجأ إلى بعض قرى الشام أو مناطق طبرستان فتتم ملاحقته من قبل خليفة ذلك الزمان ويوصي أتباعه بالتنكر له وعدم معرفته فيما لو سألهم الخليفة عنه؟

لماذا يقوم هارون في موسم الحج بتجليله إلى أعلى حدّ، وفي حج آخر يأمر بحبسه ونفيه؟ ولماذا يقوم الإمام عليه السلام ببيان حدّ فدك الذي يشمل كلّ العالم الإسلامي المتراخي في بداية خلافة هارون، عندما انتهج أسلوب اللين والصّفح وحرّر العلويين من السّجون إلى الدرجة التي كان يُجيبه الخليفة معترضاً: إذًا، قم واجلس مكاني؟ ولماذا يتبدّل سلوك هذا الخليفة اللين بعد عدّة سنوات إلى الشدّة والعنف حتّى أمر بحبس الإمام عليه السلام، وبعدها بسنوات لم يعد يتحمّل وجوده في السجن فيأمر بقتله بالسمّ وارتكاب تلك الجريمة؟

هذه ومئات الأحداث الملفّقة والملبّسة بالمضمون، والتي بحسب الظاهر غير مترابطة ومتناقضة أحياناً فيما بينها، تصبح في حياة موسى بن جعفر عليه السلام، ذات معنى وارتباط عندما نشاهد تلك السلسلة المستمرّة منذ بداية إمامته وإلى لحظة شهادته. وهذه السلسلة هي خطّ جهاد



ومواجهة الأئمة عليهم السلام، والذي استمرّ طيلة ٢٥٠ سنة وبأشكالٍ مختلفة وكان الهدف منه، أولاً: تبين الإسلام الأصل والتفسير الصحيح للقرآن وتقديم صورة واضحة عن المعالم الإسلامية، وثانياً: تبين قضية الإمامة والحاكمية السياسية في المجتمع الإسلامي، وثالثاً: السعي من أجل تشكيل ذلك المجتمع وتحقيق هدف نبي الإسلام المعظم وجميع الأنبياء، أي إقامة القسط والعدل وعزل أنداد الله عن ساحة الحكومة وإيداع زمام إدارة الحياة إلى خلفاء الله وعباده الصالحين.

لقد أوقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كلّ حياته لهذا الجهاد المقدّس، وكان تعليمه وفقهه وحديثه وتقيّته وتربيته كلّها في هذا الاتجاه. بالطبع، كان لزمانه خصائصه، لهذا كان جهاده أيضاً متناسباً مع مقتضيات زمانه، مثلما كان الأمر بالنسبة للأئمة الثمانية من زمن الإمام السجّاد عليه السلام إلى زمن الإمام العسكري، حيث كان لكلّ واحدٍ أو لمجموعة منهم خصائص في زمانه وبتبع ذلك في جهاده. وكانت حياتهم بالمجموع عبارة عن المرحلة الرابعة من مسيرة حياة الـ ٢٥٠ سنة والتي يمكن تقسيمها أيضاً إلى مراحل.

(١٩٨٩/١٠/١٨)



السعي دون كليل واعتماد أسلوب التقيّة

كانت حياة موسى بن جعفر عليه السلام، حياةً مدهشة وعجيبة. ففي حياته الخاصة أولاً، كان الأمر واضحاً بالنسبة للمقرّبين. فلم يكن أيّ من هؤلاء المقرّبين والخواص من الأصحاب من لا يعلم بالهدف من وراء جهاده. وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام نفسه يُصرّح بهذا في كلماته وإشاراته وأعماله الرّمزيّة لغيرهم أيضاً. حتّى في محلّ إقامته، تلك الغرفة الخاصّة التي كان يستقرّ فيها، كان الأمر بحيث إنّ الراوي الذي كان من المقرّبين من الإمام عليه السلام يقول: لقد دخلتُ ورأيتُ في غرفة موسى بن جعفر ثلاثة أشياء، أحدها لباسٌ خشن بعيدٌ كلّ البعد عن الوضع السائد المرفّه العاديّ. أي بحسب مصطلح اليوم يمكن الفهم ويمكن القول إنّّه لباس حرب. لقد وضع موسى بن جعفر هذا اللباس لم يلبسه، وضعه بصورة شيء رمزيّ. و"سيفٌ معلقٌ" أي إمّا أن يكون متدلّياً من السقف أو معلّقاً بالجدار، و"المصحف" ^{٢٤٠} أي القرآن. فانظروا أيّ رمزٍ هذا وأيّ إشارة جميلة حيث تُشاهد في غرفته الخاصّة التي لا يدخلها سوى أصحابه

^{٢٤٠} العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠٠.



الخواصّ، علامات ومؤشّرات رجلٍ يملكُ عقيدةً جهاديّةً واضحة. والسّيف الموجود كان يُشير إلى أنّ الهدف هو الجهاد. واللباس الخشن يُشير إلى الوسيلة وهي الحياة الخشنة القتاليّة والثوريّة، والقرآن يُشير إلى أنّ الهدف هو أنّنا نريد الوصول إلى حياة القرآن بهذه الوسائل وهذه الصّعاب التي نتحمّلها، أمّا أعداء هذا الإمام عليه السلام فكانوا يشعرون بهذه الأمور.

إنّ حياة موسى بن جعفر، أي إمامته، بدأت في أصعب المراحل والمقاطع الزمنيّة. فباعثادي لا يوجد عصر من بعد عصر الإمام السجّاد عليه السلام بشدّة وصعوبة عصر موسى بن جعفر عليه السلام. فموسى بن جعفر عليه السلام صار إمامًا عام ١٤٨ بعد وفاة أبيه الإمام الصادق عليه السلام. وفي هذا العام كانت أوضاع بني العبّاس قد استتبّت، بعد فراغهم من الصّراعات والخلافات والحروب التي كانت دائرة فيما بينهم في بداية حكمهم. فقد قضوا على التّهديد الكبير لخلافتهم والذي كان يجيء من شخصيّات وجبهة كبني الحسن - محمّد بن عبد الله بن الحسن وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن وبقية أولاد الإمام الحسن الذين كانوا من أشدّ النّاس عداءً ونقمةً على بني العبّاس - حيث قتل العبّاسيّون عددًا كبيرًا من رؤسائهم ووجهائهم، وتبيّن هذا الأمر بعد فتح الأسطوانات والأنبار عند موت المنصور العبّاسي، حيث وجدوا فيها عددًا كبيرًا من الشّخصيّات والأفراد المقتولين الذين رُميت أجسادهم وظهرت هياكلهم العظميّة أيضًا. فلقد قتل المنصور من الشّخصيّات المشهورة والمعروفة من بني الحسن وبني هاشم من أقاربه ومن الذين كان يعدّون من المقرّبين لهم، بحيث إنّ بني لذلك مخازن خاصّة. وبعد أن فرغ من كلّ هؤلاء وصل الأمر إلى



الإمام الصادق عليه السلام، فقتله بالسّم غيلةً. ولم يعد في أجواء الحياة السياسيّة للعبّاسيين أيّ غبارٍ، في مثل هذه الظروف الّتي كان يتمتّع فيها المنصور بأوج السّلطة الظّاهريّة والقدرة، جاء دور خلافة موسى بن جعفر عليه الصّلاة والسلام، الّذي كان شابّاً في مقتبل العمر، وكان يخضع لكلّ هذه الرّقابة. وكان الأمر بحيث إنّ الّذين كانوا يريدون أن يعرفوا إلى من يرجعون بعد الإمام الصادق عليه السلام كانوا يجدون صعوبة بالغة في شقّ الطّريق والوصول إلى موسى بن جعفر عليه السلام. وكان موسى بن جعفر عليه السلام يوصيهم بالحدّز لأنّه لو عُرف أنّهم قد سمعوا منه وأخذوا من تعاليمه وارتبطوا به سيكون مصيره الذبح. ففي مثل تلك الظروف، وصل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى الإمامة وبدأ جهاده.

وهنا لو سألتهم أنّه كيف بدأ موسى بن جعفر جهاده عندما وصل إلى الإمامة؟ وماذا فعل؟ ومن جمع؟ وأين ذهب؟ وأيّ أحداثٍ جرت عليه طيلة هذه الـ ٣٥ سنة؟ فلاأسف ليس لهذا العبد جوابٌ واضح، وليس لي سوى الغصص كمحقّقٍ في حياة صدر الإسلام. فلا يوجد في يد أحد سيرةٌ منظّمة ومدوّنة عن هذه المرحلة الممتدّة على ٣٥ سنة. إنّ ما أذكره هنا لم يُكتب، ولم يجرِ حوله أبحاثٌ وتحقيقات، لأجل هذا، ينبغي القيام بمثل هذا الأمر. هناك أشياء متفرّقة يُمكن أن نفهم من مجموعها أشياء كثيرة.

إحداها أنّ هناك أربعة خلفاء حكموا في هذه السنوات الـ ٣٥ من عهد إمامة موسى بن جعفر عليه السلام. ومنهم المنصور العبّاسي، الّذي امتدّ حكمه لعشر سنوات من بداية إمامة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ثمّ جاء ابنه المهديّ من بعده وحكم لعشر سنوات أيضاً. ومن بعد المهديّ،



جاء المهادي العباسي ليحكم سنة واحدة، ومن بعده هارون الرشيد الذي حكم لمدة ١٢ سنة تقريباً، وقد كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مشغولاً بالتبليغ والدعوة إلى الإمامة. وكل واحد من هؤلاء الخلفاء الأربعة، ضايقوا موسى بن جعفر عليه السلام وضغطوا عليه.

كان المنصور قد استدعى الإمام عليه السلام بمعنى أنه قد نفاه أو أحضره جبراً إلى بغداد. وبالطبع، ما عرضه هنا هو بعض تلك الحوادث التي جرت. عندما ينظر المرء إلى حياة موسى بن جعفر يرى الكثير من هذه الحوادث، وإحداها هو استحضاره من المدينة إلى بغداد وجعله فيها تحت الرقابة والضغوط. وما نستنتجه من الروايات أن الإمام عليه السلام قد وُضع في الكثير من المشاكل. وكم امتدت هذه الحالة، ليس معلوماً. وذات مرة أحضروا الإمام في زمان المنصور إلى منطقة في العراق تُدعى أبحر، حيث نفوه لمدة ما، يقول الراوي وصلت إلى هناك، إلى محضر موسى بن جعفر عليه السلام، في ظل تلك الأحداث، وكان الإمام يقول كذا ويفعل كذا.

وفي زمن المهدي العباسي، أحضر الإمام عليه السلام مرة واحدة على الأقل من المدينة إلى بغداد. يقول الراوي: كُنْتُ في الطريق الذي سلكه موسى بن جعفر، في المرة الأولى التي كانوا يحضرونه فيها إلى بغداد. فيعلم من هذا التعبير أن الإمام عليه السلام كان قد أحضر عدّة مرّات إلى بغداد، وأنا أحتمل أن يكون قد حصل ذلك مرّتين أو ثلاث في زمن المهدي. فوصلت إلى الإمام عليه السلام وتأسّفت وحزنت. فقال لي الإمام: كلاً، لا تغتم، فسأرجع من هذا السفر سالماً، ولن يتمكّن هؤلاء من إلحاق أيّ ضررٍ بي، هذا كان في زمان المهدي.

وفي زمن المهادي العباسي، أرادوا إحضار الإمام لقتله، فحزن أحد

الفقهاء المحيطين بالهادي العباسي وتألم قلبه عندما رأى ابن النبی یفعل به هذا، فتوسّط للهادي العباسي، فانصرف عن قتله. وفي زمن هارون أيضاً، كانوا قد أحضروا الإمام عليه السلام إلى بغداد، لمدة طويلة وعلى عدّة مراحل، حيث أحتمل أيضاً أنّه تمّ إبعاد الإمام عن المدينة أكثر من مرّة، ولكنّ القدر المتيقّن هو أنّه تمّ إحضاره مرّة واحدة، وحُبس في أماكن مختلفة، كانت بغداد واحدة منها، كما وُضع في سجون متعدّدة أيضاً، كان آخرها سجن السنديّ بن شاهك حيث استشهد.

انظروا كيف أنّه تمّ إحضار الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عدّة مرّات، على امتداد هذه السنوات الـ ٣٤ أو ٣٥، أثناء انشغاله بالدعوة إلى الإمامة والقيام بالتكليف. علاوة على ذلك، فإنّ خلفاء عصره كانوا قد تأمروا عدّة مرّات على قتله. فبمجرّد أن وصل المهدي العباسي ابن المنصور إلى الحكومة حتّى قال لوزيره أو حاجبه الرّبيع أنّه عليك أن تعدّ العدّة لقتل موسى بن جعفر عليه السلام والقضاء عليه، حيث كان يشعر أنّ الخطر الأساس كان يأتي من جانب موسى بن جعفر عليه السلام. وكان الهادي العباسي، كما ذكرت، قد عزم في بداية حكومته على قتل الإمام عليه السلام. حتّى أنّه أنشد شعراً، قائلاً: لقد ولى الزمان الذي نعامل فيه بني هاشم باللين ونستسهل أمرهم، وإنّني عازمٌ وحازمٌ على ألاّ أبقى منهم أحداً، وأوّل من سأقضي عليه هو موسى بن جعفر. وفيما بعد، أراد هارون الرّشيد أن يقوم بالأمر نفسه، وقد فعل وارتكب هذه الجريمة الكبرى. فانظروا أيّ حياةٍ مليئة بالأحداث مرّت على موسى بن جعفر عليه السلام.

علاوة على ما ذكر، لا يوجد نقاطٌ كثيرةٌ دقيقة وواضحة في حياة موسى



بن جعفر عليه السلام. من المؤكّد أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كان يعيش في مرحلة ما من حياته متخفّياً ولم يكن معلوماً أين كان يستتر. وفي ذلك الزّمان كان الخليفة يستدعي من وقتٍ لآخر أفراداً ويُحقّق معهم حول إذا ما كانوا قد رأوا موسى بن جعفر عليه السلام ويسألهم عن مكانه. وكانوا هم يُصرّحون بأنّهم لم يُشاهدوه، حتّى أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام. كما جاء في رواية. كان قد أخبر أحد هؤلاء بأنّهم سيرسلون في طلبك ويسألونك أين رأيت موسى بن جعفر، فأنكر ذلك تماماً وقال إنّني لم أره. وهذا ما حصل بالفعل، فقد جاؤوا به وسجنوه من أجل أن يسألوه عن مكان موسى بن جعفر.

انظروا إلى حياة إنسانٍ لم يكن يفعل سوى أنّه كان يقوم ببيان الأحكام والمعارف الإسلاميّة ولا يتدخّل في الحكومة أو يُمارس المواجهة السّياسيّة، انظروا كيف وضعوه تحت مثل هذه الضغوط. حتّى إنّني رأيت في إحدى الروايات بأنّ موسى بن جعفر كان يتخفّى في قرى الشّام، "دخل موسى بن جعفر عليه السلام بعض قرى الشّام هارباً متكرّراً فوقع في غار" ٢٤١.

وقد رُوي في حديث أنّ موسى بن جعفر لم يكن في المدينة لمّة من الزّمن، وكان يُلاحق في قرى الشّام من قِبَل الأجهزة الحاكمة، حيث كانت تُرسل الجواسيس في أثره وتلاحقه من هذه القرية إلى تلك القرية، ومن تلك القرية إلى هذه القرية، في لباس مختلف وغير معروف، إلى أن وصل الإمام عليه السلام إلى غارٍ ودخله، فوجد فيه نصرانيّاً. فراح الإمام يتباحث معه، فحتى في مثل هذا الوقت، لم يكن الإمام عليه السلام غافلاً عن تكليفه الإلهي في بيان الحقيقة، فيتحدّث مع ذلك النصرانيّ ويُسلم.

جهاد الإمام عليه السلام ومعارضته لحكم هارون

هكذا كانت حياة موسى بن جعفر عليه السلام حياة مليئة بالأحداث، وكما ترون فقد كانت حياة جياشة. نحن اليوم ننظر فنظراً أنّ موسى بن جعفر عليه السلام هو مجرد شخص مظلوم، يعيش حياة هادئة ومرفهة في المدينة، فيأتي عمال الخليفة إليه ويأخذونه إلى بغداد أو إلى الكوفة أو إلى البصرة، لحبسه وتسميمه فيما بعد، فيستشهد وتنتهي الأمور. لم تكن القضية هكذا. بل كانت عبارة عن جهادٍ طويلٍ ومواجهة منظمة تحوي الكثير من الأفراد. وكان لموسى بن جعفر أتباعٌ في جميع أرجاء العالم الإسلامي يُحبّونه. وفي ذلك الزمان نجد ابن عمّه السيّد الذكر، والذي كان من الأشخاص التابعين للجهاز الحاكم، يقول لهارون بشأن موسى بن جعفر عليه السلام هذه الجملة: "خليفتان يجيء إليهما الخراج"^{٢٤٢}. وكأنه يريد أن يقول لهارون أنّه لا تتصوّر أنّك الخليفة الوحيد على هذه الأرض وداخل المجتمع الإسلامي وأنتك والوحيد الذي تُجبي إليه الخراج. بل يوجد خليفتان أحدهما أنت والآخر هو موسى بن جعفر عليه السلام. فكما



أَنَّ النَّاسَ يُعْطُونَكَ الْخِرَاجَ فَإِنَّهُمْ يُعْطُونَهُ كَذَلِكَ لِمُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد أراد بهذا الخبث السعاية في الإمام، ولكنّه كان يذكر الواقع. لقد كان لموسى بن جعفر عليه السلام روابط وعلاقات ممتدة عبر جميع مناطق العالم الإسلامي، غاية الأمر أنَّ هذه العلاقات لم تصل إلى حيث يتمكن موسى بن جعفر عليه السلام من القيام بحركة عسكرية علنية.

لقد بقي حال موسى بن جعفر عليه السلام هكذا إلى أن وصل الأمر إلى هارون الرشيد. كان هذا في الوقت الذي لم يعد في المجتمع الإسلامي أيّ معارضة للجهاز الحاكم، وكان هارون الرشيد يحكم فارغ البال تقريباً، لكنّ وضع حياة موسى بن جعفر عليه السلام وانتشار دعوته لم يجعل مواجهة أمره من قبلهم سهلاً. وقد كان هارون سياسياً محنكاً. ومن أعماله أنّه توجه وذهب إلى مكة حيث يحتمل الطبري. المؤرخ المعروف، أو يذكر ذلك على نحو اليقين. أنَّ هارون الرشيد قد عزم على الحجّ وكان هدفه أن يذهب إلى المدينة خفياً، ويطلع على أوضاع موسى بن جعفر عليه السلام عن قرب. فأراد أن يرى هذه الشخصية التي يجري كلّ هذا الحديث عنها، ولها كلّ هؤلاء الأتباع حتّى في بغداد، وهل أنّه ينبغي أن يُخاف منه، فجاء والتقى بموسى بن جعفر عليه السلام وكان هذا اللقاء مهماً جداً وحساساً للغاية. أولى هذه اللقاءات كانت في المسجد الحرام عندما التقى كلّ من موسى بن جعفر عليه السلام وهارون خفياً وجرت بينهما محادثات شديدة وحادة، وحطّم موسى بن جعفر عليه السلام هيبة هذا الخليفة في محضر الموجودين، وهناك لم يكن هارون ملتفتاً إلى أنَّ هذا هو موسى بن جعفر عليه السلام.



وبعد أن يأتي إلى المدينة، يعقد عدّة جلسات مع موسى بن جعفر عليه السلام، وكانت هذه اللقاءات مهمّة. وإنّي أُشير بهذا المقدار عسى أن يُتابع أهل الدّراسات والتّحقيق والمهتمّين بهذه القضايا، فهذه بعض الرّشحات ولتتابعوا هم هذه القضيّة. منها هنا، أنّ هارون الرشيد وفي هذه اللقاءات قد استعمل كلّ ما أمكنه من تهديد ورشوة وحيلة من أجل السيطرة على هذا الإنسان المعارض والمجاهد الحقيقي.

(١٩٨٥/٠٤/١٢)

إنّ هارون كان يُعامل الإمام الكاظم عليه السلام معاملة جيّدة وحسنة وذلك خلال المرحلة الأولى من تصدّيه للحكم. والقصة التي ينقلها المأمون حول الإمام الكاظم عليه السلام معروفة وملخصها أنّ الإمام عليه السلام كان يمتطي دابة وجاء ودخل إلى المكان الذي كان يجلس فيه هارون وأراد الإمام عليه السلام أن يترجّل عنها، ولكن هارون لم يرضَ بذلك وأقسم عليه أن يبقى راجباً ويأتي بدابته إلى بساطه، وعندما جاء الإمام عليه السلام راجباً على بساط الخليفة احترمه هارون وبقياً مدّة يتبادلان الحديث. وعندما عزم الإمام عليه السلام على الرّحيل طلب هارون مني (أي من المأمون) ومن الأمين أن نأخذ بركاب أبي الحسن.. إلى آخر القصة. والشّيء الملفت في هذه القصة هو ما نقله المأمون عن أنّ أبيه هارون: هارون، والدي، قد أعطى جميع الحاضرين في المجلس ٥ آلاف دينار و ١٠ آلاف دينار (أو درهم) كهدية وجائزة، ولكن أعطى لموسى بن جعفر عليه السلام ٢٠٠ دينار، علماً بأنّه عندما كان الخليفة يسأل عن وضع الإمام عليه السلام كان الإمام عليه السلام يُجيبه مبيّناً له المشكلات والأوضاع المعيشية السيئة وكثرة



العيال. فهذا الكلام من الإمام عليه السلام يحمل في طياته معنىً دقيقاً، فأنا وبقية الذين عاشوا تجربة التقيّة في زمان مواجهة الشاه نستطيع أن نفهم ونُدرك لماذا ذكر الإمام عليه السلام ولمثل هارون وضعه السيئ وعدم كفاية المعيشة، فهذا الكلام ليس فيه تدلّل.

الكثير منكم وفي عهد القمع والظلم قد فعلتم مثلما فعل الإمام عليه السلام، لأنّ الإنسان ومن خلال هذا الكلام يستطيع أن يُبعد نظر العدو عن أعماله ونشاطاته. ومن الطبيعي أنّ هارون وبعد استماعه إلى مثل هذا الكلام كان ينبغي أن يُعطي الإمام مبالغ طائلة ٥٠ ألف دينار (أو درهم) مثلاً. ولكنّه رغم هذا كلّهُ لم يُعطه أكثر من ٢٠٠ دينار! يقول المأمون سألت أبي عن سبب إعطائه القليل فأجابني إذا أعطيته المبلغ الذي في ذمتي لخرج، ولقام مئة ألف فارس من الشيعة، بعد فترة وجيزة، ضديّ. كان هذا استنتاج وفهم هارون، وبرأيي، إنّ هارون كان صائباً في فهمه. هنا يتصوّر البعض أنّه قد تمّ السّعاية والوشاية بالإمام عليه السلام لكنّ حقيقة القضية عكس ذلك وهو ما قلناه. لأنّه لو كان الإمام عليه السلام يملك من الأموال الكافية في زمان جهاده ونضاله ضدّ هارون لاستطاع استقطاب الكثيرين ليُحاربوا إلى جانبه. وهذا الوضع لاحظناه في زمان أبناء الأئمة عليهم السلام. بالتأكيد، لو كان الأئمة يملكون المال الكافي لاستطاعوا جمع عددٍ أكبر من النَّاس حولهم. وعلى هذا نجد أنّ عهد الإمام الكاظم عليه السلام كان عهداً وصل فيه الجهاد والكفاح إلى أوجه حتّى انتهى باعتقال الإمام عليه السلام وسجنه.

(١٩٨٦/٠٧/١٩)

رُوي أَنَّهُ قِيلَ لِمُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنْتُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ قَدْ حُرِّمْتُمْ مِنْ فَدَكٍ، وَقَدْ أَخَذُوا فَدَكَ مِنْ آلِ عَلِيٍّ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُرْجِعَهَا إِلَيْكُمْ، قُولُوا لِي أَيْنَ هِيَ فَدَكُ وَمَا هِيَ حَدُودُهَا حَتَّى أُرْجِعَهَا إِلَيْكُمْ. وَمِنْ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا كَانَ بِمَجَرَّدِ خِدَاعٍ هَدَفَهُ إِيْظَاهَارُ أَنَّهُ قَدْ أَرْجَعَ حَقَّ آلِ مُحَمَّدٍ الضَّائِعَ، وَأَنْ يُعْرِفَ بَيْنَ النَّاسِ بِذَلِكَ. فَيَقُولُ لَهُ الْإِمَامُ: حَسَنٌ، إِذَا أَنْتِ أَرَدْتَ أَنْ تَرْجِعَ لَنَا فَدَكَ، فَأَنَا سَأَعِيْنُ لَكَ حَدُودَهَا. وَهَكَذَا تَقَرَّرَ أَنْ يُجَدَّدَ لَهُ فَدَكُ. وَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَعْيِينِ فَدَكِ كَانَ عِبَارَةً عَنْ كُلِّ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَفَدَكُ هِيَ هَذِهِ. أَيْ إِنَّكَ إِذَا كُنْتَ تَتَصَوَّرُ أَنَّ نِزَاعَنَا مَعَكَ هُوَ حَوْلَ بَسْتَانٍ مَا وَعَدَ أَشْجَارٍ مِنَ النَّخِيلِ فَهَذِهِ سِدَاجَةٌ.

فَقَضَيْتُنَا هُنَا لَيْسَتْ قَضِيَّةُ بَسْتَانٍ فَدَكُ مَعَ نَخِيلِهِ، بَلِ الْقَضِيَّةُ هِيَ قَضِيَّةُ خِلَافَةِ النَّبِيِّ وَخِلَافَةِ الْحُكُومَةِ. غَايَةُ الْأَمْرِ، إِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي كَانَ يُظَنُّ أَنَّهُ سَيَحْرِمُنَا مِنْ هَذَا الْحَقِّ حَرَمَانًا كَامِلًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ هُوَ مِصَادَرَةُ فَدَكِ. لِهَذَا كُنَّا نُنْصِرُ وَنُؤَكِّدُ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ. أَمَّا الْيَوْمَ فَإِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي غَضَبْتُنَا إِيَّاهُ لَيْسَ فَدَكًا، أَلَيْسَ لَمْ يَعُدْ لَهَا قِيَمَةٌ. وَإِنَّ مَا غَضَبْتَهُ مِنَّا هُوَ الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ وَالْبِلَادُ الْإِسْلَامِيَّةُ. فَيَذْكُرُ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ أَرْبَعَةَ حَدُودٍ وَيَقُولُ هَذِهِ فَدَكُ، فَأَرْجِعْهَا إِلَيْنَا. أَيْ إِنَّ الْإِمَامَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُصَرِّحُ بِدَعْوَى الْحَاكِمِيَّةِ وَالْخِلَافَةِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ.

(١٣٨٥/٠٤/١٢)

رُوي أَنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ قَالَ لِمُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمًا: "خُذْ فَدَكًا حَتَّى أَرُدَّهَا إِلَيْكَ"، اِمْتَنَعَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْبَدَايَةِ، وَقَالَ بَعْدَهَا: "لَا أَخْذُهَا إِلَّا بِحُدُودِهَا". فَيَقُولُ لَهُ بَعْدَهَا: "حَسَنٌ، خُذْهَا". وَمِنْ الْمَلَفَتِ جَدًّا

أنَّ الإمام عليه السلام يُعَيِّن له حدودها ويقول: "أما الحدَّ الأوَّل فعَدَن"، ولأَُتَمَّا كانا جالسين مثلاً في المدينة أو في بغداد يتحدَّثان، أضاف: "عَدَن" أي نهاية جزيرة العرب. "فتغيَّر وجه الرشيد، وقال: إيها"، قال: "والحدَّ الثاني سمرقند"، فأريد وجهه، "والحدَّ الثالث إفريقيا" (أي الحدَّ الثالث كان تونس) فاسودَّ وجه هارون الرشيد، وقال: "هنيه هيه"، عجيب أيّ كلامٍ هذا. قال: "والرابع سيف البحر ما يلي الخزر وإرمينية". والتي هي أرمينيا اليوم وما يليها حتَّى البحر المتوسط. فقال الرشيد: "لم يبقَ لنا شيء، فتحوَّل إلى مجلسي". فردَّ عليه موسى بن جعفر عليه السلام : "قد أعلمتك أنِّي إن حدَّدتها لم تردّها" فعند ذلك عزم على قتله^{٢٤٣}.

(١٩٨٦/٠٧/١٩)

شهادة الإمام الكاظم عليه السلام

عندما يريد هارون الرشيد أثناء الدخول إلى حرم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة في ذلك السفر أن يتظاهر بين المسلمين الذين يزورونه، ويعلن قرابته من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ينزل إلى قبره ويقول: "السلام عليك يا بن العم"، فلا يقول: "يا رسول الله"، فيأتي موسى بن جعفر عليه السلام مباشرةً ويقف

^{٢٤٣} راجع: بحار الأنوار، ج ٢٩، ص ٢٠١. في مناقب ابن شهر آشوب، في كتاب أخبار الخلفاء أن هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر عليه السلام: "خذ فدكاً حتى أردّها إليك، فيأبى حتى ألجّ عليه فقال عليه السلام: "لا أخذها إلا بحدودها" قال: وما حدودها؟ قال عليه السلام: "إن حدّتها لم تردّها"، قال: بحقّ جدّك إلا فعلت؟ قال عليه السلام: "أما الحدَّ الأوَّل فعَدَن"، فتغيَّر وجه الرشيد وقال: إيها، قال عليه السلام: "والحد الثاني سمرقند"، فأريد وجهه قال: "والحد الثالث إفريقيا"، فاسودَّ وجهه وقال: هيه، قال عليه السلام: "والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية"، قال الرشيد: فلم يبقَ لنا شيء، فتحوَّل إلى مجلسي، قال موسى عليه السلام: "قد أعلمتك أنني إن حدّتها لم تردّها"، فعند ذلك عزم على قتله".



قبال الضَّريح ويقول: "السلام عليك يا أبتاه"^{٢٤٤}، أي إذا كنت أنت ابن عمّه، فهو أبي. فيفضح هذا الأسلوب التزويري لهارون في هذا المجلس نفسه.

شعر من كان من حواشي هارون الرشيد أنّ أكبر خطر على جهاز الخلافة هو وجود موسى بن جعفر عليه السلام. هناك وقف رجلٌ من أتباع جهاز الحكومة والسلطة ورأى أنّ شخصاً راكباً يأتي من دون أي نوع من الاعتبارات، ومن دون أن يمتطي حصاناً فاخراً، ومجرّد أن جاء فُتح له الطّريق وعلى الظّاهر في نفس سفر المدينة ذاك، على ما أظن، ويدخل ويسأل ذاك الرجل: من هو ذا الذي إذا دخل، خضع الجميع أمامه وفتح له حواشي الخليفة الطّريق ليدخل. قيل له: هذا موسى بن جعفر. ومجرّد أن قالوا له ذلك، قال: ويلٌ لحماقة هؤلاء، أي بني العباس، يجلّون شخصاً يريد زوالهم والقضاء على حكومتهم. فقد كانوا يعلمون أنّ خطر موسى بن جعفر عليه السلام على جهاز الخلافة هو خطرٌ قائدٍ كبير يتمتّع بالعلم الواسع والتقوى والصّلاح، ويعرفه الجميع وله أتباعٌ ومحّبون في جميع أرجاء العالم الإسلامي، ويتمتّع بشجاعةٍ لا تخيفه أيّ قوّة مهما بلغت، ولهذا يقف في وجه الأبهة الظّاهرية لسلطنة هارون ويتحدّث من دون أيّ محاباةٍ أو مجاملة.

مثل هكذا شخصيّة مجاهدة ومناضلة ومتّصلة بالله ومتوكّلة على الله لها أنصارٌ في جميع أرجاء العالم الإسلامي ولديها خطةٌ لأجل إقامة الحكومة والنّظام الإسلاميين. كان هذا يمثّل أكبر خطر على حكومة

^{٢٤٤} بحار الأنوار، ج ٤٨، ص ١٠٣.



هارون. لهذا، قتر هارون أن يزيل هذا الخطر من أمامه. بالطبع، لقد كان هارون رجلاً سياسياً لهذا لم يقيم بهذا العمل دفعةً واحدة. ففي البداية، كان يرغب أن يتم هذا الأمر بطريقة غير مباشرة. بعدها وجد أنه من الأفضل أن يسجن موسى بن جعفر عليه السلام، لعله يستطيع في السجن من التفاوض معه أو إعطائه امتيازات وأن يضعه تحت الضغوط من أجل حمله على القبول والإذعان والتسليم. لهذا أمر باعتقال موسى بن جعفر عليه السلام وإحضاره من المدينة، ولكن بطريقة لا تخدش مشاعر أهل المدينة ولا يعرفون ما حلّ بموسى بن جعفر عليه السلام. لهذا، صنعوا مركبين ومحمّلين ووجهوا واحداً منهما إلى العراق وآخر إلى الشام من أجل أن لا يعرف الناس إلى أين يأخذون موسى بن جعفر. فجاؤوا بموسى بن جعفر إلى مركز الخلافة في بغداد وسجنوه هناك، وامتدّ هذا السجن لوقتٍ طويل. بالطبع، ليس من المسلّم أنّ الإمام عليه السلام قد أُخرج من السجن دفعةً واحدة واعتُقل مجدداً، ولكن من المسلّم أنّه اعتُقل مرّة أخرى من أجل أن يُقتل في السجن وهذا ما فعلوه.

بالتأكيد، كانت شخصية موسى بن جعفر عليه السلام داخل السجن هي تلك الشخصية التي تُشبه المنارة الهادية لكل من كان يُحيط بها. فانظروا، الحقّ هو هذا، إنّ حركة الفكر الإسلاميّ والجهاد الذي يقوم على أساس القرآن هما مثل هذه الحركة، فلا يمكن أن تتوقّف لحظةً واحدة حتّى في أصعب الظروف وهذا هو العمل الذي قام به موسى بن جعفر عليه السلام حيث يوجد في هذا المجال قصصٌ كثيرة وروايات عديدة، وواحدة من أكثرها جمالاً ولفناً للنظر، أن السنديّ بن شاهك المعروف والذي تعلمون عنه

أنه كان سجنًا عنيفًا جدًا وشديدًا ومن عبيد العباسيين والأكثر وفاءً لهذه السلطنة والخلافة في تلك الأيام، وقد كان هذا سجن موسى بن جعفر عليه السلام، وقد سجن موسى بن جعفر عليه السلام في زنزانة مزرية تحت الأرض، في منزله. وكانت عائلة السندي بن شاهك في بعض الأوقات تنظر من طاقة إلى داخل السجن وقد أثر وضع حياة موسى بن جعفر عليه السلام فيهم وغرس فيهم بذر محبة أهل البيت. فأحد أبناء السندي بن شاهك، ويدعى كشاجم، هو من كبراء التشيع وأعلامهم. ولعل كشاجم كان من أولاد السندي لجيل أو جيلين، وكان من عظماء الأدباء والشعراء وأعلام التشيع في زمانه، وقد ذكر الجميع هذا الأمر، اسمه كشاجم السندي وهو من أولاد السندي بن شاهك.

هذا كان حال حياة موسى بن جعفر في السجن. بالتأكيد لقد جاؤوا مرّات إلى الإمام في السجن وهدّدوه وطمّعوه وأرادوا أن يُرغّبوه لكنّ هذا الإنسان العظيم الذي اتّصف بتلك الصلابة الإلهية، وبالتوكّل على الرّب المتعال واللفظ الإلهي ونفس هذا الصّمود هو الذي حفظ القرآن والإسلام إلى اليوم. اعلّموا هذا، إنّ استقامة أئمّتنا في وجه تيارات الفساد هي التي أدّت بنا اليوم لإدراك الإسلام الحقيقي. يُمكن للأجيال المسلمة وأبناء البشر اليوم أن يدركوا شيئًا باسم الإسلام والقرآن وسنة النبي في الكتب، أعمّ من كتب الشيعة وحتى كتب أهل السنة. لو لم تكن هذه الحركة المجاهدة الشديدة للأئمة عليهم السلام طيلة هذه الـ ٢٥٠ سنة فاعلموا أنّ الكتاب والخطباء المأجورين لعصر الأمويين والعباسيين كانوا ليبدّلوا الإسلام بالتدريج، وكانوا يفعلون ذلك، وبعد مرور قرنين، لما كان بقي من



الإسلام، أو لما كان بقي القرآن، أو لكان القرآن محرّفًا. إنّ هذه الرايات الخفّاقة وتلك المشاعر المتّقدة وهذه المنارات الرفيعة هي التي وقفت في تاريخ الإسلام وأطلقت شعاع الإسلام بحيث إنّ كلّ المحرّفين والّذين أرادوا أن يقلّبوا الحقائق في تلك البيئة المظلمة لم يتمكّنوا من أن يُحقّقوا ما أرادوا. كان تلامذة الأئمّة عليهم السلام من جميع الفرق الإسلامية ولم يكونوا من الشّيعيّة فقط، وأولئك الّذين كانوا من تلامذة الأئمّة والّذين لم يكونوا يعتقدون بأهداف التشييع، أي الإمامة الشيعيّة، كانوا أكثر. وقد تعلّموا التفسير والقرآن والحديث وسنّة النّبيّ من الأئمّة. إنّ هذه المقاومة هي التي حفظت الإسلام إلى يومنا هذا.

في النهاية قُتل موسى بن جعفر عليه السلام في السجن مسمومًا. ومن أشدّ مرارات سيرة الأئمّة هي شهادة موسى بن جعفر عليه السلام. وبالطّبع، لقد كانوا يريدون في ذلك الوقت أن يتظاهروا بالحسنى. ففي الأيام الأخيرة، جاء السنديّ بن شاهك بمجموعة من الوجوه والمشاهير الكبار الّذين كانوا في بغداد ليجتمعوا حول الإمام عليه السلام وقال لهم انظروا إنّ وضع حياته جيّد ولا يوجد أيّ مشكلة. فقال الإمام عليه السلام : نعم، ولكن اعلّموا أنّهم سيقتلونني مسمومًا. وقد قُتل الإمام مسمومًا ببضعة حبوب من التّمّر، وتحت تلك الأغلال والقيود التي قيّدوا بها عنقه وقدميه، وهكذا ارتفعت روح الإمام العظيم والمظلوم والعزیز في السجن، إلى الملكوت الأعلى ووصل إلى الشهادة.

بالطّبع، كان هؤلاء يخافون من جنازة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أيضًا، وكذلك من قبر موسى بن جعفر عليه السلام. ولهذا عندما أخرجوا



جنازة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من السّجن وكانوا يُطلقون الشعارات الّتي تدلّ على أنّ هذا الشخص كان خارجيّاً ويثور على الحكومة، كانوا يقولون هذه الكلمات لكي يجعلوا شخصيّة موسى بن جعفر عليه السلام في مورد التّهمة. وقد كانت أجواء بغداد بالنسبة للجهاز الحاكم أجواءً غير مستقرّة إلى درجة أنّ أحد عناصر جهاز الحكم نفسه وهو سليمان بن جعفر - سليمان بن جعفر بن المنصور العبّاسي أي ابن عم هارون الّذي يُعدّ من أشراف العبّاسيين . قد وجد أنّ هذا الوضع من الممكن أن يخلق لهم مشكلة، فقام بدورٍ آخر وأحضر جنازة موسى بن جعفر عليه السلام ووضع كفناً قيماً على الجنازة، وجاء بكلّ احترام إلى الإمام في مقابر قريش، الّتي تُعرف اليوم بـ "الكاظميين"، ودفنوا الإمام عليه السلام في المرقد المطهر القريب من بغداد، وهكذا ختم موسى بن جعفر حياة مليئةً بالجهاد.

(١٩٨٥/٠٤/١٢)

الفصل الثاني عشر: الإمام الرضا عليه السلام

- الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد
- خطة الإمام الرضا عليه السلام لمواجهة المأمون
- شهادة الإمام الرضا عليه السلام

الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

عندما استشهد موسى بن جعفر عليه السلام مسمومًا بعد سنين من الحبس في سجون هارون، سيطر جوّ عام من القمع على البلاد الخاضعة للسلطة العباسية. وفي ذلك الجوّ الخانق الذي وصفه أحد أتباع علي بن موسى عليه السلام، قال محمد بن سنان: "وسيف هارون يُقطر الدّم"^{٢٤٥}، كان أكبر إنجاز لإمامنا المعصوم الجليل هو أنّه استطاع أن يحافظ على شجرة التشيع وسط أعاصير الحوادث، ويمنع من تشتت وفتور عزم أتباع أبيه الجليل. وبأسلوب التقيّة المدهش استطاع أن يحفظ حياته التي هي محور وروح الشيعة، ليستمرّ في جهاد الإمامة العميق في عهد أكثر خلفاء بني العباس قدرةً، وفي زمن الاستقرار والثبات الكامل لذلك النظام. لم يتمكّن التاريخ من رسم صورة واضحة عن مرحلة السنوات العشر لحياة الإمام الثامن في زمن هارون، وفيما بعده في مرحلة الحروب الداخلية التي امتدت لخمس سنوات بين خراسان وبغداد، لكن بالتدبّر يُمكن إدراك أنّ الإمام الثامن في هذه المرحلة أكمل تلك المواجهة الممتدة لأهل

^{٢٤٥} الشيخ الكليني، الكافي، ج ٨، ص ٢٥٧.



البيت عليهم السلام والتي استمرت في كلّ العصور بعد عاشوراء بنفس تلك التوجّهات والأهداف.

وبمجرّد أن حسم المأمون تلك الحرب لمصلحته عام ١٩٨ وتحوّل إلى خليفة بلا منازع، كان من أوّل تدابيرهِ التفرّغ لحلّ مشكلة العلويين وجهاد التشييع. ولأجل هذا الهدف، وضع أمام عينيه تجربة سلفه من الخلفاء.

تجربةً أظهرت القدرة والشموليّة والعمق المتزايد لهذه التّهضة وعجز أجهزة السّلطة عن اقتلاعها أو إيقافها ومحاصرتها. لقد كان يرى أنّ سطوة وهيبة هارون حتّى مع السّجن الطّويل وتسميم الإمام السّابع في السّجن لم تتمكّن من منع الانتفاضات والمواجهات السّياسيّة والعسكريّة والإعلاميّة والفكريّة للشيعة. ولأنّه لم يكن بمستوى القدرة التي كانت لأبيه وسلفه، بالإضافة إلى تأثير الحروب الداخليّة بين العباسيين، فقد كان يرى بأن السّلطة العبّاسية مهدّدة بمشكلات كبيرة، ولهذا وجد من الضروريّ أن ينظر بجديّة تامّة إلى خطر نهضة العلويين.

لعلّ المأمون في تقييمه لخطر الشيعة على جهازه، كان يُفكّر بطريقة واقعيّة. وأغلب الظّن أنّ مدّة الخمس عشرة سنة بعد شهادة الإمام السابع وإلى اليوم الذي سنحت فيه بالخصوص فرصة السنوات الخمس للحروب الداخليّة، فإنّ تيّار التشييع تمّتع بالمزيد من الاستعداد على طريق رفع راية الحكومة العلويّة.

وقد كان المأمون يشعر بهذا الخطر بحدسه الذكيّ ويُفكّر بمواجهته، ولهذا بتبع هذا التقييم والتشخيص كانت قصّة دعوة الإمام الثامن من المدينة إلى خراسان واقتراح ولاية العهد الإلزاميّة عليه، وهذه الحادثة



التي جرت لم يحدث ما يُشبهها، ولم يكن لها في نوعيتها شبيه ولا نظير في جميع عهود الإمامة الطويلة.

وهنا من الجدير أن نُطالع واقعة ولاية العهد هذه. ففيها واجه الإمام الثامن علي بن موسى الرضا عليه السلام تجربةً تاريخيةً عظيمةً في معرض حربٍ سياسيةٍ خفيةٍ تحدّد نتيحتها انتصار أو هزيمةٍ مصير التشيع. ففي هذه المعركة، نزل الخصم وهو المأمون إلى الميدان بعدّته وعديده. وقد نزل المأمون إلى الميدانٍ متمتّعاً بالدهاء الواسع والتدبير القوي والفهم والدراية غير المسبوقة، بحيث لو انتصر واستطاع أن يُطبّق خطّته التي أعدّها لوصل يقيناً إلى الهدف الذي لم يتمكّن أيّ واحدٍ من الخلفاء الأمويين أو العباسيين من تحقيقه منذ السنة الأربعين للهجرة (أي بعد شهادة علي بن أبي طالب)، ورغم كلّ جهودهم، وهو عبارة عن اقتلاع شجرة التشيع وتيّار المعارضة الذي كان دوماً كشوكةً في أعين زعماء الخلافات الطاغوتية.

لكنّ الإمام الثامن عليه السلام، وبالتدبير الإلهي، تغلّب على المأمون وهزمه في ذلك الميدان السياسي الذي أوجده بنفسه. فلم تكن النتيجة أنّ التشيع لم يضعف فحسب، بل كانت سنة الـ ٢٠١ هجري هي سنة ولاية العهد للإمام عليه السلام، من أكثر سنوات تاريخ التشيع بركةً وثمرَةً، وقد بثّت نفساً جديداً في جهاد العلويين. كلّ ذلك ببركة التدبير الإلهي للإمام الثامن عليه السلام وأسلوبه الحكيم الذي أظهره هذا الإمام المعصوم في هذا الامتحان الكبير.

ولأجل أن نُضيء على وجه هذه الحادثة المدهشة نقوم بعرض شرحٍ



مختصر لخطّة المأمون وتدير الإمام في هذه الواقعة.

لقد كان المأمون بدعوته للإمام الثامن عليه السلام إلى خراسان يسعى وراء عدّة مقاصد أساس: أولها، وأهمّها تبديل ساحة المواجهات الثوريّة الحادّة للشيعة إلى ساحةٍ للنشاط السياسيّ الهادئ البعيد عن الخطر. وكما ذكرت فإنّ الشيعة كانوا يُمارسون في ظلّ التقية مواجهات ونضال لا يعرف التعب والتوقّف. وهذه المواجهات النضالية، التي كانت متلازمة مع خاصيتين، كان لها تأثيرٌ لا يوصف في القضاء على بساط الخلافة، أحدهما المظلوميّة والأخرى القداسة.

كان الشيعة وبالاغتماد على هذين العاملين التّافذين يوصلون الفكر الشيعيّ الذي هو عبارة عن تفسير الإسلام وتبيينه بحسب رؤية أئمة أهل البيت إلى زوايا قلوب وأذهان مخاطبيهم، وكانوا يجعلون أيّ شخصٍ يمتلك أقلّ استعداد يميل إلى هذا النوع من الفكر أو مؤمنًا به، وهكذا كانت دائرة التشيع تتسع يومًا بعد يوم في العالم الإسلاميّ. وكانت تلك المظلوميّة والقداسة التي تنطلق من ركيزة الفكر الشيعيّ تُنظّم هنا وهناك وفي جميع العصور تلك التّهضات المسلّحة والحركات الثوريّة ضدّ أجهزة الخلافة.

كان المأمون يريد أن يسلب هذا الجمع المناضل ذاك الخفاء والاستتار دفعةً واحدة، ويجرّ الإمام عليه السلام من ميدان المواجهة الثوريّة إلى ميدان السياسة، ويوصل بهذه الطريقة فعاليةً نهضة التشيع التي كانت تتزايد يومًا بعد يوم، على أثر ذلك الاستتار والاختفاء إلى درجة الصفر. وبهذه الطريقة كان المأمون يسلب جماعة العلويّين هاتين الخاصيتين المؤثريتين



والنافذتين. لأن الجماعة التي يكون قائدها شخصية مميزة في جهاز الخلافة وولي عهد الملك المطلق العنان في زمانه، والمتصرف في أمور البلاد ليس مظلوماً وليس مقدساً كما يُدعى. وكان لهذا التدبير القدرة على أمرين:
الأول: أن يجعل الفكر الشيعي مرادفاً لسائر العقائد والأفكار التي لها أتباع في المجتمع ويخرجه من حيثية الفكر المخالف لجهاز السلطة، الذي وإن كان بنظر الأجهزة ممنوعاً ومبغوضاً، لكنه كان بنظر الناس، وخصوصاً الضعفاء، يمتلك جاذبية كبيرة ويثير التساؤلات.

والثاني: تخطئة ادعاء التشيع حول خلافة الأمويين والعباسيين، وإضفاء الشرعية على هذه الخلافات. وكان المأمون بهذا العمل يُثبت لجميع الشيعة بالتزوير، أنّ ادعاء غصب الخلافة المتسلطة وعدم شرعيتها... لأنه لو كانت الحكومات السابقة فاقدة للشرعية فينبغي أن تكون خلافة المأمون وحكومته التي هي وريثة تلك الحكومات غير شرعية وغاصبة، ولأنّ علي بن موسى الرضا عليه السلام بدخوله في هذا الجهاز وقبوله لولاية عهد المأمون قد اعتبره قانونياً ومشروعاً، فيجب أن يكون باقي الخلفاء شرعيين، وهذا بذاته نقضٌ لجميع ادعاءات الشيعة. ولم يكن المأمون بهذا الفعل ينتزع من علي بن موسى الرضا عليه السلام شرعية حكومته و (حكومة) من سبقه فحسب، بل كان يُدمر أحد أركان الاعتقاد الشيعي بظلم أركان الحكومات السابقة من أساسها.

إضافة إلى نقض الفكرة السائدة والمعروفة عن زهد وعدم اهتمام الأئمة بزخارف الدنيا ومقاماتها، ويظهر بأنّ الأئمة يلجؤون إلى الزهد



فقط في الظروف التي لا تصل فيها أيديهم إلى الدنيا، أي عندما يُمنعون عنها. بينما عندما تفتح أمامهم أبواب جنة الدنيا يسرعون نحوها. وحالهم في هذا حال الآخرين. فهم يتنعمون بالدنيا إن أقبلت عليهم.

والهدف الثالث للمؤمن، هو أن يجعل الإمام المعصوم، الذي كان ركيزة المعارضة والمواجهة في جهازه الحاكم دوماً، وكذلك بقية القادة العلويين ومن معهم ممن اجتمع حول الإمام عليه السلام أهل الصلاح، يدخلون تحت سيطرة المؤمن. وهذا نجاح لم يتمكن أحد على الإطلاق أن يحققه لا من العباسيين ولا من الأمويين.

والهدف الرابع، هو أن يجعل الإمام عليه السلام، الذي يمتلك العنصر الشعبي، ويُعدّ قبلة الآمال ومرجع الناس في كل أسئلتها وشكاواها، تحت محاصرة أجهزة الحكومة. وبذلك يفقد شيئاً فشيئاً الطابع الشعبي ويبيح حاجزاً بينه وبين الناس حتى يضعف بالتالي الرابط العاطفي بينه وبين الطبقة الشعبية.

الهدف الخامس للمؤمن، كان أن يكسب سمعة معنوية ووجاهة. فمن الطبيعي عندها أن يمدح الجميع ذلك الحاكم الذي اختار لولاية عهده ابن بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وصاحب الشخصية المقدسة والمعنوية، وفي المقابل يحرم إخوته وأبناءه من هذا المنصب. والمعروف دائماً أن التقرب من الصالحين والمتدينين من قبل طلاب الدنيا يُذهب ماء وجه الصالحين ويزيد من ماء وجه أهل الدنيا.

الهدف السادس، كان باعتقاد المؤمن أن الإمام عليه السلام بتسلمه لولاية العهد سيتحوّل إلى عاملٍ تبريريٍّ لجهاز الحكم. فمن البديهي أن شخصاً



كالإمام بما لديه من تقوى وعلم ومقام لا نظير له، وهو في أعين الجميع من أبناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إذا قام بشرح وتبرير ما يقوم به جهاز الحكومة، سوف يأمن النظام من أي صوت مخالف ولن يطعن به أحد.

وبذلك أيضًا لا يستطيع أحد أن يُنكر شرعية تصرفات هذا النظام. فهذا الأمر كان عند المأمون قلعةً منيعةً يمكنه من خلالها أن يُخفي عن الأعين أخطاء الخلافة وقبائحها.

بالإضافة إلى هذه كان للمأمون أهدافٌ أخرى بحسب تصوّره.

وكما يُشاهد فإنّ هذا التدبير كان من العمق والتعقيد لدرجة أنّه لم يكن لأحدٍ غير المأمون القدرة على القيام به، ولهذا السبب، كان أنصار المأمون والمقربون غافلين عن أبعاده وجوانبه. ويُستنتج من بعض الوثائق التاريخية، أنّ الفضل بن سهل، الوزير والقائد الأعلى، وأكثر الأفراد قربًا من جهاز الخلافة، كان غير مطلعٍ على حقيقة هذه السياسة ومحتواها. وذلك حتّى لا تتعرّض أهدافه في هذه الحركة الالتفافية إلى أيّة نكسة.

ولأجل ذلك كان المأمون يخترع القصص من أجل توجيه هذا الفعل ودوافعه ويتوسّل بهذا القول وذاك. يجب القول حقًّا أنّ سياسة المأمون كانت تتمتع بتجربة وعمق لا نظير له، لكنّ الطّرف الآخر الذي كان في ساحة الصّراع مع المأمون هو الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام. وهو نفسه الذي كان يُحوّل أعمال وخطط المأمون المتصّفة بالدّهاء والمكر والمزوجة بالشيطنة والمعدّة بدقّة وشمولية، إلى أعمال لا فائدة لها ولا تأثير وإلى حركات صبيانية. بينما المأمون الذي بذل هذه الجهود وأنفق من رأسماله الكبير في هذا السبيل، لا أنّه فقط لم يُحقّق أي شيء من



الأهداف التي كان يسعى إليها، بل إن سياسته التي اتبعتها انقلبت عليه. فالسهم الذي كان يُريد أن يرمي به مقام ومكانة وطروحات الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، أصاب المأمون، بحيث إنّه وبعد مضيّ فترة قصيرة أصبح مضطراً لأن يعتبر كلّ تدابير وإجراءاته الماضية هباءً منثوراً كأنّها شيئاً لم يكن. وفي نهاية المطاف عاد المأمون ليختار نفس الأسلوب الذي سلكه أسلافه من قبله وهو قتل الإمام عليه السلام. فالمأمون الذي سعى جاهداً لتكون صورته حسنة ومقدّسة وليتّصف بأنّه خليفة طاهر عاقل، سقط في النهاية في تلك المزلة التي سقط فيها كلّ الخلفاء السابقين له. أي انجرّ إلى الفساد والفحشاء ووسمت حياته بالظلم والكبر.

ويمكن مشاهدة نماذج من حياة المأمون على مدى ١٥ عاماً بعد حادثة ولاية العهد تكشف ستار الخداع والتّظاهر عند المأمون. فكان لديه قاضٍ للقضاة، فاسق وفاجر مثل يحيى بن الأكثم. وكان المأمون يُحضر المغنيات أيضاً إلى قصره، وكان لديه مغنٍ خاصّ يُدعى إبراهيم بن مهديّ، وقد عاش مرّتها مسرفاً حتّى أنّ ستائر دار خلافته في بغداد كانت من الدرّ.

خطة الإمام الرضا عليه السلام لمواجهة المأمون

بعد هذا العرض لسياسة المأمون، نتعرض إلى السّياسة والإجراءات التي قام بها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لمواجهة هذا الواقع:

النقطة الأولى: عندما دُعي الإمام عليه السلام من قبل المأمون لينتقل من المدينة إلى خراسان، نشر جوّاً في المدينة يدلّ على انزعاجه وتضايقه من هذه الخطوة، بحيث إنّ كلّ شخص كان حول الإمام عليه السلام تيقّن أنّ المأمون يُضمر سوءاً للإمام عليه السلام من خلال إبعاده عن موطنه. ولقد أعرب الإمام للجميع عن سوء ما يرمي إليه المأمون بكلّ الأساليب الممكنة، فقام بذلك عند توديع حرم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعند توديع عائلته وأثناء خروجه من المدينة وفي طوافه حول الكعبة من أجل الوداع، وبكلامه وسلوكه ودعائه وبكائه، كان واضحاً للجميع أنّ هذا السفر هو رحلته الأخيرة ونهاية حياته عليه السلام.

وخلافاً لما كان يتصوّره المأمون وهو أن يُنظر إليه نظرة حسنة، بينما يُنظر إلى الإمام عليه السلام، الذي قيل بطلب المأمون، نظرة سيّئة، نرى أنّ قلوب الجميع، ونتيجة لردّ الفعل الذي قام به الإمام عليه السلام في المدينة، ازدادت حقداً على المأمون منذ اللحظة الأولى لسفر الإمام عليه السلام. فقد



أبعد المأمون إمامهم العزيز عليه السلام عنهم بهذا الشكل الظالم ووجهه إلى مقتله.

النقطة الثانية: عندما طُرحت ولاية العهد على الإمام في "مَرَوْ" رفض الإمام عليه السلام هذا الطرح بشدة، ولم يقبل حتى هَدَّده المأمون صراحةً بالقتل. ولقد انتشر في كلِّ مكان رفض الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لولاية العهد من قبل الخلافة. كما أنَّ العاملين في الحكومة، الَّذِينَ لم يكونوا على علمٍ بدقائق سياسة وتدابير المأمون، قاموا وعن غباء بنشر رفض الإمام عليه السلام في كلِّ مكان. حتى أنَّ الفضل بن سهل صرَّح في جمع من العاملين في الحكومة، أنَّه لم يرَ على الإطلاق خلافة بهذا القدر من المذلة، فالمأمون الَّذي هو أمير المؤمنين يُقدِّم الخلافة أو ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا وهو يردها عليه رافضاً^{٢٤٦}.

ولقد سعى الإمام عليه السلام في كلِّ فرصة تُتاح له أن يُبيِّن أنَّه مجبر على تسلُّم هذا المنصب (ولاية العهد) وكان يذكر دائماً أنَّه هُدِّد بالقتل حتى يقبل بولاية العهد. وكان من الطبيعيَّ جدًّا أن يُصبح هذا الحديث، الَّذي هو من أعجب الظواهر السياسيَّة، متناقلاً على الألسن، ومن مدينة إلى مدينة. فكلَّ العالم الإسلامي في ذلك اليوم وفيما بعد فهم أنَّ شخصاً مثل المأمون حارب أخاه الأمين حتى قتله، لأجل أن يُبعده عن ولاية العهد ووصل به الأمر من شدة غضبه على أخيه أن قام برفع رأسه وآلافٍ

^{٢٤٦} الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج ٢، ص ٢٦٠، "فما رأيت خلافة قطَّ كانت أضيع منها، إنَّ أمير المؤمنين يتفصَّى منها ويعرضها على علي بن موسى الرضا، وعلي بن موسى يرفضها ويأبى".



آخرين على الزّماح وطاف بهم من مدينة إلى مدينة. وشخصٌ مثل علي بن موسى الرضا عليه السلام، يظهر وينظر بلا مبالاة إلى ولاية العهد، ولا يقبلها إلّا مكرّها وتحت التّهديد. وعند المقارنة بين الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والمأمون العباسي، نرى أن كلّ ما جهد المأمون لتحقيقه ووفّر في سبيله كلّ ما لديه كانت نتيجته عكسيّة بالكامل. هذه هي الخطوة الثانية للإمام عليه السلام.

أما النقطة الثّالثة: في سياسته عليه السلام والتي واجه بها سياسة المأمون، هي أنّه مع كلّ الضّغوطات والتّهديدات التي مورست عليه، لم يقبل بولاية العهد إلّا بشرط الموافقة على عدم تدخّله في أيّ شأن من شؤون الحكومة من حرب وصلاح وعزل ونصب وتدير وإشراف على الأمور. والمأمون، الذي كان يعتقد أنّ هذا الشرط ممكن تحمّله في بداية الأمر، لأنّه يُمكنه بعدها أن يجزّ الإمام عليه السلام إلى ساحة أعمال ونشاطات الحكومة تدريجيّاً، وافق على قبول شرط الإمام عليه السلام الذي ينصّ على عدم التدخّل بأيّ شيء مهما كان. ومن الواضح أنّ قبول المأمون بهذا الشرط جعل خطّته كمن يكتب على وجه الماء. فأكثر أهدافه التي كان يرمي إليها لم تتحقّق. والإمام عليه السلام، الذي كان يُطلق عليه لقب وليّ العهد وكان قهراً يستفيد من إمكانيات جهاز الحكم، كان دائماً يُقدّم نفسه كأ أنّه مخالف ومعترض عليه، فهو لم يكن يأمر ولا ينهى، ولا يتصدّى لأيّ مسؤولية ولا يقوم بأيّ عمل للسلطة، ولا يدافع عن الحكومة، ولا يُقدّم أيّ تبرير لأعمال النّظام. لذا كان من الواضح أنّ هذا الشخص الذي يُعتبر عضواً في النّظام الحاكم والذي أدخل إليه بقوّة وكان يتنخّى عن كلّ المسؤوليات، لا يُمكن أن يكون



شخصاً محباً ومدافعاً عن هذا النظام. ولقد أدرك المأمون جيّدًا هذا الخلل والتقص، فحاول عدّة مرّات وباستخدام لطائف الحيل أن يحمل الإمام على العمل خلافًا لما تعهّد به سابقًا، فيجترّ الإمام عليه السلام بذلك إلى التدخّل في أعمال الحكومة ويقضي على سياسة الإمام عليه السلام المواجهة والرافضة. لكن الإمام كان في كلّ مرّة يُحبط خطّته بفطنته وبراعته.

ونموذج على هذا الأمر يذكر معمر بن خلاد نقلًا عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّ المأمون كان يقول للإمام: إذا أمكن أن تكتب شيئًا لأولئك الذين يسمعون كلامك ويطيعونك حتّى يُخففوا من حدّة التوتر والأوضاع المضطربة في مناطق وجودهم، لكنّ الإمام عليه السلام كان يرفض، وكان يُذكّره بشرطه السّابق القاضي بعدم تدخّله مطلقًا في أيّ من الأمور. نموذج آخر مهمّ جدًّا وملفتّ هو حادثة صلاة العيد حيث إنّ المأمون وبجّة أنّ النّاس يعرفون قدر الإمام عليه السلام وقلوبهم تهفو حبًّا له، طلب من الإمام عليه السلام أن يؤمّ النّاس في صلاة العيد، رفض الإمام عليه السلام في البداية، ولكن، وبعد إصرار المأمون على طلبه، وافق بشرط أن يخرج إلى الصّلاة ويُصلّي بنفس طريقة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام. فلمّا استفاد الإمام عليه السلام من هذه المناسبة وانتهازها كفرصة جيدة لصالح مشروعه، ندم المأمون الذي كان قد أصرّ على ذلك وأرجع الإمام عليه السلام من منتصف الطّريق قبل أن يُصلّي، معرّضًا بفعله هذا سياسة نظامه المخادعة والمتعلّقة لضربةٍ أخرى في صراعه مع الإمام عليه السلام^{٢٤٧}.



النقطة الرابعة: في سياسة الإمام عليه السلام هي أنّ استفادته الأساس من مسألة ولاية العهد كانت أهم من كلّ ما ذكر، فقبوله بولاية العهد استطاع أن ينهض بحركة لا نظير لها في تاريخ حياة الأئمة (بعد انتهاء خلافة أهل البيت في سنة ٤٠ هجرية حتى آخر عهود الخلافة الإسلامية)، ولقد تمثّل ذلك بظهور دعوة الإمامة الشيعيّة على مستوى كبير في العالم الإسلاميّ وحرق ستر التقيّة الغليظ في ذاك الزمان، حيث تمّ إيصال نداء التشييع إلى أسماع جميع المسلمين، فمُنير الخلافة القويّ جعل تحت تصرّف الإمام عليه السلام، وقد قام الإمام عليه السلام من خلاله برفع ندائه وإعلان ما كان يُقال طيلة ١٥٠ سنة في الخفاء والتقيّة للخواص والأصحاب المقرّبين، وبالاستفادة من الإمكانات الرائجة في ذلك الزمان التي لم تكن إلا تحت سيطرة الخلفاء والمقرّبين منهم في الرتب العالية، أوصل ذلك النداء إلى أسماع الجميع.

وكذلك أيضاً مناظرات الإمام عليه السلام التي جرت بينه وبين جمع من العلماء في محضر المأمون حيث بيّن أمتن الأدلّة على مسألة الإمامة، وهناك أيضاً رسالة جوامع الشريعة التي كتبها الإمام للفضل بن سهل حيث ذكر فيها أمّهات المطالب العقائدية والفقهية للتشييع، وأيضاً حديث الإمامة المعروف الذي قد ذكره الإمام عليه السلام في مرّو لعبد العزيز بن مسلم، إضافة إلى تلك القصائد الكثيرة التي نُظّمت في مدح الإمام بمناسبة تسلمه ولاية العهد، ومنها قصيدتا دِعل وأبو نّواس اللتان تُعدّان من أهم القصائد المخدّلة في الشعر العربيّ. إن كلّ ما ذكرناه من استفادة الإمام عليه السلام من مسألة قبوله بولاية العهد، يدلّ على مدى النّجاح العظيم



الذي حققه الإمام عليه السلام في صراعه ضد سياسة المأمون.

وفي تلك السنة نجد الخطب حافلة بذكر فضائل أهل البيت في المدينة، ولعلّه في الكثير من الأقطار الإسلامية، وذلك عندما وصل خبر ولاية علي بن موسى الرضا عليه السلام. فبعد أنّه لم يكن هناك شخصٌ يجرؤ على ذكر فضائل أهل بيت النبيّ عليهم السلام، وكانوا يُشتَمون علنًا على المنابر لسبعين سنة، وما تلاها من سنوات، فقد رجع في زمان الإمام الرضا عليه السلام ذكر عظمة وفضائل أهل البيت في كلّ مكان، كما أنّ أصحابهم ازدادوا جرأة وإقدامًا بعد هذه الحادثة، وتعرّف الأشخاص، الذين كانوا يجهلون مقام أهل البيت عليهم السلام، عليهم وصاروا يُحبونهم، وأحسن الأعداء الذين أخذوا على عاتقهم محاربة أهل البيت بالضعف والهزيمة. فالحدّثون والمفكّرون الشّيعَة أصبحوا ينشرون معارفهم - التي لم يكونوا ليحرّروا قبلاً على ذكرها إلا في الخلوات - في حلقات دراسيّة كبيرة وفي المجالس العامّة علنًا.

في حين رأى المأمون أنّه من المفيد فصل الإمام عليه السلام عن النّاس. فهذا الفصل والإبعاد هو في النّهاية وسيلة لقطع العلاقة المعنويّة والعاطفيّة بين الإمام والنّاس. وهذا ما يريده المأمون، ولمواجهة هذه الخطوة لم يكن الإمام عليه السلام يترك أيّ فرصة تُمكنه من الاتّصال بالنّاس إلّا ويستفيد منها خلال تحرّكه ومسيره. فمع أنّ المأمون كان قد حدّد الطّريق التي سيسلكها الإمام من المدينة وصولاً إلى مرو، بحيث لا يمرّ على المدن المعروفة بحبّها وولائها لأهل البيت مثل قم والكوفة، لكنّ الإمام عليه السلام استفاد من كلّ فرصة في مسيره لإقامة علاقات جديدة بينه وبين النّاس،



فأظهر في منطقة الأهواز آيات الإمامة، وفي البصرة التي لم يكن أهلها من محبي الإمام سابقاً، جعلهم من محبيه ومريديه، وفي نيشابور ذكر حديث السلسلة الذهبية ليبقى ذكرى خالدة، إضافة إلى ذلك الآيات والمعجزات التي أظهرها. وقد اغتنم الفرصة لهداية وإرشاد الناس في سفره الطويل هذا. وعندما وصل إلى مرو التي هي مركز إقامة الخلافة كان عليه السلام كلما سنحت له الفرصة وأفلت من رقابة الجهاز الحاكم يُسارع للحضور في جمع الناس.

والإمام عليه السلام، فضلاً عن أنه لم يحض ثوار التشيع على الهدوء أو الصلح مع جهاز الحكومة، بل إنَّ القرائن الموجودة تدلّ على أنَّ الوضع الجديد للإمام المعصوم كان عاملاً محفزاً ومشجّعاً لأولئك الذين أصبحوا، بفعل حماية الإمام ومؤازرته لهم، محلّ احترام وتقدير ليس فقط عند عامة الناس بل حتى عند العاملين وولاة الحكومة في مختلف المدن، بعد أن كانوا ولفتراتٍ طويلة من عمرهم يعيشون في الجبال الوعرة والمناطق النائية البعيدة. فشخصٌ مثل دعبل الخزاعي صاحب البيان الجريء، الذي لم يكن على الإطلاق يمدح أي خليفة أو وزير أو أمير، والذي لم يكن في خدمة الجهاز الحاكم، لا بل لم يسلم من هجائه ونقده أي شخصٍ من حاشية الخلافة، وكان لأجل ذلك ملاحقاً دوماً من قبل الأجهزة الحكومية، وظلّ لسنوات طوال مهاجرًا ليس له موطن، يحمل داره على كتفه، ويسير من بلدٍ إلى بلد ومن مدينةٍ إلى مدينة، أصبح بإمكانه الآن مع وجود الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أن يصل ويلتقي بمقتداه ومحبوه بحرية، وأن يُوصل في فترةٍ قصيرة شعره إلى كلّ أقطار العالم



الإسلامي، ومن أشهر وأبهى قصائده تلك التي تلاها للإمام عليه السلام حيث اشتهر بها، والتي تبين وثيقة الثورة العلوية ضد الأنظمة الأموية الحاكمة. حتى أنه وفي طريق عودته من عند الإمام، كان يسمع قطاع الطرق يُرددون تلك القصيدة نفسها. وهذا يدل على الانتشار السريع لشعره.

والآن نعود لنلقي نظرة عامة على ساحة الصراع الخفي الذي بدأ المأمون بالإعداد له، ودخل فيه الإمام علي بن موسى الرضا للأسباب التي قد أشرنا إليها. فلنر كيف كان الوضع بعد مضي سنة على تسلم الإمام ولاية العهد.



شهادة الإمام الرضا عليه السلام

لقد جعل المأمون عليّ بن موسى متمتعًا بالإمكانات والمكانة المرموقة، لكنّ الجميع كانوا يعلمون أنّ هذا الوليّ للعهد، وصاحب المقام الرفيع، لا يتدخل في أيّ من أعمال الحكومة ويمتنع برغبته عن كلّ ما يرتبط بجهاز الحكم، وكانوا يعلمون أيضًا أنّه وليّ العهد بذلك الشرط أي عدم تدخله بأيّ عمل من الأعمال. كان المأمون، سواء في رسالة أمر تسليم ولاية العهد أو في كلماته وتصريحاته الأخرى، قد مدح الإمام عليه السلام بالفضل والتقوى وأشار إلى نسبه الرفيع ومقامه العلميّ المنيع، وبعد أن كان قسمّ من الناس لا يعرف عن الإمام عليه السلام سوى اسمه (حتى أنّ مجموعة من الناس كانت قد ترعرعت على بغضه)، فقد أصبح في غضون سنة معروفًا عندهم بأنّه شخصيّة تستحقّ التعظيم والإجلال واللياقة لاستلام الخلافة، فهو أكبر من الخليفة المأمون سنًا وأغزر علمًا وتقوى وأقرب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأعظم وأفضل. وبعد مضيّ سنة، ليس أنّ المأمون لم يستطع كسب ودّ رضا الشيعة المعارضين بجلب الإمام عليه السلام إلى قربه فحسب، بل إنّ الإمام عليه السلام قام بدورٍ أساس في تقوية إيمان وعزيمة وروحية أولئك الشيعة الثّائرين.



وبخلاف ما كان ينتظره المأمون، فإنّ نجم الإمام في المدينة ومكة وفي أهمّ الأفطار الإسلامية لم يخب، ولم يُقذف بتهمة الحرص على الدنيا وحبّ الجاه والمنصب، بل على العكس من ذلك تمامًا فقد ازداد احترام وتقدير مرتبة الإمام المعنوية لدرجة فتح الباب أمام المذّاحين والشعراء بعد عشرات السنين ليذكروا فضل ومقام آبائه المعصومين المظلومين. وخلاصة ما نريد قوله إنّ المأمون في هذه المقامرة الكبرى فضلاً عن أنّه لم يحصل على شيء، فإنّه فقد مكاسب كثيرة، وكان على طريق خسارة ما تبقى له. وبعد مضي سنة على تسلّم الإمام عليه السلام ولاية العهد، وأمام هذا الواقع الذي أشرنا إليه، شعر المأمون بالهزيمة والخسارة، ولكي يُعوّض عن هذه الهزيمة ويَجْبُر خطأه الفاحش وجد نفسه مضطراً - بعد أن أنفق كلّ ما لديه واستنفذ كلّ الوسائل في مواجهة أعداء حكومته الذين لا يقبلون الصلح، أي أئمة أهل البيت عليهم السلام - إلى أن يستخدم نفس الأسلوب الذي لجأ إليه دوماً أسلافه الظالمون والفجّار، أي القتل.

لكن كان من الواضح عند المأمون أنّ قتل الإمام عليه السلام الذي يتمتّع بهذه الموقعية العالية والمرتبة الرفيعة ليس بالأمر السهل. والقرائن التاريخية تدلّ على أنّ المأمون قام بعدّة إجراءات وأعمال قبل أن يُصمّم على قتل الإمام عليه السلام لعلّه من خلالها يُسهّل أمر قتل الإمام عليه السلام ويحدّ من خطورته وحساسيته. ولأجل ذلك لجأ إلى نشر الأقوال والأحاديث الكاذبة عن لسان الإمام كواحدة من هذه التحضيرات. وهناك ظنٌّ كبيرٌ بأنّ نشر الشائعة التي تقول إنّ عليّاً بن موسى الرضا عليه السلام يعتبر كلّ الناس عبيداً له بهذا الشكل المفاجئ في مَرُو، لم يكن ممكناً، لولا قيام

عمال المأمون بنشر هذه الافتراءات.

وحينما نقل أبو الصلت هذا الخبر للإمام، قال الإمام عليه السلام : "اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ شَاهِدٌ بَأَنِّي لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ قَطُّ وَلَا سَمِعْتُ أَحَدًا مِنْ آبَائِي عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَهُ قَطُّ وَأَنْتَ الْعَالِمُ بِمَا لَنَا مِنَ الْمَظَالِمِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ هَذِهِ مِنْهَا..."^{٢٤٨}.

إضافة إلى هذا الإجراء، كان تشكيل مجالس المناظرات مع أي شخص لديه أدنى أمل في أن يتفوق على الإمام، واحدة من الإجراءات التي مارسها المأمون. ولما كان الإمام عليه السلام يتفوق ويغلب مناظريه من مختلف الأديان والمذاهب في كافة البحوث كان يذيع صيته بالعلم والحجة القاطعة في كل مكان، وفي مقابل ذلك كان المأمون يأتي بكل متكلم من أهل المجادلة إلى مجلس المناظرة مع الإمام لعل أحدا منهم يستطيع أن يغلب الإمام عليه السلام، وكما تعلمون فإنه كلما كانت تكثر المناظرات وتطول كانت القدرة العلمية للإمام عليه السلام تزداد وضوحًا وجلالًا. وفي النهاية يئس المأمون من تأثير هذه الوسيلة. وحاول أن يتآمر لقتل الإمام عليه السلام، كما تذكر الروايات، من خلال حاشيته وخدم الخليفة، وفي إحدى المرات وضع الإمام في سجن سرخس (منطقة شمال شرق إيران) لكن هذا لم يكن نتيجه إلا إيمان الجلاوزة والسجّانين أنفسهم بالمقام المعنوي للإمام عليه السلام. وهنا لم يجد المأمون العاجز والغاضب أمامه في النهاية وسيلة إلا أن يُسمّم الإمام بنفسه من دون أن يُكلّف أي أحد بذلك وهذا

^{٢٤٨} الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، عيون أخبار الرضا، تحقيق وتصحيح مهدي اللاجوردي، نشر جهان - طهران، الطبعة الأولى، ١٤٢٠م، ج ٢، ص ١٨٤.

ما قام به فعلاً. ففي شهر صفر من سنة ٢٠٣ هـ أي بعد سنتين تقريباً من خروج الإمام عليه السلام من المدينة إلى خراسان وبعد سنة وتيف من صدور قرار ولاية العهد قام المأمون بجرمته النكراء التي لا تُنسى وهي قتل الإمام عليه السلام.



الفصل الثالث عشر:

الإمام الجواد عليه السلام - الإمام الهادي عليه السلام - الإمام العسكري عليه السلام

- الإمام الجواد عليه السلام وبنیان الحرية
- مواجهة الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام للسلطة



الإمام الجواد عليه السلام وبنیان الحرية

إنَّ الإمام الجواد عليه السلام، وكغيره من المعصومين، هو قدوةٌ وأسوةٌ ونموذجٌ لنا. وإنَّ الحياة القصيرة لهذا العبد الصالح لله، انقضت بالجهاد ضدَّ الكفر والطَّغيان. وقد أضحى في موقع قيادة الأُمَّة الإسلاميَّة في حادثة عمره، وقد جاهد مجاهدةً مركَّزةً ضدَّ العدوِّ في هذه السَّنوات القصيرة، حيث إنَّه كان ما زال في مقتبل عمره، في عمر الـ ٢٥ سنة، عندما لم يعد أعداء الله يتحمَّلون وجوده، فقتلوه بالسَّمِّ واستُشهد. ومثل الأئمة الأطهار عليهم السلام الذي أضاف كلَّ واحدٍ منهم بجهاده صفحةً على تاريخ الإسلام المليء بالمفاخر، فإنَّ هذا الإمام العظيم قد أضاف بعمله إلى الإسلام دعامةً مهمَّةً من الجهاد الشَّامل، وقَدَّم لنا درسًا عظيمًا. وذاك الدَّرس العظيم هو أنَّه عندما نكون في مواجهة القوى المناقضة والمرائية يجب أن نسعى جهدنا من أجل أن نستنهض وعي النَّاس لمواجهة هذه القوى. فلو أنَّ العدوَّ يظهر عداءه بنحوٍ صريحٍ وعلنيٍّ ولا يراعي، فإنَّ التَّعامل معه أسهل. ولكن عندما يكون العدوُّ كالمأمون العباسي الذي يتظاهر بالقداسة والدِّفاع عن الإسلام



فإنّ التعرّف عليه سيكون صعباً بالنسبة للنّاس. كان المتسلّطون، في عصرنا هذا، وفي جميع عصور التاريخ، يسعون دائماً للتوسّل بالحيلة والرياء والتّفاق عندما يعجزون عن مواجهة النّاس وجهاً لوجه... وقد بذل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والإمام الجواد عليه السلام، الهمة من أجل كشف قناع التزوير والرياء هذا، عن وجه المأمون ونجحوا في ذلك.

(١٩٨٠/١٠/١٠)

إنّ هذا العظيم هو مظهر المقاومة وعلامتها. إنسانٌ عظيمٌ أمضى كلّ عمره القصير بمواجهة ومعارضة السّلطة المزوّرة والمرائية للخليفة العبّاسي - المأمون - ولم يتراجع خطوةً واحدةً وتحمل جميع الظروف الصّعبة وجاهد بكلّ الأساليب الجهاديّة الممكنة. وكان أوّل من أشاد ببيان بحث الحرّية بصورة علنيّة. وكان يُباحث العلماء والدعاة والمدّعين ومحتلّي الأعدار في محضر المأمون العبّاسي بشأن أدقّ القضايا ويستدلّ ويثبت أفضليّته وحقّانيّة كلامه. إنّ بحث الحرّية هو من تراثنا الإسلاميّ، وقد راج هذا البحث في زمان أئمة الهدى، وقد تطرّق الإمام الجواد عليه السلام، هذا الإمام الجليل، إليه في زمانه وتعرّض له بصورة صافية ونقيّة.

(١٩٨١/٠٥/١٥)



مواجهة الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام للسلطة

في المواجهة التي جرت بين الإمام الهادي عليه السلام وحكام زمانه فإنّ الذي انتصر في الظاهر والباطن هو هذا الإمام عليه السلام. ففي زمن إمامته حكم ستّة من الخلفاء واحدًا تلو الآخر، وهلكوا جميعًا واحدًا تلو الآخر. وكان آخرهم المعتزّ الذي قتل الإمام عليه السلام ولم يلبث من بعده إلا قليلاً. وهؤلاء الخلفاء ماتوا أذلاء في الغالب، أحدهم قتله ابنه، والآخر على يد ابن أخيه، وبهذه الطريقة تشتّت العبّاسيّون وانقرضوا، بعكس الشيعة. فالشيعة في زمن الإمام الهادي والإمام العسكريّ عليهما السلام، ورغم ما فيه من عنفٍ وقمعٍ كانوا يزدادون انتشاراً وقوّةً يوماً بعد يوم.

لقد عاش الإمام الهادي عليه السلام ٤٢ سنة، قضى ٢٠ سنة منها في سامراء، حيث كان يعمل ويعيش ويمتلك مزرعةً. وكانت سامراء في الواقع بمثابة معسكر بناه المعتصم لغلمانهِ التّرك المقرّبين له - وهؤلاء التّرك هم غير الأتراك الذين يعيشون في إيران أو في آذربايجان أو سائر النقاط، والذين أحضرهم من تركستان وسمرقند، ومن منطقة مانغوليا وآسيا



الشرقية واحتفظ بهم في سامراء. وهؤلاء الأتراك، ولحداثة إسلامهم، لم يكونوا يعرفون الأئمة ولا المؤمنين ولا يفهمون عن الإسلام شيئاً. لهذا صاروا يُضايقون الناس وأوجدوا بينهم وبين العرب . أهالي بغداد . التزايدات والمشاجرات. وفي مدينة سامراء نفسها، اجتمع عددٌ ملحوظٌ من كبراء الشيعة في زمن الإمام الهادي عليه السلام وتمكّن الإمام عليه السلام من إدارتهم، وإيصال رسالة الإمامة من خلالهم إلى مختلف مناطق العالم الإسلامي. فالرسائل وهذه الشبكات الشيعية، في قم وخراسان والريّ والمدينة واليمن، وفي المناطق البعيدة، وفي جميع أقطار العالم، هي التي استطاعت أن تروّج وتنشر وتزيد من المؤمنين بهذا المذهب، يوماً بعد يوم. وقد استطاع الإمام الهادي عليه السلام أن يقوم بكلّ هذه الأعمال، تحت ظلّ بريق السيوف الحادة والدموية لأولئك الخلفاء الستة ورغمًا عن أنوفهم. ويوجد حديثٌ معروفٌ حول وفاة الإمام الهادي عليه السلام، يُعلم من عباراته تواجد جمعٍ ملحوظٍ من الشيعة في سامراء، لم يكن الجهاز الحاكم يعرف عنهم شيئاً، لأنّه لو كان يعلم بهم لكان قضى عليهم عن بكرة أبيهم. لكنّ هذه الجماعة، ولأنّها استطاعت أن توجد شبكة قويّة، فإنّ الجهاز الحاكم لم يتمكّن من الوصول إليها.

إنّ يوماً من جهاد هؤلاء العظماء - الأئمة عليهم السلام - يؤثّر بمقدار سنوات. ويومٌ واحدٌ من حياتهم المباركة يساوي سنواتٍ من حياة جماعةٍ تعمل ليل نهار على مستوى التأثير في المجتمع. هؤلاء العظماء قد حفظوا الدّين بهذه الطّريقة، وإلاّ فإنّ ديناً يقع على رأسه المعتزّ والمتوكّل والمعتصم، والمأمون، ويكون علماؤه رجالاً كيحيى بن أكثم . الذي رغم أنّه كان عالم



البلاط، فقد كان من الفساق والفجار المتجاهرين من الدرجة الأولى . لا ينبغي أساساً أن يبقى، ولكان ينبغي والحال هذا، أن يُجَنَّبَ من جذوره وينتهي كل شيء. فجهاد الأئمة عليهم السلام وسعيهم لم يحفظ التشيع فحسب، بل القرآن والإسلام والمعارف الدينية، وهذه هي خاصية العباد الخالصين والمخلصين وأولياء الله. فلو لم يكن للإسلام أمثال هؤلاء من أولي العزم، لما استطاع أن يعود غضاً طرياً ويوجد هذه الصّحوة الإسلامية بعد ١٢٣٠ سنة، بل كان ينبغي أن يزول شيئاً فشيئاً. فلو لم يكن للإسلام، هؤلاء الذين جذّروا هذه المعارف العظيمة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأذهان على مرّ التاريخ الإنساني والإسلامي، لكان ينبغي أن يزول من الوجود وينتهي كل شيء، ولا يبقى منه أي شيء. ولو بقي، فلم يكن ليبقى من معارفه شيء، كالمسيحية واليهودية، اللتين لم يبق من معارفهم الأساس أي شيء تقريباً. فأن يبقى القرآن سالماً والحديث النبوي وكلّ هذه الأحكام والمعارف الإسلامية، وذلك بعد أكثر من ١٠٠٠ سنة، وأن تتمكّن من أن تبرز في قمة المعارف الإنسانية، فهذا ليس بالأمر الطبيعي، بل كان هناك عملٌ غير طبيعيٍّ يؤدّي من خلال الجهاد. وبالتأكيد، كان على طريق هذا العمل الكبير الضرب والسجن والقتل وكلّ هذه لم تكن بالنسبة لهؤلاء العظماء شيئاً.

يوجد حديثٌ حول طفولة الإمام الهادي عليه السلام، عندما أحضر المعتصم الإمام الجواد عليه السلام من المدينة إلى بغداد، في العام ٢١٨ هجرية، أي قبل شهادته بسنتين، وبقي الإمام الهادي عليه السلام حينها مع أهله في المدينة، حيث كان له من العمر وقتها ست سنوات. وبعد أن أحضر الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد سأل المعتصم عن أسرته وأهله، وعندما



سمع أنّ ابنه البكر عليّ بن محمّد ابن ست سنوات، قال إنّّه خطّر ويجب أن تُفكّر بحلّ له. وقد أمر المعتصم رجلاً من أقاربه أن يذهب من بغداد إلى المدينة، وأن يجد فيها من هو عدوّ لأهل البيت، فيودع عنده هذا الطفل ليكون معلّمًا له ويربّيه ليصبح عدوًّا لأسرته ومنسجمًا مع الجهاز الحاكم. فجاء هذا الشخص من بغداد إلى المدينة، واختار أحد علمائها المدعوّ الجنيدي الذي كان من أشدّ المخالفين والمعاندين لأهل البيت - وكان في المدينة عددٌ من أمثال هؤلاء العلماء - لينهض بهذا العمل، وقال له: إنّني مأمورٌ أن أجعلك مربّيًا ومؤدّبًا لهذا الطفل، ولا ينبغي أن تسمح لأيّ شخصٍ بالتواصل معه أو الارتباط به، وأريدك أن تُربّيه بهذه الطّريقة وبهذا الشكل. وقد سجّل التاريخ اسم هذا الشخص الجنيدي. وكان الإمام الهادي عليه السلام - كما ذكرت - بعمر ست سنوات في ذلك الوقت، وكان الأمر أمر الحكومة، فمن الذي يستطيع أن يعترض على مثل هذا الأمر؟!

وبعد مدّة جاء أحد المقرّبين من الجهاز الحاكم ليطلّع على الجنيدي، ويسأل عن أحوال ذلك الطفل الذي أودعه إياه. فقال الجنيدي: أيّ طفلٍ هذا، أهذا هو الطفل؟، إنّني أُبين له مسألةً في الأدب، فيُبيّن لي أبوابًا من الأدب، حيث أتعلّم منه! فأين درس هذا الطفل وتعلّم؟! وأطلب منه أحيانًا عندما يدخل إلى الحجرة أن يقرأ سورةً من القرآن، وعندما يدخل (وهو يريد أذنيته) يسأل أيّ سورةٍ أقرأ، فأقول له: اقرأ سورةً كبيرةً، كسورة آل عمران مثلاً، فيقرأها عليّ ويبين لي مواضع الإشكال في قراءتها. إنهم علماءٌ وحفّاظٌ للقرآن، وعلماءٌ بالتأويل والتفسير، أيّ طفلٍ هذا؟! وقد استمرّ ارتباط هذا الطفل - الذي كان في الظاهر طفلًا، ولكنّه وليّ



الله، ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾^{٢٤٩} - بهذا الأستاذ لمدة، إلى أن أصبح هذا الأستاذ من الشيعة المخلصين لأهل البيت^{٢٥٠}.

لقد كان النصر حليفهم في جميع الميادين، وهزمهم جميعاً في كلّ المواضع. فدعبل الذي كان معارضاً لكلّ الخلفاء العباسيين، وذمّ آباءهم في أشعاره، وترك لكلّ واحدٍ منهم سجلاً في التاريخ، كان له عدّة أبياتٍ حول المعتصم، يقول فيها إنّنا قرأنا في الكتب أنّ بني العباس هم سبعة خلفاء، والآن يقولون لنا ثمانية، فمن هو الثامن؟ وأراد أن يشبههم بأصحاب الكهف الذي كان كلبهم ثامنهم، ثم يقول بعدها: فأين أنت من ذاك الكلب؟ فذاك الكلب لم يرتكب أيّ معصيةٍ أو ذنبٍ بين يديّ الله، وأنت مليءٌ بالذنوب والمعاصي: ملوك بني العباس في الكتب سبعةٌ ولم تأتينا عن ثامن لهم كُتِب، كذلك أهل الكهف في الكهف سبعةٌ خيارٌ إذا عُذُوا وثامنهم كلبٌ، وإني لأعليّ كلبهم عنك رفعةً لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنبٌ.

(٢٠٠٤/٠٨/٢٠)

وقد أحضروا الإمام من المدينة إلى سامراء ليكون تحت مراقبتهم، ولكتّهم وجدوا أنّه ما من فائدة. فلو اطلّعت على حالات هؤلاء الأئمة الثلاثة في المناقب^{٢٥١} وغيرها لالتفتّم إلى أنّ شبكة العلاقات الشيعية في زمان هؤلاء الثلاثة كانت أكثر منها في زمن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام. فكانت تُرسل إليهم الكتب والرسائل من أقصى نقاط

^{٢٤٩} سورة مريم، الآية ١٢.

^{٢٥٠} كلستان سعدي.

^{٢٥١} مناقب آل أبي طالب، ج ٤، ص ٤٤٧ - ٣٣٧.



العالم وكذلك الأموال والمسائل، في حين أنهم كانوا يعيشون ضمن نطاقٍ ضيقٍ. وقد أضحى الإمام الهادي عليه السلام في سامراء محبوباً من قِبَل النَّاسِ وكان الجميع يحترمونه، ولم يكن يتعرض لأيِّ إهانة. ثمَّ فيما بعد وعند وفاته انقلب حال المدينة كلّها، وهذا الأمر تكرر مع الإمام العسكري عليه السلام، وهناك أدرك الحكماء وجود سرٍّ ما، وكان عليهم أن يشخصوه ويتعاملوا معه. فالتفتوا إلى قضية القدسيّة. وهنا نجد المتوكّل يحضر الإمام عليه السلام إلى مجلسه، الذي هو مجلس خميرٍ وسكرٍ، لكي ينتشر الخبر في كلّ مكان، أنّ عليّاً بن محمد كان نديماً للمتوكّل وقد جالسه في مجلس الخمر واللهو! فانظروا أنتم أيّ تأثير تركه هذا الخبر. لقد نظر الإمام عليه السلام إلى القضية من زاوية الإنسان المجاهد ووقف مقابل هذه المؤامرة. فذهب الإمام عليه السلام إلى بلاط المتوكّل، واستطاع أن يُبدّل مجلس سكره إلى مجلسٍ عابقي بالمعنويّات. فبذكر الحقائق وإنشاد تلك الأشعار الشامطة هزم المتوكّل، بحيث أنّ هذا المتوكّل وبمجرد أن انتهى الإمام من كلماته، نهض من مكانه وأحضر للإمام الغالية (عطر مرّكب من المسك والعنبر) وشيعة بكلّ أدبٍ واحترام. فقال له الإمام: هل تتصوّر أنّك إذا جلست هنا، فإنّك ستهرب من قبضة الموت؟! وهكذا بيّن للمتوكّل كلّ ما يجري عند الموت وما بعده، حتّى أكل الديدان له. فاستطاع الإمام أن يُبدّل المجلس تديلاً تامّاً، ويقبله رأساً على عقب، وأن يخرج من البلاط^{٢٠٢}.



باتوا على قليل الأُجبال تحرّسهم
واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم
ناداهم صارخٌ من بعد ما فُبروا
أين الوجوه التي كانت منعمةً
فأفصح القبر حين ساء لهم
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا
وطالما عمّروا دوراً لتحصنهم
وطالما كنزوا الأموال وادّخروا
أضحت منازلهم قفراً معطلةً
سل الخليفة إذ وافت منيته
غلب الرجال فما أغنتهم الثلث
وأودعوا حفراً يابئس ما نزلوا
أين الأسرّة والتيجان والحلل
من دونها تُضرب الأستار والكلل
تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا
ففارقوا الدور والأهلين وارتحلوا
فخلّفوها على الأعداء وانتقلوا
وساكنوها إلى الأحداث قد رحلوا
أين الحماة وأين الخيل والخول



هذه المواجهة التي ابتدأها الخليفة المتسلط والمتعجرف، في قبال شاب لا دفاع له ويبدو في الظاهر هو الأضعف، قد تحوّلت إلى حربٍ نفسيّة لم يكن فيها الحرية والسيف. فلو كنّا نحن هناك لما استطعنا أن نفعل ما فعله الإمام عليه السلام. إنّ الإمام عليه السلام هو الذي استطاع أن يُشخّص هذه الوضعيّة ويتحدّث بطريقة لا تُغضب الخليفة. كان من الممكن مثلاً أن ينتفض الإمام عليه السلام فجأةً ويرمي بكلّ كؤوس الشراب أرضاً، ولكن لم

يكن هذا ليكون ردّة فعلٍ جيّدة وما كان ليؤثّر ثماره، لكنّ الإمام عليه السلام تصرّف بطريقةٍ أخرى. وهذا البعد في القضية مهمٌّ جداً.

يجب عليكم أن تلتفتوا إلى هذه النقطة في حياة الأئمة وهي أنّ هؤلاء العظماء كانوا دومًا في حالة جهاد، جهادٌ روحه سياسيّة، وذلك لأنّ من يجلس على مسند الحكم، كان يدّعي الدّين، وكان يراعي ظواهر الدّين، حتّى أنّه كان يتقبّل في بعض الأوقات، رأي الإمام الدينيّ. كذلك المسائل التي كنتم قد سمعتموها عن حياة المأمون حيث كان يقبل رأي الإمام عليه السلام علنًا، فلم يكن يأبى أبدًا أن يقبل الرأي الفقهيّ أحيانًا. فالشيء الذي كان يؤدّي إلى وجود مثل هذه المواجهة والمعارضة ضدّ أهل البيت هو أنّ أهل البيت كانوا يعدّون أنفسهم الأئمة، وكانوا يقولون نحن أئمة، وفي الأساس إنّ هذا كان يُعدّ أكبر مواجهةٍ للحكّام. لأنّ الذي صار حاكمًا، وكان يُعدّ نفسه إمامًا للنّاس، كان يرى الشّواهد والقرائن المطلوبة في الإمام موجودة فيهم عليهما السلام، وليست موجودة فيه، وكان يعتبر هذا الإمام خطرًا على حكومته لأنّه ليس إلّا مدّعٍ. وقد كان الحكّام يُحاربون بمثل هذه الرّوحية العدائية، وكان الأئمة عليهم السلام يقفون كالطّود الشامخ. من البديهيّ في مثل هذه المواجهة أن يكون للمعارف والأحكام الفقهيّة والأخلاق، التي كان الأئمة يروّجون لها مكانها الطبيعيّ. وكانت تربية المزيد من التلامذة والأتباع وتوسعة الروابط الشيعية تزداد يوماً بعد يوم.

وهذا ما حفظ الشيعة. فانظروا أنتم إلى مرامٍ تعمل ضده الحكومات لمدة ٢٥٠ سنة، فهل ينبغي أن يبقى منه شيء؟! بل يجب أن يزول بالكامل، ولكن أنتم ترون الآن حال الدنيا، وإلى أين وصل الشيعة.

ينبغي أن نلاحظ هذه النقطة جيّداً في الأشعار التي أنشدت في الإمام الصادق والإمام الهادي والإمام العسكري عليهم السلام. لقد جاهدوا وقدموا أنفسهم في هذا الجهاد. هذا الطريق الذي استمرّ نحو هدفٍ محدّد. فأحياناً يرجع أحدهم، وأحياناً يذهب أحدهم من هذه الجهة، (اختلفت أساليبهم في التحرك) إلا أنّ الهدف واحد. إنّ هؤلاء العظماء حقّقوا نجاحاً أكبر من الإمام الحسين عليه السلام، الذي وضع هذا الأساس، لأنّه بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، "ارتدّ الناس بعد الحسين عليه السلام إلّا ثلاثة"^١. لكن في زمن الإمام الهادي عليه السلام عندما تنظرون، فإنّ كلّ العالم الإسلامي كان قد صار في قبضة الأئمة عليهم السلام. حتّى أنّ العبّاسيين وقفوا عاجزين ولم يعرفوا ماذا يفعلون، فلذلك أقبلوا على الشيعة.

كان أحد الخلفاء العبّاسيين قد كتب رسالةً أمر فيها بذكر أهل البيت في الخطب والقول بأنّ الحقّ مع أهل البيت. وقد وثّقت هذه الرسالة في التاريخ. كُتب أنّ وزير البلاط أسرع يعدو إلى الخليفة وقال: "ماذا تفعل؟! فلم يجرؤ أن يقول أنّ الحقّ ليس مع أهل البيت! لكنّه قال: "اليوم هناك من ثار في جبال طبرستان وأماكن أخرى تحت شعار أهل البيت، فلو أنّ كلامك هذا يُنشر في كلّ الأماكن، فإنّهم سيّجيشون الجيوش ويأتون إليك للتخلّص منك". فرأى الخليفة أنّ ذلك الوزير يقول حقّاً، فقال: "لا تذيعوا الرسالة"، أي إنّهم كانوا يخافون على حكومتهم. هذا وإن كان لديهم الاعتقاد، ولكن حبّ الحكومة والدنيا والملوك منعهم من أن يؤمنوا.

(٢٠٠١/٠٩/٢١)

^١ بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ١٤٤.

انتشار التشكيلات الشيعية في العالم

إنَّ ما يُقال من أنَّ هؤلاء العظماء كانوا في غربةٍ تامةٍ هو هكذا في الواقع، فقد كانوا بعيدين عن المدينة، وبعيدين عن أهلهم، وبعيدين عن بيئتهم التي ألفوها. ولكن إلى جانب ذلك، يوجد بشأن هؤلاء الأئمة الثلاثة - من الإمام الجواد وحتى الإمام العسكري - نقطة أخرى وهي أنَّه كلما اتَّجهنا إلى نهاية إمامة الإمام العسكري عليه السلام، فإنَّ هذه الغربة تزداد. إنَّ دائرة نفوذ الأئمة وسعة دائرة الشيعة في زمان هؤلاء الأئمة الثلاثة إذا ما قورنت بزمان الإمام الصادق والإمام الباقر عليهما السلام، نجد أنَّها ازدادت عشرة أضعاف عمَّا كانت عليه، وهذا شيءٌ عجيب. ولعلَّ السَّبب في أنَّهم قد وُضعوا تحت هذه الضَّغوط والتضييق، هو هذا الموضوع. فبعد توجُّه الإمام الرضا عليه السلام إلى طرف إيران، ومجيئه إلى خراسان فإنَّ من الأمور التي حدثت هو هذا الأمر. ولعلَّ هذا الأمر كان في أصل حسابات الإمام الثامن عليه السلام. وقبله كان الشيعة منتشرين في كلِّ الأماكن، لكنَّهم لم يكونوا على اتِّصال ببعضهم البعض، وكانوا آيسين، وليس لديهم أيُّ تطلُّع نحو المستقبل، أو رجاء أو تفاؤل. وكانت سلطة حكومة الخلفاء في كلِّ الأماكن، وكان قبل المأمون، هارون مع قدرته الفرعونية. وعندما جاء الإمام عليه السلام إلى طرف خراسان وعبر هذا المسير ظهرت شخصيَّةُ أُمِّ التَّمام النَّاس هي تجلُّ للعلم والعظمة والصدق والنورانية، وما كان النَّاس قد شاهدوا مثل هذه الشَّخصيَّة من قبل. فكم كان عدد الشيعة الذين كان بإمكانهم قبل هذا أن يَمْرُوا من خراسان إلى المدينة ليروا الإمام الصادق عليه السلام؟ لكن الجميع شاهدوا الإمام عن قرب في هذا المسير الطويل، ولقد كان شيئاً

عجيباً مدهشاً، وكأنّ المرء ينظر إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. فتلك الهيبة والعظمة المعنويّة والعزّة والأخلاق والتّقوى والتّوراتيّة والعلم الواسع أحدثت هزّة، فمهما سُئِلَ وأيُّ شيءٍ طُلِبَ منه كان الأمر بيده، وهو الشيء الذي ما كان النّاس ليرووه من قبل.

وصل الإمام الرضا عليه السلام إلى خراسان ومرو، وكانت مرو هي مركز تركمانستان الحاليّة. وبعد سنةٍ أو سنتين، استشهد الإمام عليه السلام وفُجِعَ النّاس. فقد جعل محيي الإمام عليه السلام - وهو المظهر لتجلّيات أشياء لم يسمع بها النّاس ولم يروها من قبل - وكذلك شهادته - الّتي أدّت إلى فاجعة كبيرة - فقد جعل أجواء هذه المناطق أجواء شيعيّة، وهذا لا يعني أنّ الجميع أصبحوا شيعة، لكنّهم أصبحوا محبّين لأهل البيت. ففي هذا الجوّ انكبّ الشّيعيّة على العمل. فأنتم ترون كيف أنّ إقامة الأشعرين في قم تظهر فجأة، فلماذا جاؤوا؟ فالأشعريون عربٌ، وقد نهضوا وجاهدوا إلى قم وبسطوا فسطاط الحديث والمعارف الإسلاميّة في هذه المدينة وأسّسوا مركزاً فيها. وكذلك نجد في الريّ من هم أمثال الكليني^١.

فشخصٌ مثل الكليني، لا يتزعزع إلّا في بيئةٍ شيعيّة وبيئةٍ اعتقاديّة، حتّى يصبح هذا الشاب الكلينيّ بتلك الخصوصيّات. وفيما بعد أيضاً، عندما استمرّت هذه

^١ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي، المعروف بـ "الكليني"، صاحب الكتاب جليل القدر "الكافي"، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري، وتوفي في شهر شعبان من سنة ٣٢٩.

الحركة، أنتم ترون الشيخ الصدوق^١ كيف أنه يسافر إلى هرات وخراسان وأماكن أخرى ويبدأ بجمع أحاديث الشيعة، فهذا أمرٌ مهمٌ جدًّا. فماذا يفعل محدّثو الشيعة في خراسان؟ وماذا يفعلون في سمرقند؟ من يوجد في سمرقند؟ إنّه الشيخ العياشي السمرقندي^٢، هو الذي قيل بشأنه: "في داره التي كانت مرتعاً للشيعة وأهل العلم"، كما ورد في كلمات الشيخ الكشي^٣. والكشي نفسه سمرقندي. لهذا فإنّ حركة الإمام الرضا عليه السلام وفيما بعد شهادته مظلومًا، هي التي جعلت مثل هذه الأجواء لصالح الأئمة عليهم السلام، وقد نهض الأئمة للاستفادة من هذا الأمر. فالرسائل والزيارات المتبادلة التي كانت تجري لم تكن تحدث بطريقةٍ عاديةٍ، بل كانت كلّها تجري في الخفاء، وإلاّ فلو كانت علنيّةً لكانوا قبضوا على أصحابها وقطّعوا أيديهم وأرجلهم. فهل على سبيل المثال، كان ممكناً في ظلّ ذاك العنف والقمع الذي مارسه المتوكّل، ومنع فيه زيارة كربلاء، أن تصل أسئلة الناس إلى الإمام عليه السلام بسهولة، ثم ترجع إليهم الإجابات؟ أو أن تُرسل الحقوق الشرعيّة إلى الإمام عليه السلام، ثمّ يصلهم منه الإيصالات؟ فكلّ هذا دليلٌ على وجود شبكةٍ إعلاميّةٍ وتعليميّةٍ عظيمةٍ لهؤلاء الأئمة العظماء الثلاثة.

^١ أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بـ "الشيخ الصدوق"، من جملة فقهاء وعلماء الشيعة في القرن الرابع للهجرة. وُلد في السنة ٣٠٦ للهجرة في مدينة قم. من جملة آثاره الكتاب النفيس "من لا يحضره الفقيه" الذي هو الكتاب الثاني من الكتب الشيعية الأربعة. غادر هذا الفقيه الرفيع الشأن الدنيا في العام ٣٨١ للهجرة في مدينة الري.

^٢ محمد بن مسعود العياشي السمرقندي، يُعتبر من جملة علماء ومفسّري الشيعة المشهورين لآخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة.

^٣ محمد بن عمرو بن عبد العزيز المشهور بـ "الشيخ الكشي"، وكنيته "أبو عمرو"، من الوجوه التي سطعت في أواسط النصف الأول من القرن الرابع للهجرة وهو من العلماء المعروفين وأستاذ في علم الرجال والأخبار ومن محدّثي الشيعة.

لقد حدث مثل هذا الأمر ما بعد الإمام الرضا عليه السلام وإلى زمن شهادة الإمام العسكري عليه السلام. فقد استطاع الإمام الهادي والإمام العسكري عليهما السلام في مدينة سامراء تلك، التي كانت في الواقع بمثابة معسكر كبير - لم تكن في ذلك الكبير، بل عاصمةً حديثة البناء سرورٌ لكل من رأى (سُرَّ من رأى) حيث يجتمع فيها الرؤساء والأعيان ورجال الحكومة وبعض الناس العاديين الذين يؤمنون الحوائج اليومية - لقد استطاعا أن يُنظما كل هذه الروابط بين جميع أقطار العالم الإسلامي. فعندما ننظر إلى أبعاد حياة الأئمة نفهم ماذا كانوا يفعلون. لهذا، لم تنحصر القضية في تلك الفتاوى التي كانوا يُجيبون بها على أسئلة الناس حول الصلاة والصوم والطهارة والتجاسة. بل كانوا ينطلقون من موقعية الإمام بذلك المعنى الإسلامي الخاص ويتحدثون وفقه مع الناس. ويرأيي يمكن الالتفات إلى هذا البعد إلى جانب غيره من الأبعاد. أنتم ترون أنهم عندما أحضروا الإمام الهادي عليه السلام من المدينة إلى سامراء، وقتلوه في سنّ الشباب عن عمرٍ يناهز ٤٢ سنة، أو عندما يقتلون الإمام العسكري في سنّ الـ ٢٨ سنة، فكل ذلك دليلٌ على هذه الحركة العظيمة للأئمة والشيعية وأصحابهم الكبار، عبر التاريخ. ومع أنّ جهاز الحكم كان نظاماً بوليسياً ويعمل بشدّة، فقد استطاع الأئمة في مثل هذا الوضع أن يُحقّقوا مثل هذه النجاحات. مقصودنا أنّه ينبغي مشاهدة هذه العزّة والعظمة إلى جانب تلك الغربة.

(٢٠٠٣/٠٥/١٠)

لا يوجد أيّ زمانٍ شهدت فيه روابط الشيعة وانتشار تشكيلاتهم في كلّ أرجاء العالم الإسلاميّ ما شهدته في زمن حضرة الإمام الجواد والإمام الهاديّ والإمام العسكريّ عليهم السلام. فوجود الوكلاء والنواب وتلك القصص التي تُنقل عن الإمام الهادي عليه السلام والإمام العسكريّ عليه السلام - مثلاً عندما كان يُحضر له المال والإمام يُحدّد ماذا ينبغي أن يفعل به - دليلٌ على هذا الأمر. أيّ أنّه بالرغم من الإقامة الجبريّة لهذين الإمامين الجليلين في سامراء، وقبلهما الإمام الجواد عليه السلام بنحوٍ ما، والإمام الرضا عليه السلام بنحوٍ آخر، فإنّ الارتباط والتواصل مع الناس كان يتّسع على هذه الشاكلة. وهذه الروابط والتواصل كانت موجودة قبل زمن الإمام الرضا عليه السلام. لكن غاية الأمر أنّ مجيء الإمام إلى خراسان كان له تأثيرٌ كبيرٌ جدّاً في هذه القضية.

(٢٠٠٥/٠٨/٠٩)

إنّ أئمّتنا وطيلة الـ ٢٥٠ سنة للإمامة - أي منذ رحيل نبيّ الإسلام المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم وإلى زمن وفاة الإمام العسكري - قد لاقوا الكثير من التعذيب والقتل والظلم، وحرّيّ بنا أن نبكيهم، إنّ مظلوميّتهم تستحضر القلوب والعواطف، لكنّ هؤلاء المظلومين قد انتصروا سواءً في مقطعٍ من الزمان أو في كلّ هذا الزمان وطوله.

(٢٠٠٤/٠٨/٢٠)

الفصل الرابع عشر: الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

- غاية حركة إنسان بعمر ٢٥٠ سنة ٤٥٣
- خصائص المجتمع المهدي
- مسؤوليتنا في عصر غيبة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف

الشّيعَة وعقيدة المهدويّة

إنّ أصل المهدويّة هو محلّ اتفاق جميع المسلمين. وفي عقائد الأديان الأخرى، يوجد أيضًا انتظار المنجي في نهاية الزّمان. فقد فهموا هذا المطلب أيضًا بنحوٍ صحيح في بُعدٍ من أبعاد القضيّة، ولكن في البُعد الأساس المتعلّق بتحديد ومعرفة الشّخص المنجي، ائْتُلوا بنقص المعرفة. والشّيعَة يعرفون المنجي بالاسم والعلامة والخصائص وتاريخ الولادة، من خلال الأخبار المسلّمة والقطعيّة عندهم.

(٢٠٠٥/٠٩/٢٠)

إنّ خصوصية اعتقادنا نحن الشّيعَة هي أنّنا قد بدّلنا هذه الحقيقة في مذهب التّشيع من حالة الأُمْنِيّة والأمر الذهنيّ المحض، إلى حالة واقعيّة موجودة. الحقيقة هي أنّ الشّيعَة عندما ينتظرون المهديّ الموعود فإنّهم ينتظرون اليد المنجية تلك، ولا يغرقون في عالم العقليّات بل يبحثون عن الواقعيّة وهي موجودة. وحجّة الله حيّ بين النّاس وموجودٌ ويعيش فيما بينهم ويرى النّاس وهو معهم، ويشعر

بآلامهم وأسقامهم. وأصحاب السعادة والاستعداد يزورونه في بعض الأحيان بصورة خفية. إنه موجود، هو إنسان واقعي مشخص باسم معين، له أب وأم محدّدان وهو بين الناس ويعيش معهم. هذه هي خصوصية عقيدتنا نحن الشيعة.

أولئك الذين لا يقبلون هذه العقيدة من المذاهب الأخرى، لم يتمكنوا في أيّ وقتٍ من إقامة أيّ دليلٍ يقبل به العقل لردّ هذه الفكرة وهذه الحقيقة.

فجميع الأدلة الواضحة والراسخة، التي يُصدّقها الكثير من أهل السنة أيضًا، تحكي بصورة قاطعة ويقينية عن وجود هذا الإنسان العظيم، فهو حجة الله، وهو الحقيقة الواضحة والساطعة - بتلك الخصائص التي نعرفها، أنا وأنتم - وأنتم تشاهدون هذه الأمور في العديد من المصادر غير الشيعية.

فتاريخ ولادة الابن المبارك والمطهر للإمام الحسن العسكري عليه الصلاة والسلام معروف، وكذلك والداه وأصحابه ومعجزاته، وقد منحه الله عمرًا طويلًا، وما زال. وهو تجسيدٌ لتلك الأمنية الكبرى، لجميع أمم العالم، وقبائله وأديانه وأعراقه عبر جميع العصور. هذه هي خصوصية مذهب الشيعة بشأن هذه القضية المهمة.

(٢٠٠٨/٠٨/١٧)

هناك نكاتٌ بشأن الاعتقاد بالمهدوية أُشير إليها بالإجمال:

الأولى هي أنّ الوجود المقدّس لحضرة بقيّة الله أرواحنا فداه، هو عبارة عن استمرار النبّوات والدّعوات الإلهية منذ بداية التاريخ وإلى يومنا

هذا، أي كما تقرأون في دعاء التدبيرة من: "فبعض أسكنته جنتك"^١، الذي هو آدم، وإلى: "أن انتهيت بالأمر"، أي الوصول إلى خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، ومن بعدها قضية الوصية وأهل بيت هذا النبي العظيم إلى أن يصل الأمر إلى إمام الزمان، فالجميع عبارة عن سلسلة متصلة ومرتبطة ببعضها في تاريخ البشرية. وهذا بمعنى أن تلك الحركة العظيمة للنبؤات وتلك الدعوات الإلهية بواسطة الرسل، لم تتوقف في أي مقطع من الزمان. فال بشرية تحتاج إلى الأنبياء والدعوات الإلهية، والدعاة الإلهيين، وهذا الاحتياج باقٍ إلى يومنا هذا، وكلما مرّ الزمان فإنّ البشر يُصبحون أقرب إلى تعاليم الأنبياء.

لقد أدرك المجتمع البشريّ اليوم من خلال التقدّم الفكريّ والمدنيّة والمعرفة، الكثير من تعاليم الأنبياء - والتي لم تكن قابلة للإدراك من قبل البشر قبل عشرات القرون من هذا - فقضية العدالة هذه، وقضية الحرية، وكرامة الإنسان، وهذه الألفاظ الرائجة في العالم اليوم، هي كلمات الأنبياء. في ذلك الزمن، لم يُدرك عامّة الناس والرأي العام هذه المفاهيم. وبعد مجيء الأنبياء وانتشار دعوتهم، غُرست هذه الأفكار في أذهان الناس وفي فطرتهم وفي قلوبهم جيلاً بعد جيل. فالدعاة الإلهيون لم تنقطع سلالتهم اليوم، والوجود المقدّس لبقية الله الأعظم أرواحنا فداه، هو استمرار سلاله الدعاة الإلهيين حيث تقرأون في زيارة آل ياسين: "السّلام عليك يا داعي الله وربّانيّ"

^١ بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ١٠٥.

آياته"^١. أي إنكم اليوم ترون تجسيداً، لدعوة إبراهيم ودعوة موسى، ودعوة عيسى، ودعوة جميع الأنبياء والمصلحين الإلهيين ودعوة النبي الخاتم في وجود حضرة بقيّة الله. فهذا الإنسان العظيم هو وارثهم جميعاً، ويده دعوتهم ورايتهم جميعاً، وهو يدعو البشريّة ويعرض عليها تلك المعارف التي جاء بها الأنبياء عبر الزمان الممتدّ. هذه هي نقطة مهمّة.

المعنى الحقيقي لانتظار الفرج

النقطة الثانية في باب المهدويّة: هي انتظار الفرج. فانتظار الفرج مفهومٌ واسعٌ جدّاً. وأحد أنواعه هو انتظار الفرج النهائي، أي إنّ الناس عندما يرون طواغيت العالم مشغولين بالنّهب والسّلب والإفساد والاعتداء على حقوق النّاس، لا ينبغي أن يتخيّلوا أنّ مصير العالم هو هذا. لا ينبغي أن يتصوّر أنّه في نهاية المطاف لا بدّ ولا مناص من القبول بهذا الوضع والإذعان له، بل ينبغي أن يُعلم أنّ هذا الوضع هو وضعٌ عابر - "للباطل جولة"^٢. وأمّا ما هو مرتبطٌ بهذا العالم وطبيعته فهو عبارة عن استقرار حكومة العدل وهو سوف يأتي. إنّ انتظار الفرج والفتح في نهاية العصر الذي نحن فيه، حيث تُعاني البشريّة من الظلم والعذابات هو مصداقٌ لانتظار الفرج، ولكن لانتظار الفرج مصاديق أخرى أيضاً.

^١ الاحتجاج، ج ٢، ص ٤٩٣.
^٢ الأمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص ٧١.

فعندما يُقال لنا انتظار الفرج، فلا يعني انتظار الفرج النهائي، بل يعني أنّ كلّ طريقٍ مسدود قابلٌ للفتح. الفرج يعني هذا، الفرج يعني الشقّ والفتح. فالمسلم يتعلّم من خلال درس انتظار الفرج أنّه لا يوجد طريق مسدود في حياة البشر ممّا لا يمكن أن يُفتح، وأنّه لا يجب عليه أن ييأس ويُحبط ويجلس ساكناً ويقول لا يمكن أن نفعل شيئاً، كلا، فعندما يظهر في نهاية مطاف حياة البشر ومقابل كلّ هذه الحركات الظّالمة والجائرة، عندما تظهر شمس الفرج، فهذا يعني أنّه في كلّ هذه العقبات والسدود الموجودة في الحياة الآن، هناك فرجٌ متوقّع ومحلّ انتظار. هذا هو درس الأمل لكلّ البشريّة. وهذا هو درس الانتظار الواقعيّ لجميع النّاس.

لهذا، عُدّ انتظار الفرج من أفضل الأعمال، ويُعلم من ذلك أنّ الانتظار هو عملٌ لا بطلالَةٌ. فلا ينبغي الاشتباه والتصوّر أنّ الانتظار يعني أن نضع يداً فوق يد ونبقى منتظرين حتّى يحدث أمرٌ ما. الانتظار عملٌ وتهيؤٌ وباعثٌ على الاندفاع والحماس في القلب والباطن، وهو نشاطٌ وتحركٌ وتجدّدٌ في كلّ المجالات. وهذا هو في الواقع تفسير هذه الآيات القرآنية الكريمة ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾^١ أو ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^٢ أي أنّه لا ينبغي أن تيأس الشعوب والأمم من الفرج في أيّ وقتٍ من الأوقات.

^١ سورة القصص، الآية ٥.
^٢ سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

لهذا ينبغي انتظار الفرج النهائي، مثلما ينبغي انتظار الفرج في جميع مراحل الحياة الفردية والاجتماعية. لا تسمحوا لليأس أن يسيطر على قلوبكم، فانتظروا الفرج واعلموا أنّ هذا الفرج سيتحقق، وهو مشروطٌ في أن يكون انتظاركم انتظارًا واقعيًا، وأن يكون فيه العمل والسعي والاندفاع والتحرك.

(٢٠٠٥/٠٩/٢٠)

ننا اليوم ننتظر الفرج. أي إنّنا ننتظر مجيء يدٍ مقتدرةٍ تنشر العدل وهي هزيمة الظلم والجور الذي سيطر على كلّ البشرية تقريبًا، فيتبدّل هذا الجور من الظلم والجور وينبعث نسيم العدل في حياة البشر لكي يشعر الناس بالعدالة. إنّ هذا هو حاجة أيّ إنسانٍ واعٍ بشكلٍ دائمٍ، الإنسان الذي لم يجعل رأسه في حجره ولم يستغرق في حياته الخاصة. الإنسان الذي ينظر إلى الحياة العامة للبشر بنظرة كلية فإنّه من الطبيعي أن يكون في حالة انتظار، هذا هو معنى الانتظار. فالانتظار يعني عدم الاقتناع والقبول بالوضع الموجود لحياة البشر، وهو السعي من أجل الوصول إلى الوضع المطلوب، ومن المسلمّ به أنّ هذا الوضع المطلوب سوف يتحقق على يد وليّ الله المقتدرة الحجة بن الحسن المهديّ، صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

يجب أن نعدّ أنفسنا كجنودٍ مستعدين لتلك الظروف والشّرائط، ونجاهد في هذا المجال. إنّ انتظار الفرج لا يعني أن يجلس الإنسان ولا يفعل أيّ شيء، ولا ينهض لأيّ إصلاحٍ بل يُمَيّن نفسه بأنّه منتظرٌ لإمام الزّمان عليه الصّلاة والسلام، فهذا ليس انتظارًا.

ما هو الانتظار؟ الانتظار يعني أنه لا بدّ من مجيء يدٍ قادرةٍ مقتدرةٍ ملكوتيّةٍ إلهيّةٍ وتستعين بمؤلاء النّاس من أجل القضاء على سيطرة الظّلم، ومن أجل غلبة الحقّ وحاكمية العدل في حياة البشريّة ورفع راية التّوحيد، تجعل البشر عباداً حقيقيّين لله. يجب الإعداد لهذا الأمر. فكلّ إقدامٍ على طريق استقرار العدالة يمثّل خطوةً نحو ذلك الهدف الأسمى. الانتظار يعني هذه الأمور. الانتظار حركةٌ وليس سكوتاً. ليس الانتظار إهمالاً وقعوداً إلى أن تصلح الأمور بنفسها. الانتظار حركةٌ واستعدادٌ. هذا هو انتظار الفرج.

(٢٠٠٨/٠٨/١٧)

خصائص المجتمع المهدوي

إنّ المجتمع المهدويّ هو ذلك العالم الذي يأتي فيه إمام الزّمان ليصلحه، وهو المجتمع نفسه الذي ظهر من أجله جميع الأنبياء. أي أنّ كلّ الأنبياء كانوا مقدّمة لذلك المجتمع الإنسانيّ المثاليّ، والذي سيتحقّق في نهاية الأمر بواسطة وليّ العصر والمهديّ الموعود. مثل بناءٍ شامخٍ، يأتي شخصٌ فيسطّح الأرض ويُزيل منها الأشواك والعوائق، ثمّ يأتي شخصٌ آخر من بعده ويصنع فيها الأسس، ثمّ يأتي شخصٌ آخر ليضع فيها الأعمدة والأركان، وهكذا شخصٌ بعد آخر، يأتون لعمارة الجدران حتّى يصل هذا القصر المرتفع، وهذا البنيان الرفيع إلى شكله النهائيّ. لقد جاء الأنبياء الإلهيّون، ومنذ بداية تاريخ البشريّة، واحدًا بعد آخر، من أجل أن يُقَرّبوا المجتمع والبشريّة خطوةً خطوةً نحو ذاك المجتمع المثاليّ وذاك الهدف النهائيّ. لقد نجح جميع الأنبياء ولم يفشل أيّ واحدٍ من رسل الله على هذا الطريق، وفي هذا المسير، لقد كان حملاً على عاتق هؤلاء المأمورين الشّاخخين، وكلّ واحدٍ منهم تقدّم به خطوةً نحو المقصد والهدف النهائيّ وسعوا بكلّ جهدهم من أجل القيام بهذا العمل. وعندما كانوا يصلون إلى آخر حياتهم كان هناك من يأتي من بعدهم ليضع هذا الحمل على عاتقه

ويتقدّم به مسافةً أخرى، مقترباً بذلك من ذلك الهدف. ووليّ العصر صلوات الله عليه، هو وارث جميع الأنبياء الإلهيين، فعندما يأتي ستكون الخطوة الأخيرة على طريق إيجاد ذلك المجتمع الإلهي.

أتحدّث قليلاً حول صفات ذلك المجتمع. بالطبع، لو أنكم دققتم في الكتب الإسلامية وفي المصادر الإسلامية الأساس للاحظتم جميع خصائص ذلك المجتمع. فدعاء الندبة هذا الذي تُوفّقون بإذن الله لقراءته أيام الجمعة، يذكر خصائص ذلك المجتمع. فعندما يقول: "أين معزّ الأُولياء ومذلّ الأعداء" مثلاً، فذلك المجتمع هو مجتمع يكون فيه أولياء الله أعرّاء وأعداء الله أذلاء، أي أنّ القيم والمعايير الحاكمة في ذلك المجتمع تكون هكذا. "أين المُعدّ لإقامة الحدود"، ففي هذا المجتمع تُطبّق الحدود الإلهية وتُراعى كلّ الحدود التي عينها الله تعالى والإسلام في مجتمع إمام الزمان. فعندما يظهر إمام الزمان يصنع مجتمعاً له باختصار مثل هذه الخصوصية، دقّقوا حولها في الآيات وفي الأدعية عندما تقرؤونها، فتتفتّح أذهانكم في هذا المجال، وتتسع، فمجرد قراءة دعاء الندبة ليس كافياً، فالمطلوب هو الفهم وأخذ الدروس.

إنّ إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، يبنّي مجتمعه على هذه الأسس:
أولاً: على إزالة وقمع وقلع جذور الظلم والطغيان. فلا ينبغي أن يكون في هذا المجتمع الذي يكون في زمان وليّ العصر صلوات الله عليه، أيّ ظلم وجور، لا أنّ الأمر يكون في إيران على هذه الشاكلة فحسب، ولا حتّى

^١ بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ١٠٧.

في المجتمعات التي يقطنها المسلمون، بل في كل العالم. فلن يكون أيّ ظلمٍ اقتصاديٍّ أو سياسيٍّ أو ثقافيٍّ أو أيّ نوعٍ آخر في ذلك المجتمع. فيجب اقتلاع كلّ الاختلافات الطبقيّة وكلّ أنواع التمييز وعدم المساواة والتسلّط والهيمنة. هذه هي الخصوصية الأولى.

ثانيًا: إنّ من خصائص المجتمع المثاليّ الذي يصنعه إمام الزمان صلوات الله عليه، هو الارتقاء بمستوى الفكر البشريّ، سواء على المستوى العلميّ الإنسانيّ أو المعارف الإسلاميّة. ففي زمن وليّ العصر، لن تجدوا في كلّ العالم، أيّ أثرٍ للجهل والأميّة والفقر الفكريّ والثقافيّ. هناك يتمكّن الناس من معرفة الدّين معرفة صحيحة، وقد كان هذا، كما تعلمون جميعًا، من الأهداف الكبرى للأنبياء الّذي أشار إليه أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه، في خطبة نهج البلاغة الشريفة، "...ويثيروا لهم دفائن العقول..."^١. لقد جاء في رواياتنا أنّه عندما يظهر وليّ العصر، فإنّ المرأة تجلس في بيتها وتفتح القرآن وتستخرج منه حقائق الدّين وتفهمها. فماذا يعني ذلك؟ يعني ذلك أنّ مستوى الثقافة الإسلاميّة والدينيّة يرتقي إلى درجة أنّ جميع الأفراد، وكلّ أبناء المجتمع، والنساء اللواتي لا يشاركن في ميدان الاجتماع على سبيل الفرض ويبقن في بيوتهنّ، فإنّهنّ يتمكّن من أن يصبحن فقيهات وعارفات في الدّين، فيتمكّن من فتح القرآن وفهم حقائق الدّين بأنفسهنّ. انظروا إلى مجتمع يكون فيه الجميع - نساءً ورجالاً - وعلى كافّة المستويات قادرين على فهم الدّين والاستنباط من الكتاب

^١ نهج البلاغة، ص ٤٣.

الإلهي، فكم سيكون هذا المجتمع نورانيًا، ولن يبقى فيه أي نقطة ظلام وظلمانية. فكل هذه الاختلافات في وجهات النظر والتحليل، لن يبقى لها أي أثر في ذلك المجتمع.

الخاصية الثالثة: لمجتمع إمام الزمان - المجتمع المهدوي - هو أنه في ذلك العصر ستكون جميع القوى الطبيعية وكل الطاقات البشرية في حالة انبعاث فلا يبقى أي شيء في باطن الأرض ولا يستفيد منه البشر. فكل هذه الإمكانيات الطبيعية المعطلة، وكل هذه الأراضي التي يمكن أن تُغذي الإنسان، وكل هذه الطاقات والقوى التي لم تُكشف بعد، كتلك الطاقات التي بقيت عبر قرون التاريخ. مثلاً، القدرة النووية والطاقة الكهربائية كانت وعبر قرون عمر هذا العالم، في باطن الطبيعة ولم يكن البشر يعرفونها، ثم بعد ذلك قاموا باستخراجها بالتدريج. فكل الطاقات والإمكانيات اللامتناهية الموجودة في باطن الطبيعة هي من هذا القبيل، وسوف تُستخرج في عصر إمام الزمان.

جملة أخرى وخصوصية أخرى، هي أن المحور في عصر إمام الزمان هو محور الفضيلة والأخلاق. فكل من كان صاحب فضيلة أخلاقية أكثر سيكون مقدماً وسباقاً.

(١٩٨٠/٠٦/٢٧)

ورد في الرواية: "القائم منا منصور بالزعم مؤيد بالنصر، تطوى له الأرض وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب"^١، ممّا

^١ الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق وتصحيح علي أكبر غفاري، نشر الإسلامية، طهران، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ، ج ١، ص ٣٣١.

يعني أنّ كلّ الحكومات الظّالمة والأجهزة الجائرة ستكون مرعوبةً منه. في ذلك الزّمن، سيكون هناك حالةٌ في زمانٍ وليّ العصر أرواحنا فداه، من الشموليّة والعموميّة بحيث يمكن أن تحقّق الحكومة العالميّة. "مؤيّد بالنصر"، فنصر الله يؤيّد.

و"تطوى له الأرض"، أي إنّها ستكون بيده وفي قبضة قدرته. وتظهر تلك الكنوز وتبلغ سلطته مشرق العالم ومغربه.

وبعد عدّة جملٍ يقول، "فلا يبقى خرابٌ إلّا قد عمر"^١، أي إنّ هذه السّلطة سوف تُنفق في عمارة الأرض، لا في السيطرة على ثروات البشر وفي استضعافهم. وفي كلّ نقاط العالم لن يبقى أيّ نقطةٍ من الخراب إلّا وستُعمّر، سواءً كانت خرابات حصلت على أيدي البشر أو بسبب جهلهم. هناك رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه الصّلاة والسلام يقول فيها: "حتى إذا قام القائم جاءت المزايلة وأتى الرجل إلى كيس أخيه فيأخذ حاجته فلا يمنعه"^٢، وهي إشارة إلى أخلاق المساواة بين البشر وإلى الإيثار. وتُبشّر هذه الرّواية بنجاة البشر من تسلّط البخل والحرص الذي كان أكبر سببٍ لشقاء البشريّة. وهذا في الحقيقة علامةٌ على ذلك النّظام الإسلاميّ السالم أخلاقياً واقتصادياً واجتماعياً في ذلك الزّمان. فلا يوجد أيّ قهرٍ وإجبارٍ في البين، بل إنّ البشر أنفسهم ينجون من البخل الإنسانيّ والحرص البشريّ وستحقّق مثل هذه الجنّة الإنسانيّة. يوجد في روايةٍ أخرى أيضاً: "إذا قام قائمنا اضمحلّت القطائع، فلا قطائع"^٣،

^١ م. ن.

^٢ الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشّيعه، تحقيق ونشر مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ، ج ٥، ص ١٢١.

^٣ م. س، ج ١٧، ص ٢٢٢.

فتلك القطاعات التي تمنحها الحكومات المستكبرة في العالم لأتباعها وحلفائها، وذلك الكرم الحائمي الذي يحصل من جيوب الشعوب سوف يتوقف تمامًا في العالم. وقد كانت القطاعات في الماضي بشكلٍ وهي اليوم بشكلٍ آخر. كانت في الماضي بحيث أنّ الخليفة أو السلطان يمنح أرضًا أو صحراء أو قرية أو مدينة أو حتى ولايةً لشخصٍ ما، فيقول له اذهب هناك وافعل ما يحلو لك فيها، خذ من أهلها الجبايات والخراج واستعمل مزارعها واستفد منها وكلّ فائدة مادية هي لك، وكان عليه طبعًا أن يعطي السلطان حظّه. واليوم، هي بصورة الاحتكارات النفطية والتجارية والصناعية والفنية المختلفة، وكلّ هذه الصناعات الكبرى وهذه الاحتكارات التي جعلت الشعوب مسكينة هي في الواقع في حكم القطاعات، التي أُشير إليها، وفيها كانت تُمارس كلّ أنواع الرشاوة والمحابة. إنّ هذا البسط الذي يقتل البشر ويقضي على الفضيلة سوف يُطوى وسوف توضع أسباب الاستفادة والتفجع بيد جميع الناس.

وفي روايةٍ أخرى ناظرة إلى الوضع الاقتصادي يقول: "ويسوي بين الناس حتى لا ترى محتاجاً إلى الزكاة"، ما يعني أنّه لن يبقى هناك أيّ فقير يحتاج إلى زكاة أموالكم، وبالطبع سيكون لهذه الزكاة مصرفها في الأمور العامة لا للفقراء، لأنّه لن يبقى هناك أيّ فقير، ومثل هذه الروايات ترسم الجنة الإسلامية والعالم الواقعي. وليس هذا الأمر مشابهاً لتلك المدن الفاضلة التي صنعها البعض في خيالهم وأوهامهم، كلّاً.

^١ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج ٥٢، ص ٣٩٠.

إنَّ كلَّ تلك الشَّعارات الإسلاميَّة الَّتِي هي جميعًا قابلة للتَّطبيق، ونحن في الجمهوريَّة الإسلاميَّة نشعر أنَّ هناك قدرة وقلباً وفكراً متَّصلاً بالوحي والتأييد الإلهيِّ ومعصوماً يُمكنه يقيناً أن يُحقِّق مثل هذا الوضع، وسوف تقبل البشريَّة على ذلك حتمًا. هذه هي حالة ذلك العالم.

(١٩٨٧/٠٤/١٠)

مسؤوليتنا في عصر غيبة الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف

هنا إذا رجعتم إلى الآيات والروايات . وبالتأكيد إنّ المحققين والمتتبعين قد فعلوا ذلك . فسوف تجدون خصوصيات أخرى. المجتمع الذي لا يوجد فيه أية علامة للظلم والطغيان والعدوان، المجتمع الذي تصل فيه المعرفة الدينية والمعرفة العلمية للبشر إلى حدّها الأعلى، المجتمع الذي تبرز فيه كلّ هذه البركات والنعم والفضائل والجماليات وتكون في يد الإنسان، وفي النهاية المجتمع الذي تكون فيه التقوى والفضيلة والإيثار والأخوة والعطف والانسجام أصلاً ومحوراً. فانظروا إلى مثل هذا المجتمع، فهو ذاك المجتمع الذي سيحققه مهدينا الموعود وإمام زماننا، ومحوبنا التاريخي القديم، والذي يعيش الآن تحت هذه السماء وعلى هذه الأرض وبين الناس. هذا هو اعتقادنا بإمام الزمان. حسن، ماذا نفعل بعد هذا؟ فبعد هذا تكليفنا واضح.

أولاً، يجب أن نعلم أنّ ظهور وليّ العصر صلوات الله عليه، مثلما أنّه بثورتنا هذه أصبح أقرب خطوة، فبهذه الثورة أيضاً يمكن أن يقترب أكثر. أي إنّ نفس هذا الشعب الذي قام بهذه الثورة، وقرب نفسه خطوة إضافية

إلى إمام زمانه، يمكنه أيضًا أن يتقدّم خطوةً ثمّ خطوةً نحو إمام زمانه. فكيف (ذلك)؟ أولاً، كلّما استطعتم أن توسّعوا من دائرة هذا المقدار من الإسلام الذي لدينا نحن وأنتم في إيران . لا نبالغ، الإسلام الكامل ليس متحقّقاً، ولكن قسمٌ من الإسلام قد طبّقه هذا الشعب في إيران . فهذا المقدار من الإسلام كلّما استطعتم أن تنشروه في الآفاق الأخرى للعالم، وفي البلاد الأخرى، وفي المناطق المظلمة، فإنّه بنفس المقدار سيساعد ويقرب من ظهور وليّ الأمر وحجّة العصر.

ثانياً، إنّ الاقتراب من إمام الزمان ليس بمعنى الاقتراب المكانيّ ولا بمعنى الاقتراب الزمانيّ. فأنتم الذين تريدون أن تقتربوا من ظهور إمام الزمان، فإنّ الاقتراب من إمام الزمان ليس له تاريخٌ محدّد كأن يُقال مثلاً، بعد مئة سنة أو خمسين سنة، حتّى نقول أننا عبرنا سنةً أو سنتين أو ثلاث سنوات، من هذه الخمسين أو المئة سنة، فيبقى عندئذٍ هذا المقدار من السنوات، كلّاً، وليس أيضاً بلحاظ المكان حتّى نقول إنّنا تحركنا من هنا باتجاه الشرق أو غرب العالم مثلاً، أو نحو الشمال أو الجنوب، لنرى أين هو وليّ العصر لنصل إليه. كلّاً، إنّ اقترابنا من إمام الزمان هو اقترابٌ معنويّ، أي إنكم في كلّ زمانٍ إذا استطعتم أن تزيدوا من حجم المجتمع الإسلاميّ كمّاً ونوعاً إلى خمس سنوات أو عشر سنوات أخرى، أو حتّى مئة سنة أخرى، فإنّ إمام الزمان صلوات الله عليه سيظهر.

لو استطعتم أن تُحقّقوا في أنفسكم وفي غيركم، في داخل مجتمعكم - هذا المجتمع الثوريّ - التّقوى والفضيلة والأخلاق والتّدين والزّهد والقرب المعنويّ من الله، وجعلتم قاعدة ظهور وليّ العصر صلوات الله

وسلامه عليه أكثر رسوخًا وإحكامًا، وكلّما استطعتم أن تزيدوا باللحاظ الكمي والمقدار، عدد المسلمين المؤمنين والمخلصين فإنكم تكونون هنا أيضًا أقرب إلى إمام الزمان وإلى زمن ظهور وليّ العصر. فنحن نستطيع أن نُقَرِّب مجتمعنا وزماننا وتاريخنا خطوة بخطوة نحو تاريخ ظهور وليّ العصر صلوات الله وسلامه عليه، هذا واحدٌ.

النقطة الثانية هي أنّه لدينا في ثورتنا اليوم طرق ومناهج، فإلى أيّ جهةٍ ينبغي أن تتحرّك هذه المناهج؟ فهذه النقطة جديرة جدًا بالتأمل. فافرضوا أنّ لدينا طالبًا مجّدًا يريد أن يصبح أستاذًا مثلاً في علم الرياضيات.

فكيف ينبغي أن نؤمن مقدّمات هذا الأمر. فينبغي أن نوجّه دراساته باتجاه الرياضيات. فلا معنى أن نُعْطيه دروسًا في الفقه مثلاً، إذا كنّا نريده أن يُصبح عالماً رياضياً. أو أنّ من يريد أن يُصبح فقيهاً نُعْطيه دروس الأحياء مثلاً، فينبغي أن تكون المقدّمات متناسبة مع النتيجة والغاية. الغاية هي المجتمع المثالي المهدويّ بتلك الخصائص التي ذكرتها. فيجب علينا إذاً أن نؤمن المقدّمات بما يتناسب. يجب علينا أن نُبعد أنفسنا عن الظلم ونتحرّك بحزم ضده، أيّ ظلم كان ومن أيّ شخص. يجب علينا أن نجعل توجهاتنا نحو إقامة الحدود الإسلامية. وفي مجتمعنا، لا نُعْطِي أيّ مجالٍ لنشر الأفكار المخالفة للإسلام. نحن لا نقول إنّنا علينا بالقهر والغلبة لأننا نعلم أنّه لا يُمكن مواجهة الفكر إلّا عن طريق الفكر، لكننا نقول إنّنا علينا بالطرق الصحيحة والمنطقية والمعقولة أن ننشر الفكر الإسلاميّ.

يجب أن تُصبح كلّ قوانيننا ومقرّرات بلدنا وإداراتنا ومؤسّساتنا التنفيذية والكلّ إسلاميًّا بلحاظ الظاهر والمحتوى، وأنْ تقترب نحو أسلمتها يوميًّا بعد يوم. هذه هي الجهة الّتي تمنحنا وتمنح حركتنا معنى انتظار وليّ العصر. أنتم تقرأون في دعاء الندبة أنّ إمام الزمان يقاتل الفسوق والعدوان والطغيان والنفاق ويزيل كلّ ذلك ويقضي عليه. وعلينا اليوم أنْ نتحرّك في مجتمعتنا بهذا الاتجاه ونتقدّم. هذا هو الشّيء الّذي يُقرّبنا إلى إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف من النّاحية المعنويّة، ويُقرّب مجتمعتنا نحو مجتمع وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف، ذلك المجتمع المهدويّ العلويّ التّوحيديّ ويزيده قرّبًا.

(١٩٨٠/٠٦/٢٧)

وهناك أثر آخر ونتيجة مختلفة لمستقبل هذا العالم، حيث يزول اليأس والإحباط من قلوب الشّعوب، ونعلم حينها أنّ جهادنا مؤثّر ومنتج. أحيانًا، هناك أفرادٌ ممّن ليس لديهم اطلاع على هذا البعد من الفكر الإسلاميّ، يُصابون بالحيرة واليأس أمام هذه الحسابات والمعادلات المادّية الكبرى في العالم، ويتساءلون فيما بينهم كيف يُمكن لشعبٍ يريد أنْ يثور أنْ يقاوم مثل هذه القوى العظمى والتكنولوجيا المتطوّرة والأسلحة المدقّرة، ومثل هذه القنابل النوويّة الموجودة في العالم؟ يشعرون أنّ الصمود مقابل ضغط قوى الظلم والاستكبار أمرٌ غير ممكن. لكنّ الاعتقاد بالمهديّ والإيمان بتحقّق عصر الحكومة الإسلاميّة والإلهيّة على يد ابن النّبي وإمام الزّمان يُحقّق هذا الأمل في الإنسان ويقول له، كلًّا، سنُجاهد لأنّ العاقبة لنا، ولأنّ عاقبة أمرنا هي أنّ هذا العالم يجب أنْ يخضع ويُسلم وسوف يحصل هذا

الأمر. وذلك لأنّ مسير التاريخ يتّجه نحو ما قمنا اليوم بوضع أسسه وقد حقّقنا أنموذجاً عنه ولو كان ناقصاً^١. ومثل هذه الأمل لو وُجد في قلوب الشّعوب المناضلة - وخاصةً الشّعوب الإسلاميّة - فسوف يمنحها حالةً من النشاط المستمرّ بحيث لا يُمكن لأيّ عاملٍ أن يخرجها من ميدان الجهاد والنّضال، أو أن يُصيبها بالهزيمة الداخليّة.

ويوجد نقطةٌ أخرى وهي أنّ الإعلام والأفكار المغلوطة قد انغrust في ذهن النّاس، وعبر كلّ هذه السّنين المتمادية، إلى تلك الدّرجة حيث اعتقدوا أنّ أيّ تحرّكٍ إصلاحيّ لن يكون مفيداً ومثمرًا قبل قيام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، ويستدلّون بأنّ الدنيا يجب أن تُملأ ظلماً وجوراً حتّى يأتي الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف، وما لم تمتلئ بالظلم والجور فإنّه لن يظهر. كانوا يقولون إنّ الإمام يظهر بعد أن تصبح هذه الدنيا مليئةً بالظلم والجور. والنّقطة الموجودة هنا هي أنّ في جميع الروايات التي وردت بشأن الإمام المهديّ، فإنّ الجملة هي هكذا: "يملأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً"^٢، أنا العبد لم أشاهد موضعاً واحداً ولا أظنّ أنّه يوجد "بعدها ملئت ظلماً وجوراً". فباللتفات إلى هذه النّقطة، رجعت إلى الروايات العديدة في الأبواب المختلفة ولم أجد في أيّ مكانٍ جملة، "بعدها ملئت ظلماً وجوراً"، ففي كلّ الأماكن يوجد "كما ملئت ظلماً وجوراً"، أي أنّ امتلاء الدنيا بالعدل والقسط بواسطة الإمام المهديّ عجل الله تعالى فرجه الشريف لا يكون مباشرةً بعد أن تُملأ بالظلم والجور، كلاً، بل إنّ كما حصل طوال التاريخ، وليس في

^١ يقصد الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران (المترجم).
^٢ الشيخ الكليني، الكافي، ج ١، ص ٣٤١.

موضعٍ واحدٍ أو زمان واحد، بل في أزمنة مختلفة، كانت الدنيا تُملأ بالظلم والجور، سواءً في عهد الفراعنة، أو في عصور الحكومات الطاغوتية أو في أيام السُّلطات الظالمة التي جعلت كلَّ هذه الدنيا ترزح تحت وطأة ظلمها وفي ظلِّ السَّحب السَّوداء للجور والعدوان بحيث إنَّه لم نَر فيها أيَّ علامة على العدالة والحرية، فكما أنَّ الدنيا عاشت مثل هذا اليوم، فإنَّها ستري يوماً يمتلئ العالم كلُّه في جميع آفاقه بنور العدل، ولا يكون فيه أيَّ مكانٍ لا يمتلئ بالقسط. وهناك لن يكون أيَّ مكانٍ يحكمه الظلم أو يكون فيه البشر تحت وطأة الظلم وجور الحكومات وتسلُّط المقتدرين، وآلام التمييز العنصري. أي إنَّ هذا الوضع الذي يُهيمن على العالم اليوم وقد كان يعمُّ هذه الدنيا في يومٍ من الأيام، سوف يتبدل إلى عموميَّة العدل.

(١٩٨٧/٠٤/١٠)

ليس إنَّه بوجود الحكومة الإسلامية لن تتأخَّر عاقبة الموعود فحسب، بل سيسرَّع من ذلك، وهذا هو معنى الانتظار. انتظار الفرج يعني انتظار حاكميَّة القرآن والإسلام. فأنتم لم تقنعوا بما هو موجودُ الآن في العالم، حتَّى بهذا التقدُّم الذي حقَّقتموه عبر الثورة الإسلامية تريدون أن تقتربوا أكثر إلى حاكمية القرآن والإسلام، هذا هو انتظار الفرج. انتظار الفرج يعني انتظار فرج أمر البشريَّة.

واليوم، فإنَّ حال البشريَّة قد وصل إلى المضائق الشديدة والعقد الصَّعبة. فالיום إنَّ الثقافة الماديَّة تُفرض على البشر بالقوَّة وهذه معضلة. إنَّ من يُعذَّب البشر اليوم على مستوى العالم هو التمييز، فهذه عقدةٌ كبرى. واليوم قد أوصلوا حال ذهنية النَّاس الخاطئة إلى حيث

تضيق صرخات طلب العدالة من قِبَل شعبٍ ثائرٍ وسط عريضة المتسلّطين والمهيمنين وسكرهم، وهذه عقدةٌ أخرى أيضًا. واليوم يُعاني مستضعفو أفريقيا وأمريكا اللاتينية، وملايين النَّاس الجائعين في آسيا وآسيا القصوى، وملايين من ذوي البشرة الملونة من ظلم التمييز العنصري، وقد تطلّعت عيونهم بأملٍ نحو منجٍ ومنقذ، ولا تسمح القوى الكبرى لهذا النداء المنجي بأن يصل إلى أسماعهم، هذه معضلة. فالفرج يعني فتح هذه المضائق وحلّ هذه المعضلات وفكّ هذه العُقد. فوسّعوا من رؤيتكم، ولا نحدّ أنفسنا في بيوتنا وحياتنا اليومية، فالعالم كلّهُ يطلب الفرج ولكن لا يدري ما هو الطريق.

وأنتم أيّها الشعب الثوريّ المسلم يجب أن تقرّبوا بحركتكم المنظّمة في مواصلة الثّورة الإسلاميّة إلى الفرج العالميّ للبشريّة، وأن تُقرّبوا أنفسكم من ظهور المهديّ الموعود والثّورة الإسلاميّة النهائيّة للبشريّة الّتي ستشمل العالم كلّهُ وتحلّ كلّ هذه العقد خطوة خطوة، وأن تقرّبوا البشريّة بذلك أيضًا، فهذا هو انتظار الفرج. وإنّ لطف الرّب المتعال، ودعاء وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشّريف المستجاب، سيكون دعامتنا في هذا الطّريق، ويجب علينا أن نتعرّف على هذا الإمام أكثر ونكون أكثر ذكرًا له. فلا ينبغي أن ننسى إمام الزّمان. فاحفظوا ذكر وليّ الله الأعظم في قلوبكم، واقروا "اللهمّ إنّنا نرغب إليك في دولةٍ كريمة"^١ من أعماق قلوبكم وبالضراعة الكاملة. فلتكن أرواحكم في انتظار المهديّ

^١ الشيخ الكليني، الكافي، دعاء الافتتاح، ج ٣، ص ٤٢٤.

وكذلك قواكم الجسمانية فلتتحرك في هذا الطريق. وإنَّ كلَّ خطوةٍ تخطونها على طريق تثبيت هذه الثورة الإسلامية ستكون خطوة إضافية نحو ظهور المهديّ.

(١٩٨١/٠٦/١٩)

تقوية العلاقة الروحية بإمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف

لقد تحرك أئمتنا جميعاً في هذا الخطّ، من أجل أن تسيطر الحاكمية الإلهية وحاكمية القانون الإلهي على المجتمعات. لقد بُذلت الكثير من الجهود والجهاد والآلام والمحن والسجون والتفني والاستشهاد المليء بالثمار والعطاء. واليوم أنتم وجدتم هذه الفرصة مثلما أنّ بني إسرائيل وبعد قرونٍ قد وجدوا هذه الفرصة في زمان سليمان النبيّ وداود عليهما السلام.

(١٩٨١/٠٥/٠٨)

إنَّ الطريق الذي سلكتموه يا أبناء شعب إيران العزيز، استمروا عليه وتحركوا وأكملوا هذا الطريق، وهو الطريق الذي لحسن الحظّ نشاهد اليوم الشعوب المسلمة في مختلف أرجاء العالم الإسلاميّ تتحرك نحوه بالتدريج، وشيئاً فشيئاً. يقول الله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^١ فلو أننا جعلنا هذه التقوى منهاج عملنا، فمن المسلم أنّ عاقبة الأمر ستكون من نصيب الأمة الإسلامية وإنَّ هذا المستقبل لن يكون بعيداً، إن شاء الله.

(٢٠١١/٠٢/٢١)

^١ سورة الأعراف، الآية ١٢٨.

أذكر جملةً واحدة في الختام، فيما يتعلّق بضرورة الارتباط العاطفيّ والمعنويّ والروحيّ بإمامنا العظيم وليّ الله المعصوم، بالنسبة لكلّ واحدٍ منّا. القضية لا ينبغي أن تجعلوها محدودة في إطار التحليل الفكريّ والاستنارة الفكرية. فذاك المعصوم، الذي هو صفّي الله، يعيش اليوم بيننا نحن البشر في مكانٍ ما من هذا العالم ونحن لا نعلمه. إنّه موجودٌ، ويدعو، ويقرأ القرآن، ويبيّن المواقف الإلهية، إنّه يركع ويسجد ويعبد ويدعو ويظهر في الجامع ويساعد البشر. فله وجودٌ خارجيٌّ ووجودٌ عينيٌّ، غاية الأمر أننا نحن لا نعرفه. إنّ هذا الإنسان الذي اصطفاه الله، موجودٌ اليوم، ويجب أن نقوّي علاقتنا به من الناحية الشخصيّة والقلبيّة والروحيّة، بالإضافة إلى الجانب الاجتماعيّ والسياسيّ والذي بحمد الله صار نظامنا متوجّهًا نحو ما يريده هذا الإنسان العظيم إن شاء الله. فليجعل كلّ واحدٍ من أبناء مجتمعتنا توسّله بوليّ العصر وارتباطه به، ومناجاته معه، وسلامه عليه، وتوجّهه إليه، تكليفًا وفريضةً وليدعو له كما لدينا في الروايات وهو الدعاء المعروف "اللهم كن لوليك" ^١ الذي يُعدّ من الأدعية الكثيرة الموجودة، ويوجد زياراتٌ في الكتب هي جميعًا بالإضافة إلى وجود البعد الفكريّ والوعي والمعرفة فيها، يوجد فيها أيضًا بعدٌ روحيّ وقلبيّ وعاطفيّ وشعوريّ وهو ما نحتاج إليه أيضًا. إنّ أطفالنا وشبابنا ومجاهدنا في الجبهة يحصلون على الروحية والمعنويّات بالتوجّه والتوسّل بإمام الزمان ويفرحون ويتفاءلون. وبكاء الشوق ودموعه المنهمرة يُقربون قلوبهم إليه،

^١ الشيخ الكليني، الكافي، ج ٤، ص ١٦٢.

وهم بذلك يعطفون نظر الحقّ وعنايته إليهم، مثلما أنّ ذلك يتحقّق مع الإمام ويجب أن يكون موجودًا.

(١٩٨٧/٠٤/١٠)

يا إمام الزّمان! أيّها المهديّ الموعود المحبوب عند هذا الشعب! يا سلالَةَ الأنبياء الأطهار! ويا وارثَ كلّ الثّورات التّوحيدية والعالمية! إنّ شعبنا هذا قد انبعث بذكرك واسمك واختبر لطفك في حياته وفي وجوده. أيّها العبد الصالح لله! إنّنا اليوم بحاجة إلى دعائك الذي ينبعث من قلبك الإلهيّ والربّانيّ الطّاهر ومن روحك القدسيّة من أجل انتصار هذا الشعب وهذه الثّورة، ونحتاج إلى يد القدرة الإلهية التي جعلت فيك لتساعد هذا الشعب وطريقه. "عزيزٌ عليّ أن أرى الخلق ولا تُرى"^١، يا إمام الزّمان إنّّه لصعبٌ جدًّا علينا أن نرى أعداء الله في هذا العالم وفي هذه الطّبيعة المتزامية التي هي لعباد الله الصّالحين، وتلمّس آثار وجود أعداء الله ولكن لا نراك أنت ولا نُدرك فيض حضورك.

اللهم! بمحمّد وآل محمد نقسم عليك أن تطرّي قلوبنا بذكر إمام الزّمان دائماً.

اللهم! نور أعيننا بجمال وليّ العصر.

اللهم! اجعل هؤلاء الذين يجاهدون في سبيلك جنود إمام الزمان والمضحيين بين يديه.

(١٩٨٠/٠٦/٢٧)

^١ العلامة المجلسي، بحار الأنوار، من دعاء النذبة، ج ٩٩، ص ١٠٨.

اللهم! بمحمد وآل محمد، ارضِ القلب المقدّس لوليك المعصوم عنا. واجعلنا من المتوجّهين والمتوسّلين به.

اللهم! بحرمة محمد وآل محمد عجل فرجه وعجل قيام تلك الحكومة الإلهية.

اللهم! بمحمد وآل محمد، اجعلنا من أتباعه وشيعته في جميع أحوالنا وأمورنا.

(١٩٨٧/٠٤/١٠)

كان هذا مرورًا سريعًا على أحد الفصول الأساس في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام السياسية، طيلة ٢٥٠ سنة على أمل أن يقوم المحقّقون والمفكّرون والباحثون في تاريخ القرون الأولى للإسلام بالمزيد من التنقيح والتفصيل والتحقيق.

(٢٠٠٤/٠٨/٠٨)